فايز بن سياف السريع

التناسب بين الآيات



الجزء الثالث

من سورة هود
إلى سورة طه

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح

التناسب بين الآيات: الجزء الثالث. /

فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ

٦٤٨ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٦-٠٧-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير	أ- العنوان

ديوي ٢٢٧	١٤٤٣/٩٨٨٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٨٠

ردمك: ٦-٠٧-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فايز بن سياف السريح

التناسب بين الآيات

الجزء الثالث

من سورة هود إلى سورة طه

تقديم

جماعة من أهل التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ هُودٍ

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾

«أنْ» تفسيريَّةٌ لِما في معنىٰ ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ مِن الدلالةِ علىٰ أقوالٍ مُحكَمة ومفصَّلة، فكأنَّه قيل: أُوحيَ إليك في هذا الكتابِ أن لا تعبُدوا إلا اللهَ؛ فهذه الجملةُ تفسيريَّةٌ لِما أُحكِمَ مِن الآيات؛ لأنَّ النَّهيَ عن عبادةِ غيرِ الله وإيجابَ عبادةِ الله هو أصلُ الدِّين، وإليه مَرجِعُ جميعِ الصفات التي ثبَتَتْ لله تعالىٰ بالدليل، وهو الذي يَتفرَّع عنه جميعُ التفاصيل[1].

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ٣﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّه نذيرٌ وبشيرٌ، أتبَع ذلك بما يشمل الأمرينِ بقولِه عطفًا علىٰ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ مُشيرًا إلىٰ أنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يقدُرَ اللهَ حقَّ قدرِه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهو تفسيرٌ ثانٍ يَرجِعُ إلىٰ ما في الجملةِ الأُولىٰ مِن لفظِ التَّفصيل، فهذا ابتداءُ التَّفصيل؛ لأنَّه بيانٌ وإرشادٌ لوسائلِ نَبْذِ عبادةِ

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٥).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٢٧).

ما عدَا اللهَ تعالىٰ، ودلائلُ علىٰ ذلك وأمثالٌ ونُذُرٌ؛ فالمقصودُ: تقسيمُ التفسير، وهو وجهُ إعادةِ حرفِ التفسير في هذه الجملةِ، وعدمِ الاكتفاء بالذي في الجملةِ المعطوف عليها[1].

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا خُوِّف المُنذَرون باليومِ الكبير، كانوا كأنَّهم قالوا: ما هذا اليومُ؟ فكان الجواب: يومَ يُرجَعون إليه، ولمَّا كانوا ربما حمَلوا الرجوعَ علىٰ مجرَّدِ الموت والصَّيرورة ترابًا، نبَّههم علىٰ أنَّه بغيرِ المعنىٰ الذي يَتوهَّمونه؛ بل بمعنىٰ إعادتِهم كما كانوا، فقال: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

جملةٌ في موضعِ التَّعليل للخوف عليهم؛ فلذلك فُصِلتْ؛ والمعنىٰ: أنَّكم صائرون إلىٰ الله، فهو مُجازيكم علىٰ تَولِّيكم عن أمره[3].

ثم بيَّن أنَّه لا بد مِن الرجوعِ إلىٰ الله تعالىٰ بقولِه: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم مِن التَّخويفِ والإطماع ما هو مَظِنَّةٌ لإقبالهم، ورهَّبهم علىٰ التولِّي بخصوصه، فكان موضعَ أن يقالَ: هل أقبَلوا؟ فقيل: لا؛ قال مبيِّنًا أنَّ التولِّيَ باطنًا كالتولِّي ظاهرًا؛ لأنَّ الباطنَ هو العمدة، مؤكِّدًا لأنَّه أمرٌ لا يكاد أن يُصدَّق، والتأكيدُ

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٧).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٣٤).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٩).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٧).

أقعدُ في تبكيتِهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(١).

حُوِّل أسلوبُ الكلام عن مخاطَبةِ النبيِّ ﷺ بما أُمِر بتبليغه إلىٰ إعلامِه بحالٍ مِن أحوالِ الذين أُمِر بالتَّبليغ إليهم في جهلِهم بإحاطةِ علمِ الله تعالىٰ بكلِّ حالٍ مِن الكائنات؛ مِن الذواتِ والأعمال، ظاهرِها وخفيِّها، فقدَّم لذلك إبطالَ وَهمٍ مِن أوهامِ أهل الشرك أنَّهم في مُكْنةٍ مِن إخفاءِ بعضِ أحوالهم عن الله تعالىٰ، وقد نشأ هذا الكلامُ عن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لمناسبةِ أنَّ المرجوعَ إليه لمَّا كان موصوفًا بتمامِ القدرة علىٰ كلِّ شيءٍ هو أيضًا موصوفٌ بإحاطةِ علمِه بكلِّ شيء؛ للتلازُمِ بَيْنَ تمامِ القدرة وتمامِ العلم(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يعني عن عبادتِه وطاعته، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ﴾؛ بيَّن بعده أنَّ التولِّيَ عن ذلك باطنًا كالتولِّي عنه ظاهرًا، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٣).

ثم أخبَر اللهُ سبحانه بأنَّ هذا الإنذارَ والتَّحذير والتَّوعُّد لم يَنجَعْ فيهم، ولا لانَتْ له قلوبُهم؛ بل هم مُصِرُّون علىٰ العناد، مصمِّمون علىٰ الكفر، فقال مصدِّرًا لهذا الإخبارِ بكلمة التَّنبيه الدالةِ علىٰ التَّعجُّب مِن حالهم، وأنَّه أمرٌ ينبغي أن يَتنبَّهَ له العقلاءُ ويَفهَموه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣٢٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٧).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٤٦).

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾

ثم أتبَع ذلك بما يدلُّ على شمولِ العلم والقدرة معًا، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[(١)].

عطفٌ على جملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ والتَّقدير: وما مِن دابَّةٍ إلا يَعلَم مستقَرَّها ومستودَعَها؛ وإنَّما نُظِم الكلامُ على هذا الأسلوبِ تفنُّنًا لإفادةِ التنصيص على العمومِ بالنفي المؤكَّد بـ«من»، ولإدماجِ تعميم رزقِ الله كلَّ دابَّةٍ في الأرض في أثناءِ إفادة عمومِ علمِه بأحوال كلِّ دابَّة؛ فلأجلِ ذلك أُخِّر الفعلُ المعطوف؛ لأنَّ في التذكيرِ بأنَّ اللهَ رازقُ الدوابِّ التي لا حِيلةَ لها في الاكتسابِ استدلالًا على أنَّه عليمٌ بأحوالها؛ فإنَّ كونَه رازقًا للدوابِّ قضيةٌ مِن الأصولِ الموضوعة المقبولة عند عمومِ البشر؛ فمِن أجلِ ذلك، جُعِل رزقُ الله إيَّاها دليلًا على علمِه بما تحتاجه[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولى أنَّه ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، أردَفه بما يدلُّ على كونِه تعالى عالِمًا بجميعِ المعلومات، فثبَتَ أنَّ رزقَ كلِّ حيوانٍ إنَّما يصلُ إليه مِن الله تعالى، فلو لم يكُنْ عالِمًا بجميع المعلومات، لَمَا حصَلتْ هذه المهمَّات[(٣)].

لمَّا أخبَر تعالى في الآيةِ السابقة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ذكَر في هذه مظاهرَ علمِه وقُدْرتِه؛ تقريرًا لِما تضمَّنتْهُ الآيةُ السابقة[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٥٢٣).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان خَلْقُ ما منه الرزقُ أعظمَ مِن خَلْقِ الرزق وتوزيعِه في شمولِ العلم والقدرة معًا، تلاه بقولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[١].

عطفٌ على جملة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ والمناسبة أنَّ خَلْقَ السماوات والأرضِ مِن أكبَرِ مظاهرِ علمِ الله، وتعلُّقاتِ قُدْرتِه، وإتقانِ الصُّنع؛ فالمقصودُ مِن هذا الخبَرِ لازِمُه؛ وهو الاعتبارُ بسَعةِ علمِه وقُدْرته[٢].

لمَّا ذكَر تعالى ما يدلُّ على كونِه تعالى عالِمًا، ذكَر ما يدلُّ على كونه قادرًا[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا أثبَتَ بالدليل المتقدِّم كونَه عالِمًا بالمعلومات، أثبَتَ بهذا الدليلِ كونَه تعالى قادرًا على كلِّ المقدورات، وفي الحقيقةِ فكلُّ واحدٍ مِن هذين الدليلينِ يدلُّ على كمالِ علمِ الله، وعلى كمالِ قُدْرته[٤].

ثم بيَّن تعالى عظيمَ قُدْرتِه وتكوينِه وإبداعِه بقولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١٢٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٩).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٧٤).

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ما تقدَّم عنهم مِن الأفعال ومضىٰ مِن الأقوال مَظِنَّةً لمعاجَلتِهم بالأخذ، وكان الواقعُ أنَّه تعالىٰ يعامِلُهم بالإمهال فضلًا منه وكرمًا؛ حكىٰ مقالتَهم في مقابَلةِ رحمتِه لهم، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

مناسَبتُه لِما قبله: أنَّ في كليهما وَصْفَ فنٍّ مِن أفانينِ عناد المشركين، وتهكُّمِهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبَّرهم الرسولُ ﷺ بالبعث وأنَّ شِرْكَهم سببٌ لتعذيبِهم جعلوا كلامَه سِحْرًا، وإذا أنذَرهم بعقوبةِ العذاب علىٰ الإشراك استعجَلوه، فإذا تأخَّر عنهم إلىٰ أجلٍ اقتضته الحِكْمةُ الربَّانية استفهَموا عن سببِ حَبْسِه عنهم استفهامَ تهكُّمٍ؛ ظنًّا أنَّ تأخُّرَه عَجْزٌ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم يكذِّبون الرسولَ ﷺ بقولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، فحكىٰ عنهم في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ مِن أباطيلهم؛ وهو أنَّه متىٰ تأخَّر عنهم العذابُ الذي توعَّدهم الرسولُ ﷺ به، أخَذوا في الاستهزاء، ويقولون: ما السَّبب الذي حبَسه عنا؟![3].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٢١).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ⑨﴾

ولمَّا كان قولُهم ذلك ناشئًا عن طبعِ الإنسان علىٰ الوقوفِ مع الحالةِ الراهنة، والعَمَىٰ عن الاستضاءةِ بنُورِ العقل فيما يُزيلها في العاقبة؛ بيَّن ذلك ليعلمَ أنَّ طَبْعَه مُنافٍ لِما تضمَّنه مقصودُ السُّورة مِن الإحكامِ الذي هو ثمرةُ العلم، وبعِلْمِ ذلك يُعلَم مقدارُ نِعْمتِه علىٰ مَن حَفِظَه علىٰ ما فطَره عليه مِن أحسَنِ تقويمٍ بقولِه مؤكِّدًا لأنَّ كلَّ أحدٍ يُنكِر أن يكونَ طبعُه كذلك: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾(1).

لمَّا ذكَر أنَّ ما هم فيه متاعٌ إلىٰ أجلٍ معلومٍ عند الله، وأنَّهم بَطِروا نِعْمةَ التَّمتيع، فسَخِروا بتأخيرِ العذاب؛ بيَّنتْ هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالة راسخون في ذلك؛ لأنَّهم لا يفكِّرون في غيرِ اللَّذات الدُّنيوية، فتَجري انفعالاتُهم علىٰ حسَبِ ذلك دُونَ رجاءٍ لتغيُّر الحال، ولا يَتفكَّرون في أسبابِ النعيم والبؤس، وتصرُّفاتِ خالقِ الناس ومقدِّرِ أحوالهم، ولا يَتَّعظون بتقلُّباتِ أحوال الأُمَم؛ فشأنُ أهلِ الضَّلالة أنَّهم إن حلَّتْ بهم الضراءُ بعد النِّعْمة ملَكهم اليأسُ مِن الخير، ونَسُوا النِّعْمةَ فجحَدوها وكفَروا مُنعِمَها؛ فإنَّ تأخيرَ العذاب رحمةٌ، وإتيانَ العذاب نزعٌ لتلك الرحمةِ، وهذه الجملة في قوَّةِ التَّذييل(2).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ عذابَ الكفار وإن تأخَّر لا بد أن يَحِيقَ بهم، ذكَر ما يدلُّ علىٰ كفرِهم وكونهم مستحِقِّين العذابَ؛ لِما جُبِلوا عليه مِن كفرِ نَعْماءِ الله، وما يترتَّب علىٰ إحسانِه تعالىٰ إليهم ممَّا لا يَلِيقُ بهم مِن فخرِهم علىٰ عبادِ الله[1].

ثم أخبَر سبحانه عن الإنسان، وما فيه مِن الصفاتِ الذميمة، إلا مَن رَحِم اللهُ مِن عباده المؤمنين، بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾[2].

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾

هذه الجملة تتميمٌ للتي قبلها؛ لأنَّها حكَتْ حالةً ضدَّ الحالةِ في التي قبلها، وهي جملةُ قَسَمٍ، وشرطٍ، وجوابِ قَسَمٍ[3].

لمَّا ذكَر حالةَ الإنسان إذ بُدِئ بالنِّعْمة ولم يَسبِقْهُ الضرُّ، ذكَر حالَه إذا جاءته النِّعْمةُ بعد الضرِّ[4].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾

احتراسٌ باستثناءٍ مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: المؤمنون بالله؛ لأنَّ الصبرَ مِن مقارِنات الإيمان، فكُنِّي بـ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عن المؤمنين؛ فإنَّ الإيمانَ يروِّضُ صاحبَه علىٰ مفارَقة الهوىٰ، ونَبْذِ مُعتادِ الضَّلالة[5].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ١٢٧).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣).

(٤) البحر المحيط (٦/ ١٢٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥).

ثم استثنىٰ منهم الذين رَدَّتهم الشرائعُ والإيمان إلىٰ الصبرِ والعمل الصالح؛ ولذلك جاء الاستثناءُ منه في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ متصِلًا[(١)].

أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ الكافرَ عند البلاء لا يكون مِن الصابرين، وعند الفوز بالنَّعماء لا يكون مِن الشاكرين، ثم لمَّا قرَّر ذلك، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ والمرادُ منه ضدُّ ما تقدَّم؛ فقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ المرادُ منه أن يكونَ عند البلاء مِن الصابرين، وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرادُ منه أن يكونَ عند الراحةِ والخير مِن الشاكرين[(٢)].

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ ﴾

ولمَّا استثنىٰ سبحانه مِن الجارينَ مع الطبعِ الطائشين في الهوىٰ مَن تَحلَّىٰ برزانةِ الصبرِ الناشئ عن وقارِ العلم المثمِر لصالح العمل، وكان ﷺ رأسَ الصابرين، وكان ما مضىٰ مِن أقوالهم وأفعالهم -مثل قولهم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾، وثنيهم صدورَهم- أسبابًا لضِيقِ صدرِه ﷺ، فربما كانت مَظِنَّةً لرجائِهم تَرْكَه ﷺ بعضَ ما يُوحَىٰ إليه مِن عيبِ آلهتهم، وتضليلِ آبائهم، وتسفيهِ أحلامهم، وغيرِ ذلك ممَّا يشُقُّ عليهم؛ طمعًا في إقبالهم، أو خوفًا مِن إدبارهم؛ فإنَّهم كانوا يقولون: «ما نراه يذكُرُ مَن خالَف دِينَه مِن اليهود والنصارىٰ بمثلِ الذي يذكُرُنا به مِن الشرِّ»[(٣)]؛ قال تعالىٰ مسبِّبًا عن ذلك ناهيًا في صيغةِ الخبرِ: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ١٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٢٣).

(٣) عزاه في الدر المنثور (٦/ ٦٦) لابن أبي حاتم، عن ابن شهاب مرسلًا.

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٤٥).

تفريعٌ على قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑧﴾ مِن ذِكْرِ تكذيبِهم وعنادهم، ويشير هذا التَّفريعُ إلى أنَّ مضمونَ الكلامِ المفرَّعِ عليه سببٌ لتوجيهِ هذا التَّوقُّعِ؛ لأنَّ مِن شأن المفرَّعِ عليه اليأسَ مِن ارعوائهم لتكرُّر التَّكذيبِ والاستهزاء يأسًا قد يَبعَث على تركِ دعائهم؛ فذلك كلُّه أُفيدَ بفاءِ التفريع[1].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن كلماتِ الكفار، واللهُ تعالى بيَّن أنَّ قلبَ الرسولِ ﷺ ضاقَ بسببه، ثم إنَّه تعالى قوَّاه وأيَّده بالإكرام والتأييد[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ⑬﴾

ولمَّا كان ذوو الهِمَم العَوَال، لا يُصوِّبون إلى الكنوزِ والأموال، وكان الملك إنَّما يرادُ لتطييبِ النفس بتثبيتِ الأمر، وكان فيما يَشهَد به إعجازُ القرآن -ببديعِ نَظْمِه، وباهرِ حِكَمِه وحُكْمِه، وزاجرِ غرائبِه ووافرِ عِلْمِه- ما يُغني عن ذلك، وكان في كلِّ آيةٍ منه ما يبيِّنُ للفهمِ سَفْسافَ قدحِهم في الرسالة؛ كان موضع الإنكار له، فكان كأنَّه قيل: يقولون ذلك تعنُّتًا منهم، واقتراحًا وإعراضًا عن مُعجِزِ القرآن، فأعرض عنه؛ فإنَّه لا يضُرُّ في وجهِ الدَّليل، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

﴿أَمْ﴾ هذه منقطِعةٌ بمعنى «بل» التي للإضرابِ للانتقال مِن غرضٍ إلى آخر، إلا أنَّ ﴿أَمْ﴾ مختصةٌ بالاستفهام، فتُقدَّر بعدها همزةُ الاستفهام؛ والتَّقدير: بل أيقولون:

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٢٣).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٤٧).

افتراه؟ والإضرابُ الانتقالي في قوَّةِ الاستئنافِ الابتدائي؛ فللجملة حُكْمُ الاستئناف، والمناسبةُ ظاهرة؛ لأنَّ الكلامَ في إبطالِ مزاعمِ المشركين؛ فإنَّهم قالوا: هذا كلامٌ مفترًىٰ، وقرَّعهم بالحُجَّة[1].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّها لا تَتعلَّق أطماعُهم بأن يترُكَ بعضَ ما يُوحَىٰ إليه إلا لدَعْواهم أنَّه ليس مِن عندِ الله، وأنَّه هو الذي افتراه، وإنَّما تحدَّاهم أولًا بعَشْرِ سُوَرٍ مفترَياتٍ قبل تَحدِّيهم بسُورةٍ؛ إذ كانت هذه السُّورةُ مكِّيةً، و«البقرةُ» مدنيَّة، وسورةُ «يونُسَ» أيضًا مكِّية، ومقتضىٰ التحدي بعَشْرٍ أن يكونَ قبل طلبِ المعارَضة بسورةٍ، فلمَّا نسَبوه إلىٰ الافتراء، طلَب منهم أن يأتوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثلِه مفترَياتٍ؛ إرخاءً لعِنانِهم[2].

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا طلبوا منه المُعجِزَ، قال: مُعجِزي هذا القرآنُ، ولمَّا حصَل المُعجِزُ الواحد، كان طلبُ الزيادة بغيًا وجهلًا، ثم قرَّر كونَه مُعجِزًا بأنْ تحدَّاهم بالمعارَضة[3].

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٤﴾

ولمَّا كان أدنىٰ درجاتِ الافتراء إتيانَ الإنسان بكلامِ غيرِه مِن غيرِ علمه، وكان عَجْزُهم عن المعارَضة دليلًا قاطعًا علىٰ أنَّهم لم يَصِلوا إلىٰ شيءٍ مِن كلامِه تعالىٰ بغيرِ علمه، ولا وجَدوا مكافئًا له يأتيهم بمثلِه؛ ثبَت قطعًا أنَّ هذا القرآنَ غيرُ مفترًىٰ، فقال تعالىٰ مخاطِبًا للجميع -إشارةً إلىٰ وضوحِ الأمر، لا سيما في الافتراءِ عند كلِّ

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩).
(٢) البحر المحيط (٦/ ١٣٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٢٤).

أحد، وأنَّ المشركين قد وصَلوا مِن ذلِّ التبكيت بالتحدي مرَّةً بعد مرة إلىٰ حدٍّ مِن العَجْزِ لا يَقدِرون معه علىٰ النُّطقِ في ذلك ببِنْتِ شَفَةٍ-: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

تفريعٌ علىٰ ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ أي: فإن لم يستجِبْ لكم مَن تدعو لهم، فأنتم أعجَزُ منهم؛ لأنَّكم ما تَدْعونهم إلا حين تشعُرون بعَجْزِكم دُونَ مُعاونٍ؛ فلا جرَمَ يكون عَجْزُ هؤلاء مُوقِعًا في يأسِ الداعين مِن الإتيان بعَشْرِ سُوَرٍ(٢).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا كان في هذا مِن الحثِّ علىٰ الثَّباتِ علىٰ الإسلام والدخولِ فيه والوعيدِ علىٰ التَّقاعس عنه ما مِن حقِّ السامع أن يبادِرَ إليه، وكان حقُّ المسلم الإعراضَ عن الدُّنيا لسُوءِ عاقبتها، وكان أعظَمَ الموانعِ للمشركين مِن التَّصديق استيلاءُ أحوالِ الدُّنيا عليهم؛ ولذلك تعنَّتوا بالكنزِ؛ أشار إلىٰ عواقبِ ذلك بقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾(٣).

استئنافٌ اعتراضيٌّ بَيْنَ الجملتينِ، ناشئٌ عن جملة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ تفرَّعتْ علىٰ نهوضِ الحُجَّة، فإن كانوا طالبين الحقَّ والفوزَ، فقد استتبَّ لهم ما يقتضي تمكُّنَ الإسلامِ مِن نفوسهم، وإن كانوا إنَّما يطلبون الكِبْرياءَ والسيادة في الدُّنيا، ويأنَفون مِن أن يكونوا تبعًا لغيرهم؛ فهم مريدون الدُّنيا؛ فلذلك

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٥١).

حُذِّروا مِن أن يَغترُّوا بالمتاعِ العاجل، وأُعلِموا بأنَّ وراء ذلك العذابَ الدائم، وأنَّهم علىٰ الباطل(١).

لمَّا ذكَر شيئًا مِن أحوالِ الكفار المناقِضين في القرآن، ذكَر شيئًا مِن أحوالهم الدُّنيوية، وما يؤُولُون إليه في الآخرة(٢).

اعلَمْ أنَّ الكفارَ كانوا ينازِعون محمَّدًا ﷺ في أكثَرِ الأحوال، فكانوا يُظهِرون مِن أنفسهم أنَّ محمَّدًا مُبطِلٌ ونحن مُحِقُّون؛ وإنَّما نبالِغُ في منازَعتِه لتحقيقِ الحق، وإبطالِ الباطل، وكانوا كاذبين فيه؛ بل كان غرضُهم مَحْضَ الحسدِ، والاستنكاف مِن المتابعة؛ فأنزَل اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ لتقريرِ هذا المعنىٰ(٣).

ثم بيَّن تعالىٰ وعيدَ مَن آثَر الحياةَ الدُّنيا علىٰ الآخرة -وهم الكفارُ- بقولِه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾(٤).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن حالَهم في الدُّنيا، بيَّن حالَهم في الأخرىٰ، مشيرًا بأداةِ البُعْدِ إلىٰ أنَّهم أهلُ البُعْدِ واللَّعنة والطَّرد في قوله نتيجةً لِما قبله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٣٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٢٧).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٨١).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٢٥١).

جملةُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ مستأنفةٌ، ولكنَّ اسمَ الإشارة يَربِطُ بَيْنَ الجملتين، وأُتي باسمِ الإشارة لتمييزِهم بتلك الصفاتِ المذكورة قبل اسم الإشارة(١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ فإنَّه إشارةٌ إلىٰ المذكورينَ باعتبارِ إرادتِهم الحياةَ الدُّنيا، أو باعتبارِ توفيتِهم أجورَهم مِن غيرِ بخسٍ، أو باعتبارِهما معًا، وما فيه مِن معنَىٰ البُعْدِ للإيذان ببُعْدِ منزلتهم في سُوءِ الحال(٢).

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧ ﴾

ولمَّا اتَّضحتِ الحُجَج، وانتهَضتِ الدَّلائل، فأغرقتهم عوالي اللُّجَج؛ كان ذلك موضعَ الإنكار علىٰ مَن يُسوِّي بَيْنَ المهتدي والمعتدي، فكيف بمَن يُفضِّل: إمَّا باعتبارِ النظَرِ إلىٰ الرئاسةِ الدُّنيوية غفلةً مِن حقائقِ الأمور، أو عنادًا كمَن قال مِن اليهود للمشركين: أنتم أهدىٰ منهم؟ فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ ﴾(٣).

الفاءُ للتَّفريع علىٰ جملة ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، وأنَّ ما بينهما اعتراضٌ لتقريرِ توغُّلهم في المكابَرة، وابتعادِهم عن الإيمان، وهذا التَّفريع تفريعُ الضدِّ علىٰ ضدِّه في إثباتِ ضدِّ حُكْمِه له؛ أي: إن كان حالُ أولئك المكذِّبين كما وُصِف، فثَمَّ قومٌ هم بعكسِ حالهم قد نفعتْهم البيِّناتُ والشواهد، فهم

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٣).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٥٢).

يؤمنون بالقرآن، وهم المسلمون، وذلك مقتضى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: كما أسلَمَ مَن كانوا على بيِّنةٍ مِن ربِّهم منكم ومِن أهل الكتاب؟![١].

لمَّا ذكَر حالَ مَن يريد الحياةَ الدُّنيا، ذكَر حالَ مَن يريد وجهَ اللهِ تعالى بأعماله الصالحة[٢].

ثم أشار تعالى إلى صفةِ المؤمنين في مقابَلةِ أولئك بقولِه سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان الكافرون قد كذَبوا على الله بما أحدَثوه مِن الدِّين مِن غيرِ دليلٍ، وما نسَبوا إليه النبيَّ ﷺ مِن الافتراء؛ أتبَع ذلك سبحانه قولَه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

لمَّا انقضى الكلامُ مِن إبطالِ زعمِهم أنَّ النبيَّ ﷺ افترى القرآنَ ونسَبه إلى الله، وتعجيزِهم عن برهانٍ لِما زعموه؛ كرَّ عليهم أنْ قد وضَّح أنَّهم المفترُون على اللهِ عِدَّةَ أكاذيبَ؛ منها: نفيُهم أن يكونَ القرآنُ منزَّلًا مِن عندِه[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٣٤).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٨٢).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٥٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٢).

لمَّا سبَق قولُهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، ذكَر أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترىٰ علىٰ الله كذبًا؛ وهم المفترُون الذين نسَبوا إلىٰ اللهِ الولدَ، واتخَذوا معه آلهةً، وحرَّموا وحلَّلوا مِن غيرِ شرعِ الله(١).

اعلَمْ أنَّ الكفارَ كانت لهم عاداتٌ كثيرةٌ، وطرقٌ مختلفةٌ؛ فمنها: شِدَّةُ حرصِهم علىٰ الدُّنيا، ورغبتهم في تحصيلها، وقد أبطَل اللهُ هذه الطريقةَ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾، ومنها: أنَّهم كانوا يُنكِرون نبوَّةَ الرسولِ ﷺ، ويَقدَحون في مُعجِزاته، وقد أبطَل اللهُ تعالىٰ ذلك بقولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ومنها: أنَّهم كانوا يزعُمون في الأصنامِ أنَّها شفعاؤهم عند الله، وقد أبطَل اللهُ تعالىٰ ذلك بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ هذا الكلامَ افتراءٌ علىٰ الله تعالىٰ، فلمَّا بيَّن وعيدَ المفترِينَ علىٰ الله، فقد دخَل فيه هذا الكلامُ(٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

ثم فصَّل ظُلْمَهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾(٣).

ثم ذكَر مِن صفاتهم أنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾؛ يعني: أنَّهم كما ظلَموا أنفسَهم بالتزامِ الكفر والضَّلال، فقد أضافوا إليه المنعَ مِن الدِّين الحق، وإلقاءَ الشُّبهات، وتعويجَ الدَّلائل المستقيمة(٤).

---

(١) البحر المحيط (٦/ ١٣٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣١).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٥٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾

ولمَّا هدَّدهم بأمورِ الآخرة، أشار إلىٰ بيانِ قُدْرته علىٰ ذلك في الدارينِ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن الاقتصارِ في تهديدهم علىٰ وصفِ بعضِ عقابهم في الآخرة؛ فإنَّ ذلك يُثِيرُ في نفس السَّامع أن يَسأَلَ: هل هم سالمون مِن عذاب الدُّنيا؟ فأُجيبَ بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين في الدُّنيا؛ أي: لا يخرُجون عن مقدرةِ الله علىٰ تعذيبهم في الدُّنيا إذا اقتَضَتْ حِكْمتُه تعجيلَ عذابهم(٢).

ثم وصَفهم كونَهم عاجزين عن الفرارِ مِن عذابِ الله بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾

ولمَّا ثبَت أنَّهم لا سَمْعَ ولا بصَرَ، ثبَت أنَّهم لا شيءَ، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾(٣).

استئنافٌ، واسمُ الإشارة هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسمِ الإشارة في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٤).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٨).

ثم بيَّن أنَّ مِن صفاتِهم أنَّهم اشتَرَوْا عبادةَ الآلهةِ بعبادة الله تعالىٰ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾

جملةُ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ مستأنفةٌ، فذْلكةٌ ونتيجةٌ للجُمَلِ المتقدِّمة مِن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ ما جُمِع لهم مِن الزَّجِّ للعقوبة ومِن افتضاح أمرهم، ومِن إعراضِهم عن استماع النُّذُر، وعن النظرِ في دلائلِ الوَحْدانيَّة: يوجِبُ اليقينَ بأنَّهم الأخسَرون في الآخرة[1].

لمَّا أعطىٰ الشريفَ الرفيع، ورَضِي بالخسيسِ الوضيع؛ فقد خَسِر في التجارةِ، ثم لمَّا كان هذا الخسيسُ بحيث لا يبقَىٰ، بل لا بد وأن يَهلِكَ ويَفنَىٰ؛ انقلَبتْ تلك التجارةُ إلىٰ النهايةِ في صفةِ الخسارة؛ فلهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾

ولمَّا توعَّد الكافرين وأخبَر عن مآلِهم بسببه، كان موضعَ أن يُسأَلَ عن حالِ المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٤).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٦٣).

لمَّا ذكَر أحوالَ البالغين أقصىٰ غاياتِ الخَسارة، ذكَر مقابِلَهم الذين بلَغوا أعلىٰ درجاتِ السعادة؛ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النفوسَ تشرئبُّ عند سماعِ حُكْمِ الشيء إلىٰ معرفةِ حُكْمِ ضده[(١)].

لمَّا ذكَر ما يؤُولُ إليه الكفارُ مِن النار، ذكَر ما يؤول إليه المؤمنون مِن الجَنَّة[(٢)].

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤ ﴾

ولمَّا استوفىٰ أوصافَ الحزبينِ وجزاءهم، ضرَب للكلِّ مثلًا بقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٣)].

بعد أن تبيَّن الاختلافُ بَيْنَ حالِ المشركين المفترين علىٰ الله كذبًا، وبَيْنَ حالِ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحات في منازلِ الآخرة؛ أُعقِبَ ببيانِ التنظير بَيْنَ حالَي الفريقينِ المشركينَ والمؤمنين بطريقةِ تمثيلِ ما تستحِقُّه مِن ذمٍّ ومدحٍ؛ فالجملة فَذْلكةٌ للكلام، وتحصيلٌ له، وللتَّحذير مِن مُواقَعةِ سببه[(٤)].

ولمَّا كان تقدَّم ذِكْرُ الكفار وأُعقِبَ بذِكْرِ المؤمنين، جاء التَّمثيلُ هنا مبتدَأً بالكافر، فقال: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾[(٥)].

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ ﴾

ولمَّا تمَّ ذلك علىٰ أوضَحِ المسالك، وخُتِم بالحثِّ علىٰ التَّذكر، وكان تقديمُ ذِكْرِ كتابِ موسىٰ محرِّكًا لتوقُّعِ ذِكْرِ نبئِه ونبأِ غيره مِن الرُّسل؛ عُطِف

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٣٨).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٤٠).

(٥) البحر المحيط (٦/ ١٣٨).

-مقرونًا بحرفِ التوقُّع- على العاملِ الذي قدَّرته في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أو على قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾؛ وهو أحسَنُ وأقرب[(١)].

انتقالٌ مِن إنذارِ المشركين ووصفِ أحوالهم وما ناسَب ذلك إلى موعظتِهم بما أصاب المكذِّبين قَبْلَهم مِن المصائب، وفي ذلك تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بما لاقاه الرُّسلُ عليهم السلام قبله مِن أقوامهم[(٢)].

لمَّا أورَد سبحانه على الكفارِ المعاصِرين لمحمَّدٍ ﷺ أنواعَ الدَّلائل التي هي أوضَحُ مِن الشمس، أكَّد ذلك بذِكْرِ القصصِ على طريقة التفنُّنِ في الكلام، ونقلِه مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ لتكونَ الموعظةُ أظهَرَ، والحُجَّةُ أبيَنَ، والقَبولُ أتمَّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[(٣)].

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

جملةُ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفسِّرةٌ لجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ الإرسالَ فيه معنى القول دُونَ حروفه[(٤)].

ثم بيَّن تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ إنَّما حصَل في النهي عن عبادةِ غيرِ الله، وفي الأمرِ بعبادة الله؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناءٌ مِن النَّفي، وهو يوجِبُ نَفْيَ غيرِ المستثنى[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٤٣).
(٣) فتح القدير (٢/ ٥٥٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٤٤).
(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٦).

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم ساقَ سبحانه جوابَ قومِه علىٰ وجهٍ هو في غايةِ التَّسلية والمناسبة للسِّياق بقولِه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾(١).

عطَف قولَ الملأ مِن قومه بالفاءِ علىٰ فعلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للإشارة إلىٰ أنَّهم بادَروه بالتَّكذيب والمجادَلة الباطلة لمَّا قال لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إلىٰ آخرِه(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن نوحٍ عليه السلام أنَّه دعا قومَه إلىٰ عبادةِ الله تعالىٰ، حكىٰ عنهم أنَّهم طعَنوا في نبوَّتِه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الشُّبهات(٣).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان ختامُ جوابِهم أشَدَّه، بدأ في جوابه بردِّه مبيِّنًا لضلالاتِهم، مُغضِيًا عن شناعاتِهم شفقةً عليهم ومحبَّةً لنجاتِهم، فقال تعالىٰ حكايةً عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾(٤).

لمَّا حكىٰ شُبَهَهم في إنكارِ نبوَّةِ نوحٍ عليه السلام؛ وهي قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ ذكَر أنَّ المساواةَ في البشرية لا تَمنَع مِن حصولِ المفارَقة في صفةِ النُّبوَّة والرسالة، ثم

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٦).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٧٢).

ذكَر الطريق الدالَّ علىٰ إمكانِه علىٰ جهة التَّعليق والإمكان، وهو متيقِّنٌ أنَّه علىٰ بيِّنةٍ مِن معرفة الله وتوحيده، وما يجب له وما يمتنِعُ، ولكنَّه أبرَزه علىٰ سبيلِ العرضِ لهم والاستدراجِ للإقرار بالحقِّ، وقيامِ الحُجَّة علىٰ الخَصم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ شُبهاتِ منكِري نبوَّةِ نوحٍ عليه السلام، حكىٰ بعده ما يكون جوابًا عن تلك الشُّبهات(٢).

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾

ولمَّا كان نفيُ ذلك عامًّا للفضلِ الدُّنيويِّ، وكان الاتصافُ بقلَّةِ ما في اليد إنَّما يكون ضارًّا إذا كان صاحبُه يَسأل غيرَه؛ نفىٰ عنه هذا اللازمَ العائب، فقال مجيبًا عن نفيِهم الفضلَ عنه وعن أتباعِه بأنَّه قد يريدُ منهم علىٰ ذلك ثوابًا دنيويًّا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾(٣).

لمَّا أظهَرَ لهم نوحُ عليه السلام أنَّه لا يُجبِرهم علىٰ إيمانٍ يَكرَهونه، انتقَل إلىٰ تقريبِهم مِن النَّظر في نزاهةِ ما جاءهم به، وأنَّه لا يريد نفعًا دنيويًّا؛ بأنَّه لا يَسألهم علىٰ ما جاء به ما لا يُعطُونه إيَّاه، فماذا يتَّهِمونه حتىٰ يَقطَعون بكَذِبه؟!(٤).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الجوابُ عن الشُّبهة الثانية؛ وهي قولهم: لا يتَّبِعُك إلا الأراذلُ مِن الناس(٥).

---

(١) البحر المحيط (٦/ ١٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٨).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٥٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٩).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ ﴾

ثم عطَف إلىٰ صريحِ الاستعطاف في سياقٍ مُحذِّرٍ مِن سطَواتِ الله، فقال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

ثم أشار إلىٰ أنَّ طَرْدَهم يستوجِبُ عقابَه تعالىٰ بقولِه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ ﴾

ولمَّا كان نفيُهم للفضل شاملًا للأموال وعِلْمِ الغيب، أقَرَّهم علىٰ ذلك منبِّهًا علىٰ خطئِهم فيه بأنَّه لم يقُلْ بينهم قطُّ ما يكون سببًا له، فقال عاطفًا علىٰ قوله: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾(٣).

هذا تفصيلٌ لِما ردَّ به مقالةَ قومه إجمالًا؛ فهُمُ استدَلُّوا علىٰ نفيِ نبوَّتِه بأنَّهم لم يرَوْا له فضلًا عليهم، فجاء هو في جوابِهم بالقول بالموجَبِ أنَّه لم يَدَّعِ فضلًا غيرَ الوحي إليه؛ ولذلك نفىٰ أن يكونَ قد ادَّعىٰ غيرَ ذلك(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٧٥).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٩٠).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٧٥).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٥٧).

ثم أشار إلىٰ أنَّه عليه السلام بشَرٌ مثلُهم، أُوثِرَ بالوحيِ والرسالة، فلا يَدَّعي ما ليس له، بقولِه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾[1].

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

فلمَّا استوفىٰ نَقْضَ ما أبرَموه في زعمِهم مِن جوابهم علىٰ غايةِ الإنصاف واللِّين والاستعطاف، استأنف الحكايةَ عنهم بقولِه: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2].

فُصِلتْ هذه الجملةُ فصلًا علىٰ طريقةِ حكاية الأقوال في المحاوَرات[3].

اعلَمْ أنَّ الكفارَ لمَّا أورَدوا تلك الشُّبهةَ، وأجاب نوحٌ عليه السلام عنها بالجواباتِ الموافِقة الصحيحة؛ أورَد الكفارُ علىٰ نوحٍ كلامينِ: الأول: أنَّهم وصَفوه بكثرة المجادَلة. والثاني: أنَّهم استعجَلوا العذابَ الذي كان يَتوعَّدهم به[4].

ثم جاوَبوه بغيرِ ما تقدَّم مِن كلامِهم وكلامه -عَجْزًا عن القيام بالحُجَّة، وقصورًا عن رتبةِ المناظرة، وانقطاعًا عن المباراة- بقولِهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[5].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٩٠).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٤١).

(٥) فتح القدير (٢/ ٥٦٢).

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم كأنَّه قيل: ماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[(١)].

ولمَّا استعجَلوا العذابَ في الآيةِ السابقة، أجابهم نوحٌ عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّهم إنَّما هم في قبضتِه سبحانه، زاد في بيانِ عظَمتِه، وأنَّ إرادتَه تضمحِلُّ معها كلُّ إرادةٍ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه بذلك ناصحٌ لهم، وأنَّ نُصْحَه خاصٌّ بهم، فقال جوابًا لِما وَهِموا مِن أنَّ جدالَه لهم كلامٌ بلا طائلٍ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(٢)].

عطَف على وعظِهم بحلولِ العذاب وتوقُّعِه بيانَ حالِ مجادَلته إيَّاهم التي امتعَضوا منها بأنَّها مجادَلةٌ لنفعِهم وصلاحهم، وفي ذلك تعريضٌ بتحميقِهم، وتسفيهِ آرائهم؛ حيث كَرِهوا ما هو نفعٌ لهم[(٣)].

لمَّا قالوا: ﴿ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾، وطلَبوا تعجيلَ العذاب، وكان مجادَلتُه لهم إنَّما هو على سبيلِ النُّصح والإنقاذ مِن عذاب الله؛ قال: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٧٨).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٦١).

(٤) البحر المحيط (٦/ ١٤٦).

واعلَمْ أنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا أجاب عن شُبهاتهم، ختَم الكلامَ بخاتمةٍ قاطعةٍ، فقال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كان مضمونُ هذه الآيةِ نحوَ مضمون قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾، فإنَّ النذيرَ مَن يَنصَح المُنذَر، والوكيلَ هو المرجوعُ إليه في أمرِ الشيء الموكول إليه، وما قبلها تعريضٌ بنسبة نوحٍ عليه السلام إلىٰ الافتراء؛ تلاه بما تلا به ذاك مِن النسبةِ إلىٰ الافتراء، وإشارة إلىٰ أنَّ هذه القِصَصَ كلَّها للتَّسلية في أمرِ النِّذارة والتأسية، فكأنَّه قيل: أيقولون لك مِثْلَ هذه الأقوالِ؟! فقد قالوها لنوحٍ كما ترىٰ، ثم والَىٰ عليهم مِن الإنذار ما لم يَطمَعوا معه في تركِ شيءٍ ممَّا أمَرْناه به، أعجَبَهم أو أغضَبَهم؛ فلَكَ به أسوةٌ وحَسْبُك به قدوةً في أن تعُدَّ كلامَهم عدَمًا، وتُقبِلَ علىٰ ما أرسَلْناك به مِن بذلِ النصيحة بالنِّذارة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[2].

جملةٌ معترِضةٌ بَيْنَ جملةِ أجزاء القصَّة، وليست مِن القصَّة، ومَن جعَلها منها فقد أبعَدَ، وهي تأكيدٌ لنظيرِها السابقِ في أول السُّورة، ومناسبةُ هذا الاعتراضِ: أنَّ تفاصيلَ القصَّة التي لا يَعلَمها المخاطَبون تفاصيلُ عجيبةٌ، تدعو المنكِرين إلىٰ أن يَتذكَّروا إنكارَهم، ويُعِيدوا ذِكْرَه، وكونُ ذلك مطابِقًا لِما حصَل في زمنِ نوحٍ عليه السلام، وشاهدةٌ به كُتُبُ بني إسرائيلَ: يدلُّ علىٰ صِدْقِ النبي ﷺ؛ لأنَّ عِلْمَه بذلك مع أُمِّيَّته

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٤١).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٨٠).

وبُعْدِ قومه عن أهل الكتاب آيةٌ علىٰ أنَّه وحيٌ مِن الله، لا يأتيه الباطلُ مِن بَيْنِ يدَيه، ولا مِن خلفِه(١).

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا فرَغ مِن هذه الجملةِ التي هي المقصودُ بهذا السياقِ كلِّه، وإن كانت اعتراضيةً في هذه القصَّةِ؛ رجَع إلىٰ إكمالها بيانًا لأنَّ نوحًا عليه السلام كان يكاشِفُ قومَه بجميع ما أُمِر به، وإن عظُمتْ مشقَّتُه عليهم، بحيث لم يكُنْ قطُّ موضعَ رجاءٍ لهم في أن يترُكَ شيئًا منه، وتحذيرًا لكلِّ مَن سَمِع قصَّتَهم مِن أن يحُلَّ به ما حلَّ بهم، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٢).

ثم أقنَطه اللهُ تعالىٰ مِن إيمانهم، ونهاه أن يَغتمَّ بما فعلوه مِن التَّكذيب والإيذاء: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٣).

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم كأنَّه كان أعلَمَه أنَّهم إن لم يُجيبوه أغرَقَهم، وأنجاه ومَن معه في فُلْكٍ يَحمِلُهم فيه علىٰ متنِ الماء، فقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٣).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٨٢).

(٣) أنوار التنزيل (٣/ ١٣٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٨٢).

لمَّا كان نهيُه عن الابتئاس بفعلِهم مع شِدَّةِ جُرْمِهم مؤذِنًا بأنَّ اللهَ ينتصِرُ له، أعقبَه بالأمر بصُنْعِ الفُلْكِ لتهيئةِ نجاتِه ونجاةِ مَن قد آمَن به مِن العذاب الذي قدَّره اللهُ لقومه؛ فجملةُ ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ ﴾، وهي بذلك داخلةٌ في الموحَىٰ به، فتدلُّ على أنَّ اللهَ أوحىٰ إليه كيفيَّةَ صُنْعِ الفُلك(١).

اعلَمْ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ يقتضي تعريفَ نوحٍ عليه السلام أنَّه معذِّبُهم ومُهلِكهم، فكان يحتمِلُ أن يعذِّبَهم بوجوه التَّعذيب، فعرَّفه اللهُ تعالىٰ أنَّه يعذِّبُهم بهذا الجنسِ، الذي هو الغرَقُ، ولمَّا كان السبيلُ الذي به يحصُلُ النجاةُ مِن الغرَقِ تكوينَ السفينة، لا جرَمَ أمَرَه اللهُ تعالىٰ بإصلاحِ السفينة وإعدادِها؛ فأوحىٰ اللهُ تعالىٰ إليه أن يَصنَعَها(٢).

ثم إنَّ اللهَ سبحانه لمَّا أخبَره أنَّهم لا يؤمنون البتَّةَ، عرَّفه وجهَ إهلاكهم، وألهَمه الأمرَ الذي يكون به خلاصُه وخلاصُ مَن آمَن معه، فقال: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾(٣).

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾

ولمَّا أمَره تعالىٰ ونهاه، أخبَر أنَّه امتثَل ذلك بقولِه -عاطفًا على ما تقديرُه: فأَيِس مِن إيمانِ أحدٍ منهم، فترَك دعاءَهم، وشرَع يُسلِّي نفسَه-: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٤٤).
(٣) فتح القدير (٢/ ٥٦٤).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٨٣).

ولمَّا نهاه اللهُ عن المراجَعة فيهم، امتثَل أمر ربِّه، وجعَل يَصنَع الفُلك.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾

ولمَّا كان قوله: ﴿نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ واقعًا موقعَ هذا الإخبارِ، حسُنَ الإتيانُ بالفاء المؤذِنة بتسبُّب العلمِ المذكور عنه في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[(١)].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فهو تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾؛ أي: سيَظهَر مَن هو الأحقُّ بأن يُسخَرَ منه[(٢)].

ثم هدَّدهم بقولِه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[(٣)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: يَصنَعه إلىٰ زمنِ مجيءِ أمرِنا؛ فـ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ مضمَّنٌ معنىٰ الشرط؛ ولذلك جيءَ له بجوابٍ؛ وهو جملة ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾[(٤)].

قال صاحبُ «الكشاف»: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بعدها الكلامُ، أُدخِلتْ علىٰ الجملة مِن الشرطِ والجزاء، ووقَعتْ غايةً لقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: فكان يَصنَعها إلىٰ أن جاء وقتُ الموعد[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٩).

(٣) فتح القدير (٢/ ٥٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٤٦).

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ ﴾

ولمَّا أتاه الأمرُ بذلك، بادَر الامتثالَ، فجمَع مَن أمَره اللهُ به إلىٰ السفينةِ بعد أنْ هيَّأها لهم، ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾؛ أي: قُلْنا له ذلك، وقال نوحٌ عليه السلام لِمَن أُمِر بحَمْلِه: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾(٢).

﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ ﴾

جملةٌ معترِضةٌ، دعا إلىٰ اعتراضِها هنا ذِكْرُ ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ إتمامًا للفائدة وَصْفًا لعِظَمِ اليوم، وعجيبِ صُنْعِ الله تعالىٰ في تيسيرِ نجاتهم(٣).

ثم وصَف جريانَها كأنَّا نشاهدها، فقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾(٤).

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾

لمَّا كان الحالُ حالَ دَهَشٍ واختلال، كان السامع جديرًا بألا يَصبِرَ، بل يبادِرُ إلىٰ السُّؤال فيقول: فما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٤).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٨٢).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٢٨٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن نوحٍ عليه السلام أنَّه دعاه إلىٰ أن يَركَبَ السفينةَ، حكىٰ عن ابنه أنَّه قال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الابنَ كان متماديًا في الكفر، مُصِرًّا عليه، مكذِّبًا لأبيه فيما أخبَر عنه(١).

فأجاب الولدُ قائلًا: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾(٢).

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا أفاد قولُه: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ وقوعَ الغرَقِ الموعود به علىٰ وجهِ الإيجاز -كما عَلِمتَ-، انتقَل الكلامُ إلىٰ انتهاء الطُّوفان(٣).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا الكلامِ وصفٌ آخَرُ لواقعة الطوفان، فكان التَّقدير: أنَّه لمَّا انتهىٰ أمرُ الطُّوفان، قيل: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾(٤).

لمَّا غَرِق أهلُ الأرض، ولم يَبقَ ممَّن كفَر بالله ديَّارٌ؛ أمَر تعالىٰ الأرضَ أن تَبلَع ماءها الذي نبَع منها، واجتمَع عليها، وأمَر السماءَ أن تُقلِعَ عن المطرِ، فنضَب الماءُ، وقُضِي أمرُ الله بإنجاءِ مَن نجا، وإهلاكِ مَن هلَك(٥).

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا كان الاستثناءُ مِن أهله في قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ يجوز أن يرادَ به امرأتُه فقط، فتكونَ نجاةُ ابنه جائزةً، وكان ما عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مِن فَرْطِ

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٥٢).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٥٤٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٨).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٥٣).
(٥) محاسن التأويل (٦/ ٩٧).

الشَّفقة على الخَلْقِ -لا سيَّما الأقارب- يَحمِلُهم على السعيِ في صلاحهم؛ لأنَّ أجنحةَ الخَلْقِ كسيرةٌ، وأيديَهم قصيرةٌ، وأمرهم ضعيفٌ، وحالهم رَثٌّ، فأدنى هوانٍ يورِثُهم الخُسْران، وأمَّا جَنابُ الحقِّ ففسيحٌ، وشأنُه عظيمٌ، وأمرُه عليٌّ، فلا يَلحَقه نقصٌ بوجهٍ، ولا يدانيه ضررٌ، ولا يعتري أمرَه وهنٌ؛ لمَّا كان ذلك كذلك، سأل نوحٌ عليه السلام نجاةَ ولدِه؛ كما أخبَر عنه تعالى في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(١).

موقعُ الآية يقتضي أنَّ نداءَ نوحٍ عليه السلام هذا كان بعد استواءِ السفينة على الجُوديِّ نداءً دعاه إليه داعي الشَّفقة، فأراد به نَفْعَ ابنِه في الآخرة بعد اليأسِ مِن نجاته في الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ أعلَمَه أنَّه لا نجاةَ إلا للذين يركبون السفينةَ، ولأنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا دعا ابنَه إلى ركوب السفينة، فأبى، وجرَتِ السفينةُ؛ قد علِم أنَّه لا وسيلةَ إلى نجاته، فكيف يَسألها مِن الله؟! فتعيَّن أنَّه سأل له المغفرةَ(٢).

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فأجابه الربُّ تبارك وتعالى بقولِه الحقِّ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾(٣).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما قال له ربُّه سبحانه حين ناداه بذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٣).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٤٩).

(٤) روح المعاني (٦/ ٢٦٦).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾

ولمَّا انجلىٰ للسامعِ ما هو فيه ﷺ مِن علوِّ المقام، وعظيمِ الشَّأن، الموجِب للعتاب علىٰ كثيرٍ مِن الصواب، فتَشوَّف للجواب؛ استأنَف بيانَه بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(1).

أجاب نوحٌ عليه السلام كلامَ ربِّه بما يدلُّ علىٰ التنصُّل ممَّا سأل، فاستعاذ أن يَسأَلَ ما ليس له به علمٌ، فإن كان نوحٌ عليه السلام أراد بكلامِه الأول التَّعريضَ بالسؤال، فهو أمرٌ قد وقَع؛ فالاستعاذةُ تتعلَّق بتَبِعةِ ذلك، أو بالعَوْدِ إلىٰ مثله في المستقبل، وإن كان إنَّما أراد التَّمهيدَ للسُّؤال، فالاستعاذة ظاهرةٌ؛ أي: الانكفافُ عن الإفضاء بالسؤال(2).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا نهاه عن ذلك السُّؤال، حكىٰ عنه أنَّه قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(3).

ثم تنبَّه عليه السلام عند ذلك التَّأديبِ الإلهي، والعتابِ الربَّاني، وتعوَّذ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(4).

فحينئذٍ نَدِم نوحٌ عليه السلام ندامةً شديدة علىٰ ما صدَر منه، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(5).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٥٩).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٠٣).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٣٨٢).

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

فكأنَّه قيل: ماذا أجيبَ عن ذلك؟ فقيل: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

فُصِلت الجملةُ ولم تُعطَفْ؛ لوقوعها في سياقِ المحاوَرة بَيْنَ نوحٍ عليه السلام وربِّه؛ فإنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا أجاب بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إلى آخرِه، خاطَبه ربُّه إتمامًا للمحاوَرة بما يُسكِّن جأشَه(٢).

ثم أنبأ تعالى عمَّا قيل لنوحٍ بعد أن أرسَتِ السفينةُ على الجُوديِّ بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا تمَّتْ هذه القصَّةُ على النحو الوافي ببيانِ اجتهاد نوحٍ عليه السلام في إبلاغ الإنذار مِن غيرِ مراعاةِ إقبالٍ ولا إدبار، وكانت مع ذلك دالَّةً على علمٍ تام، واطِّلاعٍ على دقائقَ لا سبيلَ إليها إلا مِن جهةِ المَلِك العلَّام، فهي على إزالةِ اللَّبس عن أمره ﷺ أوضَحُ مِن الشمس؛ قال تعالى منبِّهًا على ذلك: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٨).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ١٠٣).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٠٥).

استئنافٌ أُريدَ منه الامتنانُ على النبي ﷺ، والموعظةُ والتَّسلية، والإشارةُ بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدَّم مِن خبَرِ نوحٍ عليه السلام، وتأنيثُ اسمِ الإشارة: بتأويلِ أنَّ المشارَ إليه القصَّةُ [١].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا شرح قصَّةَ نوحٍ عليه السلام على التفصيل، قال: ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: تلك الآياتُ التي ذكَرْناها، وتلك التَّفاصيل التي شرحناها: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾؛ أي: مِن الأخبارِ التي كانت غائبةً عن الخَلق [٢].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾

ولمَّا تمَّ مِن ذلك ما هو كفيلٌ بغرضِ السُّورة، وخُتِم بأنَّ العاقبةَ دائمًا للمتقين؛ أُتبِع بالدَّليل على ذلك مِن قصصِ الأنبياء، مع الوفاء بما سِيقت له قصَّةُ نوحٍ - على جميعهم السلام - مِن الحثِّ على المجاهَرة بالإنذار، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [٣].

اعلَمْ أنَّ هذا هو القصَّةُ الثانية مِن القِصص التي ذكَرها اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ، واعلَمْ أنَّ هذا معطوفٌ على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾؛ والتَّقدير: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا [٤].

ومِن أنباءِ الغيب قصَّةُ عادٍ قومِ نبيِّ الله هودٍ عليه السلام.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٠).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٠٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٢).

﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ ﴾

ثم نفىٰ أن يكونَ له في ذلك غرضٌ غيرُ نُصْحِهم بقولِه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ إن كان قالها مع الجملةِ التي قبلها، فإعادةُ النداء في أثناءِ الكلام تكريرٌ للأهمية، يُقصَد به تهويلُ الأمر، واسترعاءُ السَّمع؛ اهتمامًا بما يستسمعونه، والنداءُ هو الرابط بَيْنَ الجملتينِ، وإن كانت مقُولةً في وقتٍ غيرِ الذي قيلت فيه الجملةُ الأولىٰ، فكونُها ابتداءَ كلامٍ ظاهرٌ(٢).

ثم ذكَر عدمَ المانعِ لهم مِن الانقياد، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(٣).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢ ﴾

ولمَّا دعاهم مشيرًا إلىٰ ترهيبهم مستدِلًّا علىٰ الصدقِ بنفيِ الغرض، رغَّبهم في إدامةِ الخوف ممَّا مضىٰ بقولِه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾(٤).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن التَّكاليف التي ذكَرها هودٌ عليه السلام لقومه؛ وذلك لأنَّه في المقامِ الأول دعاهم إلىٰ التوحيدِ، وفي هذا المقامِ دعاهم إلىٰ الاستغفارِ، ثم إلىٰ التوبة(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٥).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٨٣).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٠٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٣).

ثم أمَرهم بالاستغفارِ الذي فيه تكفيرُ الذُّنوب السالفة، وبالتوبةِ عمَّا يَستقبلون مِن الأعمال السابقة[١].

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

لمَّا محَض لهم النُّصْحَ علىٰ غايةِ البيان، ما كان جوابَهم إلا أنْ ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

محاوَرةٌ منهم لهودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بجوابٍ عن دعوتِه؛ ولذلك جُرِّدت الجملةُ عن العاطف[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما ذكَره للقوم، حكىٰ أيضًا ما ذكَره القومُ له[٤].

ثم أجابه قومُه بما يدلُّ علىٰ فَرْطِ جهالتهم، وعظيمِ غباوتهم: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا قالوا هذا الكلامَ البيِّنَ الفسادِ مِن غيرِ تعرُّض لنقضِ ما قال لهم بنوعِ شُبْهةٍ، كان كأنَّه قيل لهم: هذا الذي قلتُه لكم، وهو لا أبينَ منه ولا أعدَلَ، افرِضوا أنَّه ما ظهَر

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٠٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٧).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٤).
(٥) فتح القدير (٢/ ٥٧٣).

لكم صحَّتُه، فما تقولون؟ إنَّه حمَلني عليه مع أنَّ فيه منابَذتكم وأنتم أولادُ عمِّي وأعزُّ الناس عليَّ؟! فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[١].

جملةُ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِن شأنِه أن يُثِيرَ للسامع ومَن معه في أنفسهم أن يقولوا: إن لم تؤمنوا بما جاء به أنَّه مِن عند الله، فماذا تعُدُّون دَعْوتَه فيكم؟ أي: نقول: إنَّك ممسوسٌ مِن بعضِ آلهتنا، وجعلوا ذلك مِن فعلِ بعضِ الآلهة؛ تهديدًا للنَّاس بأنَّه لو تصدَّىٰ له جميعُ الآلهة، لدَكُّوه دَكًّا[٢].

ثم نسَبوا ما صدَر منه مِن دعائهم إلىٰ الله وإفرادِه بالألوهيَّة إلىٰ الخبلِ والجنون، وأنَّ ذلك ممَّا اعتراه به بعضُ آلهتهم؛ لكونِه سَبَّها، وحرَّض علىٰ تركِها، ودعا إلىٰ تركِ عبادتها، فجعلته يَتكلَّم -مكافأةً- بما يتكلم به المجانينُ[٣].

﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

لمَّا جاؤوا في كلامهم برفضِ ما دعاهم إليه، وبجحدِ آياته، وبتصميمِهم علىٰ ملازَمةِ عبادةِ أصنامهم، وبالتنويهِ بتصرُّف آلهتهم؛ أجابهم هودٌ عليه السلام بأنَّه يُشهِد اللهَ عليهم أنَّه أبلَغهم، وأنَّهم كابَروا وجحَدوا آياتِه[٤].

ثم بيَّن سُفولَها بقولِه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٨).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٩).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٣١٠).

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٦ ﴾

ثم كأنَّه قيل: هَبْ أنَّ آلهتَنا لا شيءَ، فما حمَلك على الاجتراء على مخالفتِنا نحن وأنت تَعلَم كثرتَنا وقوَّتَنا، وأنت لا تَزيدُ على أن تكونَ واحدًا منَّا؟! فقال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[1].

جملةُ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ ﴾ تعليلٌ لمضمون ﴿فَكِيدُونِي﴾، وهو التَّعجيزُ والاحتقار؛ يعني: أنَّه واثقٌ بعَجْزِهم عن كيدِه؛ لأنَّه متوكِّلٌ على الله[2].

ثم كشَف لهم عن مصدرِ قوَّته، وهو توكُّله على ربِّه، فقال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[3].

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ٥٧ ﴾

ولمَّا استوفى تشييدَه أمرَه، وهَدْمَ قولِهم؛ أخذ يُحذِّرهم، فقال مبيِّنًا أنَّ العدولَ عمَّا جاء به لا يكون إلا بمعالَجةِ الطَّبع السَّليم: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴾[4].

تفريعٌ على جملة ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، وما بينهما اعتراضٌ أوجَبه قصدُ المبادَرة بإبطالِ باطلِهم؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ تفصيلٌ لمضمونِ جملة ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، بِناءً على أنَّ هذا مِن كلامِ هودٍ عليه السلام[5].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣١٠-٣١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٠).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٥٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣١٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠١).

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ ﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، كان كأنَّه قيل: فلم يَرجِعوا، ولم يَرْعَوُوا لبيِّنةٍ ولا رغبةٍ ولا رهبةٍ؛ فأنزَلْنا بهم أمرَنا، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾(1).

﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ ﴾

ولمَّا تمَّتْ قصَّتُهم على هذا الوجهِ البديع، والأسلوب المُطرِب؛ قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾(2).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر قصَّةَ عادٍ، خاطَب قومَ محمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞ ﴾؛ فهو إشارةٌ إلى قبورِهم وآثارهم، كأنَّه تعالى قال: سِيروا في الأرض فانظُروا إليها واعتبِروا، ثم إنَّه تعالى جمَع أوصافَهم، ثم ذكَر عاقبةَ أحوالهم في الدُّنيا والآخرة(3).

ثم ذكَر السببَ الذي لأجلِه عذَّب عادًا، فقال: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾.

﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠ ﴾

لمَّا كانوا تابعين له دُونَ الرُّسل، جُعِلتِ اللَّعنةُ تابعةً لهم في الدارينِ، تكُبُّهم على وجوهِهم في عذاب الله(4).

---

(1) نظم الدرر (٩/ ٣١٤).

(2) نظم الدرر (٩/ ٣١٥).

(3) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٦).

(4) البحر المحيط (٦/ ١٧١).

لمَّا ذكر أوصافَهم، ذكَر بعد ذلك أحوالَهم، فقال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: جُعِل اللَّعنُ رديفًا لهم، ومتابِعًا ومصاحِبًا في الدُّنيا وفي الآخرة[١].

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا انقضَتْ قصَّةُ عادٍ على ما أراد سبحانه، أتبعَها قصَّةَ مَن كانوا عَقِبهم في الزمَنِ، ومِثْلَهم في سُكْنَىٰ أرضِ العرب وعبادةِ الأوثان، والمناسبةِ في الأمر المعذَّب به؛ لأنَّ الموصلَ للصَّيحة إلى الأسماعِ هو الريحُ، وفي خَفاءِ أمرهم، مفصَّلًا على أهلِ ذلك الزمانِ، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[٢].

اعلَمْ أنَّ هذا هو القصَّةُ الثالثة مِن القِصص المذكورة في هذه السُّورةِ؛ وهي قصَّةُ صالحٍ مع ثمودَ، ونَظْمُها مثلُ النَّظم المذكور في قصَّة هودٍ[٣].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

ولمَّا دعاهم إلى الحقِّ، ونصَب لهم عليه مِن الأدلَّة ما هم به معترفون، وذكَّرهم نِعَمَه مومِئًا إلى التَّحذير مِن نِقَمِه، وسهَّل لهم طريقَ الوصول إليه؛ ما كان جوابَهم إلا أن سلَخوه مِن طَوْرِ البشريَّة لمحضِ التَّقليد؛ فلذلك استأنف الإخبارَ عن جوابهم بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٧).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣١٧-٣١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٧).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣١٩).

فلمَّا أمَرهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام، ورغَّبهم في الإخلاصِ لله وحده؛ رَدُّوا عليه دَعْوتَه، وقابَلوه أشنَعَ المقابَلة[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾

ولمَّا أبرَزوا له أمرَهم في قالبِ الشَّك علىٰ سبيلِ الجزم، قابَلهم بمثلِه علىٰ سبيلِ الفرض إنصافًا لهم؛ ليلائِمَ الخطابُ حالَ المخاطَبين، فاستأنَف سبحانه الإخبارَ عنه بذلك في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾[2].

جوابٌ عن كلامهم؛ فلذلك لم تُعطَفْ جملةُ ﴿قَالَ﴾؛ وهو الشَّأنُ في حكاية المحاوَرات[3].

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾

ولمَّا أخبَرهم أنَّ معصيةَ الله خسرانٌ، ذكَّرهم أمرَ الناقةِ التي أخرَجها سبحانه لهم مِن الأرضِ شاهدًا علىٰ كونِهم مساوِينَ للأوثان في كونِهم منها مفضَّلين عليها بالحياة، محذِّرًا لهم مِن شديدِ انتقامه، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٨٤).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١١١).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٢٢).

هذا جوابٌ عن قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فأتاهم بمعجزةٍ تزيل الشَّكَّ (١).

اعلَمْ أنَّ العادةَ فيمَن يَدَّعي النُّبوَّة عند قومٍ يعبُدون الأصنامَ أن يبتدئَ بالدَّعوة إلىٰ عبادة الله، ثم يُتبِعَه بدعوىٰ النُّبوَّة؛ لا بد وأن يطلُبوا منه المُعجزةَ، وأمرُ صالحٍ عليه السلام هكذا؛ كان يُروَىٰ أنَّ قومه خرَجوا في عيدٍ لهم، فسألوه أن يأتيَهم بآيةٍ، وأن يُخرِجَ لهم مِن صخرةٍ معيَّنةٍ أشاروا إليها ناقةً، فدعا صالحٌ ربَّه، فخرَجتِ الناقةُ كما سألوا (٢).

لمَّا دعاهم صالحٌ عليه السلام إلىٰ توحيدِ الله تعالىٰ، كذَّبوه، وطالَبوه بما يدلُّ علىٰ صِدْقِ ما دعا إليه، فأجابهم صالحٌ بما أخبَر تعالىٰ به في هذه الآيةِ (٣).

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

ثم أشار إلىٰ قُرْبِ مخالفتِهم لأمره فيها بقولِه مسبِّبًا عن أوامرِه ونواهيه، ومُعقِّبًا: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٤).

فلمَّا توعَّدهم إن مَسُّوها بسُوءٍ بعذابٍ قريبٍ، بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّهم مع ذلك عقروها وذبحوها، ويحتمِلُ أنَّهم عقروها لإبطالِ تلك الحُجَّة، وأن يكونَ لأنَّها ضيَّقتِ الشربَ علىٰ القوم، وأن يكونَ لأنَّهم رَغِبوا في شحمِها ولحمِها (٥).

ثم أخبَر بأنَّهم لم يَسمَعوا قوله ولم يُطِيعوا بعد رؤيةِ هذه الآيةِ، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٩).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٥٩).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٢٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٦٩).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ١١٣).

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾

ثم أشار إلىٰ تعقُّبِ العذاب للأيام وتسبُّبه عن الوعيدِ المعيَّن بقولِه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[1].

فلمَّا اكتمَلتِ المدَّةُ التي حُدِّدتْ لهم، جاء أمرُ الله بعذابِهم[2].

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم بيَّن إيقاعَه بأعدائه بعد إنجائه لأوليائه، فقال مُعظِّمًا للأخذِ بتذكير الفعل: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾[3].

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن ذلك الأمرَ، فقال: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[4].

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الجُثُومُ كنايةً عن الموتِ، أوضحه بقولِه: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٢٣).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٥٦٠).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٢٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٧٠).
(٥) نظم الدرر (٩/ ٣٢٦).

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾

ولمَّا انقضَتِ القصَّةُ علىٰ هذا الوجهِ الرائع، أتبَعها قصَّةَ لوطٍ عليه السلام؛ إذ كانت أشهَرَ الوقائع بعدها، وهي أفظَعُ منها وأروع، وقدَّم عليها ما يَتعلَّق بها مِن أمرِ إبراهيمَ عليه السلام وذِكْرِ بُشْراه؛ لِما في ذلك كلِّه مِن التَّنبيه لِمَن تعنَّت بطلبِ إنزال الملائكة علىٰ أنَّ ذلك ليس عزيزًا عليه، وقد أكثَرَ مِن فعلِه، ولكنَّ نزولهم مرهبٌ، وأمرهم عند المكاشَفة مرعبٌ، وأمَّا مع السَّتر فلا يُقطَع تعنُّتهم، هذا مع ما في ذلك مِن مناسبةِ أمرِ هذا الولدِ لأمرِ الناقة في تكوينِ كلٍّ منهما بخارقٍ للعادة؛ إشارةً إلىٰ تمامِ القدرة، وكمالِ العلم المبنيِّ عليه أمرُ السُّورة في إحكامِ الكتاب وتفصيله، وتناسُبِ جِدالَيْ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام في أنَّ كلًّا منهما شفقةٌ علىٰ الكافرين، ورجاءٌ لنجاتهم مِن العذاب بحُسْنِ المثاب، ولعلَّه سبحانه كرَّر «لقد» في صدرِها عطفًا علىٰ ما في قصَّة نوحٍ؛ للتَّنبيهِ علىٰ مثلِ الأغراض، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾[1].

عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ، والغرضُ مِن هذه القصَّة هو الموعظةُ بمصيرِ قوم لوطٍ إذ عصَوْا رسولَ ربِّهم، فحَلَّ بهم العذابُ، ولم تُغْنِ عنهم مجادَلةُ إبراهيمَ، وقُدِّمت قصَّةُ إبراهيمَ لذلك، وللتَّنويهِ بمقامه عند ربِّه علىٰ وجهِ الإدماج؛ ولذلك غُيِّر أسلوبُ الحكاية في القِصص التي قبلها والتي بعدها[2].

ترتيبُ قصصِ هذه السُّورة كترتيبِ قصص الأعراف، وإنَّما أدرَج شيئًا مِن أخبار إبراهيمَ عليه السلام بَيْنَ قصَّةِ صالحٍ ولوطٍ؛ لأنَّ له مَدخَلًا في قصَّةِ لوطٍ، وكان إبراهيمُ ابنَ خالةِ لوطٍ[3].

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١١٥).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١٧٨).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ نبأ لوطٍ وهلاكِ قومه، وهو النبأُ الرابع مِن أنباءِ هذه السُّورة، بقولِه سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾[1].

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا وضع الطَّعامَ بَيْنَ أيديهم، لم يُلموا به فقال: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾[2].

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ في موضعِ الحال مِن ضميرِ «أوجس»؛ لأنَّ امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام كانت حاضرةً تُقدِّم الطعامَ إليهم؛ فإنَّ عادتَهم كعادةِ العربِ مِن بعدِهم؛ أنَّ ربَّةَ المنزلِ تكون خادمةَ القوم[3].

لمَّا بيَّنوا لإبراهيمَ عليه السلام سببَ مجيئهم، سَمِعتْ سارةُ بنبأِ هلاكِ قوم لوطٍ، فضَحِكتْ فرَحًا بهلاكِ أهلِ الخبث.

﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا شافَهوها بذلك، صرَّحتْ بوجهِ العجَبِ مِن أنَّه جامعٌ بَيْنَ عجَبَينِ في كونه منه ومنها بأنْ ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[4].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ١١٤).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١١٨).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٣١).

ولمَّـا بشَّـروها بـذلك، صـرَّحتْ بتعجُّبِهـا الـذي كتمتـه بالضَّـحكِ، فقالـت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾؛ فجملـةُ ﴿قَالَتۡ﴾ جوابٌ للبشارة[(١)].

﴿قَالَتۡ﴾ استئنافٌ ورَد جوابًا عن سؤالِ مَن سأل وقال: فما فعَلتْ إذ بُشِّرتْ بذلك؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾[(٢)].

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾

ثم كأنَّه قيل: فماذا قيل لها؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[(٣)].

جوابُ الملائكة إيَّاها بجملة ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ إنكارٌ لتعجُّبها؛ لأنَّه تعجُّبٌ مرادٌ منه الاستبعاد، وجوابُهم جارٍ علىٰ ثقتِهم بأنَّ خبرَهم حقٌّ، منبئٌ عن أمرِ الله[(٤)].

ثم حكىٰ تعالىٰ أنَّ الملائكةَ قالوا: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١١٩-١٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٢٥).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢١-١٢٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٧٥).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ ﴾

فلمَّا سَمِعوا ذلك واطمأنُّوا، أخَذ في قَصِّ ما كان بعده، فقال مشيرًا بالفاءِ إلىٰ قلَّةِ زمنِ الإنكار الذي هو سببُ الفزع: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو القصَّةُ الخامسة؛ وهي قصَّة لوطٍ عليه السلام، واعلَمْ أنَّ الرَّوْعَ هو الخوفُ، وهو ما أوجَس مِن الخِيفةِ حين أنكَر أضيافَه؛ والمعنىٰ: أنَّه لمَّا زال الخوفُ، وحصَل السُّرور بسبب مجيء البشرىٰ بحصولِ الولد؛ أخَذ يجادِلُنا في قومِ لوطٍ، وجوابُ لمَّا هو قولُه: «أخَذ»، إلا أنَّه حُذِف في اللفظ لدلالةِ الكلام عليه، وقيل: تقديره: لمَّا ذهَب عن إبراهيمَ الرَّوْعُ، جادَلَنا[(٢)].

ما زال السياقُ الكريم في الحديثِ عن بشارة إبراهيمَ، فلمَّا ذهَب عن إبراهيمَ الفزَعُ والخوف مِن الملائكة قبل أن يَعرِفَهم، وجاءته البشرىٰ بالولد وبهلاكِ قومِ لوطٍ، أخَذ يجادِلُ الملائكةَ في شأنِ هلاكِ قومِ لوطٍ؛ لأجلِ ما بينهم مِن المؤمنين[(٣)].

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ ﴾

ثم علَّل مجادلتَه بقولِه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[(٤)].

ثم أثنَوْا علىٰ إبراهيمَ عليه السلام، أو أثنىٰ اللهُ عليه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٣٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٧٦).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٦٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٣٣).

(٥) فتح القدير (٢/ ٥٨٠).

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾

ولمَّا كان أكثَرَ المجادَلةَ -لِما عنده مِن الشَّفقة على عبادِ الله؛ لِما له مِن هذه الصفاتِ الجليلة-، أعلَمَه اللهُ أنَّ الأمرَ قد خُتِم بقولِه -حكايةً أنَّ الرُّسلَ قالت له بعد طُولِ المجادَلة، منادِينَ بالأداةِ التي هي أمُّ الباب؛ إعلامًا بأنَّ ما بعدها عظيمُ الشَّأن، عالي المنزلةِ-: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ مقولُ محذوفٍ دلَّ عليه المقامُ، وهو مِن بديع الإيجاز، وهو وحيٌ مِن اللهِ إلى إبراهيمَ عليه السلام، أو جوابُ الملائكة إبراهيمَ عليه السلام، فإذا كان مِن كلامِ الله، فقولُه: ﴿ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمار؛ لإدخال الرَّوعِ في ضمير السَّامع[(٢)].

ولمَّا ألحَّ إبراهيمُ عليه السلام في مراجعةِ الملائكة، قالوا له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ الجدالِ، ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ بهلاكِ القوم[(٣)].

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ ﴾

ولمَّا انقضى أمرُ إنبائهم ببشارةِ الأولياء وهلاكِ الأعداء، وعُلِم مِن ذلك أنَّهم لا يَنزِلون إلا للأمور الهائلة، والأحوالِ المعجبة؛ أخذ يقُصُّ أمرَهم مع لوطٍ عليه السلام، فقال -عاطفًا على ما تقديره: فعلوا مع إبراهيم عليه السلام- ما ذكر، ثم فارَقوه نحوَ لوطٍ، ولم

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٤).
(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٦٤).

يذكرِ الحرفَ المصدريَّ؛ لأنَّ سياقَه ومقصود السُّورة لا يقتضي ذلك؛ كما نشيرُ إليه في «العنكبوت»-: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[1].

قد عُلِم أنَّ الملائكةَ ذاهبون إلىٰ قومِ لوطٍ مِن قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ فالتَّقدير: ففارَقوا إبراهيمَ وذهَبوا إلىٰ لوطٍ عليهما السلام، فلمَّا جاؤوا لوطًا، فحُذِف ما دلَّ عليه المقامُ إيجازًا قرآنيًّا بديعًا، وقد جاؤوا لوطًا كما جاؤوا إبراهيمَ عليه السلام في صورةِ البشر، فظَنَّهم ناسًا، وخَشِي أن يعتديَ عليهم قومُه بعادتِهم الشَّنيعة؛ فلذلك ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾[2].

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

لمَّا دخلت الملائكةُ دارَ لوطٍ عليه السلام، مضَتِ امرأتُه عجوزُ السَّوْءِ، فقالت لقومه: دخَل دارَنا قومٌ ما رأيتُ أحسَنَ وجوهًا ولا أنظَفَ ثيابًا ولا أطيَبَ رائحةً منهم، فجاءه قومُه إليه يُسرِعون، وبيَّن تعالىٰ أنَّ إسراعَهم ربما كان لطلبِ العمل الخبيث بقولِه: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[3].

أنَّ قومَ لوطٍ لمَّا بلَغهم مجيءُ الملائكة في تلك الصورةِ، أسرَعوا إليه، كأنَّما يُدفَعون دفعًا لطلبِ الفاحشة مِن أضيافه[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٧٨).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٨٣).

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾

فُصِلت جملةُ قالوا عن التي قبلها؛ لوقوعِها موقعَ المحاوَرة مع لوطٍ عليه السلام[1].

فأجابوه -لعَنهم اللهُ- قائلين: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[2].

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾

لمَّا شاهَد سفاهةَ القوم، وإقدامَهم علىٰ سُوءِ الأدب؛ تمنَّىٰ حصولَ قوَّةٍ قوية علىٰ الدفع[3].

ثم أخبَر تعالىٰ عن قولِه لهم علىٰ طريقِ الاستئناف بقولِه: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[4].

ثم إنَّه لمَّا عَلِم تصميمَهم علىٰ الفاحشة، وأنَّهم لا يترُكون ما قد طلَبوه؛ ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[5].

لمَّا رأىٰ استمرارَهم في غَيِّهم، وضعُفَ عنهم، ولم يَقدِرْ علىٰ دفعِهم؛ تمنَّىٰ لو وجَد عونًا علىٰ رَدِّهم، فقال علىٰ جهةِ التفجُّع والاستكانة: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٦).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٥٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٨٠).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٤٢).

(٥) فتح القدير (٢/ ٥٨٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٧٨).

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾

فلمَّا عظُمَ الشِّقاق، وضاق الخناق؛ كان كأنَّه قيل: فما قال له الرُّسلُ؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾(١).

هذا كلامُ الملائكة لِلُوطٍ عليه السلام، كاشَفوه بأنَّهم ملائكةٌ مرسَلون مِن الله تعالىٰ، وإذ قد كانوا في صورةِ البشر، وكانوا حاضِري المجادَلة؛ حكىٰ كلامَهم بمثلِ ما تُحكَىٰ به المحاوَراتُ، فجاء قولهم بدونِ حرفِ العطف؛ علىٰ نحوِ ما حُكِي قولُ لوطٍ عليه السلام، وقولُ قومه(٢).

اعلَمْ أنَّ قوله تعالىٰ مخبِرًا عن لوطٍ عليه السلام أنَّه قال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّه كان في غايةِ القلقِ والحزن بسبب إقدامِ أولئك الأوباشِ علىٰ ما يوجِبُ الفضيحةَ في حقِّ أضيافه، فلمَّا رأت الملائكةُ تلك الحالةَ، بشَّروه بأنواعٍ مِن البشارات(٣).

ولمَّا سَمِعتْهُ الملائكةُ يقول هذه المقالةَ، ووجَدوا قومَه قد غلَبوه، وعجَز عن مدافعتِهم؛ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٨١).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٨٤).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾

ولمَّا انقضىٰ تسكينُ لوطٍ عليه السلام، والتَّقدُّمُ إليه فيما يفعل؛ أخبَر تعالىٰ عن حالِ قومه، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[1].

فلمَّا ذُكِر الموعودُ في الآية السابقة، ناسَب أن يُذكَرَ العذابُ هنا.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾

لَزِم هذا التسويمُ الحجارةَ عند الله إيذانًا بنفاذِ قُدْرته، وشِدَّة عذابه، والظاهرُ أنَّ ضميرَ ﴿هِيَ﴾ عائدٌ علىٰ القُرَىٰ التي جعَل اللهُ أعاليَها أسافلَها[2].

ثم وصَف الحجارةَ بوصفٍ ثالث، فقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾

ولمَّا انتهت القصَّةُ مُعلِمةً لِما قام به لوطٌ عليه السلام مِن أمرِ الله، غيرَ وانٍ[3] لرغبةٍ ولا رهبةٍ، وبما في إنزالِ الملائكة مِن الخطرِ؛ أُتبِعتْ أقربَ القِصص الشهيرة إليها في الزمنِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٤٥).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٩٢).

(٣) أي: ضعيف.

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٥٠).

اعلَمْ أنَّ هذا هو القصَّةُ السادسة مِن القِصص المذكورة في هذه السُّورة[١].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥ ﴾

ولمَّا كان عدمُ النَّقص قد يُفهَم منه التَّقريب، أتبَعه بما يَنفِي هذا الاحتمالَ، وللتَّنبيه علىٰ أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيف، بل يَلزم السعيُ في الإيفاء، ولو بزيادةٍ لا يَتأتىٰ بدُونِها، ولأنَّ التَّصريحَ بالأمر بالشيء بعد النَّهي عن ضدِّه أوكَدُ، فقال مُستعطِفًا لهم بالتَّذكير بأنَّه منهم، يسُوءُه ما يسوءهم، وبأنَّهم لِما أعطاهم اللهُ مِن القوَّةِ جديرون بأن يُعرِضوا عن تَعاطي سَفْسافِ الأخلاقِ ورذائلِها: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[٢].

إعادةُ النداء في جملة ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ ﴾؛ لزيادةِ الاهتمام بالجملة، والتَّنبيهِ لمضمونها، وهو الأمرُ بإيفاء المكيال والميزان، وهذا الأمرُ تأكيدٌ للنَّهي عن نقصِهما، والشَّيء يؤكَّد بنفيِ ضدِّه[٣].

بدأهم أولًا بالمعصيةِ الشَّنيعة التي كانوا عليها بعد الأمرِ بعبادة الله، ثم ارتقىٰ إلىٰ عامٍّ، ثم إلىٰ أعَمَّ منه؛ وذلك مبالَغةٌ في النُّصح لهم، ولُطْفٌ في استدراجهم إلىٰ طاعةِ الله[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٨٤).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٥١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٧).

(٤) البحر المحيط (٦/ ١٩٦).

أمَر بتوفيةِ المكيال والميزان بالعدل بعد أنْ نهاهم عن النقصِ؛ تأكيدًا لِما نهاهم عنه، وليَعطِفَ عليه نهيًا آخَرَ؛ وهو النهيُ عن بَخْسِ الناسِ أشياءهم(١).

ثم أكَّد النهيَ عن نقصِ الكيل والوزن بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾(٢).

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾

ولمَّا كان نظَرُهم بعد الشرك مقصورًا على الأموال، وكان نهيُه عمَّا نهى عنه مُوجِبًا لِمَحْقِها في زعمِهم؛ كانوا كأنَّهم قالوا: إنَّا إذا اتَّبعناك فيما قلتَ، فَنِيَتْ أموالُنا أو قلَّتْ، فتضعضعتْ أحوالُنا، فلا يبقى لنا شيء؟ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾(٣).

وإذ قد كانت غايةُ المُفسِدِ مِن الإفساد اجتلابَ ما فيه نفعٌ عاجلٌ له مِن نَوالِ ما يُحِبُّه، أعقَب شعيبٌ موعظتَه بما ادَّخره اللهُ مِن الثَّواب على امتثالِ أمره، وهو النَّفعُ الباقي، ما هو خيرٌ لهم ممَّا يقترفونه مِن المتاع العاجل(٤).

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾

ولمَّا كان حاصِلَ ما دعاهم إليه تَرْكُ ما كان عليه آباؤهم مِن السَّفَهِ في حقِّ الخالق بالشرك، والخلائقِ بالخيانة، وكان ذلك التَّركُ عندهم قطيعةً وسفَهًا؛ كان ذلك

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٥٧٠).

(٢) فتح القدير (٢/ ٥٨٨).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٩).

محكًّا للعقول، ومَحَزًّا للآراء، يُعرَف به نافذُها مِن جامدها، فكان كأنَّه قيل: ما قالوا؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾(١).

لمَّا أمَرهم شعيبٌ بعبادةِ الله وتركِ عبادة أوثانهم، وبإيفاءِ المكيال والميزان؛ رَدُّوا عليه على سبيلِ الاستهزاء والهُزْءِ بقولِهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، وكان كثيرَ الصلاة، وكان إذا صلَّى تغامَزوا وتضاحَكوا(٢).

اعلَمْ أنَّ شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أمَرهم بشيئينِ: بالتَّوحيد، وتركِ البَخْسِ؛ فالقومُ أنكَروا عليه أمره بهذينِ النَّوعين مِن الطاعة؛ فقوله: ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه أمَرهم بالتَّوحيد، وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه أمَرهم بتركِ البَخْسِ(٣).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا اتَّهموه بالقطيعةِ والسَّفه، شرَع في إبطالِ ما قالوا، ونفيِ التُّهمة فيهنَّ، وأُخرِجَ مخرجَ الجوابِ لِمَن كأنَّه قال: ما أجابهم به؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٥٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٨٦).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٥٧-٣٥٨).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن شُعَيبٍ عليه السلام ما ذكَره في الجواب عن كلماتهم، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١).

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا بيَّن لهم عُذْرَه بما انتفت به تُهْمتُه، أتبَعه بما يدُلُّهم علىٰ أنَّ الحقَّ وضَح لهم وضوحًا لم يَبقَ معه إلا المعانَدةُ، فحذَّرهم عواقبَها، وذكَّرهم أمرَ مَن ارتكَبها، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (٢).

ثم ناداهم محذِّرًا إيَّاهم مِن اللَّجاج والعناد، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (٣).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

ولمَّا رهَّبهم، أتبَعه الترغيبَ في سياقٍ مُؤذِنٍ بأنَّهم إن لم يبادِروا إلىٰ المتاب؛ بادَرهم العذابُ، بقولِه عاطفًا لهذا الأمرِ علىٰ ذلك النَّهيِ المتقدِّم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٨٧).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٦٠).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٧٣).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٦١).

اعلَمْ أنَّ هذا الترتيبَ الذي راعاه شُعَيبٌ عليه السلام في ذِكْرِ هذه الوجوهِ الخمسة ترتيبٌ لطيفٌ؛ وذلك لأنَّه بيَّن أولًا أنَّ ظهورَ البيِّنة له وكثرةَ إنعامِ الله تعالىٰ عليه في الظاهرِ والباطن يَمنَعه عن الخيانةِ في وحيِ الله تعالىٰ، ويصُدُّه عن التهاونِ في تكاليفه، ثم بيَّن ثانيًا أنَّه مواظِبٌ علىٰ العمل بهذه الدعوةِ، ولو كانت باطلةً، لَمَا اشتغَل هو بها، مع اعترافِكم بكونه حليمًا رشيدًا، ثم بيَّن صحَّتَه بطريقٍ آخرَ؛ وهو أنَّه كان معروفًا بتحصيلِ موجِبات الصلاح، وإخفاءِ موجِبات الفِتَن، فلو كانت هذه الدعوةُ باطلةً لَمَا اشتغَل بها، ثم لمَّا بيَّن صحَّة طريقتِه، أشار إلىٰ نفيِ المُعارِض، وقال: لا ينبغي أن تَحمِلكم عداوتي علىٰ مذهبٍ ودِينٍ تقعون بسببِه في العذابِ الشديد مِن الله تعالىٰ؛ كما وقَع فيه أقوامُ الأنبياء المتقدِّمين، ثم إنَّه لمَّا صحَّح مذهبَ نفسِه بهذه الدَّلائلِ، عاد إلىٰ تقريرِ ما ذكَره أولًا -وهو التوحيدُ والمنعُ مِن البَخْسِ- بقولِه: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، ثم بيَّن لهم أنَّ سَبْقَ الكفرِ والمعصية منهم لا ينبغي أن يَمنَعَهم مِن الإيمان والطاعة؛ لأنَّه تعالىٰ رحيمٌ ودود، يَقبَل الإيمانَ والتوبة مِن الكافرِ والفاسق؛ لأنَّ رَحْمتَه وحُبَّه لهم يوجِب ذلك، وهذا التَّقريرُ في غايةِ الكمال(١).

ثم إنَّه عليه السلام لمَّا أنذَرهم سُوءَ عاقبةِ صنيعهم، عقَّبه -طمعًا في ارْعِوَائِهم عمَّا هم فيه مِن الضَّلال- بالحملِ علىٰ الاستغفار والتَّوبة، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٠).

(٢) روح المعاني (٦/ ٣١٧).

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾

فلمَّا رأَوْه لا يَنزِعُ عنهم، ولم يَقدِروا لكلامه على جوابٍ؛ أيأسوه مِن الرجوعِ إليه؛ بأن أنزَلوا أنفسَهم -عنادًا في الفهمِ لهذا الكلامِ الواضح جدًّا- إلى عدادِ البهائم، وهدَّدوه، فأخبَر تعالى عنهم بذلك استئنافًا في جوابِ مَن يقول: ما قالوا بعد هذا الدعاءِ الحسَنِ؟ بقولِه: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا بالَغ في التَّقريرِ والبيان، أجابوه بكلماتٍ فاسدةٍ؛ ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾[(٢)].

ما زال السياقُ في الحديث عن شُعَيبٍ وقومه، إنَّه بعد الحوارِ الذي دار بَيْنَ شعيبٍ وقومه يقول ويقولون، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ فصيحًا، مؤيَّدًا مِن الله تعالى فيما يقول، فأفحَمَهم، وقطَع الحُجَّةَ عليهم؛ لجَؤوا إلى أسلوبِ القوَّة والتهديد، بل والشَّتم والإهانة، وكان هذا منهم إيذانًا بقُرْبِ ساعةِ هلاكهم، فقالوا فيما قَصَّ تعالى عنهم في هذه الآيات: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٠).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٧٥).

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ ﴾

ولمَّا كان تخصيصُهم نَفْيَ العِزَّةِ به يُفهِم أنَّ رهطَه عليهم أعزَّةٌ، أنكَر عليهم ذلك في سياقٍ مهدِّدٍ لهم، فقال تعالىٰ حاكيًا عنه استئنافًا: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾(١).

لمَّا أرادوا بالكلامِ الذي وجَّهوه إليه تحذيرَه مِن الاستمرارِ علىٰ مخالفةِ دِينِهم، أجابهم بما يفيد أنَّه لم يكُنْ قطُّ مُعوِّلًا علىٰ عِزَّةِ رهطه، ولكنَّه متوكِّلٌ علىٰ الله الذي هو أعَزُّ مِن كلِّ عزيزٍ؛ فالمقصودُ مِن الخبَرِ لازِمُه؛ وهو أنَّه يَعلَم مضمونَ هذا الخبَرِ، وليس غافلًا عنه؛ أي: لقد عَلِمتُ ما رَهْطي أغلَبَ لكم مِن الله، فلا أحتاج إلىٰ أن تعاملوني بأنِّي غيرُ عزيزٍ عليكم، ولا بأنَّ قرابتي فئةٌ قليلةٌ لا تُعجِزُكم لو شئتم رَجْمي(٢).

اعلَمْ أنَّ الكفارَ لمَّا خوَّفوا شعيبًا عليه السلام بالقتلِ والإيذاء، حكىٰ اللهُ تعالىٰ عنه ما ذكَره في هذا المقام(٣).

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ٩٣ ﴾

ولمَّا ختَم الآيةَ بتهديدهم بما بيَّن أنَّ تهديدَهم له عدَمٌ لا يبالي به، أتبَعه ما يُصدِّقه مِن أنَّه ليس بتاركٍ شيئًا مِن عملِه ممَّا جُبِلوا به، وزاد في التَّهديدِ، فقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥١).
(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٢).

ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾[1].

عطفُ نداءٍ علىٰ نداءٍ زيادةً في التَّنبيه؛ والمقصودُ عطفُ ما بعد النداء الثاني علىٰ ما بعد النداء الأول[2].

لمَّا رأىٰ إصرارَهم علىٰ الكفر، وتصميمَهم علىٰ دِينِ آبائهم، وعدمَ تأثير الموعظة فيهم؛ توعَّدهم بأن يَعمَلوا علىٰ غايةِ تمكُّنِهم، ونهايةِ استطاعتهم[3].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فأخذوا الكلامَ علىٰ ظاهره، ولم يَنتفعوا بصادعِ وعيده وباهره، فاستمَرُّوا علىٰ ما هم عليه مِن القبيح، إلىٰ أن جاء أمرُنا في الأجلِ المضروب له؛ قال عاطفًا عليه -وكان العطفُ بالواو؛ لأنَّه لم يَتقدَّمْ وعيدٌ بوقتٍ معينٍ، كما في قصَّتَيْ صالحٍ ولوط عليهما السلام، يَتسبَّب عنه المجيءُ ويَتعقَّبه-: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[4].

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

ولمَّا كان الجُثُومُ قد لا يكون بالموت، أوضَح المرادَ بقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٢).

(٣) فتح القدير (٢/ ٥٩٠).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٣٦٧).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ ﴾

ولمَّا كان شُعَيبٌ خَتَنَ موسىٰ عليه السلام، كان ذِكرُ قصَّته هنا متوقَّعًا، مع ما حرَّك إلىٰ توقُّعها مِن ذِكْرِ كتابه أولَ السُّورة، وما في عصا موسىٰ مِن مناسبةِ ناقةِ مَن ختَم بالتشبيهِ بحالهم، فذكَرها بعدها مفتتِحًا لها بحرفِ التَّوقُّع، فقال مؤكِّدًا -تنبيهًا علىٰ أنَّ فِرْعونَ فعَل فِعْلَ قُرَيشٍ في الإدبارِ عن الآيات العظيمة، ولم يترُكْ موسىٰ عليه السلام شيئًا ممَّا أُوحيَ إليه مِن إنذارِه-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[(١)].

عطف قصَّة علىٰ قصَّة، وعُقِّبت قصَّةُ مَدْيَنَ بذِكْرِ بَعْثةِ موسىٰ عليه السلام لقُرْبِ ما بَيْنَ زمنَيْهما، ولشِدَّةِ الصلة بَيْنَ النبيَّينِ؛ فإنَّ موسىٰ بُعِث في حياةِ شُعَيبٍ عليه السلام، وقد تزوَّج ابنةَ شعيب[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذه هي القصَّةُ السابعة مِن القِصص التي ذكَرها اللهُ تعالىٰ في هذه السُّورةِ، وهي آخِرُ القِصص مِن هذه السُّورة[(٣)].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾

عُقِّب ذِكْرُ إرسالِ موسىٰ عليه السلام بذِكْرِ اتباع الملإ أمرَ فِرْعونَ؛ لأنَّ اتباعَهم أمرَ فِرْعونَ حصَل بأثر الإرسال، ففُهِمَ منه أنَّ فِرْعونَ أمَرهم بتكذيبِ تلك الرسالةِ[(٤)].

فلمَّا أمَرهم موسىٰ عليه السلام باتباعِ الآيات التي جاء بها، والحقِّ، وتَرْكِ الباطل؛ أبَوْا، وامتنَعوا، واتبَعوا أمرَ فِرْعونَ، فأضَلَّهم.

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٥).

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾

ثم أوضَح عدَمَ رُشْدِ أمرِ فِرْعونَ بقولِه: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾(١).

جملةُ ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ يجوز أن تكونَ في موضعِ الحال مِن فِرْعونَ المذكورِ في الجملة قبلها، ويجوز أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا(٢).

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر صفتَه، وصفةَ قومه، فقال: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾(٣).

ولمَّا كان هو مُقدَّمَهم ورئيسَهم، فاتبَعوه في الدُّنيا إلىٰ الهلاك؛ فهو يقدُمُهم يومَ القيامة إلىٰ نارِ جهنَّمَ، فيُورِدهم إيَّاها.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾

ولمَّا كان فِرْعونُ موصوفًا بعِظَمِ الحال، وكثرةِ الجنود والأموال، وضخامةِ المملكة؛ حقَّر تعالىٰ دُنْياه بتحقيرِ جميع الدُّنيا التي هي منها بإسقاطها في الذِّكْرِ اكتفاءً بالإشارة إليها، ولم يُثبِتْها كما في قصَّةِ عادٍ، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾(٤).

ثم ذمَّهم بعد ذمِّ المكان الذي يَرِدُونه، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٧٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٦).
(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٤).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٧٠).
(٥) فتح القدير (٢/ ٥٩٣).

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الأخبارُ علىٰ غايةٍ مِن التَّحذير لا يَعرِفه إلا بالغٌ في العلم، كان مِن المعلوم قطعًا أنَّه ﷺ لم يأتِ بها إلا مِن عندِ الله؛ للعلمِ المُشاهَد بأنَّه لم يُعانِ علمًا، ولا أَلَمَّ بعالمٍ يومًا، هذا مع ما اشتمَلتْ عليه مِن أنواعِ البلاغة، وتضمَّنته مِن أنحاءِ الفصاحة، وأومأت إليه بحُسْنِ سياقاتها مِن صُروفِ الحِكَم، وإفادةِ تفصيلها مِن فنونِ المعارف؛ فلذلك استحَقَّتْ أن يشارَ إليها بأداة البُعْدِ إيماءً إلىٰ بُعْدِ المرتبة وعلوِّ الأمر، فقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ ﴾[1].

استئنافٌ للتَّنويه بشأنِ الأنباء التي مرَّ ذكرُها، واسمُ الإشارة إلىٰ المذكور كلِّه مِن القصص؛ مِن قصَّةِ نوحٍ عليه السلام وما بعدها[2].

ولمَّا ذكَر قصصَ هؤلاء الأُمَمِ مع رُسلِهم، قال اللهُ تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ ﴾[3].

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

ولمَّا كان فيما تقدَّم في هذه السُّورةِ مِن القصصِ أشَدُّ تهديدٍ وأعظم وعيدٍ لِمَن له تبصرةٌ، صرَّح لغليظي الأكباد بأنَّ الموجِبَ للإيقاع بهم إنَّما هو الظُّلْمُ، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ نحوِ أن يقالَ: فعلْنا بهم وأنبأناك به: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٧١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٨).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٨٩).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٧٢).

ضميرُ الغَيْبةِ في ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ عائدٌ إلىٰ القُرىٰ باعتبار أهلها؛ لأنَّهم المقصود، وإنَّما لم يَظلِمْهم اللهُ تعالىٰ؛ لأنَّ ما أصابهم به مِن العذابِ جزاءٌ عن سُوءِ أعمالهم، فكانوا هم الظالمين أنفسَهم؛ إذ جَرُّوا لأنفسِهم العذابَ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن ذلك رَمْيَ قلوبِ العرب بما فيه مِن سهام التَّهديد ليُقلِعوا عمَّا تمكَّنوا فيه مِن عَمَىٰ التَّقليد، قال تعالىٰ مُعلِمًا بأنَّ الذي أوقَعَ بأولئك -لظُلْمِهم- هو لكلِّ ظالمٍ بالمرصاد، سواءٌ ظلَم نفسَه أو غيره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾(٢).

الإشارةُ إلىٰ المذكور مِن استئصالِ تلك القُرىٰ، وهو ما يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾؛ والتَّقدير: وكذلك الأخذُ الذي أخَذْنا به تلك القُرىٰ أخذُ ربِّك إذا أخذ القرىٰ، والتَّشبيهُ في الكيفيَّةِ والعاقبة؛ والمقصودُ مِن هذا التَّذييلِ تعريضٌ بتهديدِ مشركي العرب مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِها(٣).

اعلَمْ أنَّه لمَّا أخبَر الرسولَ ﷺ في كتابه بما فعَل بأُمَمِ مَن تقدَّم مِن الأنبياء لمَّا خالَفوا الرُّسلَ وردُّوا عليهم مِن عذابِ الاستئصال، وبيَّن أنَّهم ظلَموا أنفسَهم، فحَلَّ بهم العذابُ في الدُّنيا؛ قال بعده: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾، فبيَّن أنَّ عذابَه ليس بمقتصِرٍ علىٰ مَن تقدَّم؛ بل الحالُ في أخذِ كلِّ الظالمين يكون كذلك(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٩).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٧٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٠).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٦).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

ولمَّا كان ممَّا جَرَّ هذه القِصَصَ وهذه المواعظ تكذيبُهم لِما يوعَدون مِن العذاب الناشئ عن إنكارِ البعث، أشار تعالىٰ إلىٰ تحقُّق أمرِ الآخرة، وأنَّه ممَّا ينبغي الاهتمامُ به؛ ردًّا للمقطعِ علىٰ المطلع، وإعلامًا بأنَّه لا فَرْقَ بَيْنَه وبين ما تحقَّق إيقاعُه مِن عذابِ هذه الأُمَمِ في القدرة عليه، بقولِه مؤكِّدًا لأجلِ جحودهم أن يكونَ في شيءٍ ممَّا مضىٰ دلالةٌ عليه بوجهٍ مِن الوجوه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1].

بيانٌ للتَّعريض، وتصريحٌ بعد تلويحٍ؛ والمعنىٰ: وكذلك أخذُ ربِّك؛ فاحذَروه، واحذَروا ما هو أشَدُّ منه؛ وهو عذابُ الآخرة[2].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

ولمَّا تقدَّم قولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾، كان كأنَّه قيل في الردِّ عليهم: نحن قادرون علىٰ تعجيلِه، وهو - كما أشَرْنا إليه في هذه الآيةِ - عندنا متىٰ شِئْنا في غايةِ السُّهولة: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[3].

جملةُ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ وبين جملة ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾؛ والمقصودُ الردُّ علىٰ المنكِرين للبعث، مستدِلِّين بتأخيرِ وقوعه في حينِ تكذيبِهم به، يَحسَبون أنَّ تكذيبَهم به يَغِيظُ الله

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٠).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٧٦).

تعالىٰ، فيُعجِّلُه لهم؛ جهلًا منهم بمقامِ الإلهيَّة، فبيَّن اللهُ لهم أنَّ تأخيره إلىٰ أجلٍ حدَّده اللهُ له مِن يومَ خلَق العالَمَ كما حدَّد آجالَ الأحياء[(١)].

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: يا ليتَ شِعْري ماذا يكون حالُ الناس إذا أتىٰ ذلك الأجلُ وفيها الجبابرةُ والرُّؤساء، وذوو العظَمة والكبراء! أُجيبَ بقولِه: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[(٢)].

جملة ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ تفصيلٌ لمدلولِ جملة ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ الآيةَ، وبيَّنت عظَمةَ ذلك اليومِ في الشرِّ والخير تبعًا لذلك التَّفصيلِ، فالمقصدُ الأول مِن هذه الجملةِ هو قولُه: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وما بعده، وأمَّا ما قبله فتمهيدٌ له أفصَحَ عن عظَمةِ ذلك اليوم، وقد جاء نظْمُ الكلامِ علىٰ تقديمٍ وتأخيرٍ اقتضاه وضعُ الاستطراد بتعظيمِ هَوْلِ اليوم في موضعِ الكلام المتصل؛ لأنَّه أسعَدُ بتناسُبِ أغراضِ الكلام، والظروفُ صالحةٌ لاتصالِ الكلام كصلاحيةِ الحروفِ العاطفة وأدواتِ الشَّرط[(٣)].

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا كان أكثرُ الخَلْقِ هالكًا مع أنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ وتهويلٍ، بدأ تعالىٰ بالأشقياءِ ترتيبًا للنَّشر علىٰ ترتيب اللَّف، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٢).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٨٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٣).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٨١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قسَّم أهلَ القيامة إلىٰ هذينِ القِسْمَينِ، شرَح حالَ كلِّ واحدٍ منهما، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١).

ثم ذكَر جزاءَ الأشقياء بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

انتصابُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ علىٰ أنَّها حالٌ مقدَّرة، و﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ ظَرْفيةٌ؛ أي: مدَّةَ دوامِ السمواتِ والأرض، والمرادُ بهذا التوقيتِ التأبيدُ (٢).

ثم ذكَر مدَّةَ عقابِهم بعد ذِكْرِ مصيرِهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

ولمَّا تمَّ أمرُ الأشقياء، عطَف عليه قسيمَهم، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (٣).

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

ولمَّا أخبَره تعالىٰ بوقوع القضاء بتمييز النَّاس في اليومِ المشهود إلىٰ القِسْمَينِ المذكورين علىٰ الحُكْمِ المشروح مُرهِّبًا ومرغِّبًا، كان ذلك كافيًا في الثَّباتِ علىٰ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٩٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢١١).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٨٤).

أمرِ الله، والمُضِيِّ لإنفاذِ جميع ما أُرسِلَ به -وإن شَقَّ- اعتمادًا علىٰ النُّصرةِ في ذلك اليومِ بحضرةِ تلك الجموعِ، فكان ذلك سببًا للنَّهيِ عن القلقِ في شيءٍ مِن الأشياء، وإن جَلَّ وَقْعُه، وتعاظَم خَطْبُه، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[1].

تفريعٌ علىٰ القِصَصِ الماضية؛ فإنَّها تُكسِبُ سامعها يقينًا بباطلِ ما عليه عبَدةُ الأصنام، وبخَيْبةِ ما أمَّلوه فيهم مِن الشفاعةِ في الدُّنيا، وإنَّ سابِقَ شقائهم في الدُّنيا بعذابِ الاستئصال يُؤذِنُ بسُوءِ حالِهم في الآخرة، ففرَّع علىٰ ذلك نَهْيَ السَّامع أن يشُكَّ في سُوءِ الشرك وفسادِه[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ قصصَ عبَدةِ الأوثان مِن الأُمَمِ السالفة، وأتبَع ذلك بذِكرِ أحوالِ الأشقياء والسعداء؛ شرَح للرسول ﷺ أحوالَ الكفار مِن قومه، وأنَّهم مُتَّبِعو آبائهم كحالِ مَن تقدَّم مِن الأُمَمِ في اتباع آبائهم في الضَّلال، وأنَّ ديدنَهم كديدنِ الأُمَمِ الماضية في التَّقليد، والعَمَىٰ عن النَّظر في الدَّلائلِ والحُجَج، وهذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وعِدَةٌ بالانتقامِ منهم؛ إذ حالُهم في ذلك حالُ الأُمَمِ السالفة، والأُمَمُ السالفة قد قصَصْنا عليك ما جرىٰ لهم مِن سُوءِ العاقبة[3].

لمَّا فرَغ اللهُ سبحانه مِن أقاصيصِ الكفرة، وبيانِ حالِ السُّعداء والأشقياء؛ سلَّىٰ رسولَه صلىٰ الله عليه وآله وسلم بشرحِ أحوال الكفرةِ مِن قومه في ضِمْنِ النَّهيِ له عن الامتراءِ في أنَّ ما يعبُدونه غيرُ نافعٍ ولا ضارٍّ، ولا تأثيرَ له في شيءٍ[4].

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٨٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٧).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٢١٥).
(٤) فتح القدير (٢/ ٥٩٩).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر في هذه الآيةِ إعراضَهم عن الاتِّباع مع ما أتىٰ به مِن المُعجزات، وأُنزِلَ عليه مِن الكتاب؛ سلَّاه بأخيه عليه السلام؛ لأنَّ الحالَ إذا عَمَّ خفَّ، وابتدأ ذِكْرَه بحرفِ التَّوقُّع بما دعا إلىٰ توقُّعِه مِن قُرْبِ ذِكْرِه مع فِرْعونَ مع ذِكْرِ كتابِه أولَ السُّورة، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[1].

اعتراضٌ لتثبيتِ النبي ﷺ، وتسليتِه بأنَّ أهلَ الكتاب -وهم أحسَنُ حالًا مِن أهلِ الشرك- قد أوتوا الكتابَ فاختلَفوا فيه، وهم أهلُ ملَّةٍ واحدةٍ؛ فلا تأْسَ مِن اختلافِ قومك عليك، فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾[2].

لمَّا بيَّن تعالىٰ إصرارَ كفارِ مكَّةَ علىٰ إنكارِ التوحيد ونبوَّة الرسول والقرآن الذي أتىٰ به، بيَّن أنَّ الكفارَ مِن الأُمَمِ السابقة كانوا علىٰ هذه السيرةِ الفاجرة مع أنبيائهم، فليس ذلك ببِدْعٍ ممَّن عاصَر الرسولَ ﷺ، وضرَب لذلك مثَلًا؛ وهو: إنزالُ التوراةِ علىٰ موسىٰ، فاختلَفوا فيها[3].

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تذييلٌ للأخبارِ السابقة، والواوُ اعتراضية؛ والتَّقدير: وإنَّ كلَّهم؛ أي: كلَّ المذكورين آنفًا مِن أهلِ القرىٰ، ومِن المشركين المعرَّضِ بهم، ومِن المختلِفين في الكتاب، مِن أتباعِ موسىٰ عليه السلام[4].

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٩).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٢١٦).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٣).

ثم جمَع الأوَّلين والآخِرين في حُكْم توفيةِ العذاب لهـم، (أو هـو والثَّواب)، فقـال: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾

فإذا عَلِمتَ أنَّ شأنَك في أمَّتِك شأنُ الرُّسلِ في أُمَمِهـم، وأنَّـه لا بـد مِـن الاختلافِ في شأن الرسول والكتابِ -كما جرَتْ بذلك السُّنةُ الإلهيَّة-، وأنَّ الجزاءَ بالأعمالِ كلِّها لا بد منه؛ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾[2].

ترتَّب عن التسليةِ التي تضمَّنها قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾، وعن التَّثبيت المُفادِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾: الحضُّ علىٰ الدوامِ علىٰ التَّمسُّك بالإسلام علىٰ وجهٍ قويم، وعبَّر عن ذلك بالاستقامةِ لإفادة الدَّوام علىٰ العملِ بتعاليمِ الإسلام دوامًا جِماعُه الاستقامةُ عليه، والحذَرُ مِن تغييره[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أطنَب في شرحِ الوعد والوعيد، قال لرسوله ﷺ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾، وهذه الكلمةُ كلمةٌ جامعةٌ في كلِّ ما يتعلَّق بالعقائد والأعمال، سواءٌ كان مختصًّا به أو كان متعلِّقًا بتبليغِ الوحيِ وبيانِ الشرائع[4].

لمَّا بيَّن أمرَ المختلِفين في التوحيدِ والنُّبوَّة، وأطنَب سبحانه في شرحِ الوعد والوعيد؛ أمَر رسولَه ﷺ بالاستقامةِ مثلَ الاستقامةِ التي أُمِر بها[5].

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٩٩).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٠٦).

(٥) روح المعاني (٦/ ٣٤٥).

لمَّا أخبَر بعدمِ استقامتهم التي أوجَبتِ اختلافَهم وافتراقهم، أمَر نبيَّه محمَّدًا ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين أن يستقيموا كما أُمِروا، فيسلُكوا ما شرَعه اللهُ مِن الشرائع، ويَعتقدوا ما أخبَر اللهُ به مِن العقائدِ الصحيحة، ولا يَزيغوا عن ذلك يَمْنةً ولا يَسْرةً، ويَدُوموا علىٰ ذلك، ولا يَطغَوْا؛ بأن يَتجاوزوا ما حدَّه اللهُ لهم مِن الاستقامة[1].

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾

ولمَّا نهىٰ عن الإفراطِ في الدِّين، أتبَعه النَّهيَ عن التَّفريطِ بالتَّقصير فيه؛ بسُفولِ الهِمَمِ علىٰ وجهٍ عامٍّ، وكان الحُبُّ في الله والبُغْض فيه أوثَق عُرَىٰ الإيمانِ، إشارةً إلىٰ ضِدِّه الذي هو أوثَقُ عُرَىٰ الشيطان، فقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[2].

بعد أن نهاهم عن الطُّغيان، نهاهم عن التَّقارب مِن المشركين؛ لئلا يُضِلُّوهم ويُزِلُّوهم عن الإسلام[3].

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾

ولمَّا كان العلمُ حاصلًا بما سبَق مِن الحُكْمِ مِن أنَّ الآدميَّ محَلُّ العجزِ والتَّقصير، أتبَع ذلك بأعلىٰ مُكفِّرٍ لِما يوجِبُه العجزُ ويَقضِي به الفتورُ والوهنُ مِن الصَّغائر،

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٩٠).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٩٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٨).

وأعَمِّه وأجلَبِه للاستقامة؛ وذلك يدلُّ على أنَّها بعد الإيمانِ أفضَلُ العبادات، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا أمَره بالاستقامة، أردَفه بالأمرِ بالصلاة؛ وذلك يدلُّ على أنَّ أعظَمَ العباداتِ بعد الإيمانِ بالله هو الصلاةُ(٢).

لمَّا ذكَر اللهُ سبحانه الاستقامةَ، خَصَّ مِن أنواعها إقامةَ الصلاة؛ لكونِها رأسَ الإيمان(٣).

لمَّا نهى عن الرُّكونِ إلى الظَّلمةِ، أمَر بإقامةِ الصلاة.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ولمَّا كان الصبرُ للهِ على المكارِهِ أعلى الطاعةِ، أتبَع ذلك قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

مناسبةُ وقوعِ الأمر بالصبر عَقِب الأمرِ بالاستقامة والنَّهيِ عن الرُّكونِ إلى الذين ظلَموا: أنَّ المأموراتِ لا تخلو عن مشقَّةٍ عظيمةٍ، ومخالَفةٍ لِهَوَى كثيرٍ مِن النُّفوس؛ فناسَب أن يكونَ الأمرُ بالصَّبر بعد ذلك؛ ليكونَ الصَّبرُ على الجميعِ، كلٌّ بما يناسبه(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٠٧).

(٣) فتح القدير (٢/ ٦٠٢).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٩٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٢).

ثم أمَر تعالىٰ بالصَّبرِ علىٰ التَّبليغ والمكارهِ في ذاتِ الله بعد ما تقدَّم مِن الأوامرِ والنَّواهي، ومنبِّهًا علىٰ محَلِّ الصَّبر؛ إذ لا يَتِمُّ شيء ممَّا وقَع الأمرُ به والنَّهيُ عنه إلا به، وأتىٰ بعامٍّ -وهو قولُه: ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾- ليندرِجَ فيه كلُّ مَن أحسَن بسائرِ خصال الإحسان ممَّا يُحتاج إلىٰ الصَّبرِ فيه، وما قد لا يُحتاجُ؛ كطَبْعِ مَن خُلِق كريمًا، فلا يَتكلَّف الإحسانَ؛ إذ هو مركوزٌ في طبعِه[١].

ثم أمَر بالصبرِ بعد الأمرِ بإقامة الصلاة؛ لأنَّ إقامتَها تحتاجُ إلىٰ صبرٍ ومصابَرة.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾

ولمَّا كان ما تقدَّم كلُّه مشيرًا إلىٰ استبعادِ إيمان المعانِدين بشيءٍ مِن تدبير آدميٍّ كما تكاد القِصَصُ تنطقُ به، وكذا الإعلام بأنَّ عبادتَهم إنَّما هي للتَّقليد، وباختلافِ قومِ موسىٰ في كتابه الذي هو هُدًىٰ ورحمةٌ، وكلُّ ذلك فَطْمًا عن طلبِ ما قد يهجسُ في الخاطر مِن تَمنِّي إجابتِهم إلىٰ ما يَقترحون، أو الكفِّ عن بعضِ ما يَغِيظُ مِن الإنذار، وكان مِن طبعِ البشَرِ البُعْدُ عن الانتهاءِ عن الخواطر إلا بعد التَّجرِبة؛ كان ذلك ربما أوجَبَ أن يقالَ: لو أُجيبوا إلىٰ سؤالهم، لربما رجَعوا عن كثيرٍ ممَّا هم فيه، فدعَاهم ذلك إلىٰ الرَّشاد، فتسبَّب عنه أن يقالَ دفعًا له: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[٢].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٢٤).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٣٩٧).

هذا قويُّ الاتصال بقولِه تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾، فيجوز أن يكونَ تفريعًا عليه، ويكونَ ما بينهما اعتراضًا دعا إليه الانتقالُ الاستطراديُّ في مَعانٍ متماسكةٍ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الأُمَمَ المتقدِّمين حَلَّ بهم عذابُ الاستئصال، بيَّن أنَّ السببَ فيه أمرانِ: السَّبب الأول: أنَّه ما كان فيهم قومٌ يَنهَون عن الفسادِ في الأرض، والسبب الثاني: أنَّهم اتَّبَعوا طلَبَ الشَّهواتِ واللَّذات، واشتغَلوا بتحصيلِ الرِّياسات(٢).

هذا عَوْدٌ إلىٰ أحوالِ الأُمَمِ الخالية؛ لبيانِ أنَّ سبَبَ حلولِ عذابِ الاستئصال بهم أنَّه ما كان فيهم مَن يَنهَىٰ عن الفساد، ويأمر بالرَّشاد(٣).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾

ولمَّا لاحَ بما مضىٰ أنَّ العِبْرَةَ في الإهلاك والإنجاء للأكثَرِ، قرَّره وأكَّده وبيَّنه بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٤).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مضمونُ الجملةِ المعطوفِ عليها مِن تعرُّض المجرمين لحلولِ العقاب بهم بِناءً علىٰ وصفِهم بالظُّلم والإجرام، فعقَّب ذلك بأنَّ نزولَ العذاب ممَّن نزَل به منهم لم يكُنْ ظُلْمًا مِن الله تعالىٰ، ولكنَّهم جَرُّوا لأنفسهم الهلاكَ بما أفسَدوا في الأرض، واللهُ لا يحبُّ الفسادَ(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٠٩).

(٣) فتح القدير (٢/ ٦٠٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٤٠٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٦).

ثم أخبَر تعالىٰ أنَّه لم يُهلِكْ قريةً إلا وهي ظالمةٌ لنفسِها، ولم يأتِ قريةً مصلحةً بأسُه وعذابُه قطُّ حتَّىٰ يكونوا هم الظالمين[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

ولمَّا كان مِثْلُ هذه الآياتِ ربما أوهَم أنَّ إيمانَ مِثْلِ هؤلاء ممَّا لا يدخُلُ تحت المشيئة، نفىٰ ذلك الوهمَ مبيِّنًا انفكاكَ المشيئة عن الأمر بقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2].

لمَّا كان النَّعْيُ علىٰ الأُمَم الذين لم يقَعْ فيهم مَن يَنهَون عن الفساد فاتَّبَعوا الإجرام، وكان الإخبارُ عن إهلاكهم بأنَّه ليس ظُلْمًا مِن الله، وأنَّهم لو كانوا مصلِحِين لَما أُهلِكوا؛ لمَّا كان ذلك كلُّه قد يُثِير توهُّمَ أنَّ تَعاصيَ الأُمَمِ عمَّا أراد اللهُ منهم خروجٌ عن قبضة القدرة الإلهيَّة، أعقَب ذلك بما يَرفَع هذا التَّوهُّمَ؛ بأنَّ اللهَ قادرٌ أن يجعلَهم أمَّةً واحدةً متفِقةً علىٰ الحق، مستمِرةً عليه، كما أمَرهم أن يكونوا[3].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ولمَّا أشعَر الاختلافُ بأنَّه اختلافٌ في الدِّين، وأنَّ معناه العدولُ عن الحقِّ إلىٰ الباطل؛ لأنَّ الحقَّ لا يَقبَل التَّعدُّدَ والاختلاف؛ عقَّب عمومَ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناءِ مَن ثبَتوا علىٰ الدِّين الحق ولم يُخالِفوه بقولِه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ أي: فعصَمهم مِن الاختلاف[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٤٠١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٩).

بعد أن ذكَر أنَّهم لا يَزالون مختلِفين، ناسَب أن يذكُرَ ثمرةَ الاختلاف في هذه الآية.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بما فُعِل بالقُرَىٰ الظالمة، وحذَّر كلَّ مَن فعَل أفعالهم بسطَواته في الدُّنيا والآخرة، وأمَر باتِّباعِ أمرِه، والإعراضِ عن اختلافهم الذي حكَم به وأراده؛ عطَف على قوله: ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ قولَه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

هذا تذييلٌ وحوصلةٌ لِما تقدَّم مِن أنباءِ القُرَىٰ وأنباءِ الرُّسل؛ فجملةُ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ إلى آخرِها عطفُ الإخبارِ على الإخبار، والقصَّةِ على القصَّة، ولك أن تَجعَلَ الواوَ اعتراضيةً أو استئنافيةً، وهذا تهيئةٌ لاختتامِ السُّورة، وفَذْلكةٌ لِما سِيقَ فيها مِن القِصص والمواعظ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر القِصَصَ الكثيرة في هذه السُّورةِ، ذكَر في هذه الآيةِ نوعينِ مِن الفائدة: الفائدة الأولى: تثبيتُ الفؤاد على أداءِ الرسالة، وعلى الصبرِ واحتمالِ الأذى. والفائدة الثانية: أنَّه تعالى بيَّن أنَّه جاء في هذه السُّورةِ أمورٌ ثلاثةٌ: الحقُّ، والموعظة، والذِّكرى(٣).

ولمَّا ذكَر تعالى فيما تقدَّم مِن أنباءِ الأُمَمِ الماضية والقرون الخالية ما جرَى لهم مع أنبيائهم، أشار هنا إلى سرِّ ذلك وحِكْمتِه بقولِه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٤٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤١٢).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٤٢).

لمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ الأنبياء ما ذكَر، ذكَر الحِكْمةَ في ذِكْرِ ذلك، فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

ولمَّا ذكَر نَفْعَ هذا الحقِّ، كان كأنَّه قيل: فعِظْهم بذلك، وذكِّرهم به، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٢].

عطفٌ على جملة ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ الآية؛ لأنَّها لمَّا اشتملت على أنَّ في هذه القصَّةِ ذِكْرَىٰ للمؤمنين، أمَر بأن يخاطِبَ الذين لا يؤمنون بما فيها خطابَ الآيِسِ مِن انتفاعهم بالذكرى، الذي لا يعبأ بإعراضهم، ولا يصُدُّه عن دَعْوتِه إلى الحقِّ تألُّبهم على باطِلِهم، ومقاوَمتُهم الحقَّ؛ فلا جرَمَ كان قولُه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عديلًا لقوله: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا القولُ مأمورٌ أن يقولَه على لسانِه ولسان المؤمنين[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بلَغ الغايةَ في الإعذارِ والإنذار، والترغيبِ والترهيب؛ أتبَع ذلك بأن قال للرسول: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٤].

وأمَّا مَن ليس مِن أهلِ الإيمان، فلا تنفعهم المواعظُ، وأنواعُ التذكير؛ ولهذا قال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٥].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٩٢).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٤٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤١٣).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٣٩٢).

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾

ثم هدَّد وتوعَّد بقولِه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾

ولمَّا تضمَّن هذا التَّهديدُ العلمَ والقدرة، قال -عاطفًا على ما تقديرُه: فللهِ كلُّ ما شُوهِد مِن أمرِنا وأمرِكم وأمرِ عالَمِ الغيب والشَّهادة كله-: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

كلامٌ جامعٌ، وهو تذييلٌ للسُّورة مؤذِنٌ بختامها؛ فهو مِن براعةِ المقطع، والواوُ عاطفةٌ كلامًا على كلامٍ، أو واوُ الاعتراض في آخرِ الكلام، ومثلُه كثيرٌ[٢].

ثم إنَّه تعالى ذكَر خاتمةً شريفةً عاليةً، جامعةً لكلِّ المطالب الشَّريفة المقدَّسة، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤١٣).

سورة يوسف

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ ﴾

ثم علَّل المُبِينَ بقولِه معبِّرًا بالإنزال لأنَّه في سياقِ تكذيبهم به: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾(1).

استئنافٌ يفيد تعليلَ الإبانة مِن جهتَيِ لفظِه ومعناه؛ فإنَّ كونَه قرآنًا يدلُّ على إبانةِ المعاني؛ لأنَّه ما جُعِل مقروءًا إلا لِما في تراكيبِه مِن المعاني المفيدة للقارئ، وكونَه عربيًّا يفيد إبانةَ ألفاظِه المعانيَ المقصودة لِلَّذين خُوطِبوا به ابتداءً؛ وهم العربُ(2).

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه يقُصُّ عليه مِن أنباءِ الرُّسلِ ما يثبِّتُ به فؤاده، قال مثبِّتًا ومعلِّلًا بأنَّه الكتابُ بعلَّةٍ أخرى مشاهَدةٍ هي أخصُّ مِن الأُولى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾(3).

---

(1) نظم الدرر (١٠/ ٦).

(2) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠١).

(3) نظم الدرر (١٠/ ٦).

هـذه الجملـةُ تتنـزَّل مِـن جملـة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ منزلـةَ بـدلِ الاشـتمال؛ لأنَّ أحسَنَ القَصص ممَّا يشتمِلُ عليه إنزالُ القرآن، وكـونُ القَصـص مِن عنـدِ الله يَتنـزَّل منزلةَ الاشتمال مِن جملةِ تأكيد إنزاله مِن عندِ الله(١).

📖 ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ 📖

ولمَّـا تـمَّ مـا أراد تعـالىٰ مِـن تعليـلِ الوصـف بـالمُبينِ، أبـدَل مِـن قولـه: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قولَـه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾(٢).

﴿إِذْ قَالَ﴾ بـدلُ اشـتمالٍ أو بعضٍ مِـن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، علىٰ أن يكـونَ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بمعنىٰ المفعول؛ فإنَّ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يشتمِلُ علىٰ قَصَصٍ كثير؛ منه قَصصُ زمانِ قول يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، وما عقَب قولَه ذلك مِن الحوادث، فإذا حُمِل ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ علىٰ المصدرِ، فالأحسَنُ أن يكونَ ﴿إِذْ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه المقام؛ والتَّقدير: اذكُر(٣).

واعلَمْ أنَّ اللهَ ذكَر أنَّه يقُصُّ علىٰ رسولِه أحسَنَ القَصص في هذا الكتابِ، ثم ذكَر هذه القصَّةَ وبسَطها، وذكَر ما جرىٰ فيها؛ فعُلِم بذلك أنَّها قصَّةٌ تامة كاملة حسَنة(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٥).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٩٣).

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

ثم كأنَّه قيل: ماذا قال له أبوه؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[(١)].

جاءت الجملةُ مفصولةً عن التي قبلها علىٰ طريقةِ المحاوَرات[(٢)].

ولمَّا بانَ تعبيرُها ليوسف، قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[(٣)].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾

ولمَّا عَلِم يعقوبُ عليه السلام مِن هذه الرؤيا ما سيَصِيرُ إليه ولَدُه مِن النُّبوَّة والمُلك، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[(٤)].

عُطِف هذا الكلامُ علىٰ تحذيره مِن قَصِّ الرؤيا علىٰ إخوتِه إعلامًا له بعلوِّ قدرِه، ومستقبلِ كماله؛ كي يَزيدَ تَملِّيًا مِن سموِّ الأخلاق، فيتَّسِعَ صدرُه لاحتمال أذىٰ إخوته، وصفحًا عن غَيْرتِهم منه، وحسَدِهم إيَّاه؛ ليَتمحَّضَ تحذيرُه للصَّلاح، وتنتفي عنه مَفسَدةُ إثارةِ البغضاء ونحوها؛ حِكْمةً نبويةً عظيمةً، وطبًّا رُوحانيًّا ناجعًا[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٢).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٩٣).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٥).

ولمَّا نبَّهه عليه السلام على أنَّ لرؤياه شأنًا عظيمًا، وحذَّره ممَّا حذَّره؛ شرَع في تعبيرِها وتأويلِها على وجهٍ إجماليٍّ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا كان ذلك، توقَّع السَّامعُ له ما يكون بَيْنَه وبين إخوته؛ هل يكتُمُهم الرؤيا أو يُعلِمُهم بها؟ وعلى كِلا التَّقديرينِ، ما يكون؟ فقال -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما كان مِن أمرِهم؟ مفتتِحًا له بحرفِ التَّوقُّع والتَّحقيق بعد لامِ القَسَمِ؛ تأكيدًا للأمر، وإعلامًا بأنَّه على أتقَنِ وجهٍ-: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[2].

جملةٌ ابتدائيةٌ، وهي مبدأُ القَصص المقصود؛ إذ كان ما قبله كالمقدِّمة له المنبئة بنباهةِ شأنِ صاحب القصَّة؛ فليس هو مِن الحوادثِ التي لَحِقتْ يوسُفَ عليه السلام؛ ولهذا كان أسلوبُ هذه الجملةِ كأسلوبِ القَصص[3].

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك، ابتدأ بذِكْرِ الآياتِ الواقعة في ظرفِ هذا الكونِ، فقال: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4].

---

(١) روح المعاني (٦/ ٣٧٦).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢١٨).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢١).

﴿ إِذۡ ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿ كَانَ ﴾ مِن قوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾؛ فإنَّ ذلك الزمانَ موقعٌ مِن مواقعِ الآيات؛ فإنَّ في قولهم ذلك حينئذٍ عِبْرةً مِن عِبَرِ الأخلاق التي تنشأ مِن حَسَدِ الإخوة والأقرباء، وعبرةً مِن المجازَفة في تغليطِهم أباهم، واستخفافِهم برأيه؛ غرورًا منهم، وغفلةً عن مراتبِ موجِبات ميلِ الأبِ إلىٰ بعض أبنائه(١).

﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ ﴾

ولمَّا كان ذلك، وكان عندهم أنَّ الشاغلَ الأعظم لأبيهم عنهم إنَّما هو حُبُّ يوسف عليه السلام، وحُبُّ أخيه إنَّما هو تابعٌ؛ كان كأنَّهم تراجَعوا فيما بينهم، فقالوا: قد تقرَّر هذا، فما أنتم صانعون؟ فقالوا أو مَن شاء اللهُ منهم: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾(٢).

جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ المتقدِّم يُثِيرُ سؤالًا في نفوسِ السَّامعين عن غرضِ القائلين ممَّا قالوه؛ فهذا المقصودُ للقائلين، وإنَّما جعَلوا له الكلامَ السَّابق كالمقدِّمة لتتأثَّرَ نفوسُ السَّامعين، فإذا أُلقيَ إليها المطلوبُ، كانت سريعةَ الامتثال إليه(٣).

اعلَمْ أنَّه لمَّا قَوِيَ الحسَدُ وبلَغ النهايةَ، قالوا: لا بد مِن تبعيدِ يوسف عن أبيه، وذلك لا يحصُلُ إلا بأحدِ طريقين: القتلِ، أو التغريبِ إلىٰ أرضٍ يحصُلُ اليأسُ مِن

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٠).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٢).

اجتماعه مع أبيه، ولا وجهَ في الشَّرِّ يبلُغُه الحاسدُ أعظَمُ مِن ذلك، ثم ذكَروا العلَّةَ فيه؛ وهي قولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[(١)].

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

ثم كأنَّه قيل: إنَّ هذا لِمَن أعجَبِ العجَبِ مِن مطلَقِ الأقارب، فضلًا عن الإخوة، فماذا قالوا عند سماعه؟ فقيل: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[(٢)].

فصلُ جملةِ ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ جارٍ على طريقةِ المقاوَلات والمحاوَرات، وهذا القائلُ أحدُ الإخوة؛ ولذلك وُصِف بأنَّه منهم[(٣)].

ثم إنَّه تعالى حكى أنَّ قائلًا قال: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، وكان أحسَنَهم رأيًا فيه، فمنَعهم عن القتل[(٤)].

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم كأنَّه قيل: إنَّ هذا لحسَنٌ مِن حيث إنَّه صرَفهم عن قتله، فهل استمَرُّوا عليه، أو قام منهم قائمٌ في استنزالهم عنه بعاطفةِ الرَّحم ووُدِّ القرابة؟ فقيل: بل استمَرُّوا؛ لأنَّهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٤).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٤).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٥).
(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢٥).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ سَوْقَ القصَّة يستدعي تساؤلَ السَّامع عمَّا جرىٰ بعد إشارةِ أخيهم عليهم، وهل رجَعوا عمَّا بيَّتوا وصمَّموا علىٰ ما أشار به أخوهم؟(١).

لمَّا تقرَّر في أذهانهم التَّفريقُ بَيْنَ يوسف وأبيه، أعمَلوا الحيلةَ علىٰ يعقوبَ، وتلطَّفوا في إخراجه معهم، وذكَروا نُصْحَهم له، وما في إرساله معهم مِن انشراحِ صدرِه بالارتعاء(٢) واللَّعب؛ إذ هو ممَّا يَشرَح الصِّبيانَ، وذكَروا حِفْظَهم له ممَّا يسُوءُه(٣).

ولمَّا تواطَؤوا علىٰ رأيِه، ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾(٤).

لمَّا أجمَع رأيُهم علىٰ أن يُلقُوه في غيابات الجُبِّ، جاؤوا إلىٰ أبيهم، وخاطَبوه بلفظ الأبوَّة استعطافًا له، وتحريكًا للحُنُوِّ الذي جُبِلتْ عليه طبائعُ الآباء للأبناء، وتوسُّلًا بذلك إلىٰ تمامِ ما يريدونه مِن الكيدِ الذي دبَّروه، واستفهَموه استفهامَ المنكِر لأمرٍ ينبغي أن يكونَ الواقعُ علىٰ خلافه، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾(٥).

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ١٢﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ أن يقالَ: لأيِّ غرضٍ يكون ذلك؟ قالوا في جوابه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٧).

(٢) أي: الرعي.

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٤٤).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٥٦).

(٥) فتح القدير (٣/ ١٢).

(٦) نظم الدرر (١٠/ ٢٦).

جملةُ ﴿ أَرْسِلْهُ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الإنكارَ المتقدِّم يُثِير ترقُّبَ يعقوبَ عليه السلام لمعرفةِ ما يريدون منه ليوسفَ عليه السلام[١].

فلمَّا نفَوْا عن أنفسِهم التُّهمةَ المانعةَ مِن عدمِ إرساله معهم، ذكَروا له مِن مصلحةِ يوسف وأُنْسِه الذي يُحِبُّه أبوه له ما يقتضي أن يَسمَحَ بإرساله معهم، فقالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢].

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم كأنَّه قيل: ماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾[٣].

فصلُ جملة ﴿ قَالَ ﴾ جارٍ على طريقةِ المحاوَرة، أظهَر لهم سببَ امتناعِه مِن خروج يوسف عليه السلام معهم إلى الريف بأنَّه يحزُنُه لبُعْدِه عنه أيامًا، وبأنَّه يَخشَى عليه الذئابَ؛ إذ كان يوسف عليه السلام حينئذٍ غلامًا، وكان قد رُبِّيَ في دعَةٍ، فلم يكُنْ مَرِنًا بمقاوَمة الوحوش، والذئابُ تجترئ على الذي تُحِسُّ منه ضَعْفًا في دفاعها[٤].

اعلَمْ أنَّهم لمَّا طلَبوا منه أن يُرسِلَ يوسفَ معهم، اعتذَر إليهم بشيئين: أحدهما: أنَّ ذَهابَهم به ومفارَقتَهم إيَّاه ممَّا يحزُنُه؛ لأنَّه كان لا يَصبِرُ عنه ساعةً. والثاني: خوفُه عليه مِن الذئب إذا غفَلوا عنه برَعْيِهم، أو لَعِبِهم؛ لقلَّة اهتمامِهم به[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٩).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٩٤).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢٦-٢٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٠).
(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٦).

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالِ مَن يقول: فماذا قال يعقوبُ عليه السلام؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾(1).

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: إنَّ تلقِّيَهم لمثلِ هذا لَعجَبٌ، فماذا قالوا؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(2).

فأبَوْا إلا المراجعةَ، قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(3).

عدَل إخوةُ يوسف عن أحدِ الشيئين -وهو حُزْنُه علىٰ ذَهابهم به- لِقِصَرِ مدَّةِ الحزنِ، وإيهامِهم أنَّهم يَرجِعون به إليه عن قريبٍ، وعدَلوا إلىٰ قضيَّةِ الذئبِ -وهو السَّبب الأقوىٰ في منعه أن يذهبوا به-، فحلَفوا له لئن كان ما خافه مِن خَطْفةِ الذئبِ أخاهم مِن بينِهم، وحالُهم أنَّهم عشرةُ رجالٍ، بمثلِهم تُعصَب الأمور، وتُكفَى الخطوبُ: إنَّهم إذًا لقومٌ خاسرون؛ أي: هالكون ضَعفًا وخَورًا وعَجزًا، أو مستحِقُّون أن يَهلِكوا؛ لأنَّهم لا غِنَىٰ عندهم، ولا جدوىٰ في حياتهم(4).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: إنَّ هذا الكيدَ عظيمٌ، وخَطْبٌ جسيمٌ، فما فعَل أبوهم؟ فقيل: أجابهم إلىٰ سؤلِهم، فأرسَله معهم، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(5).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٥٧).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٢).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٤٧).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢٨).

تفريعُ حكايةِ الذَّهاب به والعزمِ علىٰ إلقائه في الجُبِّ علىٰ حكايةِ المحاوَرة بَيْنَ يعقوبَ عليه السلام وبنيه في محاولة الخروجِ بيوسف عليه السلام إلىٰ البادية يؤذِنُ بجُمَلٍ محذوفةٍ، فيها ذِكْرُ أنَّهم ألَحُّوا علىٰ يعقوبَ عليه السلام حتىٰ أقنَعوه، فأَذِن ليوسف عليه السلام بالخروجِ معهم، وهو إيجازٌ (١).

اعلَمْ أنَّه لا بد مِن الإضمار في هذه الآيةِ في موضعينِ: الأول: أنَّ تقديرَ الآية قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فأَذِن له وأرسَله معهم، ثم يتَّصل به قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾. والثاني: أنَّه لا بد لقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ مِن جوابٍ؛ إذ جوابُ «لمَّا» غيرُ مذكورٍ؛ وتقديرُه: فجعَلوه فيها، وحذفُ الجواب في القرآن كثيرٌ؛ بشرطِ أن يكونَ المذكورُ دليلًا عليه، وهاهنا كذلك (٢).

بَيْنَ هذه الجملةِ والجُمَل التي قبلها محذوفٌ يدلُّ عليه المعنىٰ؛ تقديرُه: فأجابهم إلىٰ ما سألوه، وأرسَل معهم يوسف، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ (٣).

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّه ليس بعد هذا الفعلِ إلا الاعتذارُ، عطَف علىٰ الجوابِ المقدَّر قولَه: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ﴾ دُونَ يوسفَ عليه السلام ﴿عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ (٤).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ عَطْفَ جزءِ القصَّة (٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٤٧).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢٩-٣٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٥).

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾

لمَّا طرَحوا يوسفَ في الجُبِّ، رجَعوا إلىٰ أبيهم وقتَ العشاء، فعند ذلك فَزِع يعقوبُ، وقال: هل أصابكم في غنَمِكم شيءٌ؟ قالوا: لا، قال: فما فعَل يوسفُ؟ قالوا: ﴿ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾(1).

فكأنَّه قيل: إنَّهم إذا بكَوْا، حَقَّ لهم البكاءُ خوفًا مِن الله، وشفقةً علىٰ الأخِ، ولكن ماذا يقولون إذا سألهم أبوهم عن سببه؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾(2).

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾

ولمَّا عَلِموا أنَّه لا يُصدِّقهم مِن وجوهٍ؛ منها: ما هو عليه مِن صحَّةِ الفِراسة؛ لنُورِ القلب، وقوَّة الحدسِ، ومنها: أنَّ الكذبَ في نفسه لا يخلو عن دليلٍ علىٰ بطلانه، ومنها: أنَّ المرتابَ يكاد يُعرِب عن نفسه؛ أعمَلوا الحيلةَ في التَّأكيد بما يُقرِّب قولَهم، فقال تعالىٰ حاكيًا عنهم: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾(3).

وجاؤوا بهذا القميصِ المُلطَّخ بالدَّمِ ليُوهِمَ كونَهم صادقين في مقالتهم(4).

---

(1) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٩).

(2) نظم الدرر (١٠/ ٣٠).

(3) نظم الدرر (١٠/ ٣٥).

(4) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٢٩).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ أمرُهم هذا، وشَبُّوا[(١)] علىٰ أبيهم عليه السلام نارَ الحزنِ؛ التفتت النفسُ إلىٰ الخبَرِ عن يوسف عليه السلام فيما أشار إليه قولُه: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾ الآية، فقال تعالىٰ مُخبِرًا عن ذلك في أسبابه: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ ﴿ وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ عطفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ، وهذا رجوعٌ إلىٰ ما جرىٰ في شأنِ يوسف عليه السلام[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن كيف سهَّل السَّبيلَ في خلاصِ يوسفَ عليه السلام مِن تلك المحنةِ، فقال: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[(٤)].

ثم ذكَر تعالىٰ ما جرىٰ علىٰ يوسفَ في الجُبِّ بعد ما تقدَّم بقولِه: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[(٥)].

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان سرورُهم به - مع ما هو عليه مِن الجمالِ والهَيبة والجلال - مُقتضِيًا لأن يُنافِسوا في أمره، ويُغالُوا بثمَنِه؛ أخبَر تعالىٰ أنَّهم لم يفعلوا ذلك؛ ليعلمَ أنَّ جميعَ

---

(١) أي: أوقدوا.

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٣٢).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ١٦١).

أموره علىٰ نسقٍ واحدٍ في خرقِها للعوائدِ، فقال: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾(١).

إنَّ إخوةَ يوسفَ لمَّا طرَحوا يوسفَ في الجُبِّ ورجَعوا، عادُوا بعد ثلاثٍ يتعرَّفون خبَرَه، فلمَّا لم يرَوْهُ في الجُبِّ، ورأَوْا آثارَ السيَّارة؛ طلَبوهم، فلمَّا رأَوْا يوسفَ، قالوا: هذا عبدُنا أبَقَ منَّا، فقالوا لهم: فبِيعُوه منَّا، فباعوه منهم(٢).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ القِنَّ(٣) يُمتهَنُ، أخبَر تعالىٰ أنَّه أكرَمه عن هذه العادةِ، فقال منبِّهًا علىٰ أنَّ شراءَه كان بمِصْرَ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

ثم أخبَر تعالىٰ عن لُطْفِه بيوسفَ؛ إذ يسَّر له مَن اشتراه في مِصْرَ، فاعتنىٰ به، وأوصىٰ أهلَه، وتوسَّم فيه الخيرَ والصلاح(٥).

لمَّا ذهَب به السيَّارةُ إلىٰ مِصْرَ وباعوه بها، فاشتراه عزيزُ مِصْرَ، فلمَّا اشتراه، أُعجِبَ به، ووصَّىٰ عليه امرأتَه، وقال: ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٦-٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٣٤).

(٣) أي: العبد.

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤٨).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ١٦٣).

(٦) تفسير السعدي (١/ ٣٩٥).

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عمَّا يريدُ بيوسفَ عليه السلام بما ختَمه بالإخبارِ عن قُدْرتِه، أتبَعه الإعلامَ بإيجادِ ذلك الفعل دلالةً علىٰ تمامِ القدرة وشمولِ العلم، فقال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

هذا إخبارٌ عن اصطفاءِ يوسفَ عليه السلام للنُّبوَّة، ذُكِر هنا في ذِكْرِ مبدأِ حلولِه بمِصْرَ لمناسبة ذِكْرِ مِنَّةِ الله عليه بتمكينِه في الأرض، وتعليمِه تأويلَ الأحاديث[2].

وجهُ النَّظم أن يقالَ: بيَّن تعالىٰ أنَّ إخوتَه لمَّا أساؤوا إليه، ثم إنَّه صبَر علىٰ تلك الشدائدِ والمِحَنِ؛ مكَّنه اللهُ تعالىٰ في الأرض، ثم لمَّا بلَغ أشُدَّه آتاه اللهُ الحُكْمَ والعلم؛ والمقصودُ بيانُ أنَّ جميعَ ما فاز به مِن النِّعم كان كالجزاءِ علىٰ صبرِه علىٰ تلك المِحَن[3].

هذه الآيةُ كالتي قبلها، تخلَّلت تضاعيفَ نَظْمِ القصَّة لمعنًىٰ بديعٍ؛ وهو البِدارُ إلىٰ الإعلامِ بنتائجِ صبرِ يوسفَ، وثمراتِ مجاهَداته، وعجائبِ صُنْعِ الله تعالىٰ في مراداته؛ إذ طوىٰ له المِنَحَ في تلك المِحَنِ، وذخَر له السِّيادةَ في تلك العبوديَّة[4].

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّ سببَ النِّعْمةِ عليه إحسانُه، أتبَعه دليلَه، فقال: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٨).
(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٣٦).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٦٤).
(٥) نظم الدرر (١٠/ ٥٦).

عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ، فلا يَلزمُ أن تكونَ هذه القصَّةُ حاصلةً في الوجودِ بعد التي قبلها، وقد كان هذا الحادثُ قبل إيتائه النُّبوَّةَ؛ لأنَّ إيتاءَ النُّبوَّة غلَب أن يكونَ في سِنِّ الأربعين، وقد تعرَّضتِ الآياتُ لتقريرِ ثَباتِ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ العفافِ، والوفاء، وكَرَمِ الخُلق[(١)].

هذا رجوعٌ إلىٰ شرحِ ما جرىٰ علىٰ يوسفَ في مَنزِلِ العزيز بعدما أمَر امرأتَه بإكرامِ مَثْواه مِن مراوَدتِها له وإبائه[(٢)].

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الفعلُ لا يَتِمُّ حُسْنُه إلا إذا كان عند غلَبةِ الهوىٰ وتَرامي الشَّهوة، كما هو شأنُ الرُّجوليَّة؛ قال تعالىٰ ردًّا علىٰ مَن يَتوهَّم ضدَّ ذلك: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ والمقصود: أنَّها كانت جادَّةً فيما راودته، لا مختبِرةً، والمقصودُ مِن ذِكرِ هَمِّها به التَّمهيدُ إلىٰ ذِكْرِ انتفاءِ هَمِّه بها؛ لبيانِ الفَرْقِ بَيْنَ حالَيْهما في الدِّين؛ فإنَّه معصومٌ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٩).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ١٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٢).

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثم ذكَر ﷻ مبالغتَه في الامتناع بالجِدِّ في الهرب دليلًا على إخلاصِه، وأنَّه لم يهُمَّ أصلًا، فقال: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكى عنها أنَّها ﴿هَمَّتْ﴾، أتبَعه بكيفيَّةِ طلبِها وهرَبِه، فقال: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾؛ والمراد: أنَّه هرَب منها، وحاوَل الخروجَ مِن الباب، وعَدَتِ المرأةُ خَلْفَه لتَجذِبَه إلى نفسِها، والاستباقُ طلبُ السَّبق إلى الشيء؛ ومعناه: تبادرا إلى الباب، يجتهد كلُّ واحدٍ منهما أن يَسبِقَ صاحبَه، فإن سبَق يوسفُ فتَح الباب وخرَج، وإن سبَقتِ المرأةُ أمسكت البابَ لئلا يخرُجَ[2].

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ متصِلٌ بقولِه سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ إلخ، وقولُه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إلخ اعتراضٌ جيء به بَيْنَ المعطوفينِ تقريرًا لنزاهتِه عليه السلام؛ والمعنى: لقد همَّت به، وأبى هو، واستبَقا: أي: تسابَقا إلى البابِ؛ على معنَى قصَد كلٌّ مِن يوسفَ عليه السلام وامرأةِ العزيز سَبْقَ الآخَرِ إليه؛ فهو ليخرُجَ، وهي لتَمنعَه مِن الخروج[3].

ولمَّا امتنَع مِن إجابةِ طلبها بعد المراوَدة الشديدة، ذهَب ليهرُبَ عنها، ويبادِرَ إلى الخروج مِن الباب ليَتخلَّص، ويهرُبَ مِن الفتنة، فبادرت إليه، وتعلَّقتْ بثوبه، فشقَّتْ قميصَه، فلمَّا وصَلا إلى الباب في تلك الحالِ، ألفَيا زوجَها لدى البابِ، فرأى أمرًا

(١) نظم الدرر (١٠/ ٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٤٤).

(٣) روح المعاني (٦/ ٤٠٨).

شَقَّ عليه، فبادرت إلىٰ الكذبِ؛ أنَّ المراوَدةَ قد كانت مِن يوسفَ، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾

فكأنَّه قيل: فماذا قال حين قذَفتْهُ بهذا؟ فقيل: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[2].

جملةُ ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ مِن قولِ يوسفَ عليه السلام، وفُصِلت لأنَّها جاءت علىٰ طريقةِ المحاوَرة مع كلامها[3].

لمَّا أَغْرَتْ بيوسفَ، وأظهَرتْ تُهمتَه؛ احتاج إلىٰ إزالةِ التُّهمة عن نفسه، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ولم يَسبِقْ إلىٰ القول أولًا سَترًا عليها، فلمَّا خاف علىٰ نفسِه وعلىٰ عِرْضِه الطَّاهر، قال: ﴿هِىَ﴾، وأتىٰ بضميرِ الغَيْبة إذ كان غلَب عليه الحياءُ أن يُشيرَ إليها ويعيِّنَها بالإشارةِ فيقولَ: هذه راوَدتْني، أو تلك راودتني؛ لأنَّ في المواجَهة بالقبيحِ ما ليس في الغَيْبة[4].

اعلَمْ أنَّ المرأةَ لمَّا ذكَرتْ هذا الكلامَ، ولطَّختْ عِرْضَ يوسفَ عليه السلام؛ احتاج يوسفُ إلىٰ إزالةِ هذه التُّهمة، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وأنَّ يوسفَ عليه السلام ما هتك سِتْرَها في أولِ الأمر، إلا أنَّه لمَّا خاف علىٰ النَّفس وعلىٰ العِرض، أظهَرَ الأمرَ[5].

فبرَّأ نفسَه ممَّا رمَتْهُ به، وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[6].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٧).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٦٠).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٤٥).

(٦) تفسير السعدي (١/ ٣٩٦).

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

هذا مِن القضاءِ بالقرينة البيِّنة؛ لأنَّها لو كانت أمسكَتْ ثوبَه لأجلِ القبض عليه لعقابِه، لكان ذلك في حالِ استقباله له إيَّاها، فإذا أراد الانفلاتَ منها تخرَّق قميصُه مِن قُبُلٍ، وبالعكس إن كان إمساكُه في حالِ فرارٍ وإعراض[١].

ولمَّا كان الشاهدُ مِن أهلها، راعىٰ جهةَ المرأة، فبدأ بتعليق صِدْقِها علىٰ تبيُّنِ كونِ القميص قُدَّ مِن قُبُلٍ، ولمَّا كانت كلُّ جملةٍ مستقِلةً بنفسها، أبرَز اسمَ «كان» بلفظِ المظهرِ، ولم يُضمِرْ؛ ليدُلَّ علىٰ الاستقلال، ولكونِ التَّصريح به أوضَح[٢].

إنَّ هذا الشاهدَ أراد ألا يكونَ هو الفاضحَ لها، ووَثِق بأنَّ انقطاعَ قميصه إنَّما كان مِن دُبُرٍ، فنصَبه أمارةً لصِدْقِه وكَذِبها، ثم ذكَر القِسْمَ الآخَر؛ وهو قَدُّه مِن قُبُلٍ، علىٰ علمٍ بأنَّه لم يَنقدَّ مِن قُبُلٍ حتىٰ يَنفِيَ عن نفسِه التُّهمةَ في الشَّهادة، وقصدِ الفضيحة، ويُنصِفَهما جميعًا، فيذكُرَ أمارةً علىٰ صِدْقِها المعلومِ نفيُه، كما ذكَر أمارةً علىٰ صدقِه المعلومِ وجودُه، ومِن ثَمَّ قدَّم أمارةً علىٰ صدقِها علىٰ أمارةِ صدقِه في الذِّكْرِ؛ إزاحةً للتُّهمة، ووثوقًا بأنَّ الأمارةَ الثانية هي الواقعةُ، فلا يضُرُّه تأخيرُها[٣].

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان المعنىٰ: فنظَر، بنىٰ عليه قولَه: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٧).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٦٢).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ١٧٠).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٦٩).

الذي ﴿رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾: هو العزيزُ لا محالةَ، وقد استبانَ لديه براءةُ يوسفَ عليه السلام مِن الاعتداء على المرأة، فاكتفى بلَوْمِ زوجِه بأنَّ ادِّعاءَها عليه مِن كيدِ النساء؛ فضميرُ جمعِ الإناث خطابٌ لها، فدخَل فيه مَن هُنَّ مِن صِنْفِها، بتنزيلِهنَّ منزلةَ الحواضرِ(١).

فلمَّا رأى مِن حُكْمِ الشَّاهد وبيانِه ما يُوجِب الاستدلالَ على تمييزِ الكاذب مِن الصَّادق، قال لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾

ثم قال العزيزُ آمِرًا له عليه السلام، مُسقِطًا لحرفِ النداء -دلالةً على أنَّ قُرْبَه مِن قلبِه على حالِه-: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾(٢).

ثم أمَر يوسفَ عليه السلام بالإعراض عمَّا رمَتْهُ به؛ أي: عدمِ مؤاخذتِها بذلك، وبالكفِّ عن إعادةِ الخوض فيه، وأمَر زوجَه بالاستغفار مِن ذَنْبِها؛ أي: في اتهامِها يوسفَ عليه السلام بالجرأةِ والاعتداء عليها(٣).

لمَّا ظهَر للقوم براءةُ يوسفَ عليه السلام عن ذلك الفعلِ المنكَر، حكى تعالى عنه أنَّه قال: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٨).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٨).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٤٧).

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾

ولمَّا كان في هذا مِن شرَفِ العفَّةِ ما يدلُّ على كمالِ العصمة، أكَّده تعالى بما يدلُّ على تَسامي حُسْنِه، وتَعالي جمالِه ولُطْفِه؛ لأنَّ العادةَ جرت بأنَّ ذلك إذا كان بعضُه لأحدٍ كان مَظِنَّةً لميلِه؛ لتوفُّرِ الدَّواعي على الميل إليه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[(١)].

ثم ذكَر تعالى أنَّ خبَرَ يوسفَ وامرأةِ العزيز شاع في المدينةِ -وهي مِصْرُ- بقولِه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)].

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾

ثم دلَّ بالفاء على أنَّ كلامَهنَّ نُقِل إليها بسرعةٍ، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[(٣)].

ولمَّا سَمِعتْ أنَّهنَّ يَلُمْنَها على تلك المحبَّةِ المفرطة، أرادت إبداءَ عُذْرِها، فاتخذَتْ مائدةً، ودعَتْ جماعةً مِن أكابرِهنَّ، وأعتدَتْ لهنَّ متكأً[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٧٠).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ١٧١).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٧٠-٧١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٤٨).

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قالت لهنَّ امرأةُ العزيز؟ فقيل: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ النِّسوةَ لمَّا قُلْنَ في امرأةِ العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، عظُمَ ذلك عليها، فجمَعتْهنَّ، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فعند ذلك ذكَرتْ أنَّهنَّ باللَّومِ أحَقُّ؛ لأنَّهنَّ بنظرةٍ واحدةٍ لَحِقَهنَّ أعظَمُ ممَّا نالها مع أنَّه طال مُكْثُه عندها(٢).

فلمَّا تقرَّر عندهنَّ جمالُ يوسفَ الظاهرُ، وأعجَبهنَّ غايةً، وظهَر منهنَّ مِن العُذْرِ لامرأةِ العزيز شيءٌ كثير؛ أرادت أن تُريَهنَّ جمالَه الباطن بالعِفَّةِ التامة، فقالت مُعلِنةً لذلك، ومبيِّنةً لحُبِّه الشديد، غيرَ مباليةٍ، ولأنَّ اللَّوْمَ انقطَع عنها مِن النِّسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(٣).

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٠).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٩٧).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٧٥).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِي قبله مقامُ شِدَّةٍ، مِن شأنِه أن يَسأَلَ سامعُه عن حالِ تَلقِّي يوسفَ عليه السلام فيه لكلامِ امرأة العزيز، وهذا الكلامُ مناجاةٌ لربِّه الذي هو شاهِدُهم؛ فالظاهر أنَّه قال هذا القولَ في نفسه، ويحتمِلُ أنَّه جهَر به في ملَئِهنَّ؛ تأييسًا لهنَّ مِن أن يفعلَ ما تأمرُه به[1].

اعلَمْ أنَّ المرأةَ لمَّا قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وسائرُ النِّسوة سَمِعْنَ هذا التَّهديدَ؛ فالظاهر أنَّهنَّ اجتمَعْنَ على يوسفَ عليه السلام، وقُلْنَ: لا مصلحةَ لك في مخالفةِ أمرِها، وإلا وقَعْتَ في السجنِ، وفي الصَّغار؛ فعند ذلك التجأ إلى اللهِ تعالى، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[2].

ولمَّا سَمِع يوسفُ عليه السلام تهديدَها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3].

فلمَّا سَمِع يوسفُ عليه السلام مقالَها هذا، وعرَف أنَّها عَزْمةٌ منها، مع ما قد عَلِمه مِن نفاذِ قولِها عند زوجِها العزيز؛ قال مُناجيًا لربِّه سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[4].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

عطفُ جملة ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ بفاءِ التَّعقيب إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ عجَّل إجابةَ دعائه الذي تضمَّنه قولُه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥١).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ١٧٣).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٧).

لمَّا قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾، كان ذلك منه تعرُّضًا للدُّعاء، وكأنَّه قال: اللهمَّ اصرِفْ عنِّي كيدَهنَّ؛ فالاستجابةُ مِن الله تعالىٰ له هي بهذا الاعتبار؛ والمعنىٰ: أنَّه لطَف به، وعصَمه عن الوقوعِ في المعصية؛ لأنَّه إذا صرَف عنه كيدَهنَّ، لم يقَعْ شيءٌ ممَّا رُمْنَهُ(١) منه(٢).

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كانت هذه الأمورُ موجِبةً لرِفعته، فكان حينئذٍ أبعَدَ شيءٍ عن السجنِ، لو كان الناسُ متمكِّنين مِن جَرْيِ أمورهم علىٰ حسَبِ السَّديد مِن عقولهم؛ أخبَر تعالىٰ أنَّهم خالَفوا داعيَ السَّداد، واستبدَلوا الغَيَّ بالرَّشاد، لحُكْمِه بأنَّ السجنَ سببٌ عظيمٌ لصرفِ كيدِهنَّ عنه، وإثباتِ العِزِّ والمُكْنةِ له، ففعَلوا - مع علمِهم بأنَّ ذلك ظُلْمٌ وسفَهٌ - إجابةً لغالبِ أمر الله، وإظهارًا لعليِّ قدرِه، بمخالَفةِ العوائدِ مرةً بعد مرةٍ، وهدمِ سَدادِ الأسباب كرَّةً إثرَ كرَّةٍ، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ زوجَ المرأة لمَّا ظهَر له براءةُ ساحة يوسفَ عليه السلام، فلا جرَمَ لم يَتعرَّضْ له، فاحتالت المرأةُ بعد ذلك بجميعِ الحِيَلِ حتىٰ تَحمِلَ يوسفَ عليه السلام علىٰ موافقتِها علىٰ مرادها، فلم يلتفِتْ يوسفُ إليها، فلمَّا أَيِسَتْ منه، احتالت في طريقٍ آخَرَ، وقالت لزوجها: إنَّ هذا العبدَ العبرانيَّ فضَحني في الناس، يقول لهم: إنِّي راوَدتُه عن نفسه، وأنا لا أقدِرُ علىٰ إظهار عُذْري، فإمَّا أن تأذنَ لي فأخرُجَ وأعتذِر، وإمَّا أن

(١) أي: أردنه.

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٧٧).

تَحبِسَه كما حبَسْتَني؛ فعند ذلك وقَع في قلبِ العزيز أنَّ الأصلَحَ حبسُه حتىٰ يسقُطَ عن ألسنةِ الناس ذِكْرُ هذا الحديثِ، وحتىٰ تَقِلَّ الفضيحةُ؛ فهذا هو المرادُ مِن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[1].

لمَّا اشتهَر الخبرُ وبان، وصار الناسُ فيها بَيْنَ عاذرٍ ولائم وقادح؛ ﴿بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[2].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

ولمَّا ذكَر السجنَ، وكان سببًا ظاهرًا في الإهانةِ؛ شرَع سبحانه يقُصُّ مِن أمرِه فيه ما حاصلُه أنَّه جعله سببَ الكرامة؛ كلُّ ذلك بيانًا للغلَبةِ علىٰ الأمرِ، والاتصافِ بصفات القهر، مع ما في ذلك مِن بيانِ تحقُّقِ ما تقدَّم به الوعدُ الوفيُّ ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيرِ ذلك مِن الحِكَمِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3].

في الكلامِ حذفٌ؛ تقديرُه: فسجَنوه، فدخَل معه السجنَ غلامان[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٧٩-٨٠).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٧٥).

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

فلمَّا رآهما بصيرينِ بالأمور، ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾(١).

جملةُ ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا﴾ جوابٌ عن كلامِهما، ففُصِلت على أسلوبِ حكايةِ جُمَلِ التَّحاور، أراد بهذا الجوابِ أن يفترضَ إقبالَهما عليه، وملازمةَ الحديث معه إذ هما يَترقَّبان تعبيرَه الرؤيا، فيُدمِج في ذلك دَعْوتَهما إلى الإيمانِ الصحيح، مع الوعدِ بأنَّه يعبُرُ لهما رؤياهما غيرَ بعيدٍ، وجعَل لذلك وقتًا معلومًا لهم؛ وهو وقتُ إحضارِ طعام المساجين؛ إذ ليس لهم في السِّجْنِ حوادثُ يوقِّتون بها، ولأنَّ انطباقَ الأبواب وإحاطةَ الجدران يحُولُ بينهم وبين رؤيةِ الشمس، فليس لهم إلا حوادثُ أحوالهم؛ مِن طعامٍ، أو نومٍ، أو هبوبٍ منه(٢).

لمَّا كان جوابَ أحدِ السَّائلينِ أنَّه يُصلَب، ولا شكَّ أنَّه متى سَمِع ذلك، عظُمَ حزنُه، وتَشتدُّ نُفْرتُه عن سماعِ هذا الكلامِ؛ فرأى أنَّ الصَّلاحَ أن يُقدِّمَ قبل ذلك ما يؤثِّرُ معه بعلمِه وكلامه، حتى إذا جاء بها مِن بعدِ ذلك، خرَج جوابُه عن أن يكونَ بسببِ تهمةٍ وعداوةٍ(٣).

ثم أشار عليه السلام لهما بأنَّ ما رأَياه سهلُ التَّأويل؛ لوجودِ مثاله في المنام، وأنَّ له عِلْمًا فوقه؛ وهو أنَّه يبيِّنُ لهما كلَّ جليلٍ ودقيقٍ مِن الأمورِ المستقبَلة، وإن لم يكُنْ هناك

(١) نظم الدرر (١٠/ ٨٠-٨١).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٥).

مقدِّمةُ المنام، حتىٰ إنَّ الطعامَ الموظَّف الذي يأتيهما كلَّ يومٍ يبيِّنُه لهما قبل إتيانه، وإنَّ ذلك ليس مِن بابِ الكِهانة؛ بل مِن الفضلِ الرَّباني لِمَن يصطفيه بالنُّبوَّة(١).

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ثم أتبَع ذلك بما يدلُّ على شرَفِ أصله، وقدَّم فضلَه بأنَّه مِن بيتِ النُّبوَّة، ومَعدِن الفُتوَّة؛ ليكونَ ذلك أدعىٰ إلىٰ قَبولِ كلامه، وإصابةِ سهامه، وإفضاءِ مَرامِه، فقال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٢).

أنَّه عليه السلام لمَّا ادَّعىٰ النُّبوَّةَ، وتحدىٰ بالمُعجزة -وهو علمُ الغيب-؛ قرَن به كونَه مِن أهلِ بيت النُّبوَّة، وأنَّ أباه وجَدَّه وجَدَّ أبيه كانوا أنبياءَ الله ورُسُلَه؛ فإنَّ الإنسانَ متىٰ ادَّعىٰ حِرْفةَ أبيه وجَدِّه، لم يُستبعَدْ ذلك منه، وأيضًا فكما أنَّ درجةَ إبراهيمَ عليه السلام وإسحاقَ ويعقوبَ كان أمرًا مشهورًا في الدُّنيا، فإذا ظهَر أنَّه ولَدُهم؛ عظَّموه، ونظَروا إليه بعينِ الإجلال، فكان انقيادُهم له أتَمَّ، وتأثُّرُ قلوبِهم بكلامه أكمَلَ(٣).

هذه الجملةُ إمَّا مسُوقةٌ لبيانِ علَّةِ تعليمِ الله له بالوحي والإلهام، أو كلامٌ مستأنَفٌ، ذُكِر تمهيدًا للدعوة، وإظهارِ أنَّه مِن بيتِ النُّبوَّة؛ لتقوىٰ رغبتُهما في الاستماعِ إليه، والوثوق به(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ١٧٥).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٨٤-٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٦).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٧٦).

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾

ولمَّا أقام لهم الدَّليلَ علىٰ ما هو عليه مِن الدِّين الحَنيفي تبعًا لخلاصةِ الخَلق، بما تقرَّر في الأذهان مِن أنَّ اللهَ تعالىٰ هو المنعِمُ وحده سبحانه، فيجب شكرُه؛ بعد أن قرَّر لهم أمرَ نبوَّتِه، وأقام دليلَها بما يُخبِرُهم به مِن المغيَّبات، ودعاهم إلىٰ ما يجب عليهم مِن التوحيدِ، وهو الإسلامُ، وكان أكثرُ الخَلْقِ -إلا الفَذَّ النادر- يُقِرُّون بالإلٰهِ الحق، ولكنَّهم يُشرِكون به بعضَ خَلْقِه؛ أتبَعه برهانَ التمانعِ علىٰ فسادِ كلِّ ملَّةٍ غيرِ الإسلام، الذي يطابِقُ عليه الأنبياءُ والرُّسل كلهم، تأييدًا لأدلةِ النقل بقاطعِ العقل، فقال -مناديًا لهما باسمِ الصُّحبة، بالأداة التي تقال عند ما له وَقْعٌ عظيمٌ في النُّفوس، في المكانِ الذي تخلُصُ فيه المودَّة، وتُمحَض فيه النَّصيحةُ، وتُصفَّىٰ فيه القلوبُ، ويُتعمَّد الإخلاصُ رجاءَ الخلاص-: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ مُصدَّرٌ بتوجيهِ الخطاب إلىٰ الفَتيَينِ بطريقِ النداء المسترعي سَمْعَهما إلىٰ ما يقوله للاهتمام به[2].

اعلَمْ أنَّه عليه السلام لمَّا ادَّعىٰ النُّبوَّةَ في الآية الأُولىٰ، وكان إثباتُ النُّبوَّة مبنيًّا علىٰ إثباتِ الإلهيَّات؛ لا جرَمَ شرَع في هذه الآيةِ في تقرير الإلهيَّات[3].

ولمَّا ذكَر عليه السلام ما هو عليه مِن الدِّين القويم، تلطَّف في الاستدلالِ علىٰ بطلانِ ما عليه قومُهما مِن عبادة الأصنام، فضرَب لهما مثَلًا يتَّضح به الحقُّ حقَّ اتضاحٍ بقوله: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٤).
(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٧).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٧٦).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا كان الجوابُ لكلِّ مَن يَعقِل: اللهُ خيرٌ، أشار إلىٰ ذلك بجزمِ القول بعد ذلك الاستفهامِ في سَلْبِ صلاحيتِهم قبل هذا الإمكانِ بعدم حياتهم، وعلىٰ تقديرِ حياتهم بعَجْزِهم، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[1].

وبعد أن أثار لهما الشَّكَّ في صحَّةِ إلهيَّةِ آلهتهم المتعدِّدين، انتقَل إلىٰ إبطالِ وجود تلك الآلهةِ علىٰ الحقيقة بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2].

لمَّا كان أكثرُ الخَلْقِ مُقرِّين بوجودِ الإله العالم القادر، وإنَّما الشأنُ في أنَّهم يتَّخِذون أصنامًا علىٰ صورةِ الأرواح الفلكية، ويعبُدونها، ويتوقَّعون حصولَ النَّفع والضرِّ منها؛ لا جرَمَ كان سعيُ أكثَرِ الأنبياءِ في المنع مِن عبادةِ الأوثان، فكان الأمرُ علىٰ هذا القانونِ في زمان يوسفَ عليه السلام؛ فلهذا السببِ شرَع هاهنا في ذِكْرِ ما يدلُّ علىٰ فسادِ القول بعبادة الأصنام، وذكَر أنواعًا مِن الدلائل والحُجَج[3].

ثم خاطَب أهلَ السجنِ كافَّةً، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٦١٤).

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ نُصْحُه، وعَلَا قِدْحُه[1]؛ بإلقائه إليهما ما كان أهَمَّ لهما -لو عَلِمَا-؛ لمآلِه إلىٰ الحياةِ الأبدية، والرِّفعة السَّرمدية: أقبَلَ علىٰ حاجتهما؛ تمكينًا لِما ذكَره، وتأكيدًا للذي قرَّره، فناداهما بالأداةِ الدالة علىٰ أنَّ ما بعدها كلامٌ له موقعٌ عظيمٌ؛ لتجتمعَ أنفسُهما لسماعِ ما يُلقَىٰ إليهما مِن التَّعبير، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[2].

اعلَمْ أنَّه عليه السلام لمَّا قرَّر أمرَ التوحيد والنُّبوَّة، عاد إلىٰ الجوابِ عن السُّؤال الذي ذكَراه[3].

وبعد تحقيقِ الحقِّ، ودعوتِهما إليه، وبيانِه لهما مرتبةَ علمِه؛ شرَع في تفسيرِ ما استفسراه، ولكونِه بحثًا مغايِرًا لِما سبَق، فصَله عنه بتكريرِ الخطاب، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[4].

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا كان كلُّ علمٍ بالنسبة إلىٰ علمِ الله عدمًا، عبَّر عن علمِه بالظنِّ، ويمكِنُ أن يكونَ الظنُّ علىٰ بابِه؛ لكونِه قال ما مضىٰ اجتهادًا بقرائنَ، فيؤخَذُ منه أنَّه يسُوغُ الجزمُ بما

---

(١) القِدْح: أحد سهام الميسر، والمقصود: ارتفع قدره.

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٩٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٠).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٧٨).

أدىٰ إلىٰ ظنٍّ، فقال: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا بطَل هذا السَّببُ الذي أمَر به يوسفُ عليه السلام -وهو تذكيرُ الشَّرابيِّ[2] به-، أثار اللهُ سبحانه سببًا ينفِّذُ به ما أراد مِن رئاسته، وقضىٰ به؛ مِن سجودِ مَن دلَّتْ عليه الكواكبُ، فقال دالًّا علىٰ ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[3].

هذا عطفُ جزءٍ مِن قصَّةٍ علىٰ جزءٍ منها؛ تكملةً لوصفِ خلاصِ يوسفَ عليه السلام مِن السجن[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ إذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابًا، ولمَّا دنا فرَجُ يوسفَ عليه السلام رأىٰ مَلِكُ مِصْرَ في النَّوم سَبْعَ بقراتٍ سمانٍ خرَجْنَ مِن نهرٍ يابس، وسَبْعَ بقراتٍ عِجافٍ، فابتلَعتِ العِجافُ السِّمانَ، ورأىٰ سَبْعَ سُنبلاتٍ خُضْرٍ قد انعقَد حَبُّها، وسَبْعًا أُخَرَ يابساتٍ، فالتَوَتِ اليابساتُ علىٰ الخُضْرِ حتىٰ غلَبْنَ عليها، فجمَع الكهنةَ، وذكَرها لهم[5].

لمَّا أراد اللهُ تعالىٰ أن يُخرِجَ يوسفَ مِن السجن، أرىٰ اللهُ المَلِكَ هذه الرؤيا العجيبةَ، الذي تأويلُها يتناول جميعَ الأمَّة؛ ليكونَ تأويلُها علىٰ يدِ يوسفَ، فيَظهَرَ مِن فضله

(١) نظم الدرر (١٠/ ٩٢).

(٢) أي: صاحب الشراب.

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٣).

ويَبِينَ مِن علمِه ما يكون له رِفْعةً في الدارينِ، ومِن التقاديرِ المناسبة أنَّ المَلِكَ الذي تَرجِعُ إليه أمورُ الرَّعية هو الذي رآها؛ لارتباطِ مصالحِها به؛ وذلك أنَّه رأىٰ رؤيا هالَتْهُ، فجمَع لها علماءَ قومِه وذَوِي الرأي منهم، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾[1].

ولمَّا دنا الفرَجُ مِن يوسفَ عليه السلام برحمتِه تعالىٰ وما هيَّأه مِن الأسباب، رأىٰ فِرْعونُ مِصْرَ هذه الرؤيا التي أشار إليها تعالىٰ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾[2].

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قالوا؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[3].

ثم إنَّه تعالىٰ أعجَزَ المُعبِّرين الذين حضَروا عند ذلك المَلِكِ عن جوابِ هذه المسألةِ، وعمَّاه عليهم؛ ليَصِيرَ ذلك سببًا لخلاصِ يوسفَ عليه السلام مِن تلك المِحْنة[4].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا حالًا مُذكِّرًا للساقي بيوسفَ عليه السلام، أخبَر سبحانه بأنَّه ذكَره بعد نسيانِه، فقال عادلًا عن الفاءِ إيذانًا بأنَّه مِن الملأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٩٩).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ١٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٩٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٤).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ١١٠-١١١).

فلمَّا ظهَر عوَصُ[١] تعبيرِ هذا الحُلُمِ، تذكَّر ساقي المَلِكِ ما جرىٰ له مع يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾[٢].

لمَّا استفتىٰ المَلِكُ في رؤياه، وأعضَلَ علىٰ الملأ تأويلُها؛ تذكَّر الناجي مِن القتلِ -وهو ساقي المَلِكِ- يوسفَ، وتأويلَ رؤياه ورؤيا صاحبِه، وطلَبه إليه ليذكُرَه عند المَلِك[٣].

اعلَمْ أنَّ المَلِكَ لمَّا سأل الملأَ عن الرُّؤيا، واعترَف الحاضرون بالعَجْزِ عن الجوابِ؛ قال الشَّرَابيُّ: إنَّ في الحبسِ رجُلًا فاضلًا صالحًا، كثيرَ العلم، كثيرَ الطاعة، قصَصْتُ أنا والخبَّازُ عليه مَنامَينِ، فذكَر تأويلَهما، فصدَق في الكلِّ، وما أخطأ في حرفٍ، فإن أَذِنْتَ مضيتُ إليه وجئتُك بالجواب؛ فهذا هو قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾[٤].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

فأتاه، فقال الساقي المُرسَلُ بعد وصولِه إليه مُناديًا له بنداءِ القُرْبِ تحبُّبًا إليه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾[٥].

الخطابُ بالنداء مؤذِنٌ بقولٍ محذوفٍ في الكلام، وأنَّه مِن قولِ الذي نجا وادَّكَر بعد أمَّةٍ، وحُذِف مِن الكلام ذِكْرُ إرسالِه ومشيِه ووصوله؛ إذ لا غرضَ فيه مِن القصَّةِ؛ وهذا مِن بديعِ الإيجاز[٦].

---

(١) أي: كونه عويصًا يصعب تفسيره.

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٤).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ١١١).

(٦) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٤).

قولُه: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ فيه محذوفٌ؛ والتقدير: فأُرسِلَ، وأتاه، وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾(١).

فأرسَلوه، فجاء إليه، ولم يعنِّفْهُ يوسفُ عليه السلام على نسيانِه؛ بل استمَع ما يسألُه عنه، فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال له؟ فقيل: قال: تأويلُه أنَّكم ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه عليه السلام ذكَر تعبيرَ تلك الرؤيا، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾(٤).

لمَّا أعلَمَه بالرؤيا، جعَل يفسِّرها له، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾(٥).

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ المشورةَ، رجع إلى بقيَّةِ عبارة الرُّؤيا، فقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٤-٤٦٥).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٩٩).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١١٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٢).

(٦) نظم الدرر (١٠/ ١١٣).

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ثم زادهم علىٰ ذلك قولَه: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (١).

قولُه: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ هو بشارةٌ وإدخالٌ لِمَسرَّةِ الأمل بعد الكلام المُؤيس، وهو مِن لازمِ انتهاء مدَّة الشِّدَّة، ومِن سُنَنِ الله تعالىٰ في حصولِ اليُسْرِ بعد العُسر (٢).

ثم بشَّرهم بعد الفراغِ مِن تأويل الرُّؤيا بمجيءِ العام الثامن مبارَكًا خصيبًا، كثيرَ الخير، غزيرَ النِّعَم؛ وذلك مِن جهةِ الوحي (٣).

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

فجاء الرسولُ فأخبرَ المَلِكَ بذلك، فأعجَبه، ووقَع في نفسِه صِدْقُه، ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ (٤).

في الكلام حذفٌ؛ تقديرُه: فحَفِظ الرسولُ ما أوَّل به يوسفُ الرُّؤيا، وجاء إلىٰ المَلِكِ ومَن أرسَله، وأخبَرهم بذلك، ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ (٥).

اعلَمْ أنَّه لمَّا رجَع الشَّرابيُّ إلىٰ المَلِكِ، وعرَض عليه التَّعبيرَ الذي ذكَره يوسفُ عليه السلام؛ استحسَنه المَلِكُ، فقال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾؛ وهذا يدلُّ علىٰ فضيلةِ العلم؛ فإنَّه سبحانه جعَل عِلْمَه سببًا لخلاصه مِن المِحْنة الدُّنيوية، فكيف لا يكون العلمُ سببًا للخلاصِ مِن المِحَنِ الأُخْروية؟! فعاد الشَّرابيُّ إلىٰ يوسفَ عليه السلام، قال: أجِبِ

(١) نظم الدرر (١٠/ ١١٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٧).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٨٦).
(٤) نظم الدرر (١٠/ ١١٥).
(٥) البحر المحيط (٦/ ٢٨٧).

المَلِكَ، فأبىٰ يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يخرُجَ مِن السجنِ إلا بعد أن ينكشِفَ أمرُه، وتزُولَ التُّهْمةُ بالكليَّة عنه[١].

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا قال يوسفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذلك، وأبىٰ أن يخرُجَ مِن السجنِ قبل تبيُّنِ الأمر؛ رجَع الرسولُ إلىٰ المَلِكِ، فأخبَره بما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكأنَّه قيل: فما فعَل الملك؟ فقيل: قال للنِّسوة بعد أن جمَعهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[٢].

جملةُ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الجُملَ التي سبقَتْها تُثِيرُ سؤالًا في نفسِ السَّامع عمَّا حصَل مِن المَلِكِ لمَّا أُبلِغَ إليه اقتراحُ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع شِدَّة تشوُّقه إلىٰ حضوره بَيْنَ يديه، ووقوعُ هذا بعد جملةِ ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلىٰ آخرها مؤذِنٌ بكلامٍ محذوفٍ؛ تقديره: فرجَع، فأخبَر المَلِكَ، فأحضَر المَلِكُ النِّسوةَ اللائي كانت جمَعتهنَّ امرأةُ العزيز لمَّا أعتَدَتْ لهنَّ متكأً، فقال لهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ إلىٰ آخره[٣].

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا انجلىٰ الأمرُ، أمَر المَلِكُ بإحضاره؛ ليستعينَ به فيما إليه مِن المُلْكِ، لكن لمَّا كانت براءةُ الصِّدِّيقِ أهَمَّ مِن ذلك -وهي المقصودُ مِن رَدِّ الرسول-، قدَّم بقيَّةَ الكلامِ فيها عليه، وليكونَ كلامُه في براءته متصِلًا بكلام النِّسوة في ذلك، والذي دلَّ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٦٦).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٢٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

علىٰ أنَّ ذلك كلامُه ما فيه مِن الحِكَمِ التي لا يَعرِفُها في ذلك الزمانِ غيرُه، فقال بِناءً علىٰ ما تقديرُه: فلمَّا رجَع الرسولُ إلىٰ يوسفَ ﷺ، فأخبَره بشَهادتِهنَّ ببراءتِه، قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (١).

ظاهرُ نَظْمِ الكلام: أنَّ الجملةَ مِن قولِ امرأةِ العزيز، وهو في موقعِ العلَّةِ لِما تضمَّنته جملةُ ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ وما عُطِف عليها مِن إقرارٍ ببراءةِ يوسفَ عليه السلام مما كانت رَمَتْهُ به؛ فالإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ الإقرارِ المستفاد مِن جملة ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾؛ أي: ذلك الإقرارُ ليَعلَمَ يوسفُ عليه السلام أنِّي لم أَخُنْهُ (٢).

﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾

ولمَّا كان ذلك ربما جَرَّ إلىٰ الإعجاب، قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

ظاهرُ ترتيبِ الكلام: أنَّ هذا مِن كلامِ امرأةِ العزيز، مضَتْ في بقيَّةِ إقرارِها، فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ وذلك كالاحتراسِ ممَّا يقتضيه قولُها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ مِن أنَّ تبرئةَ نفسِها مِن هذا الذَّنْبِ العظيم ادِّعاءٌ بأنَّ نفسَها بريئةٌ براءةً عامةً، فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ مِن محاولةِ هذا الإثم؛ لأنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء، وقد أمَرتْني بالسُّوء، ولكنَّه لم يقَعْ؛ فالواوُ التي في الجملة استئنافيَّةٌ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ (٤).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٩٢).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٥).

ثـم أراد أن يَتواضَـعَ لله، ويَهضِـمَ نفسَـه؛ لـئلا يكـونَ لهـا مزكِّيًـا، ولـحالهـا في الأمانـة مُعجَبًا، وليبيِّنَ أنَّ مـا فيـه مِـن الأمانـةِ لـيس بـه وحـده؛ وإنَّمـا هـو بتوفيـقِ الله ولُطْفِـه وعِصْـمتِه، فقـال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ مِـن الزَّلـل، ومـا أشـهَدُ لهـا بـالبراءةِ الكليـة، ولا أزكِّيها؛ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1].

لمَّـا قـال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، كـان ذلـك جاريًـا مجـرىٰ مـدحِ الـنَّفس وتزكيتِها، فاستدرَكَ ذلك علىٰ نفسِه بقولِه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾؛ والمعنىٰ: ومـا أُزكِّـي نفسي؛ إنَّ النَّفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوء، ميَّالةٌ إلىٰ القبائح، راغبةٌ في المعصية[2].

ثم لمَّا كان في هذا الكلامِ نوعُ تزكيةٍ لنفسِها، وأنَّه لم يَجْرِ منها ذَنْبٌ في شأنِ يوسفَ؛ اسـتدرَكتْ، فقالـت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

ولمَّا أتَـمَّ مـا قدَّمـه ممَّـا هـو الأهـمُّ -مِـن نزاهـةِ الصِّدِّيق، وعِلْـمِ المَلِـكِ ببراءتـه ومـا يَتبَعها- علىٰ ما كان قَبْلَه مِن أمرِ المَلِكِ بإحضاره إليه؛ أتبعه إيَّاه عاطفًا لـه علىٰ مـا كان في نسَقِه مِن قولـه: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾، فقـال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٠).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٠٠).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٢٩).

لمَّـا ظهَـر للمَلِـكِ هـذه الأحـوالُ مِـن يوسـفَ عليه السلام، رَغِـب أن يتَّخِـذَه لنفسـه، فقـال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾(١).

فلمَّا تحقَّق المَلِكُ والناسُ براءةَ يوسفَ التامة، أرسَل إليه الملكُ، وقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾(٢).

لمَّا ثبَت للمَلِكِ براءتُه ممَّا نُسِب إليه، وتحقَّق في القصَّةِ أمانته، وفَهِم أيضًا صَبْرَه وجَلَدَه؛ عظُمتْ منزلتُه عنده، وتيقَّن حُسْنَ خلالِه، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾(٣).

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾

فكأنَّـه قيـل: فمـا قـال الصِّـدِّيقُ؟ فقيـل: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾(٤).

جملةُ ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ حكايةُ جوابِه لكلام المَلِكِ؛ ولـذلك فُصِلتْ على طريقة المحاوَرات(٥).

ولمَّا وصَفه المَلِكُ بالتَّمكُّن عنده والأمانةِ، طلَب مِن الأعمال ما يناسِبُ هذينِ الوصفينِ، فقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: وَلِّني خزائنَ أرضِك؛ إنِّي حفيظٌ أحفَظُ ما تستحفِظُه، عليمٌ بوجوهِ التَّصرُّف(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٠٠).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٢٥٥).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٣١).

(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ٨).

(٦) البحر المحيط (٦/ ٢٩١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا سأل ما تقدَّم، قال مُعلِمًا بأنَّه أُجيبَ بتسخيرِ الله له: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

اعلَمْ أنَّ يوسفَ عليه السلام لمَّا التمَس مِن المَلِكِ أن يَجعلَه علىٰ خزائنِ الأرض لم يَحْكِ اللهُ عن المَلِكِ أنَّه قال: قد فعلتُ، بل اللهُ سبحانه قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، فههنا المفسِّرون قالوا: في الكلام محذوفٌ؛ وتقديره: قال المَلِكُ: قد فعلتُ، إلا أنَّ تمكينَ الله له في الأرض يدلُّ علىٰ أنَّ المَلِكَ قد أجابه إلىٰ ما سأل[٢].

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا ممَّا يستعظِمُه الناس في الدُّنيا، وكان عِزُّها لا يُعَدُّ في الحقيقةِ إلا إن كان موصولًا بنعيمِ الآخرة؛ نبَّه علىٰ ما له في الآخرة ممَّا لا يُعَدُّ هذا في جَنْبِه شيئًا، فقال مؤكِّدًا لتكذيبِ الكفرةِ بذلك: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[٣].

ثم ذكَر أنَّ أجرَ الآخرة خيرٌ؛ لأنَّه الدائمُ الذي لا يَفنىٰ[٤].

ثم شرَح حالَ يوسفَ عليه السلام في الآخرة بعد شرحِ حالِه في الدُّنيا.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان المعنىٰ -كما تقدَّم- فجعَل إليه خزائنَ الأرض، فجاءت السُّنونَ المُخصِبة، فدبَّرها بما علَّمه اللهُ، ثم جاءت السُّنونَ المُجدِبة، فأجدَبتْ جميعُ أرضِ مِصْرَ وما والاها مِن بلادِ الشام وغيرها، فأخرَج ما كان ادَّخره مِن غلالِ سَبْعِ سنين بالتَّدريج

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٣٣).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٩٢).

أولًا فأولًا -كما حَدَّ له العليمُ الحكيم-، فتسامَع به النـاسُ، فجاؤوا للامتيـارِ[(١)] منه مِن كلِّ أَوْبٍ، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[(٢)].

طوىٰ القرآنُ أَخَرةَ أمرِ امرأةِ العزيز، وحلولَ سِنِي الخِصب والادِّخار، ثم اعتراءَ سِنِي القَحْطِ؛ لقلَّةِ جدوىٰ ذلك كلِّه في الغرضِ الذي نزلت السُّورةُ لأجله؛ وهو إظهارُ ما يَلْقاه الأنبياءُ مِن ذويهم، وكيف تكون لهم عاقبةُ النَّصر والحسنىٰ، ولأنَّه معلومٌ حصولُه؛ ولذلك انتقلَتِ القصَّةُ إلىٰ ما فيها مِن مصيرِ إخوةِ يوسفَ عليه السلام في حاجةٍ إلىٰ نِعْمته، ومِن جَمْعِ الله بَيْنَه وبين أخيه الذي يُحِبُّه، ثم بَيْنَه وبين أبوَيهِ، ثم مظاهرِ عفوِه عن إخوتِه، وصلتِه رَحِمَه؛ لأنَّ لذلك كلِّه أثرًا في معرفةِ فضائله[(٣)].

اعلَمْ أنَّه لمَّا عَمَّ القحطُ في البلاد، ووصَل أيضًا إلىٰ البلدةِ التي كان يسكُنُها يعقوبُ عليه السلام، وصعُبَ الزمانُ عليهم، فقال لبَنِيه: إنَّ بمِصْرَ رجُلًا صالحًا يَمِيرُ الناسَ؛ فاذهَبوا إليه بدراهِمكم، وخُذوا الطعامَ، فخرَجوا إليه وهم عشَرةٌ، ودخَلوا علىٰ يوسفَ عليه السلام، وصارت هذه الواقعةُ كالسَّببِ في اجتماع يوسفَ عليه السلام مع إخوتِه، وظهورِ صِدْقِ ما أخبَر اللهُ تعالىٰ عنه في قولِه ليوسفَ عليه السلام حالَ ما ألقَوْهُ في الجُبِّ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وأخبَر تعالىٰ أنَّ يوسفَ عرَفهم، وهم ما عرَفوه البتَّةَ[(٤)].

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا كان المعنىٰ في قوَّةِ أن يقالَ: فطلَبوا منه المِيرةَ، فباعهم بعد أن استخبَرهم عن أمرهم، وقال لهم: لعلَّكم جواسيسُ؟ وسألهم عن جميعِ حالهم، فأخبَروه بأبيهم

---

(١) أي: جلب الطعام.

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٧).

وأخيهم منه؛ ليَعلَمَ صلاحَهم، ولا يظُنَّ أنَّهم جواسيسُ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[(١)].

في الكلامِ حذفٌ؛ تقديره: وقد كان استوضَح منهم أنَّهم لهم أخٌ قعَد عند أبيهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّه لا بد مِن كلامٍ سابقٍ حتىٰ يَصِيرَ ذلك الكلامُ سببًا لسؤالِ يوسفَ عن حالِ أخيهم، وذكَروا فيه وجوهًا: الوجه الأول -وهو أحسَنُها-: أنَّ عادةَ يوسفَ ﷺ مع الكلِّ أن يُعطيَه حِمْلَ بعيرٍ، لا أزيَدَ عليه ولا أنقَصَ، وإخوةُ يوسفَ الذين ذهَبوا إليه كانوا عشَرةً، فأعطاهم عشَرةَ أحمالٍ، فقالوا: إنَّ لنا أبًا شيخًا كبيرًا وأخًا آخرَ بَقِي معه، وذكَروا أنَّ أباهم لأجلِ سِنِّه وشِدَّة حُزْنِه لم يحضُرْ، وأنَّ أخاهم بَقِي في خدمةِ أبيه، ولا بد لهما أيضًا مِن شيءٍ مِن الطعام، فجهَّز لهما أيضًا بعيرَينِ آخَرينِ مِن الطعام، فلمَّا ذكَروا ذلك، قال يوسفُ: فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ حُبَّ أبيكم له أزيَدُ مِن حُبِّه لكم، وهذا شيءٌ عجيبٌ؛ لأنَّكم مع جمالِكم وعقلكم وأدبِكم إذا كانت محبَّةُ أبيكم لذلك الأخِ أكثَرَ مِن محبَّتِه لكم، دلَّ هذا علىٰ أنَّ ذلك أعجوبةٌ في العقل، وفي الفضلِ والأدب؛ فجِيئوني به حتىٰ أراه، فهذا السَّببُ محتمَلٌ مناسِبٌ. الوجه الثاني: أنَّهم لمَّا دخَلوا عليه ﷺ وأعطاهم الطعامَ، قال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نحن قومٌ رعاة مِن أهلِ الشام، أصابنا الجَهْدُ، فجِئْنا نمتارُ، فقال: لعلَّكم جئتم عيونًا، فقالوا: معاذَ الله! نحن إخوةٌ، بنو أبٍ واحد، شيخٍ صِدِّيق، نبيٍّ اسمُه يعقوبُ، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنَّا اثنَيْ عشَرَ، فهلَك منَّا واحدٌ، وبَقِي واحدٌ مع الأبِ يَتسلَّىٰ به عن ذلك الذي هلَك، ونحن عشَرةٌ، وقد جئناك، قال: فدَعُوا بعضَكم عندي رهينةً، وائتوني بأخٍ لكم مِن أبيكم ليبلِّغَ إليَّ رسالةَ أبيكم؛ فعند هذا أقرَعوا بينهم، فأصابت القُرْعةُ شمعونَ، وكان أحسَنَهم رأيًا في يوسفَ، فخلَّفوه عنده. والوجه الثالث: لعلَّهم لمَّا ذكَروا أباهم، قال

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٤٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٩٣).

يوسفُ: فلِمَ تركتموه وحيدًا فريدًا؟ قالوا: ما تركناه وحيدًا؛ بل بَقِي عنده واحدٌ. فقال لهم: لِمَ استخلَصه لنفسه؟ ولِمَ خَصَّه بهذا المعنىٰ؛ لأجلِ نقصٍ في جسده؟ فقالوا: لا، بل لأجلِ أنَّه يُحِبُّه أكثَرَ مِن محبَّتِه لسائر الأولاد، فعند هذا قال يوسفُ: لمَّا ذكَرْتم أنَّ أباكم رجُلٌ عالم حكيم، بعيدٌ عن المجازفة، ثم إنَّه خَصَّه بمزيدِ المحبة؛ وجَب أن يكونَ زائدًا عليكم في الفضل، وصفاتِ الكمال، مع أنِّي أراكم فضلاءَ علماء حكماء، فاشتاقت نفسي إلىٰ رؤيةِ ذلك الأخِ؛ فائتوني به[(١)].

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا رغَّبهم، رهَّبهم، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر ما يحرِّضهم به علىٰ الإتيان بأخيهم يؤنِسُهم بذلك ويستميلهم، توعَّدهم إن لم يأتوا به إليه بحرمانِهم مِن المِيرةِ في المستقبل[(٣)].

اعلَمْ أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا طلب منهم إحضارَ ذلك الأخِ، جمَع بَيْنَ التَّرغيب والتَّرهيب؛ أمَّا التَّرغيب: فهو قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾، وأمَّا التَّرهيب: فهو قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾؛ وذلك لأنَّهم كانوا في نهايةِ الحاجة إلىٰ تحصيلِ الطعام، وما كان يمكِنُهم تحصيلُه إلا مِن عندِه، فإذا منَعهم مِن الحضور عنده، كان ذلك نهايةَ الترهيب والتخويف[(٤)].

ثم رهَّبهم بعدمِ الإتيان به، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٨).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٤٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٩٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٨).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٠١).

﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قالوا؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾[(١)].

ثم إنَّهم لمَّا سَمِعوا هذا الكلامَ مِن يوسفَ، قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾؛ أي: سنجتهِدُ ونحتال على أن ننزِعَه مِن يده، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ هذه المراوَدة، والغرضُ مِن التَّكريرِ التَّأكيدُ[(٢)].

﴿ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ ﴾

ولمَّا أعلَمَنا سبحانه أنَّه رغَّبهم في شأنِ أخيه، ورهَّبهم بالقول؛ أعلَمَنا بأنَّه رغَّبهم فيه بالفعل، فقال عاطفًا على قوله الماضي لهم: ﴿ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ ﴾

ثم دلَّ على إسراعِهم في الرجوع بالفاء، فقال: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[(٤)].

ثم إنَّه تعالى حكى عنهم أنَّهم لمَّا رجعوا إلى أبيهم، قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٥١).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٥٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٧٩).

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فكأنَّه قيل: ما فعَل في هذا بعد ما فعَلوا إذ أرسَل معهم يوسفَ عليه السلام؟ قيل: عزَم على إرسالِه معهم، ولكنَّه أظهَر اللجأ إلى الله تعالى في أمرِه، غيرَ قانعٍ بوعدِهم المؤكَّد في حفظِه؛ لِما سبَق منهم مِن مثلِه في يوسفَ عليه السلام؛ بأنْ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(١)].

فأجابهم يعقوبُ عليه السلام بجوابٍ فيه توقيفٌ وتقرير، فقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

فأرادوا تفريغَ ما قَدِموا به مِن الميرةِ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[(٢)].

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال لهم؟ فقيل: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٥٣).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٥٤).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٥٥).

ثم أجابهم يعقوبُ عليه السلام: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾

ولمَّا سمَح لهم بخروجِه معهم، أتبَع تعالىٰ ذلك الخبَرَ عن أمرِه لهم بالاحتياطِ مِن المصائب؛ لأنَّهم أحدَ عشَرَ رجُلًا، إخوةٌ أهلُ جمالٍ وبسطةٍ، وكانوا قد شُهِروا عند المِصْريين بعضَ الشُّهرة؛ بسببِ ما دار بينهم وبين يوسفَ عليه السلام مِن الكلامِ في المرة الأُولىٰ، فكانوا مَظِنَّةً لأن ترمُقَهم الأبصارُ، ويشارَ إليهم بالأصابع، فيُصابوا بالعينِ، ولم يوصِهم في المرة الأُولىٰ؛ لأنَّهم كانوا مجهولين، مع شُغلِ الناس بما هم فيه مِن القَحْطِ، فقال حكايةً عنه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وإعادةُ فعل ﴿قَالَ﴾ للإشارة إلىٰ اختلافِ زمنِ القولين، وإن كانا معًا مُسبَّبَينِ علىٰ إيتاءِ مَوثِقِهم؛ لأنَّه اطمأنَّ لرعايتِهم ابنَه، وظهَرتْ له المصلحةُ في سفَرِهم للامتيارِ؛ فقولُه: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ صادرٌ في وقتِ إزماعِهم الرَّحيلَ[2].

اعلَمْ أنَّ أبناءَ يعقوبَ لمَّا عزَموا علىٰ الخروج إلىٰ مِصْرَ، وكانوا موصوفين بالكمالِ والجمالِ، وأبناءَ رجُلٍ واحدٍ؛ قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨١).

ثم لمَّا أرسَله معهم، وصَّاهم إذا هم قَدِموا مِصْرَ أنْ ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦٨﴾

ثـم إنَّـه سـبحانه صـدَّق يعقـوبَ فيمـا قـال، مُؤكِّـدًا لِمـا أشـار إلىٰ اعتقـاده، فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾[2].

لمَّا قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، صدَّقه اللهُ في ذلك، فقال: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[3].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٦٩﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن دخولهم إلىٰ البلد، أخبَر عن دخولهم لحاجتِهم إلىٰ يوسفَ عليه السلام، فقـال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠١).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٦٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨٤).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٦٧).

اعلَمْ أنَّهم لمَّا أتَوْهُ بأخيه بِنْيامينَ، أكرَمهم وأضافهم، وأجلَس كلَّ اثنينِ منهم علىٰ مائدةٍ، فبَقِي بنيامينُ وحده، فبكىٰ، وقال: لو كان أخي يوسفُ حيًّا لأجلَسني معه، فقال يوسفُ: بَقِي أخوكم وحيدًا، فأجلَسه معه علىٰ مائدةٍ، ثم أمَر أن يَنزِلَ منهم كلُّ اثنينِ بيتًا، وقال: هذا لا ثانيَ له، فاترُكوه معي، فآواه إليه، ولمَّا رأىٰ يوسفُ تأسُّفَه علىٰ أخٍ له هلَك، قال له: أتُحِبُّ أن أكونَ أخاك بدلَ أخيك الهالكِ، قال: مَن يجدُ أخًا مثلَك؟ ولكنَّك لم يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيل، فبكىٰ يوسفُ عليه السلام، وقام إليه وعانَقه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(١)].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾

وكأنَّه في المرةِ الأُولىٰ أبطَأَ في تجهيزهم ليَتعرَّف أخبارَهم في طُولِ المدَّة مِن حيث لا يشعرون؛ ولذلك لم يُعطَفْ بالفاء، وأسرَع في تجهيزهم في هذه المرةِ قصدًا إلىٰ انفراده بأخيه مِن غيرِ رقيبٍ بالحيلةِ التي دبَّرها؛ فلذلك أتت الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾[(٢)].

ثم أراد يوسفُ عليه السلام أن يحتالَ علىٰ بقاءِ أخيه عنده، فتواطَأَ مع فتيانِه -إذ جهَّز إخوتَه- أن يضَعوا سِقايته في رَحْلِ أخيه؛ كما بيَّنه تعالىٰ بقولِه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨٥).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ١٦٨).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٢).

﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: إنَّ هذه لَتُهمةٌ عظيمةٌ، فما قالوا في جوابها؟ فقيل: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ قَالُوا۟ ﴾ جوابٌ لنداءِ المنادي إيَّاهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾، ففُصِلت الجملةُ لأنَّها في طريقةِ المحاوَرة(٢).

﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فبماذا أجابوهم؟ فقيل: ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال إخوةُ يوسفَ؟ قيل: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾(٣).

ولمَّا اتَّهمهم المؤذِّنُ ومَن معه مِن الفتيانِ، ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾(٤).

لمَّا أُعلِنَ عن سرقةِ صُوَاعِ المَلِكِ، وأُوقِفتِ القافلةُ للتفتيش، وأُعلِنَ عن الجائزةِ لِمَن يأتي بالصواع، وأنَّها مضمونةٌ؛ هنا قال إخوةُ يوسفَ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٧٠).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٧٦).

(٥) أيسر التفاسير (٢/ ٦٣٣).

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال الذين مِن جهةِ العزيز؟ قيل: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾(١).

ثم لمَّا بيَّنوا براءتَهم عن تلك التُّهمةِ، قال أصحابُ يوسفَ عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾(٢).

فقال فتيانُ المَلِكِ ردًّا على مقالتِهم: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾.

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ ﴾

لمَّا قال أصحابُ يوسفَ عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾، أجابوا وقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾(٣).

ثم أجابوا على شريعتِهم: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦ ﴾

فحينئذٍ فتَّش أوعيتَهم، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨٧).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٠٥).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ١٧٢).

ثم قال لهم مَن وُكِّل بهم: لا بد مِن تفتيشِ أوعيتكم، فانصرَف بهم إلىٰ يوسفَ، فبدأ بتفتيشِ أوعيتِهم قبل وعاءِ بنيامينَ؛ لنَفْيِ التُّهمة، وتمكينِ الحيلة، وإبقاءِ ظهورها حتىٰ بلَغ وعاءه، فقال: ما أظُنُّ هذا أخذ شيئًا، فقالوا: واللهِ، ما تترُكُه حتىٰ تنظُرَ في رَحْلِه؛ فإنَّه أطيَبُ لنفسِك وأنفسنا، فاستخرَجوه منه[(١)].

اعلَمْ أنَّ إخوةَ يوسفَ لمَّا أقَرُّوا بأنَّ مَن وُجِد المسروقُ في رَحْلِه فجزاؤه أن يُسترَقَّ، قال لهم المؤذِّنُ: إنَّه لا بد مِن تفتيشِ أمتعتكم، فانصرَف بهم إلىٰ يوسفَ، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾؛ لإزالة التُّهمة[(٢)].

ثم لمَّا ذكَروا جزاءَ السارق، أرادوا أن يُفتِّشوا أمتعتَهم حتىٰ يتبيَّنَ الأمر، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾[(٣)].

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

ولمَّا تَمَّ ذلك، كان كأنَّه قيل: إنَّ انتزاعَ أخيهم منهم -بعد تلك المواثيقِ التي أكَّدوها لأبيهم- لَداهيةٌ تَطِيشُ لها الحُلُومُ[(٤)]، فماذا كان فعلُهم عندها؟ فقيل: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾[(٥)].

لمَّا بُهِتوا بوجودِ الصُّواع في رَحْلِ أخيهم، اعتراهم ما يعتري المبهوتَ، فاعتذَروا عن دعواهم تنزُّهَهم عن السَّرقةِ عُذْرًا بأنَّ أخاهم قد تسرَّبتْ إليه خَصْلةُ السَّرقة مِن غيرِ

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٣٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٨٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥١).

(٤) أي: العقول.

(٥) نظم الدرر (١٠/ ١٧٨).

جانبِ أبيهم، فزعَموا أنَّ أخاه الذي أُشِيعَ فَقْدُه كان سرَق مِن قبلُ؛ فهذا اعتذارٌ بتعريضٍ بجانبِ أُمِّ أخوَيْهم، وهي زوجةُ أبيهم، وهي «راحيل» ابنةُ «لابان» خالِ يعقوبَ عليه السلام[1].

فلمَّا رأىٰ إخوةُ يوسفَ ما رأَوْا، ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾[2].

بعد أن استخرَج يوسفُ عليه السلام الصواعَ مِن متاعِ أخيه، وتقرَّر ظاهرًا أنَّ بينامينَ قد سرَق؛ قال إخوتُه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾، وإنَّما قالوا ذلك ليَبرَؤُوا مِن فعلِه؛ لأنَّه ليس مِن أُمِّهم، وأنَّه إن سرَق فقد جذَبه عِرْقُ أخيه السَّارق؛ لأنَّ الاشتراكَ في الأنساب يُشاكِل في الأخلاقِ.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾

فكأنَّه قيل: إنَّ ذلك القولَ علىٰ فُحْشِه ليس مُغْنيًا عنهم ولا عن أبيهم شيئًا، فهل اقتصَروا عليه؟ فقيل: لا؛ بل ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[3].

استعطَفوا يوسفَ إذ كان قد أُخِذ عليهم الميثاقُ، وكانوا قد أعلَموا يوسفَ بأنَّه كان له ابنٌ قد هلَك، وهذا شقيقُه يَستأنس به، وخاطَبوه بالعزيز إذ كان في تلك الخُطَّةِ بعَزْلِ قِطفيرَ، أو موتِه؛ علىٰ ما سبَق[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٤).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٠٢).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٨٠).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٠٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّهم بعد الذي ذكَروه مِن قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أحَبُّوا موافقتَه، والعدولَ إلىٰ طريقةِ الشَّفاعة؛ فإنَّهم وإن كانوا قد اعترَفوا أنَّ حُكْمَ الله تعالىٰ في السَّارق أن يُستعبَدَ إلا أنَّ العفوَ وأخذَ الفداءِ كان أيضًا جائزًا، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، وإنَّما ذكَروا ذلك؛ لأنَّ كونَه ابنًا لرجُلٍ كبيرِ القدر يُوجِب العفوَ والصَّفح[(١)].

لمَّا تعيَّن أخذُ بِنيامينَ وإبقاؤه عند يوسفَ بمقتضىٰ فتواهم، طَفِقوا يُعطِّفونه عليهم بأنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا يحبُّه حبًّا شديدًا، يَتسلَّىٰ به عن أخيه المفقودِ؛ فخُذْ أحدَنا بدلَه رقيقًا عندك[(٢)].

ولمَّا سَمِعوا قولَ يوسفَ عليه السلام، وكان فيه نوعٌ مِن الصرامة والشِّدة؛ قالوا مستعطِفِين يوسفَ عليه السلام مسترحِمِينَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾

فكأنَّه قيل: فما أجابهم؟ قيل: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[(٤)].

فلمَّا عرَضوا عليه هذا العرضَ، أجابهم يوسفُ عليه السلام بقولِه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩١).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٥).
(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٦٣٥).
(٤) نظم الدرر (١٠/ ١٨٠).

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٠﴾

ولمَّا أيأسَهم بما قال عن إطلاقِ بنيامينَ، حكىٰ اللهُ تعالىٰ ما أثمَرَ لهم ذلك مِن الرأيِ، فقال: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(١).

اعلَمْ أنَّهم لمَّا قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، وهو نهايةُ ما يمكِنُهم بَذْلُه، فقال يوسفُ في جوابِه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، فانقطَع طمَعُهم مِن يوسفَ عليه السلام في رَدِّه؛ فعند هذا: ﴿ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٢).

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾

فكأنَّه قيل: هذا ما رأىٰ أن يفعلَ في نفسه، فماذا رأىٰ لإخوتِه؟ فقيل: أمَرهم بالرجوع ليُعلِموا أباهم؛ لإمكانِ أن يريدَ القدومَ إلىٰ مِصرَ ليرىٰ ابنَه، أو يكونَ عنده رأيٌ فيه فرَجٌ، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٩١).
(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٢).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٩٣).

ثم لقَّنهم كبيرُهم ما يقولون لأبيهم(١).

اعلَمْ أنَّهم لمَّا تفكَّروا في الأصوَبِ ما هو؟ ظهَر لهم أنَّ الأصوَبَ هو الرجوعُ، وأن يذكُروا لأبيهم كيفيَّةَ الواقعة على الوجه مِن غيرِ تفاوُتٍ، والظاهرُ أنَّ هذا القولَ قاله ذلك الكبيرُ(٢).

ثم أمَر كبيرُهم أن يُخبِروا أباهم بما جرىٰ، فقال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾(٣).

ولمَّا أقنَعهم بتخلُّفِه عنهم، أخَذ يرشِدُهم إلىٰ ما يقولونه لوالدِهم، فقال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾(٤).

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾

اعلَمْ أنَّهم لمَّا كانوا مُتَّهَمِينَ بسبب واقعةِ يوسفَ عليه السلام، بالَغوا في إزالةِ التُّهمة عن أنفسهم، فقالوا: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾(٥).

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هذا مِن تمامِ قولِ كبيرهم لهم(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٣).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٧).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٦٣٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٥).

(٦) فتح القدير (٣/ ٥٥).

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال لهم؟ فقيل: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(١)].

جُعِلت جملةُ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ في صورةِ الجواب عن الكلام الذي لقَّنه أخوهم علىٰ طريقةِ الإيجاز؛ والتَّقدير: فرجَعوا إلىٰ أبيهم، فقالوا ذلك الكلامَ الذي لقَّنه إيَّاهم «روبين»، قال أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)].

اعلَمْ أنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا سَمِع مِن أبنائه ذلك الكلامَ، لم يصدِّقْهم فيما ذكَروا -كما في واقعةِ يوسفَ-، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، فذكَر هذا الكلامَ بعينِه في هذه الواقعةِ، إلا أنَّه قال في واقعةِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾، وقال هاهنا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[(٣)].

فلمَّا رجَعوا إلىٰ أبيهم وأخبَروه بهذا الخبَرِ، اشتَدَّ حُزْنُه، وتضاعَف كَمَدُه، واتهَمهم أيضًا في هذه القضيةِ كما اتهَمهم في الأُولىٰ، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٤١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٥).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٠٣).

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾

انتقالٌ إلىٰ حكايةِ حالِ يعقوبَ عليه السلام في انفراده عن أبنائه، ومناجاتِه نفسَه؛ فالتَّولِّي حاصلٌ عَقِب المحاوَرة[1].

اعلَمْ أنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا سَمِع كلامَ أبنائه، ضاق قلبُه جدًّا، وأعرَض عنهم، وفارَقهم، ثم بالآخرةِ طلَبهم وعاد إليهم[2].

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فلمَّا رأَوْا أنَّه قد فاتهم ما ظنُّوا أنَّه يكون بعد ذَهابِ يوسفَ مِن صلاحِ الحال مع أبيهم بقَصْرِ الإقبال عليهم، ووقَع لأبيهم هذا الفادحُ العظيم؛ تشوَّف السَّامعُ إلىٰ قولهم له، فاستأنَف الإخبارَ عنه بقولِه: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[3].

جملةُ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ محاوَرةُ بَنِيه إيَّاه عندما سَمِعوا قولَه: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، وقد قالها في خَلْوتِه، فسَمِعوها[4].

فعند ذلك رَقَّ له بَنُوه، وقالوا له علىٰ سبيلِ الرِّفق به والشَّفقة عليه: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٦).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ١٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥).

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّفتِ النفسُ إلىٰ ما كان منه بعدما رأىٰ مِن غِلْظةِ بَنِيه، شفَىٰ عِيَّها بقولِه: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

ثم إنَّه ما أظهَر الشِّكايةَ مع أحدٍ مِن الخَلْقِ؛ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[(٢)].

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ هذه الجملة مستأنَفةٌ، كأنَّه قيل: فما قال يعقوبُ لمَّا قالوا له ما قالوا؟[(٣)].

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا أخبَرهم عليه السلام أنَّ عِلْمَه فوق علمِهم، أتبَعه استئنافًا ما يدلُّ عليه، فقال: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[(٤)].

ثم صرَّح لهم بشيءٍ ممَّا يَعلَمه، وكاشَفهم بما يُحقِّق كَذِبَهم ادِّعاءَ ائتكالِ الذِّئبِ يوسفَ عليه السلام حينَ أذنه[(٥)] اللهُ بذلك عند تقديرِ انتهاء البلوىٰ، فقال: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؛ فجملةُ ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ في

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٩٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢٠٣).

(٥) أي: أعلمه.

قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يُثِيرُ في أنفسهم ترقُّبَ مكاشَفتِه على كَذِبِهم؛ فإنَّ صاحبَ الكيدِ كثيرُ الظُّنون[(١)].

لمَّا طَمِع في وجدانِ يوسفَ بِناءً على الأماراتِ المذكورة، قال لبَنِيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)].

ولمَّا عَلِم مِن شِدَّةِ البلاء مع الصبرِ قُرْبَ الفرَجِ، قوَّىٰ رجاءهم، وأمَرهم أن يرحَلوا لمِصْرَ، ويتطلَّبوا خبرَ يوسفَ وأخيه، بقولِه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

فأجابوه إلىٰ ما أراد، فتوجَّهوا إلىٰ مِصْرَ لذلك ولقصدِ المِيرة؛ لِما كان اشتدَّ بهم مِن القحطِ، وقصَدوا العزيزَ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾[(٤)].

الفاءُ عاطفةٌ علىٰ كلامٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه المقامُ؛ أي: فارتحَلوا إلىٰ مِصْرَ بقصدِ استطلاقِ بِنيامينَ مِن عزيزِ مِصْرَ، ثم بالتَّعرُّض إلىٰ التَّحسُّس مِن يوسفَ عليه السلام، فوصَلوا مِصْرَ، فدخَلوا علىٰ يوسفَ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠١).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢١١).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢٠٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٦).

اعلَمْ أنَّ المفسِّرين اتَّفقوا علىٰ أنَّ هاهنا محذوفًا؛ والتَّقدير: أنَّ يعقوبَ لمَّا قال لبَنِيه: ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، قَبِلوا مِن أبيهم هذه الوصيَّةَ، فعادُوا إلىٰ مِصْرَ، ودخلوا علىٰ يوسفَ عليه السلام، فقالوا له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾(١).

وامتثَل الأبناءُ أمرَ الوالد، وذهَبوا إلىٰ مِصْرَ، وانتهَوْا إليها، ونزَلوا بها، وأتَوْا إلىٰ دارِ العزيز، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾(٢).

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ ﴾

فلمَّا رأىٰ أنَّ الأمرَ بلَغ الغايةَ، ولم يَبقَ شيءٌ يَتخوَّفه؛ عرَّفهم بنفسه، فاستأنَف تعالىٰ الإخبارَ عن ذلك بقولِه حكايةً: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾(٣).

لمَّا رأىٰ إخوتَه تضرَّعوا إليه، ووصَفوا ما هم عليه مِن شِدَّة الزمان وقِلَّةِ الحيلة؛ أدركَتْهُ الرِّقَّةُ، فصرَّح حينئذٍ بأنَّه يوسفُ(٤).

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾

فكأنَّه قيل: إنَّه قد قرَّب لهم الكشفَ عن أمره؛ لأنَّه لا يستفهِمُ مَلِكٌ مثلُه -لم يَنشأْ بينهم، ولا تتبَّع أحوالَهم، وليس منهم- هذا الاستفهامَ، ولا سيَّما وقد رُوِي: أنَّه

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٢).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٦٤١).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢٠٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٤).

لمَّا قال هذا تبسَّم، وكان في تبسُّمِه أمرٌ مِن الحُسْنِ لا يَجهَلُه معه مَن رآه ولو مرةً واحدةً، فهل عرَفوه؟ فقيل: ظنُّوه ظنًّا غالبًا؛ ولذلك ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

لمَّا خاطَبهم بقولِه: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم﴾، أدركوا أنَّه لا يستفهِمُ مَلِكٌ لم يَنشأْ عندهم، ولا تتبَّع أحوالَهم، وليس منهم فيما يَظهَرُ؛ إلا وعنده علمٌ بحالهم، فتوسَّموا أنَّه يوسفُ، واستفهَموه استفهامَ استخبارٍ(٢).

فعرَفوا أنَّ الذي خاطَبهم هو يوسفُ، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾(٣).

فلمَّا قال لهم ذلك، تنبَّهوا، وفَهِموا أنَّه لا يخاطِبُهم بمثلِ هذا إلا هو، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٤).

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾

ولمَّا كان ما ذُكِر، كان كأنَّه قيل: لقد أتاهم ما لم يكونوا يحتسبون، فما قالوا؟ فقيل: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٠٦).
(٢) البحر المحيط (٦/ ٣١٩).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٠٤).
(٤) فتح القدير (٣/ ٦٢).
(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢٠٩).

اعلَمْ أنَّ يوسفَ عليه السلام لمَّا ذكَر لإخوته أنَّ اللهَ تعالىٰ مَنَّ عليه، وأنَّ مَن يتَّقِ المعاصيَ ويَصبِرْ علىٰ أذىٰ الناس، فإنَّه لا يُضيِّعه اللهُ؛ صدَّقوه فيه، واعترَفوا له بالفضلِ والمزيَّة؛ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[1].

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

فكأنَّه قيل: ما قال لهم علىٰ قُدْرتِه وتمكُّنه مع ما سلَف مِن إساءتهم؟ فقيل: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2].

ثم أعلَمَهم بأنَّ الذَّنْبَ قد غُفِر، فرُفِع عنهم الذَّمُّ، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[3].

اعلَمْ أنَّهم لمَّا اعترَفوا بفضلِه عليهم، وبكونِهم خاطئين؛ قال يوسفُ عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[4].

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ولمَّا أقَرَّ أعيُنَهم بعد اجتماعِ شملِهم بإزالةِ ما يَخشَونه دُنْيا وأخرىٰ، بَقِي ما يخُصُّ أباهم مِن ذلك، فكأنَّه وقَع السُّؤالُ عنه، فأُجيبَ بقولِه: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٥).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٦).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢١٢).

ثم سألهم عن والده، فأخبَروه أنَّه قد عَمِيَ مِن الحزنِ عليه، فقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

لمَّا خرَجتِ العِيرُ مِن مِصْرَ متوجِّهةً إلىٰ كَنْعانَ، قال يعقوبُ عليه السلام لِمَن حضَر عنده مِن أهلِه وقرابتِه وولَدِ ولَدِه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[2].

بعد أن بعَث بقميصِه إلىٰ والده، وحمَله أخوه ضمن القافلةِ المتجهة إلىٰ أرضِ كَنْعانَ، ولمَّا فصَلتِ العِيرُ مِن عريشِ مِصْرَ؛ حمَلتْ رِيحُ الصَّبا رِيحَ يوسفَ إلىٰ أبيه، فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[3].

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

ثم استأنَف حكايةَ جوابِهم، فقال: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[4].

ولمَّا ذكَر يعقوبُ ذلك، قال الحاضرون عنده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[5].

فوقَع ما ظنَّه بهم، فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[6].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٦٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٧).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٦٤٥).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢١٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٠٨).

(٦) تفسير السعدي (١/ ٤٠٥).

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

فصحَّح اللهُ قولَه، وحقَّق وجدانَه، وعجَّلوا إليه بشيرًا، فأسرع بعد الفصولِ[١]؛ ولذلك عبَّر بالفاء في ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

ولمَّا كان ذلك، تشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ عِلْمِ ما يقع بَيْنَه وبين أولاده في ذلك، فدفَع عنها هذا العناءَ بقولِه: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[٣].

ولمَّا رجَع إليه بصَرُه، وقرَّت عينُه بالمسيرِ إلىٰ ابنِه يوسفَ، وقرَّرهم علىٰ قولِه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾؛ طلبوا منه أن يستغفِرَ لهم اللهَ لذنوبهم، واعترَفوا بالخطأِ السابق منهم[٤].

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

ثم حكىٰ جوابَه بقولِه مستأنفًا: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥].

ولمَّا كان مِن حقِّ المعترف بذَنْبِه أن يُصفَحَ عنه، ويُسأَلَ له المغفرةُ؛ وعَدهم بذلك ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٦].

---

(١) أي: الخروج.

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢١٥).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٢٥).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢١٥).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٢١٩).

ولمَّا طلبوا منه أن يستغفِرَ لهم، واعترَفوا بذَنْبِهم؛ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

ولمَّا وقَع ما ذكَر، وكان قد أرسَل معهم مِن الدَّوابِّ والمال والآلات ما يتجهَّزون به؛ أقبَلوا على التَّجهيزِ كما أمَرهم يوسفُ عليه السلام، ثم قَدِموا مِصْرَ وهم اثنانِ وسبعون نفسًا مِن الذكور والإناث، وكأنَّهم أسرَعوا في ذلك؛ فلذلك قال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[(١)].

وفي الكلامِ إيجازٌ؛ والتَّقدير: فرحَل يعقوبُ عليه السلام بأهله، وسارُوا حتى أتَوْا يوسفَ، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[(٢)].

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر الأمنَ الذي هو مِلاكُ العافيةِ التي بها لذَّةُ العيش، أتبَعه الرِّفعةَ التي بها كمالُ النَّعيم، فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[(٣)].

لمَّا دخَل يوسفُ مِصْرَ، وجلَس في مجلسِه على سريره، واجتمَعوا إليه؛ أكرَم أبوَيه فرفَعهما معه على السرير[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢١٦).

(٢) روح المعاني (٧/ ٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢١٧).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٢٦).

ولمَّا انتهَوْا إلىٰ القصر ودخلوا، رفع ﴿أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾(١).

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

ولمَّا ذكَر هاتينِ الصِّفتين، تذكَّر ما وقَع له بهما مِن الأسبابِ، فغلَب عليه مقامُ الشُّهود، وازدادت نفسُه عن الدُّنيا عزوفًا، فقال مخاطبًا: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢).

أعقَب ذِكْرَ نِعْمةِ الله عليه بتوجُّهه إلىٰ مناجاةِ ربِّه بالاعترافِ بأعظَمِ نِعَمِ الدُّنيا، والنِّعْمةِ العظمىٰ في الآخرة؛ فذكَر ثلاثَ نِعَمٍ: اثنتانِ دُنْيويَّتان؛ وهما: نِعْمةُ الوِلاية علىٰ الأرض، ونِعْمةُ العلم، والثالثة: أُخْروية؛ وهي: نِعْمةُ الدِّين الحقِّ، المعبَّرِ عنه بالإسلام(٣).

لمَّا أتَمَّ اللهُ ليوسفَ ما أتَمَّ مِن التمكينِ في الأرض والمُلْكِ، وأقَرَّ عينَه بأبويه وإخوته، وبعد العلمِ العظيم الذي أعطاه اللهُ إيَّاه؛ قال مُقِرًّا بنِعْمةِ الله، شاكرًا لها، داعيًا بالثَّبات علىٰ الإسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٤).

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٦٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٠).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٠٦).

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ ﴾

ولمَّا تَمَّ الذي كان مِن أمرِهم على هذا الوجهِ الأحكَم، والصراطِ الأقوَم، مِن ابتدائه إلى انتهائه؛ قال مشيرًا إلى أنَّه دليلٌ كافٍ في تصحيحِ دعوى النُّبوَّة، مخاطبًا لِمَن لا يَفهَم هذا الحقَّ فَهْمَه غيرُه، مسلِّيًا له، مثبِّتًا لفؤاده، وشارحًا لصدره، منبِّهًا على أنَّه ممَّا ينبغي السُّؤال عنه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾[1].

تذييلٌ للقصَّة عند انتهائها، والإشارةُ إلى ما ذُكِر مِن الحادث؛ أي: ذلك المذكور، واسمُ الإشارة لتمييزِ الأنباء أكمَلَ تمييزٍ؛ لتَتمكَّنَ مِن عقول السَّامعين؛ لِما فيها مِن المواعظ[2].

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾

ولمَّا سألت قُرَيشٌ واليهودُ رسولَ الله ﷺ عن قصَّةِ يوسفَ عليه السلام، فنزلَتْ مشروحةً هذا الشرحَ الشافي، مبيِّنةً هذا البيانَ الوافي، فأمَّل ﷺ أن يكونَ ذلك سببَ إسلامهم، فخالَفوا تأميلَه؛ عزَّاه اللهُ بقولِه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

انتقالٌ مِن سَوْقِ هذه القصَّة إلى العِبْرةِ بتصميم المشركين على التَّكذيبِ بعد هذه الدَّلائلِ البيِّنة؛ فالواوُ للعطف على جملة ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ باعتبارِ إفادتها أنَّ هذا القرآنَ وحيٌ مِن الله، وأنَّه حقيقٌ بأن يكونَ داعيًا سامعيه إلى الإيمانِ

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٩).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٦).

بالنبي ﷺ، ولمَّا كان ذلك مِن شأنِه أن يكونَ مُطمِعًا في إيمانهم، عُقِّب بإعلامِ النبيِّ ﷺ بأنَّ أكثرَهم لا يؤمنون[1].

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما هم عليه مِن الكفرِ، ذكَر ما يُعجَبُ معه منه، فقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

جملةُ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ إلىٰ آخرِها، باعتبارِ ما أفادته مِن التأييسِ مِن إيمانِ أكثَرِهم؛ أي: لا يسُوءُك عدمُ إيمانهم؛ فلستَ تبتغي أن يكونَ إيمانُهم جزاءً علىٰ التبليغ، بل إيمانُهم لفائدتهم[3].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا كان القرآنُ العظيم أعظَمَ الآيات بما أنبأ فيه عن الأخبارِ الماضية، والكوائنِ الآتية، علىٰ ما هي عليه، مضمَّنةً مِن الحِكَمِ والأحكام، في أساليبِ البلاغة التي لا تُرام، وغير ذلك مما لا يُحصَر بنظامٍ؛ كما أشار إليه أول السُّورة؛ وكان ربما قيل: إنَّ هذا ربما لا يَعلَمه إلا الرَّاسخون في العلوم الإلهيَّة، عطف عليه الإشارة إلىٰ أنَّ له تعالىٰ غيرَه مِن الآياتِ التي لا تَحتاجُ -لوضوحها- إلىٰ أكثَرَ مِن العقل مما لا يحيط به الحصر، ومع ذلك فلم يَنتفعوا به، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٦١-٦٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٢).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٧-٢٣٨).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ أي: ليس إعراضُهم عن آيةِ حصول العلم للأمِّيِّ بما في الكتب السَّالفة فحسبُ؛ بل هم معرِضون عن آياتٍ كثيرةٍ في السماوات والأرض[(١)].

ثم أخبَر تعالىٰ أنَّهم لفَرْطِ كفرِهم يمُرُّون علىٰ الآياتِ التي تكون سببًا للإيمان ولا تؤثِّرُ فيهم، وأنَّ تلك الآياتِ هي في العالَمِ العُلْوي، وفي العالَمِ السُّفْلي[(٢)].

﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ ﴾

ولمَّا كان ربما قيل: كيف يوصَفون بالإعراض وهم يعتقدون أنَّ اللهَ خالقُ تلك الآياتِ؟! بيَّن أنَّ إشراكَهم مُسقِطٌ لذلك، فقال: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾[(٣)].

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ ﴾

ولمَّا أخبَر اللهُ تعالىٰ عن ارتباكِهم في أشراكِ إشراكهم، وأنَّهم يتعامَوْنَ عن الأدلَّةِ في الدُّنيا، وكان الأكثَرُ المُبهَمُ لا يَمنَع القطعَ بعدمِ إيمانهم مِن توجيهِ الأمر والنَّهي والحثِّ والزجر إلىٰ الجميع وهم في غمارِهم، وكان بعضُ الناس كالحمارِ لا ينقادُ إلا بالعذاب؛ قال ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٣).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٣١).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٨).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٢٣٩-٢٤٠).

اعتراضٌ بالتَّفريع علىٰ ما دلَّت عليه الجملتانِ قبله مِن تفظيعِ حالهم، وجرأتِهم علىٰ خالقِهم، والاستمرارِ علىٰ ذلك دُونَ إقلاعٍ، فكأنَّهم في إعراضهم عن توقُّعِ حصولِ غضَبِ الله بهم آمِنون أن تأتيَهم غاشيةٌ مِن عذابه في الدُّنيا، أو تأتيَهم الساعةُ بغتةً فتحُولَ بَيْنَهم وبين التَّوبة، ويَصِيرون إلىٰ العذابِ الخالد[(١)].

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ولمَّا وصَف اللهُ سبحانه له ﷺ أكثَرَ الناس بما وصَف مِن سُوءِ الطريقة للتَّقليد الذي منشؤه الإعراضُ عن الأدلَّة الموجِبة للعلم، أمَر أن يُذكَر طريقُ الخلَّص، فقال: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن الاعتبار بدلالةِ نزول هذه القصَّة للنبي ﷺ الأمِّيِّ علىٰ صِدْقِ نبوَّتِه وصِدْقِه فيما جاء به مِن التَّوحيد إلىٰ الاعتبارِ بجميع ما جاء به مِن هذه الشريعةِ عن الله تعالىٰ، وهو المعبَّرُ عنه بالسَّبيل علىٰ وجهِ الاستعارة؛ لإبلاغِها إلىٰ المطلوب -وهو الفوزُ الخالد- كإبلاغِ الطَّريق إلىٰ المكانِ المقصود للسائر، وهي استعارةٌ متكرِّرة في القرآن، وفي كلامِ العرب[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٤).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٤١-٢٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٦٤-٦٥).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ ﴾

ولمَّا أوضَح إبطالَ ما تعنَّتوا به، أتبعَه ما يُوضِّح تعنُّتَهم بذِكْرِ المرسَلين، وأهلِ السَّبيل المستقيم، الدَّاعين إلىٰ الله علىٰ بصيرةٍ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّ مِن جملةِ شُبَهِ منكِري نبوَّتِه ﷺ أنَّ اللهَ لو أراد إرسالَ رسولٍ لبعَث مَلَكًا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾، فلمَّا كان الكلُّ هكذا، فكيف تعجَّبوا في حقِّك يا محمَّدُ؟! والآيةُ تدلُّ علىٰ أنَّ اللهَ ما بعَث رسولًا إلىٰ الخَلْقِ مِن النِّسوان، وأيضًا لم يَبعَثْ رسولًا مِن أهلِ البادية[(٢)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾

ولمَّا كان المعنىٰ معلومًا مِن هذا السِّياق؛ تقديرُه: فدعا الرجالُ المرسَلون إلىٰ الله، واجتهَدوا في إنذارِ قومهم لخلاصِهم مِن الشَّقاء، وتوعَّدوهم عن اللهِ بأنواع العقوبات إن لم يتَّبِعوهم، وطال عليهم الأمر، وتراخىٰ النَّصر، وهم يكذِّبونهم في تلك الإيعاداتِ، ويُبكِّتونهم، ويستهزئون بهم، واستمَرَّ ذلك مِن حالهم وحال

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٤٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٥٢١).

قومهم؛ قال مُشيرًا إلىٰ ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(١).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ العاقبةَ لرُسُلِه، وأنَّ نَصْرَه يأتيهم إذا تمادىٰ تكذيبُهم؛ تثبيتًا لفؤادِه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(٢).

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه هذه القِصَصَ كما كانت، وحَثَّ علىٰ الاعتبار بها، وأشار إلىٰ أنَّه بذلك أجرىٰ سُنَّتَه وإن طال المدىٰ؛ أتبعه الجزمَ بأنَّ في أحاديثهم أعظَمَ عِبْرةٍ، فقال حثًّا علىٰ تأمُّلِها والاستبصار بها: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾(٣).

هذا مِن رَدِّ العَجُزِ علىٰ الصَّدر؛ فهي مرتبِطةٌ بجملة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾، وهي تَتنزَّل منها منزلةَ البيان لِما تضمَّنه معنىٰ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ مِن التَّعجيب، وما تضمَّنه معنىٰ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الاستدلال علىٰ أنَّه وحيٌ مِن الله مع دلالةِ الأمِّيَّة، وهي أيضًا تتنزَّل منزلةَ التَّذييل للجُمَلِ المستطرَدِ بها لقصدِ الاعتبار بالقصَّة ابتداءً مِن قوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٢٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٢٥٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٧١).

سُورَةُ الرَّعۡدِ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ ﴾

فلمَّا أثبتَ سبحانه لهذا الكتابِ أنَّه المختصُّ بكونه حقًّا، فثبَت أنَّه أعظَمُ الأدلَّة والآيات؛ شرَع يذكُرُ مِن الآياتِ المحسوسة الظاهرة الدالةِ علىٰ كونِ آيات الكتاب حقًّا بما لها في أنفسها مِن الثَّبات، والدالَّةِ -بما لفاعلها مِن القدرةِ والاختيار- علىٰ أنَّه قادرٌ علىٰ كلِّ شيء، وأنَّ ما أخبَر به مِن البعثِ حقٌّ لِما له مِن الحِكْمةِ، والدالةِ -بما للتعبير عنها مِن الإعجاز- علىٰ كونها مِن عند الله، وبدأ بما بدأ به في تلك مِن آياتِ السماوات لشرَفِها، ولأنَّها أدَلُّ، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ هو ابتداءُ المقصود مِن السُّورة، وما قبله بمنزلةِ الدِّيباجة مِن الخطبة؛ ولذا تجد الكلامَ في هذا الغرضِ قد طال واطَّرد، ومناسبةُ هذا الاستئنافِ لقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾؛ لأنَّ أصلَ كفرِهم بالقرآن ناشئٌ عن تمسُّكِهم بالكفر، وعن تطبُّعِهم بالاستكبار والإعراضِ عن دعوة الحق[(٢)].

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٧٩).

ولمَّا ذكَر انتفاءَ الإيمان عن أكثَرِ الناس، ذكَر عَقِيبه ما يدلُّ على صحَّةِ التَّوحيد والمَعاد، وما يَجذِبُهم إلى الإيمان فيما يُفكِّر فيه العاقلُ ويشاهِده مِن عظيمِ القدرة، وبديعِ الصُّنع(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

ولمَّا انقضى ما أراد مِن آياتِ السماوات، ثنَّى بما فيما ثنَّى به في آيةِ «يوسف» مِن الدَّلالاتِ، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾(٢).

عطفٌ على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فبَيْنَ الجملتين شِبْهُ التَّضادِّ، اشتمَلت الأُولى على ذِكْرِ العوالم العُلْويَّة وأحوالها، واشتمَلت الثَّانيةُ على ذِكْرِ العوالم السُّفليَّة(٣).

لمَّا قرَّر الدَّلائلَ السَّماويَّة، أردَفها بتقريرِ الدَّلائل الأرضيَّة(٤).

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا كان الدَّليلُ -مع وضوحِه- فيه بعضُ غموضٍ، شرَع تعالى في شيءٍ مِن تفصيلِ ما في الأرض مِن الآياتِ التي هي أبينُ مِن ذلك دليلًا ظاهرًا جدًّا على إبطالِ قول الفلاسفة، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

(١) البحر المحيط (٦/ ٣٤٤).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٧٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٨٢).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٤٦).

صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

للهِ بلاغةُ القرآنِ في تغييرِ الأسلوب عند الانتقال إلىٰ ذِكْرِ النِّعم الدالة علىٰ قدرةِ الله تعالىٰ فيما ألهَمَ النَّاسَ مِن العملِ في الأرض بفَلْحِها وزرعِها وغرسِها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفًا على الأشياءِ التي أُسنِدَ جَعْلُها إلىٰ الله تعالىٰ، ولكنَّه لم يُسنَدْ إلىٰ الله حتىٰ بلَغ إلىٰ قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾؛ لأنَّ ذلك بأسرارٍ أودَعها اللهُ تعالىٰ فيها هي موجِبُ تفاضُلِها. وأمثالُ هذه العِبرِ ولَفْتُ النَّظر ممَّا انفرَد به القرآنُ مِن بَيْنِ سائرِ الكتب(٢).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ إقامةُ الدَّلالة علىٰ أنَّه لا يجوز أن يكونَ حدوثُ الحوادث في هذا العالَمِ لأجلِ الاتصالات الفلكيَّة، والحركات الكوكبية(٣).

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مشتمِلةٌ علىٰ طائفةٍ أخرىٰ مِن الآيات(٤).

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت قطعًا بما أقام مِن الدَّليل علىٰ عظيمِ قُدْرتِه بما أودَعه مِن الغرائبِ في ملكوته، التي لا يَقدِرُ عليها سِواه: أنَّ هذا إنَّما هو فعلُ واحدٍ قهَّارٍ مختارٍ يوجد

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٧٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٨٦).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٥/ ٥).

المعدومَ، ويفاوِتُ بَيْنَ ما تقتضي الطَّبائعُ اتحادَه؛ كان إنكارُ شيءٍ مِن قُدْرتِه عجَبًا، فقال عطفًا على قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مشيرًا إلى أنَّهم يقولون: إنَّ الوعدَ بالبعث سِحْرٌ لا حقيقةَ له: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١).

عطفٌ على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، فلمَّا قُضِي حقُّ الاستدلالِ على الوَحْدانيَّة، نُقِل الكلامُ إلى الرَّدِّ على منكِري البعث، وهو غرضٌ مستقلٌّ مقصودٌ مِن هذه السُّورةِ، وقد أُدمِجَ ابتداءً خلالَ الاستدلال على الوَحْدانيَّة بقولِه: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ تمهيدًا لِما هنا، ثم نُقِل الكلامُ إليه باستقلاله بمناسبةِ التَّدليل على عظيمِ القدرة مستخرَجًا مِن الأدلة السابقة عليه أيضًا، فصِيغَ بصيغةِ التَّعجيب مِن إنكارِ منكِري البعث؛ لأنَّ الأدلةَ السَّالفة لم تُبقِ عُذْرًا لهم في ذلك، فصار في إنكارِهم محَلُّ عجَبِ المتعجِّب(٢).

ولمَّا أقام الدَّلائلَ على عظيمِ قُدْرتِه بما أودَعه مِن الغرائب في ملكوتِه التي لا يَقدِرُ عليها سِواه، عجَّب الرسولَ ﷺ مِن إنكارِ المشركين وَحْدانيَّتَه، وتوهينِهم قُدْرتَه لضَعْفِ عقولهم، فنزَل: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر الدَّلائلَ القاهرة على ما يُحتاج إليه في معرفةِ المبدأ، ذكَر بعده مسألةَ المَعادِ، فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٨١-٢٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٨٩).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٥١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦﴾

ولمَّا تضمَّنتْ هذه الآيةُ إثباتَ القدرةِ التامة مع ما سبَق مِن أدلَّتها المحسوسةِ المشاهَدة، كان أيضًا مِن العجَبِ العجيب والنَّبأِ الغريب استهزاؤُهم بها، فقال مُعجِّبًا منهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[(١)].

جملةُ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾؛ لأنَّ كلتا الجملتينِ حكايةٌ لغريبِ أحوالهم في المكابَرةِ والعناد والاستخفاف بالوعيد، فابتدأ بذِكْرِ تكذيبِهم بوعيدِ الآخرة لإنكارِهم البعث، ثم عطَف عليه تكذيبَهم بوعيدِ الدُّنيا لتكذيبِهم الرسولَ ﷺ[(٢)].

ولمَّا كانوا مُتوعَّدِينَ بالعذاب إن أصَرُّوا علىٰ الكفر، وكانوا مُكذِّبين بما أُنذِروا به مِن العذابِ؛ سألوا واستعجَلوا في الطَّلب أن يأتيَهم العذابُ، وذلك علىٰ سبيلِ الاستهزاء[(٣)].

اعلَمْ أنَّه ﷺ كان يُهدِّدهم تارةً بعذاب القيامة وتارةً بعذاب الدُّنيا، والقومُ كلَّما هدَّدهم بعذاب القيامة، أنكَروا القيامةَ والبعث والحشر والنَّشر؛ وهو الذي تقدَّم ذِكْرُه في الآيةِ الأُولىٰ، وكلَّما هدَّدهم بعذاب الدُّنيا، قالوا له: فجِئْنا بهذا العذابِ، وطلَبوا منه إظهارَه وإنزاله علىٰ سبيلِ الطَّعن فيه، وإظهارِ أنَّ الذي يقوله كلامٌ لا أصلَ له؛ فلهذا السَّببِ حكىٰ اللهُ عنهم أنَّهم يستعجلون الرسولَ بالسَّيئة قبل الحسنة[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٩١).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٥٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١١).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّهم غَطَّوْا آياتِ ربِّهم المتفضِّلِ عليهم بتلك الآياتِ وغيرِها، عجَّب منهم عجَبًا آخَرَ في طلبِهم إنزالَ الآيات مع كونها متساويةَ الأقدامِ في الدَّلالة علىٰ الخالق، وما له مِن صفاتِ الكمال، فلمَّا كفَروا بما أتاهم، كانوا جديرين بالكفرِ بما يأتيهم، فقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الآية، وهذه حالةٌ مِن أُعْجوباتهم؛ وهي عدمُ اعتدادِهم بالآيات التي تأيَّدَ بها محمَّدٌ ﷺ، وأعظَمُها آياتُ القرآن، فلا يَزالون يَسألون آيةً، ومرادُهم بالآيةِ في هذا خارقُ عادةٍ علىٰ حسابِ ما يقترحون، فهي مخالِفةٌ لِما تقدَّم في قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ لأنَّ تلك في تعجيلِ ما توعَّدهم به، وما هنا في مجيءِ آيةٍ تؤيِّده[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم طعَنوا في نُبوَّته بسبب طعنِهم في الحشرِ والنَّشر أولًا، ثم طعَنوا في نبوَّته بسببِ طعنِهم في صحَّةِ ما يُنذِرُهم به مِن نزولِ عذاب الاستئصال ثانيًا، ثم طعَنوا في نبوَّته بأن طلَبوا منه المعجزةَ والبيِّنة ثالثًا، وهو المذكورُ في هذه الآيةِ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢).

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ ﴾

ولمَّا كان ما مضى مُترتِّبًا على العلمِ والقدرة، ولا سيَّما خَتْمُ هذه الآيةِ بـ﴿هَادٍ﴾، وكان إنكارُهم البعثَ إنكارًا للنَّشأة الأُولى، وكان ﷺ يَعلَم أنَّ إجابتَهم إلى ما اقترَحوا غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنَّهم متعنِّتون لا مسترشِدون: شرَع سبحانه -بعد الإعراض عن إجابة مقترَحاتِهم- يُقرِّر مِن أفعالِه المحسوسة لهم المقتضيةِ لاتصافه مِن العلم والقدرة بما هو كالإعادة سواءٌ؛ إشارةً منه تعالى إلى أنَّ إنكارَ البعث إن كان لاستحالةِ الإعادة فهي مثلُ البداءة، وإن كان لاستحالةِ تمييزِ التراب الذي كان منه الحيوانُ -بعد اختلاطِه بغيره، وتفرُّقِ أجزائه- فتمييزُ الماء الذي يكون منه الولَدُ مِن الماء الذي لا يصلُحُ لذلك أعجَبُ؛ لأنَّ الماءَ أشَدُّ اختلاطًا، وأخفى امتزاجًا، ومع ذلك فهو يَعلَمه، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾(١).

لمَّا قامت البراهينُ العديدة بالآياتِ السابقة على وَحْدانيَّة الله تعالى بالخَلْقِ والتدبير، وعلى عظيمِ قُدْرتِه التي أودَع بها في المخلوقاتِ دقائقَ الخِلْقة؛ انتقَل الكلامُ إلى إثباتِ العلم له تعالى علمًا عامًّا بدقائقِ الأشياء وعظائمها؛ ولذلك جاء افتتاحُه على الأسلوبِ الذي افتُتِح به الغرضُ السابق؛ بأن ابتُدئ باسمِ الجلالة، كما ابتُدئ به هنالك في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٍ ﴾، وجُعِلت هذه الجملةُ في هذا الموقعِ؛ لأنَّ لها مناسبةً بقولِهم: ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾، فإنَّ ما ذُكِر فيها مِن علمِ الله وعظيمِ صُنْعِه صالحٌ لأن يكونَ دليلًا على أنَّه لا يُعجِزُه الإتيانُ بما

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٨٧).

اقترَحوا مِن الآيات، ولكنَّ بَعْثَةَ الرسول ليس المقصدُ منها المنازعاتِ؛ بل هي دعوةٌ للنَّظر في الأدلَّة(١).

في وجهِ النَّظم وجوهٌ؛ الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم طلَبوا آياتٍ أخرىٰ غيرَ ما أتىٰ به الرسولُ ﷺ، بيَّن أنَّه تعالىٰ عالِمٌ بجميعِ المعلومات، فيَعلَم مِن حالهم أنَّهم هل طلَبوا الآيةَ الأخرىٰ للاسترشاد وطلَبِ البيان أو لأجلِ التَّعنُّت والعناد؟ وهل يَنتفعون بظهورِ تلك الآيات، أو يزداد إصرارُهم واستكبارهم؟ فلو عَلِم تعالىٰ أنَّهم طلَبوا ذلك لأجلِ الاسترشاد وطلبِ البيان ومزيدِ الفائدة، لأظهَره اللهُ تعالىٰ، وما منَعهم عنه، لكنَّه تعالىٰ لمَّا عَلِم أنَّهم لم يقولوا ذلك إلا لأجلِ محضِ العناد، لا جرَمَ أنَّه تعالىٰ منَعهم عن ذلك. والثاني: أنَّ وجهَ النَّظم أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ في إنكارِ البعث؛ وذلك لأنَّهم أنكَروا البعثَ بسبب أنَّ أجزاءَ أبدان الحيوانات عند تفرُّقها وتفتُّتها يختلطُ بعضُها ببعضٍ، ولا يَبقَىٰ الامتيازُ؛ فبيَّن تعالىٰ أنَّه إنَّما لا يَبقىٰ الامتيازُ في حقِّ مَن لا يكون عالِمًا بجميع المعلومات، أمَّا في حقِّ مَن كان عالِمًا بجميع المعلومات، فإنَّه يُبقِي تلك الأجزاء بحيث يمتازُ بعضُها عن البعضِ، ثم احتجَّ علىٰ كونِه تعالىٰ عالِمًا بجميع المعلومات بأنَّه ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾. الثالث: أنَّ هذا متصِلٌ بقولِه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ عالِمٌ بجميعِ المعلومات؛ فهو تعالىٰ إنَّما يُنزِلُ العذابَ بحسَبِ ما يَعلَم كونَه فيه مصلحةً(٢).

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٤).

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ استئنافٌ جوابًا عن سؤالِ مَن يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترَحِ؛ فتنقطِعَ حُجَّتُهم ولعلَّهم يهتدون؟ بأنَّ ذلك أمرٌ مدبَّرٌ ببالغِ العلم ونافذِ القدرة، لا عن الجُزَافِ، واتباعِ آرائهم السِّخاف[1].

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾

ولمَّا كان هذا غيبًا، وكان علمُه مستلزِمًا لعلمِ الشَّهادة، وكان للتَّصريح مزيَّةٌ لا تَخفَىٰ؛ صرَّح به علىٰ وجهٍ كلِّيٍّ يعُمُّ تلك الجزيئاتِ وغيرَها، فقال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[2].

جملةُ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ تذييلٌ وفَذْلكةٌ لتعميمِ العلم بالخفيَّات والظواهر؛ وهما قِسْمَا الموجودات[3].

ولمَّا ذكَر أنَّه عالِمٌ بأشياءَ خفيَّةٍ لا يَعلَمها إلا هو، وكانت أشياءَ جزئيَّةً مِن خفايا علمِه؛ ذكَر أنَّ عِلمَه محيطٌ بجميعِ الأشياء؛ فعلمُه تعالىٰ متعلِّقٌ بما يشاهِدُه العالَمُ تعلُّقَه بما يَغِيبُ عنهم[4].

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ ﴾

ولمَّا كانت العادةُ قاضيةً بتفاوتِ العلم بالنسبة إلىٰ السِّرِّ والجهر، والقدرةِ بالنسبة إلىٰ المتحفِّظِ بالحرَسِ وغيرِه؛ أتبَع ذلك سبحانه بما نفىٰ هذا الاحتمال عنه علىٰ وجهِ الشرحِ والبيان؛ لاستواءِ الغيبِ والشَّهادة بالنسبةِ إلىٰ علمه، فقال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[5].

---

(١) روح المعاني (٧/ ١٠٢).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٢٨٨-٢٨٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٨).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٥٨).
(٥) نظم الدرر (١٠/ ٢٩٠).

موقعُ هذه الجملةِ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ مضمونَها بمنزلةِ النَّتيجة لعمومِ علمِ الله تعالىٰ بالخفيَّات والظواهر، وعدَل عن الغَيْبةِ المتَّبَعة في الضمائرِ فيما تقدَّم إلىٰ الخطاب هنا في قوله: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم ﴾؛ لأنَّه تعليمٌ يصلُحُ للمؤمنين والكافرين، وفيها تعريضٌ بالتَّهديدِ للمشركين المتآمِرين علىٰ النبي ﷺ[(١)].

لمَّا ذكَر أنَّه تعالىٰ عالِمُ الغيبِ والشَّهادة علىٰ العموم، ذكَر تعالىٰ تعلُّقَ علمِه بشيءٍ خاصٍّ مِن أحوالِ المكلَّفين، فقال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[(٢)].

وبعدما بيَّن سبحانه أنَّه عالِمٌ بجميعِ أحوال الإنسانِ في مراتبِ فِطْرته، ومحيطٌ بعالَمَي الغيبِ والشَّهادة؛ بيَّن أنَّه تعالىٰ عالِمٌ بجميعِ ما يأتون وما يذَرون مِن الأفعال والأقوال، وأنَّه لا فَرْقَ بالنسبةِ إليه بَيْنَ السِّرِّ والعلَنِ، فقال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[(٣)].

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

لمَّا تقدَّم أنَّ مَن أَسَرَّ القولَ ومَن جهَر به، ومَن استخفىٰ بالليل وسرَب بالنَّهارِ: مُستوٍ في علمِ الله تعالىٰ، لا يَخفَىٰ عليه مِن أحوالهم شيءٌ؛ ذكَر أيضًا أنَّ لذلك المذكورِ مُعقِّباتٍ؛ وهم: جماعاتٌ مِن الملائكةِ تعقِّبُ في حفظِه وكَلاءتِه[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٥٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٨).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٦٠).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾

ثم أخبَر تعالىٰ بأمرٍ هو أدلَّةُ ما قبله، جامعٌ للعلمِ والقدرة، وهو ألطَفُ مِن ذلك كلِّه، مُعلِمٌ بجليلِ القدرة في أنَّه إذا أراد سُوءًا فلا مردَّ له، ودقيقِ الحِكْمة؛ لأنَّه مظهرٌ واحد، تُرجَىٰ منه النِّعْمةُ، وتُخشَىٰ منه النِّقمةُ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[(١)].

لمَّا خوَّف تعالىٰ العبادَ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، أتبَعه بما يشتمِلُ علىٰ أمورٍ دالةٍ علىٰ قدرةِ الله تعالىٰ وحِكْمتِه؛ تُشبِهُ النِّعَمَ مِن وجهٍ، والنِّقَمَ مِن وجه[(٢)].

ولمَّا خوَّف تعالىٰ العبادَ بإنزالِ ما لا مردَّ له، أتبَعه ببيانِ آياتِ قُدْرتِه وقهرِه وجلاله، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[(٣)].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

وعطَف الرَّعْدَ علىٰ ذِكرِ البَرْقِ والسَّحاب؛ لأنَّه مقارِنُهما في كثيرٍ مِن الأحوال[(٤)].

ثم ذكَر النوعَ الثالث مِن الدَّلائل، فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٩٣).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٦٣).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٦٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٠٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٢).

ولمَّا ذكَر البرقَ والسَّحاب في الآيةِ السابقة، ناسَب هنا أن يذكُرَ الرعدَ.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ ما له مِن الآياتِ التابعة لصفاتِ الكمال التي منها التَّنزُّهُ عمَّا لا يَليقُ بالجلال، وأنَّه شديدُ المِحال؛ شرَع يبيِّنُ ضَلالَهم في اشتراكهم بما هو علَّةٌ لختْمِ ما قبلها مِن أنَّه لا كُفُؤَ له، فقال: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ بمنزلةِ النَّتيجة، ونهوضِ المدلَّل عليه بالآياتِ السالفة التي هي براهينُ الانفراد بالخَلْقِ الأول، ثم الخَلق الثاني، وبالقدرة التَّامة التي لا تُدانيها قدرةُ قديرٍ، وبالعلم العامِّ؛ فلا جرَمَ أن يكونَ صاحبُ تلك الصفاتِ هو المعبودَ بالحق، وأنَّ عبادةَ غيرِه ضَلالٌ(٢).

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾

ولمَّا كانت دعوةُ الأمر واضحةَ السُّبل جليَّةَ المناهج في جميعِ كُتُبه، وكلها إلىٰ النَّاظرين، وبيَّن دعوةَ الحُكْمِ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾(٣).

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٠٠-٣٠١).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٠٧).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٠٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: له دعوةُ الحقِّ، وله يسجُدُ مَن في السماوات والأرض؛ وذلك شعارُ الإلهيَّة، فأمَّا الدَّعوةُ فقد اختَصَّ بالحَقَّةِ منها دُونَ الباطلة، وأمَّا السُّجودُ -وهو الهُويُّ إلىٰ الأرض بقصدِ الخضوع- فقد اختَصَّ اللهُ به علىٰ الإطلاق[1].

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾

فلمَّا تبيَّن قطعًا أنَّه سبحانه المدبِّرُ للسماواتِ والأرض، القاهرُ لِمَن فيهما، وتبيَّن قطعًا أنَّه المختصُّ بربوبيتِهما؛ فأمَره تعالىٰ أن يُوجِّهَ السُّؤال نحوَهم عن ذلك -ردًّا علىٰ عبَدةِ الأصنام، وغيرِهم مِن الملحِدِين- بقولِه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾[2].

لمَّا نهَضتِ الأدلَّةُ الصَّريحة بمظاهرِ الموجودات المتنوِّعة علىٰ انفرادِه بالإلهيَّة، لا جرَمَ تهيَّأ المقامُ لتقريرِ المشركين تقريرًا لا يجدُون معه عن الإقرار مندوحةً، ثم لتقريعِهم علىٰ الإشراك تقريعًا لا يسَعُهم إلا تجرُّعُ مرارتِه؛ لذلك استؤنف الكلامُ وافتُتح بالأمر بالقول تنويهًا بوضوح الحُجَّة[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ كلَّ مَن في السماوات والأرض ساجدٌ له -بمعنىٰ كونه خاضعًا له-، عاد إلىٰ الرَّدِّ علىٰ عبَدةِ الأصنام، فقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١١٠).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣١٠-٣١١).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١١٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦).

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ ﴾

ولمَّا كان حَمْلُ الماءِ في العُلْوِ لا يُمكِنُ إلا عن قهرٍ، وإنزالُه في وقتٍ دُونَ غيرِه كذلك؛ أتبع هذا الخَتْمَ قولَه دليلًا مُشاهَدًا عليه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ أفاد تسجيلَ حرمانِ المشركين مِن الانتفاع بدلائلِ الاهتداء التي مِن شأنِها أن تَهدِيَ مَن لم يَطبَعِ اللهُ علىٰ قلبِه؛ فاهتدىٰ بها المؤمنون، وجيءَ في هذا التَّسجيلِ بطريقةِ ضَربِ المثَلِ بحالَيْ فريقينِ في تَلقِّي شيءٍ واحدٍ انتفع فريقٌ بما فيه مِن منافعَ، وتعلَّق فريقٌ بما فيه مِن مَضارَّ، وجيء في ذلك التَّمثيلِ بحالةٍ فيها دلالةٌ علىٰ بديعِ تصرُّفِ الله تعالىٰ ليحصُلَ التَّخلُّصُ مِن ذِكْرِ دلائلِ القدرة إلىٰ ذِكرِ عِبَرِ الموعظة[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شبَّه المؤمنَ والكافر والإيمانَ والكفر بالأعمىٰ والبصيرِ والظُّلمات والنُّور، ضرَب للإيمانِ والكفر مثلًا آخرَ، فقال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾[(٣)].

ثم ضرَب تعالىٰ مثَلَينِ للحقِّ في ثباتِه وبقائه، والباطلِ في اضمحلاله وفَنائه، بقولِه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٩).

ﵟٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَﵞ [1].

ﵟلِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ﵞ

ولمَّا تمَّ ما للحقِّ والباطل في أنفسِهم مِن الثَّبات والاضطراب، ذكَر ما لأهلِهما مِن الثَّواب والعقاب، جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما لِمَن تدبَّر هذه الأمثالَ، وأبعَدَ عمَّا أشارت إليه مِن الضَّلال، أو حادَ عمَّا دعَتْ إليه ومال؟ فأُجيبَ بقوله: ﵟلِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُﵞ [2].

مناسبتُه لِما تقدَّم مِن التَّمثيلَينِ: أنَّهما عائدانِ إلى أحوالِ المسلمين والمشركين؛ ففي ذِكْرِ هذه الجملة زيادةُ تنبيهٍ للتَّمثيلِ وللغرض منه مع ما في ذلك مِن جزاءِ الفريقينِ؛ لأنَّ المؤمنين استجابوا لله بما عقَلوا الأمثالَ، فجُوزوا بالحسنى، وأمَّا المشركون فأعرَضوا ولم يَعقِلوا الأمثالَ، فكان جزاؤهم عذابًا عظيمًا؛ وهو سُوءُ الحسابِ الذي عاقِبتُه المصيرُ إلى جهنَّمَ [3].

أنَّه متَّصِلٌ بما قبله؛ والتَّقدير: كأنَّه قال: الذي يَبقَى هو مثَلُ المستجيب، والذي يَذهَبُ جُفَاءً مثَلُ مَن لا يستجيب، ثم بيَّن الوجهَ في كونه مثَلًا؛ وهو أنَّه لِمَن يستجيب الحسنى؛ وهو الجنَّة، ولِمَن لا يستجيبُ أنواعُ الحسرة والعقوبة [4].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٢٧٤).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣١).

لمَّا بيَّن تعالىٰ الحقَّ مِن الباطل، ذكَر أنَّ الناسَ علىٰ قسمينِ: مستجيبٌ لربِّه، فذكَر ثوابَه، وغيرُ مستجيبٍ، فذكَر عقابَه[١].

ولمَّا بيَّن سبحانه شأنَ كلٍّ مِن الحقِّ والباطل حالًا ومآلًا، تأثَّره ببيانِ حالِ أهل كلٍّ منهما مآلًا، ترغيبًا وترهيبًا، بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[٢].

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾

ولمَّا افترَق حالُ مَن أجاب ومَن أعرَض في الجزاء، وكان ما مضىٰ مُستوفيًا طُرُقَ البيانِ بإيضاحِ الأمر بالجزيئات والأمثلة مع التَّرغيب والتَّرهيب، فكان جديرًا بترتيبِ الأثر عليه؛ تسبَّب عنه الإنكارُ علىٰ مَن سوَّىٰ بَيْنَ العالِمِ العامل وغيرِه التفاتًا إلىٰ قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، وسوَّىٰ بَيْنَ الحقِّ والباطل التفاتًا إلىٰ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ فحسُنَ قولُه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٣].

تفريعٌ علىٰ جملة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ فالكلامُ لنفيِ استواء المؤمنِ والكافر في صورةِ الاستفهام؛ تنبيهًا علىٰ غفلةِ الضالِّينَ عن عدمِ الاستواء[٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾؛ فهذا إشارةٌ إلىٰ المثَلِ المتقدِّم ذِكْرُه؛ وهو أنَّ العالِمَ بالشَّيء كالبصير، والجاهلَ به كالأعمىٰ، وليس

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤١٦).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٢٧٩).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٣).

أحدُهما كالآخَر؛ لأنَّ الأعمىٰ إذا أخذ يمشي مِن غيرِ قائدٍ، فالظاهر أنَّه يقعُ في البئر وفي المهالك، وربما أفسَد ما كان علىٰ طريقِه مِن الأمتعة النافعة، أمَّا البصيرُ فإنَّه يكون آمِنًا مِن الهلاك والإهلاك[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا منَح سبحانه مَن فيهم أهليَّة التَّذكُّر بالعقولِ الدالة علىٰ توحيده، والانقيادِ لأوامره؛ كان كأنَّه عهدٌ في ذلك، فقال يصفُ المتذكِّرين بما يدلُّ قطعًا علىٰ أنَّه لا لُبَّ لِسِواهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾[2].

يجوز أن تكونَ ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ ابتداءَ كلامٍ؛ فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ جاء لمناسبةِ ما أفادت الجملةُ التي قبلها مِن إنكارِ الاستواء بَيْنَ فريقينِ؛ ولذلك ذكَر في هذه الجُمَلِ حالَ فريقينِ في المَحامدِ والمَساوي؛ ليَظهَرَ أنَّ نَفْيَ التَّسوية بينهما في الجملةِ السابقة ذلك النَّفيَ المرادَ به تفضيلُ أحدِ الفريقينِ علىٰ الآخَر هو نَفْيٌ مؤيَّدٌ بالحُجَّة، وبذلك يَصِيرُ موقعُ هذه الجملة مفيدًا تعليلًا لنفيِ التَّسوية المقصودِ منه تفضيلُ المؤمنين علىٰ المشركين[3].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان أمرُ الله جاريًا علىٰ منهاجِ العقل، وإن كان قاصرًا عنه لا يمكِنُ نَيْلُه له مِن غيرِ مُرشِدٍ؛ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٤).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٣٢٩).

ومناسبةُ عطفِه أنَّ وَصْلَ ما أمَر اللهُ به أن يُوصَلَ أثرٌ مِن آثارِ الوفاء بعهدِ الله؛ وهو عهدُ الطاعة[(١)].

ثم ذكَر وَصْفَهم الثالث: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ ﴾

ولمَّا كان الوفاءُ بالعهدِ في غاية الشِّدَّة علىٰ النَّفس، قال مشيرًا إلىٰ ذلك مع شمولِه لغيره: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾[(٢)].

جاءت الصلةُ هنا بلفظِ الماضي، وفي الموصولينِ قبلُ بلفظِ المضارع في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾، وما عُطِف عليهما: علىٰ سبيلِ التفنُّن في الفصاحة[(٣)].

قيل: هو كلامٌ مستأنَفٌ، وقيل: معطوفٌ علىٰ ما قبله، والتَّعبيرُ عنه بلفظ الماضي للتَّنبيه علىٰ أنَّه ينبغي تحققُّه[(٤)].

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ ﴾

ثم بيَّن عقبىٰ الدار بقولِه: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٦).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٠).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٨٠).

(٤) فتح القدير (٣/ ٩٤).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٣٣١).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾

جملةُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ؛ لأنَّ هذا لا يكون إلا كلامًا مِن الداخلينَ، وهذا تحيَّةٌ يُقصَد منها تأنيسُ أهل الجنَّة[1].

وبعد أن ذكَر دخولَهم مِن كلِّ باب، ذكَر هنا تحيَّتَهم عند الدخول.

ثم ذكَر السببَ الذي لأجلِه كان دخولُهم يهنئونهم بسلامةِ الوصول، وتحقيقِ المأمول، وكرامةِ الله لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾

ولمَّا ذكَر ما للنَّاجين، ذكَر مآلَ الهالكين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[2].

هذا شرحُ حالِ أضداد الذين يُوفُون بعهدِ الله، والجملةُ معطوفة على جملة ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾[3].

لمَّا ذكَر صفاتِ السُّعداء، وذكَر ما ترتَّب عليها مِن الأحوالِ الشريفة العالية؛ أتبعَها بذِكْرِ حالِ الأشقياء، وذكر ما يَترتَّب عليها مِن الأحوالِ المُخْزية المكروهة، وأتبَع الوعدَ بالوعيد والثوابَ بالعقاب؛ ليكونَ البيان كاملًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣٨).

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ ﴾

ولمَّا تقدَّم الحثُّ العظيم على الإنفاق، وأُشيرَ إلى أنَّه مِن أوثَقِ الأسباب في الوُصْلةِ لجميعِ أوامر الله، وخُتِم بأنَّ للكافرِ البُعْدَ والطَّرد عن كلِّ خيرٍ والسُّوءَ؛ كان موضعَ أن يقولَ الكفار: ما لنا يُوسَّعُ علينا مع بُعْدِنا، ويُضيَّق على المؤمن مع وَصْلِه واتصاله، وما له لا يُبسَطُ له رِزْقُه ليَتمكَّنَ مِن إنفاذِ ما أُمِر به إن كان ذلك حقًّا؟ فقيل: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾[(١)].

هذه الجملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عمَّا يهجسُ في نفوسِ السامعين مِن المؤمنين والكافرين مِن سماع قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[(٢)].

لمَّا كان كثيرٌ مِن الأشقياء فُتِحتْ عليهم نِعَمُ الدُّنيا ولذَّاتُها، أخبَر تعالى أنَّه هو الذي ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق[(٣)].

لمَّا حُكِم على مَن نقَض عَهْدَ الله في قَبول التوحيد والنُّبوَّة بأنَّهم ملعونون في الدُّنيا، ومعذَّبون في الآخرة، فكأنَّه قيل: لو كانوا أعداءَ الله، لَمَا فتَح اللهُ عليهم أبوابَ النِّعَم واللذات في الدُّنيا، فأجاب اللهُ تعالى عنه بهذه الآيةِ[(٤)].

لمَّا ذكَر عاقبةَ المؤمن وعاقبةَ المشرك، بيَّن أنَّه تعالى الذي يبسُطُ الرزق ويَقدِر في الدُّنيا؛ لأنَّها دارُ امتحانٍ؛ فبَسْطُ الرزق على الكافر لا يدلُّ على كرامته، والتَّقتيرُ على بعضِ المؤمنين لا يدلُّ على إهانتِهم[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٨٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣١٤).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ﴾

لمَّا كان العقلُ أعظَمَ الأدلَّة، وتقدَّم أنَّه مقصورٌ على المتذكِّرين، إشارةً إلى أنَّ مَن عداهم بقَرٌ سارحةٌ، وعُرِف أنَّ ما دعا إليه الشَّرعُ هو الصَّلاح، وضِده هو الفساد، وكان العقلُ إنَّما هو لمعرفةِ الصَّلاح فيُتَّبع، والفساد فيُجتَنب، وكان الطالبُ لإنزال آيةٍ -إلى غيرِ ذلك؛ لا سيَّما بعد آياتٍ متكاثرةٍ، ودلالاتٍ ظاهرةٍ- موضعًا لأن يُعجَبَ منه؛ قال على سبيلِ التَّعجُّب عطفًا على قوله: ﴿وَفَرِحُوا۟﴾، مظهرًا لِما مِن شأنه الإضمارُ؛ تنبيهًا على الوصفِ الذي أوجَب لهم التَّعنُّتَ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١).

عطفُ غرضٍ على غرض، وقصَّةٍ على قصَّة، والمناسبةُ ذِكْرُ فرَحِهم بحياتِهم الدُّنيا وقد اغتَرُّوا بما هم عليه مِن الرزقِ، فسألوا تعجيلَ الضُّرِّ، وهذه الجملةُ تكريرٌ لنظيرتها: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾(٢).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾

استئنافٌ اعتراضيٌّ، مناسبتُه المضادَّة لحالِ الذين أضلَّهم اللهُ، والبيانُ لحالِ الذين هَداهم، مع التَّنبيهِ على أنَّ مثالَ الذين ضَلُّوا هو عدمُ اطمئنانِ قلوبهم لذِكْرِ الله؛ وهو القرآن؛ لأنَّ قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يتضمَّن أنَّهم لم يعُدُّوا القرآنَ آيةً

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٥).

مِن الله، ثم التَّصريح بجنسِ عاقبة هؤلاء، والتَّعريض بضدِّ ذلك لأولئك، فذِكْرُها عَقِب الجملةِ السابقة يفيد الغرضينِ، ويشير إلىٰ السَّببين[(١)].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ أَنَابَ ﴾ بدلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ، فإن أُريدَ بالهدايةِ الهدايةُ المستمرَّة، فالأمر ظاهرٌ؛ لظهورِ كونِ الإيمان مؤدِّيًا إليها، وإن أُريد إحداثُها، فالمراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الذين صار أمرُهم إلىٰ الإيمان[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أخبر عمَّا لهذا القسم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾[(٣)].

ثم أخبر بما أُعِدَّ لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا كان في ذلك فَطْمٌ عن إنزالِ المقترَحات، وكان إعراضُ المقترِحين قد طال، وطالَ البلاءُ بهم، والصبرُ علىٰ أذاهم؛ كان موضعَ أن يقالَ مِن كافرٍ أو مسلمٍ عِيلَ صبرُه: أوَلستَ مُرسَلًا يستجاب لك كما كان يستجاب للرُّسل؟ فقيل: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٧).

(٢) روح المعاني (٧/ ١٠٢).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٧).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٣٣٧).

هذا الجوابُ عن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الجوابَ السابق بقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ جوابٌ بالإعراض عن جهالتِهم، والتَّعجُّب مِن ضَلالهم، وما هنا هو الجوابُ الرادُّ لقولهم(١).

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾

ولمَّا فرَغ مِن الجوابِ عن الكفر بالموحَىٰ، عطَف علىٰ ﴿هُوَ رَبِّي﴾ الجوابَ عن الكفرِ بالوحي، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾(٢).

يجوز أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجملة المعطوفِ عليها أنَّ رسالتَه لم تكُنْ إلا مثلَ رسالةِ غيره مِن الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كما أشار إليه صفةُ ﴿أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾، فتكونَ جملةُ ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ تتمَّةً للجواب عن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ علَّةَ إرساله -وهي تلاوةُ ما أوحاه إليه-، ذكَر تعظيمَ هذا الموحىٰ، وأنَّه لو كان قرآنٌ تُسيَّرُ به الجبالُ عن مَقارِّها، أو تُقطَّع به الأرض حتىٰ تتزايَلَ قِطعًا قِطعًا، أو تُكلَّم به الموتىٰ فتَسمَع وتُجيب؛ لكان هذا القرآنَ؛ لكونِه غايةً في التَّذكيرِ، ونهايةً في الإنذارِ والتَّخويف(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٤١).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٢).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٨٨).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ عظمةِ هذا الوحي وتفضيلِه علىٰ ما سِواه بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[(١)].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا تمَّ الجوابُ عن كفرِهم بالموحِي، وما أوحاه إليه، وما اشتَدَّ تعلُّقه به؛ عطَف علىٰ ذلك تأسيةً بالموحىٰ إليه ﷺ؛ لأنَّ الحاثَّ علىٰ تميُّزِ الإجابة إلىٰ الآياتِ المقترَحات استهزاءُ الكفار، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ إلخ؛ لأنَّ تلك المُثُلَ الثلاثة التي فُرِضتْ أُرِيدَ بها أمورٌ سألها المشركون النبيَّ ﷺ استهزاءً وتعجيزًا، لا لترقُّبِ حصولها، وجاءت عَقِب الجملتينِ؛ لِما فيها مِن المناسبةِ لهما مِن جهةِ المُثُلِ التي في الأُولىٰ، ومِن جهة الغاية التي في الثانية[(٣)].

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا طلَبوا سائرَ المُعجِزات مِن الرسولِ ﷺ علىٰ سبيلِ الاستهزاء والسُّخريَّة، وكان ذلك يشُقُّ علىٰ رسولِ الله ﷺ، وكان يتأذَّىٰ مِن تلك الكلماتِ؛ فالله تعالىٰ أنزَل هذه الآيةَ تسليةً له، وتصبيرًا له علىٰ سفاهةِ قومه، فقال له: إنَّ أقوامَ

(١) محاسن التأويل (٦/ ٢٨٤).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٧).

سائرِ الأنبياء استهزؤوا بهم كما أنَّ قومَك يستهزئون بك: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1].

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

فلمَّا تقرَّر - بما مضىٰ مِن قُدْرتِه تعالىٰ علىٰ الثَّوابِ والعقاب، وخفضِه الأرَضِينَ، ورَفْعِه السماوات، ونَصْبِه الدَّلالاتِ، بباهرِ الآيات البيِّنات - أنْ ليس لأحدٍ غيرِه أمرٌ ما، وتحرَّر أنَّ كلَّ أحدٍ في قبضتِه؛ تسبَّب عن ذلك أن يقالَ: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[2].

ثم إنَّه تعالىٰ أورَد علىٰ المشركين ما يَجري مجرىٰ الحِجَاجِ، وما يكون توبيخًا لهم، وتعجيبًا مِن عقولهم، فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾[3].

ثم استفهَم سبحانه استفهامًا آخَرَ للتَّوبيخ والتَّقريع، يَجري مجرىٰ الحِجاج للكفار، واستِرْكَاكِ[4] صُنْعِهم، والإزراءِ عليهم، فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٤٤).

(٤) من الركاكة؛ أي: استضعاف.

(٥) فتح القدير (٣/ ١٠١).

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

فكأنَّه قيل: فماذا لهم علىٰ ما فعَلوا مِن ذلك؟ فقيل: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ هذا التبديدَ يومئ إلىٰ وعيدٍ يَسأل عنه السامعُ، وفيه تكملةٌ للوعيدِ المتقدِّم في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، مع زيادةِ الوعيد بما بعد ذلك في الدارِ الآخرة[2].

ثم بيَّن سبحانه ما يستحِقُّونه، فقال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[3].

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا توعَّدهم علىٰ تفريطِهم في جانبِ الله، تشوَّفت النَّفسُ إلىٰ ما لأضدادِهم، فكان كأنَّه قيل: فما لِمَن عاداهم في الله؟ فقيل: الجَنَّةُ، فكأنَّه قيل: وما هي؟ فقيل: إنَّها في الجلالِ، وعُلُوِّ الجمال، وكرَمِ الخِلال، ممَّا تعالىٰ عن المَنال، إلا بضَرْبِ الأمثال، فقيل: ما مثلُها؟ فقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٤).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٠٢).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٣٥٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ يرتبط بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾، ذُكِر هنا بمناسبةِ ذِكْرِ ضدِّه في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾[1].

ولمَّا ذكَر ما أُعِدَّ للكفار في الآخرة، ذكَر ما أُعِدَّ للمؤمنين، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾

ولمَّا وصَف العالِمينَ بأنَّ المنزَّلَ إليه هو الحقُّ برجاحةِ العقول وأصالةِ الأداء المؤدِّية إلىٰ الصَّلاح الموجِب لكلِّ سعادة، والكافرين به بضَعْفِ العقول الدافعِ إلىٰ الفساد الموصلِ إلىٰ سُوءِ الدار، ومرَّ فيما يلائمه إلىٰ أنْ ختَمه بمِثْلِ ما ختَم به ذلك؛ عطَف علىٰ ذلك قولَه -ويمكن أن يكونَ اتصالُه بما قبله أنَّه معطوفٌ علىٰ محذوفٍ هو علَّةٌ لختمِ الآية السَّالفة؛ تقديرُه: لأنَّهم ساءَهم ما أُنزِلَ إليه حسَدًا وجهلًا-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾[3].

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتُقل به إلىٰ فضلٍ لبعضِ أهل الكتاب في حُسْنِ تَلقِّيهم للقرآنِ بعد الفراغ مِن ذِكْرِ أحوال المشركين[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٥).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٥٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا بيَّنتْ هذه الآياتُ مِن مراتبِ الإعجاز ما بيَّنتْ، أتبَع تعالىٰ ذِكْرَ ما أُنزِلَ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[1].

اعتراضٌ وعطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، لمَّا ذكَر حالَ تَلَقِّي أهلِ الكتابَينِ للقرآن عند نزوله، عرَّج علىٰ حالِ العرب في ذلك بطريقةِ التَّعريض بسُوءِ تَلقِّي مشركيه له مع أنَّهم أَوْلىٰ الناس بحُسْنِ تَلقِّيه؛ إذ نزَل بلسانِهم، مُشتمِلًا علىٰ ما فيه صلاحُهم، وتنويرُ عقولهم، وقد جُعِل أهَمَّ هذا الغرضِ التَّنويهُ بعلوِّ شأنِ القرآن لفظًا ومعنًىٰ، وأُدمِجَ في ذلك تعريضٌ بالمشركين مِن العرب[2].

ثم شرَع في رَدِّ إنكارهم لفروعِ الشَّرائع الواردة ابتداءً، أو بدلًا مِن الشَّرائعِ المنسوخة ببيانِ الحِكْمةِ في ذلك، فقيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[3].

ثم ذكَر بعضَ فضائلِ القرآن، وأوعَد علىٰ الإعراضِ عن اتباعه مع التَّعرُّض لرَدِّ ما أنكَروه مِن اشتمالِه علىٰ نَسْخ بعضِ شرائعهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٦).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٠٤).

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ ﴾

ولمَّا حُسِمتِ الأطماعُ عن إجابتهم رجاءَ الاتِّباع، أو خشيةَ الامتناع، وكان بعضُهم قد قال: لو كان نبيًّا، شغَلتْهُ نُبوَّتُه عن كثرةِ التَّزوُّج؛ كان موضعَ توقُّعِ الخبر عمَّا كان للرُّسلِ في نحوِ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ ﴾[1].

هذا عَوْدٌ إلىٰ الرَّدِّ علىٰ المشركين في إنكارِهم آيةَ القرآن، وتصميمِهم علىٰ المطالبة بآيةٍ مِن مقترَحاتهم تماثِلُ ما يؤثَرُ مِن آياتِ موسىٰ وآياتِ عيسىٰ عليهما السلام؛ ببيانِ أنَّ الرسولَ لا يأتي بآياتٍ إلا بإذنِ الله، وأنَّ ذلك لا يكون علىٰ مقترَحاتِ الأقوام؛ وذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾[2].

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[3].

جملةُ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ جملةَ ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ تقتضي أنَّ الوعيدَ كائنٌ، وليس تأخيرُه مُزِيلًا له، ولمَّا كان في ذلك تأييسٌ للنَّاس، عُقِّب بالإعلامِ بأنَّ التوبةَ مقبولةٌ، وبإحلال الرَّجاء محَلَّ اليأس؛ فجاءت جملة ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾ احتراسًا[4].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٢).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٤).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝٤٠﴾

ولمَّا تمَّ ما أراد ممَّا يتعلَّق بتألُّفِهم، وختَم بأنَّه سبحانه يفعل ما يشاء مِن تقديمٍ وتأخيرٍ، ومحوٍ وإثباتٍ، وكان مِن مقترَحاتهم وطلباتهم استهزاءً استعجالُ السَّيئةِ ممَّا تُوُعِّدوا به، وكانت النَّفسُ ربما تمنَّتْ وقوعَ ذلك للبعض وإثباتَه ليؤمِنَ غيرُه تقريبًا لفصلِ النزاع؛ قال ﷻ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[1].

عطفٌ على جملة ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾ باعتبارِ ما تفيده مِن إبهامِ مرادِ الله في آجالِ الوعيد، ومواقيتِ إنزال الآيات، فبيَّنَتْ هذه الجملةُ أنَّ النبيَّ ﷺ ليس مأمورًا بالاشتغال بذلك، ولا بترقُّبه، وإنَّما هو مبلِّغٌ عن الله لعبادِه، واللهُ يَعلَم ما يحاسِبُ به عبادَه، سواءٌ شَهِد النبيُّ ﷺ ذلك أم لم يَشهَدْهُ[2].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤١﴾

ولمَّا أرشَد السِّياقُ إلى أنَّ التَّقديرَ في تحقيق أنَّه سبحانه قادرٌ على الجزاء لِمَن أراد: ألم يَرَوْا أنَّا أهلَكْنا مَن قبلهم، وكانوا أقوى منهم شوكةً وأكثَرَ عدَّةً؟ عطَف عليه قولَه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٦٢-٣٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٩).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٦٤).

عطفٌ على جملة ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ المتعلِّقة بجملة ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، عُقِّبتْ بهذه الجملةِ لإنذار المكذِّبين بأنَّ ملامحَ نَصْرِ النبي ﷺ قد لاحت، وتباشيرَ ظَفَرِه قد طلَعتْ؛ ليتدبَّروا في أمرهم، فكان تعقيبُ المعطوف عليها بهذه الجملةِ للاحتراس مِن أن يَتوهَّموا أنَّ العقابَ بطيءٌ وغيرُ واقعٍ بهم، وهي أيضًا بشارةٌ للنبي ﷺ بأنَّ اللهَ مُظهِرُ نَصْرِه في حياته، وقد جاءت أشراطُه؛ فهي أيضًا احتراسٌ مِن أن يَيْئَس النبيُّ ﷺ مِن رؤيةِ نصرِه مع علمه بأنَّ اللهَ مُتِمٌّ نورَه بهذا الدِّين[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وعَد رسولَه ﷺ بأن يُرِيَه بعضَ ما وُعِدُوه، أو يَتوفَّاه قبل ذلك؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ آثارَ حصول تلك المواعيدِ وعلاماتِها قد ظهَرتْ وقوِيَتْ[(٢)].

ثم إنَّه سبحانه طيَّب نفسَه عليه الصلاة والسلام بطلوعِ تباشيرِ الظَّفَرِ، فقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[(٣)].

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كان قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ تهديدًا وإنذارًا، وهو إنذارٌ بوعيدٍ علىٰ تظاهرِهم بطلبِ الآياتِ وهم يُضمِرون التَّصميمَ علىٰ التَّكذيب والاستمرارَ عليه؛ شُبِّه عملُهم بالمكرِ، وشُبِّه بعملِ المكذِّبين السابقين، وفي هذا التَّشبيهِ رمزٌ إلىٰ أنَّ عاقبتَهم كعاقبةِ الأُمَمِ التي عرَفوها؛ فنَقْصُ أرضِ هؤلاء مِن أطرافها مِن مكرِ الله بهم جزاءَ مكرهم[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧١-١٧٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٥٣).

(٣) روح المعاني (٧/ ١٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٣).

ثم أخبَر تعالىٰ أنَّ الأُمَمَ السَّابقة كان يصدُرُ منهم المكرُ بأنبيائهم كما فعَلتْ قُرَيشٌ، وأنَّ ذلك عادةُ المكذِّبين للرُّسل؛ مكَر بإبراهيمَ نُمْروذُ، وبموسىٰ فِرْعونُ، وبعيسىٰ اليهودُ، وجعَل تعالىٰ مَكْرَهم كلَا مَكْرٍ؛ إذ أضاف المكرَ كلَّه له تعالىٰ[1].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾

ولمَّا تقدَّم قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾، عطَف عليه - بعد شرحِ ما استتبَعه - قولَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[2].

عطفٌ علىٰ ما تضمَّنته جملةُ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن التَّعريضِ بأنَّ قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ ضربٌ مِن المكرِ؛ بإظهارِهم أنَّهم يَتطلَّبون الآياتِ الدالةَ علىٰ صدقِ الرسول ﷺ، مُظهِرين أنَّهم في شكٍّ، قد أفصَحوا تاراتٍ بما أبطَنوه، فنطَقوا بصريحِ التَّكذيب، وخرَجوا مِن طَوْرِ المكرِ إلىٰ طَوْرِ المجاهَرة بالكفر، فقالوا: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾[3].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٠١).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٥).

سُورَةُ إبراهيم

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

لمَّا أضاف في الآية السابقة طريقَ النَّجاة إلىٰ وصفَينِ يجوز إطلاقُ كلٍّ منهما علىٰ الخَلْقِ في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، بيَّنهما باسمِه الشَّريف العَلَمِ علىٰ أنَّه عطفُ بيانٍ بالجر؛ لأنَّه جرىٰ مجرىٰ الأسماءِ الأعلام؛ لاختصاصِه بالمعبود بحقٍّ، ووصفِه بما اقتضىٰ توحيده، فقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

ولمَّا أشار إلىٰ ما للكافرين، وصَفهم بما عاقَهم عن قَبولِ الخير، وتركَهم في أوديةِ الشَّر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[2].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٧٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٧٣).

ثم بيَّن تعالىٰ صفةَ هؤلاء الكافرين الذين توعَّدهم بالويلِ الذي يفيدُ أعظَمَ العذاب، وذكَر مِن صفاتِهم ثلاثةَ أنواعٍ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾(١).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم ما أفهَمَ أنَّه أرسَله ﷺ بلسانِ قومه إلىٰ الناس كافَّةً؛ لأنَّ اللسانَ العربيَّ أسهَلُ الألسنة وأجمعُها وأفصَحُها وأبينُها، فكان في غايةِ العدالة، وختَم بأنَّ السَّبيلَ إليه في غايةِ الاستقامة والاعتدال؛ دلَّ علىٰ شرَفِ هذا اللسانِ؛ لصلاحيتِه لجميع الأُمَم، وخِفَّتِه عليهم، بخصوص لسانِ كلٍّ مِن الرُّسل بقومه؛ فلذلك أتبعه قولَه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في أول السُّورة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، كان هذا إنعامًا علىٰ الرسول مِن حيث إنَّه فوَّض إليه هذا المنصبَ العظيم، وإنعامًا أيضًا علىٰ الخَلْقِ مِن حيث إنَّه أرسَل إليهم مَن خلَّصهم مِن ظلماتِ الكفر، وأرشَدهم إلىٰ نورِ الإيمان، فذكَر في هذه الآيةِ ما يَجري مجرىٰ تكميلِ النِّعْمة والإحسان(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٦٠).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٧٤).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٦٢).

ثم لمَّا مَنَّ على المكلفين بإنزالِ الكتب وإرسالِ الرَّسول، ذكَر مِن كمالِ تلك النِّعْمة أنَّ ذلك المرسَل بلسانِ قومه، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الرُّسلَ بما ذكَره، توقَّع السَّامعُ تفصيلَ شيءٍ مِن أخبارهم، فابتدأ بذِكرِ مَن كتابُه أجَلُّ كتابٍ بعد القرآن هُدًى للنَّاس؛ دليلًا على أنَّه يفعل ما يشاءُ مِن الإضلال والهداية، وتسليةً للنبي ﷺ، وتثبيتًا وتصبيرًا على أذى قومه، وإرشادًا إلى ما فيه الصَّلاحُ في مكالَمتِهم، فقال مصدِّرًا بحرفِ التَّوقُّع: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[2].

لمَّا كانت الآياتُ السَّابقة مسُوقةً للرَّدِّ على مَن أنكَروا أنَّ القرآنَ منزلٌ مِن الله، أعقَب الرَّدَّ بالتَّمثيلِ بالنَّظير؛ وهو إرسالُ موسى عليه السلام إلى قومِه بمثلِ ما أُرسِلَ به محمَّدٌ ﷺ، وبمثلِ الغاية التي أُرسِلَ لها محمَّدٌ ﷺ؛ ليُخرِجَ قومَه مِن الظُّلمات إلى النور[3].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّه إنَّما أرسَل محمَّدًا ﷺ إلى الناسِ ليُخرِجَهم مِن الظُّلمات إلى النور، وذكَر كمالَ إنعامِه عليه وعلى قومِه في ذلك الإرسالِ وفي تلك البَعْثةِ؛ أتبَع

---

(١) فتح القدير (٣/ ١١٢).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٨).

ذلك بشرحِ بعثةِ سائر الأنبياء إلىٰ أقوامهم، وكيفيَّةِ معاملة أقوامِهم معهم؛ تصبيرًا للرسول ﷺ علىٰ أذىٰ قومه، وإرشادًا له إلىٰ كيفيَّةِ مكالَمتِهم ومعاملتهم، فذكَر تعالىٰ علىٰ العادةِ المألوفة قصصَ بعضِ الأنبياء عليهم السلام، فبدأ بذِكْرِ قصَّة موسىٰ عليه السلام[(١)].

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾ شروعٌ في تفصيلِ ما أُجمِلَ في قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ الآية[(٢)].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾

ولمَّا ذكَر ما أمَر به موسىٰ عليه السلام، وكان قد تقدَّم أمرُه الشَّريف إليه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم بالاقتداءِ بالأنبياء الذين هو مِن رؤوسهم وأُولي عزمِهم؛ كان كأنَّه قيل: فبيِّنْ أنت للناس ما نُزِّل إليهم، وذكِّرهم بأيَّامِ الله اقتداءً بأخيك موسىٰ عليه السلام، واذكُرْ لهم خبرَه؛ فإنَّ أيامَه مِن أعظَمِ أيامِ الله: أشدُّها محنةً، وأجَلُّها منحةً؛ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ باعتبارِ غرضِ الجملتين؛ وهو التَّنظيرُ بسُنَنِ ما جاء به الرُّسلُ السابقون مِن إرشادِ الأُمَم وتذكيرها، كما أُنزِلَ القرآنُ لذلك[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٦٤).
(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٣٣).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٨٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه أمَر موسىٰ عليه السلام بأن يُذكِّرهم بأيامِ الله تعالىٰ، حكىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه ذكَّرهم بها، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في بيانِ تصدِّيه عليه السلام لِما أُمِر به مِن التَّذكيرِ للإخراج المذكور[2].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾

ولمَّا ذكَّرهم بنِعْمةِ الأمن، رغَّبهم فيما يَزيدُها، ورهَّبهم ممَّا يُزيلها، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[3].

عطفٌ علىٰ ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ فهو مِن كلامِ موسىٰ عليه السلام؛ والتَّقدير: واذكُروا نِعْمةَ الله عليكم إذ تأذَّنَ ربُّكم لئن شكَرْتم إلخ؛ لأنَّ الجزاءَ عن شكرِ النِّعْمة بالزيادة منها نِعْمةٌ وفضلٌ مِن الله؛ لأنَّ شُكْرَ المنعِمِ واجبٌ، فلا يستحِقُّ جزاءً لولا سَعةُ فضلِ الله[4].

ثم قال لهم حاثًّا علىٰ شُكْرِ نِعَمِ الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٦٥-٦٦).

(٢) روح المعاني (٧/ ١٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٣).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٢٢).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾

ولمَّا كان مَن حَثَّ علىٰ شيءٍ وأثاب عليه، أو نهىٰ عنه وعاقَب علىٰ فعلِه، يكونُ لغرضٍ له؛ بيَّن أنَّ اللهَ سبحانه متعالٍ عن أن يَلحَقَه ضرٌّ أو نفعٌ، وأنَّ ضرَّ ذلك ونفعَه خاصٌّ بالعبد، فقال تعالىٰ حاكيًا عنه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1].

أُعيدَ فعلُ القول في عطفِ بعضِ كلام موسىٰ عليه السلام علىٰ بعضٍ؛ لئلا يُتوهَّمَ أنَّ هذا ممَّا تأذَّن به الربُّ، وإنَّما هو تنبيهٌ علىٰ كلامِ الله، وفي إعادةِ فعل القول اهتمامٌ بهذه الجملةِ، وتنويهٌ بها؛ حتىٰ تبرُزَ مستقلَّةً، وحتىٰ يُصغِيَ إليها السامعون للقرآن[2].

اعلَمْ أنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا بيَّن أنَّ الاشتغالَ بالشُّكر يوجِبُ تزايُدَ الخيراتِ في الدُّنيا وفي الآخرة، والاشتغالَ بكفران النِّعَم يوجِبُ العذابَ الشَّديد، وحصولَ الآفات في الدُّنيا والآخرة؛ بيَّن بعده أنَّ منافعَ الشكر ومَضارَّ الكفرانِ لا تعُودُ إلا إلىٰ صاحبِ الشُّكر وصاحبِ الكفران، أمَّا المعبودُ والمشكور فإنَّه مُتعالٍ عن أن ينتفِعَ بالشُّكر، أو يستضِرَّ بالكفران؛ فلا جرَمَ قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، والغرضُ منه بيانُ أنَّه تعالىٰ إنَّما أمَر بهذه الطاعاتِ لمنافعَ عائدةٍ إلىٰ العابد، لا لمنافعَ عائدةٍ إلىٰ المعبود[3].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٦٧).

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا حذَّرهم انتقامَ الله إن كفَروا، ذكَّرهم أيامَه في الأُمَمِ الماضية، وعيَّن منهم الثلاثةَ الأُولىٰ؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّهم أبدانًا، وأكثَرهم أعوانًا، وأقواهم آثارًا، وأطوَلَهم أعمارًا؛ لأنَّ البطشَ إذا برَز إلىٰ الوجودِ كان أهوَلَ؛ لأنَّ النفسَ للمحسوس أقبَلُ، فقال دالًّا علىٰ ما أرشَدهم إليه مِن غِناهُ سبحانه وحَمْدِه، مُخوِّفًا لهم مِن سطَواتِ اللهِ سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[١].

هذا الكلام استئنافٌ ابتدائيٌّ، رجَع به الخطابُ إلىٰ المشركين مِن العربِ علىٰ طريقةِ الالتفات في قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾[٢].

ثم شرَع في التَّرهيبِ بتذكيرِ ما جرىٰ علىٰ الأُمَمِ الخالية، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٣٥).

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان سامعُ هذا الكلامِ يشتدُّ تشوُّفُه إلىٰ جوابه، وكان أصلُ الدَّعوة في كلِّ ملَّةٍ التَّوحيدَ، وكان الشاكُّ فيه شاكًّا في الله، وكان أمرُ الله مِن الظهور بحيث لا يشُكُّ فيه عاقلٌ حكَّم عقلَه مجرَّدًا عن الهوىٰ؛ ساغ الإنكارُ، وإيرادُ الكلام علىٰ تقديرِ سؤالٍ مُعرًّىٰ مِن التَّقييدِ مُبهَمٍ في قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(١)].

استفهامٌ إنكاريٌّ، وموردُ الإنكارِ هو وقوعُ الشَّك في وجودِ الله، فقُدِّم متعلَّق الشَّك للاهتمام به[(٢)].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ ينساق إليه المقالُ، كأنَّه قيل: فماذا قالت لهم رُسُلُهم؟ فأُجيبَ بأنَّهم قالوا مُنكِرين عليهم، ومُتعجِّبين مِن مقالتِهم الحمقاء[(٣)].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما كان جوابُ الرُّسل؟ فقيل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٩١).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٣٦).
(٤) نظم الدرر (١٠/ ٣٩٤).

قـولُ الرُّسـل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جـوابٌ بطريـقِ القـول بالموجَـبِ في علمِ آداب البحث؛ وهو: تسليمُ الدَّليل مع بقاءِ النزاع ببيانِ محَلِّ الاستدلال غيرَ تامِّ الإنتـاج، وفيـه إطمـاعٌ في الموافَقـة، ثـم كَـرَّ علـىٰ اسـتدلالهم المقصـودِ بالإبطـال بتبيينِ خطَئِهم[(١)].

اعلَـمْ أنَّـه تعـالىٰ لمَّـا حكـىٰ عـن الكفـارِ شُبُهاتِهم في الطَّعـنِ في النُّبـوَّة، حكـىٰ عـن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جوابَهم عنها[(٢)].

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾

ثـم بيَّنـوا سـببَ وجـوبِ التَّوكُّـل بقـولِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٣)].

لمَّـا أجـابوا عـن شُبهاتِهم بـذلك الجـوابِ، فـالقومُ أخَـذوا في السَّفاهةِ والتَّخويـف والوعيد، وعنـد هـذا قالـت الأنبيـاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: لا نخـافُ مِـن تخـويفكم، ولا نلتفـتُ إلىٰ تهديدِكم؛ فإنَّ توكُّلَنا علىٰ الله، واعتمادَنا علىٰ فضلِ الله، ولعـلَّ اللهَ سبحانه كـان قـد أوحىٰ إلـيهم أنَّ أولئك الكفـرةَ لا يَقدِرون علىٰ إيصـالِ الشرِّ والآفة إلـيهم؛ فلهـذا السـببِ توكَّلـوا علـىٰ الله، وعوَّلـوا علـىٰ فضـلِ الله، وقطَعـوا أطمـاعَهم عمَّـا سِوىٰ الله[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٣٩٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٧٥).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا انقضَتْ هذه المحاوَرة، وقد عَلِم منها كلُّ مُنصِفٍ ما عليه الرُّسلُ مِن الحِلْمِ والعلم والحِكْمة، وما عليه مخالِفُهم مِن الضَّلال والجهل والعناد، وكان في الكلام ما ربما أشعَر بانقضائه؛ ابتدأ تعالىٰ عنهم محاوَرةً أخرىٰ، عاطفًا لها علىٰ ما مضىٰ، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

تغييرُ أسلوبِ الحكايةِ بطريقِ الإظهارِ دُونَ الإضمارِ يؤذِنُ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا غيرُ الكافرين الذين تقدَّمتِ الحكايةُ عنهم؛ فإنَّ الحكايةَ عنهم كانت بطريقِ الإضمار؛ فالظاهرُ عندي: أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا كفارُ قُريشٍ علىٰ طريقةِ التَّوجيه[2].

لمَّا حكىٰ عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنَّهم اكتفَوْا في دفعِ شرور أعدائهم بالتوكُّل عليه، والاعتمادِ علىٰ حفظِه وحياطته؛ حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم بالَغوا في السَّفاهة، وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[3].

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

الخطابُ في ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾ للرُّسلِ والذين آمَنوا بهم؛ فلا يقتضي أن يسكُنَ الرسولُ بأرضِ عدوِّه، بل يكفي أن يكونَ له السلطانُ عليها وأن يسكُنَها

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٧٦).

المؤمنون؛ كما مكَّن اللهُ لرسولِه ﷺ مكَّةَ وأرضَ الحجاز، وأسكَنها الذين آمَنوا بعد فتحِها[١].

ولمَّا أقسَموا بهم علىٰ إخراج الرُّسل أو العودةِ في ملَّتِهم، أقسَم تعالىٰ علىٰ إهلاكهم، وأيُّ إخراجٍ أعظَمُ مِن الإهلاكِ، بحيث لا يكون لهم عودةٌ إليها أبدًا، وعلىٰ إسكانِ الرُّسلِ ومَن آمَن بهم وذُرِّياتِهم أرضَ أولئك المُقسِمينَ علىٰ إخراجِ الرُّسل؟![٢].

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ يجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملة ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ ﴾، أو معترضةً بَيْنَ جملةِ ﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ وبين جملة ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّهم استعجَلوا النَّصْرَ، وضميرُ ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ عائدٌ إلىٰ الرُّسل[٣].

فلمَّا استبشَروا بهذا الوعدِ الحقِّ، استفتَحوا علىٰ أعدائهم، ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾.

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ صفةٌ لـ ﴿ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾؛ أي: خابَ الجبَّارُ العنيد في الدُّنيا، وليس ذلك حَظَّه مِن العقاب؛ بل وراءه عقابُ الآخرة[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠٧).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكَم عليه بالخَيْبةِ، ووصَفه بكونه جبَّارًا عنيدًا؛ وصَف كيفيَّةَ عذابه ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾[1].

ثم أتبَعه ما هو كدليلٍ علىٰ خَيْبتِه؛ مِن أنَّ سَيْرَه إلىٰ ما أمامه مِن العذابِ؛ فهو واقعٌ فيه لا محالةَ وهو لا يشعُرُ، وعبَّر عن غفلتِه عنه بقولِه: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾[2].

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ قيل: هو صفةٌ لماءٍ، أو حالٌ منه، والأظهر أنَّه استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ السُّؤال، كأنَّه قيل: فماذا يُفعَلُ به؟ فقيل: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾.

ولمَّا ذكَر شرابَهم، ذكَر حالَهم مع هذا الشَّراب.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

فلمَّا فرَغ مِن محاوَراتِهم، وما تَبِعها ممَّا بيَّن فيه أنَّه لا يُغنيهم مِن بطشِه شيءٌ؛ ضرَب لهم في ذلك مثَلًا، فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٧٩).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٣٩٨).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٤٠٠).

تمثيلٌ لحالِ ما عَمِله المشركون مِن الخيراتِ؛ حيث لم يَنتفعوا بها يومَ القيامة، وقد أثار هذا التَّمثيلُ ما دلَّ عليه الكلامُ السَّابق مِن شِدَّة عذابهم، فيخطُرُ ببالهم أو ببالِ مَن يَسمَع مِن المسلمين أن يَسألَ نفسه أنَّ لهم أعمالًا مِن الصلةِ والمعروف مِن إطعامِ الفقراء، ومِن عِتْقِ رقابٍ، وقِرَىٰ ضيوفٍ، وحَمَالةِ دِيَاتٍ، وفداءِ أُسارىٰ، واعتمارٍ، ورِفادة الحجيج؛ فهل يَجِدُون ثوابَ ذلك؟ وأنَّ المسلمين لمَّا عَلِموا أنَّ ذلك لا ينفع الكافرين، تطلَّبت نفوسُهم وجهَ الجمع بَيْنَ وجودِ عملٍ صالحٍ وبَيْنَ عدمِ الانتفاع به عند الحاجةِ إليه؛ فضُرِب هذا المثَلُ لبيانِ ما يَكشِفُ جميعَ الاحتمالات(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنواعَ عذابهم في الآيةِ المتقدِّمة، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أعمالهم بأَسْرِها تَصِيرُ ضائعةً باطلةً، لا ينتفعون بشيءٍ منها، وعند هذا يَظهَرُ كمالُ خسرانهم؛ لأنَّهم لا يجدون في القيامةِ إلا العقابَ الشَّديد، وكلُّ ما عَمِلوه في الدُّنيا وجَدوه ضائعًا باطلًا؛ وذلك هو الخسرانُ الشَّديد(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر الآخرةَ في أولِ السُّورة، وذكَر ما هو ثابتٌ لا نزاعَ فيه، ثم جرَّ الكلام إليه هنا علىٰ هذا الوجهِ الغريب، وأتبَعه مَثَلَ أعمالِ الكفار في الآخرة؛ أتبَع ذلك الدَّليلَ عليه، وعلىٰ أنَّه لا يسُوغُ في الحِكْمةِ في أعمالِ الضَّلالِ إلا الإبطالُ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٢).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨٠-٨١).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٤٠١).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن جملة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّ هلاكَ فئةٍ كاملةٍ شديدةِ القُوَّةِ والمِرَّةِ أمرٌ عجيبٌ، يثيرُ في النُّفوس السؤالَ: كيف تَهلِكُ فئةٌ مثلُ هؤلاء؟ فيُجاب بأنَّ اللهَ الذي قدَر علىٰ خَلْقِ السَّماوات والأرضِ في عظَمتِها قادرٌ علىٰ إهلاكِ ما هو دُونَها[١].

لمَّا بيَّن أنَّ أعمالَهم تَصِيرُ باطلةً ضائعةً، بيَّن أنَّ ذلك البطلانَ والإحباط إنَّما جاء بسببٍ صدَر منهم؛ وهو كفرُهم بالله، وإعراضُهم عن العبوديَّةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُبطِلُ أعمالَ المخلِصينَ ابتداءً، وكيف يَلِيقُ بحِكْمتِه أن يفعلَ ذلك، وأنَّه تعالىٰ ما خلَق كلَّ هذا العالَمِ إلا لداعيةِ الحِكْمةِ والصَّواب[٢].

ثم بيَّن كمالَ قُدْرتِه سبحانه، واستغناءَه عن كلِّ واحدٍ مِن خَلْقِه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٣].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

جملةُ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، مؤكِّدٌ لمضمونها، وإنَّما سُلِكَ بهذا التَّأكيدِ مسلكُ العطفِ؛ لِما فيه مِن المغايَرةِ للمؤكَّد في الجملة بأنَّه يفيد أنَّ هذا المَشِيءَ[٤] سهلٌ عليه هيِّنٌ[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨١-٨٢).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٢٣).
(٤) أي: الأمر الذي شاءه.
(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٥).

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا ثبت بهذا البرهانِ قُدْرتُه على الإعادةِ بعد الموت، عطَف على قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ قولَه -بيانًا لهوانِ البعثَ عنده وسهولتَه عليه-: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ باعتبارِ جواب الشَّرط؛ وهو الإذهابُ، وفي الكلامِ محذوفٌ؛ إذ التَّقدير: فأذهَبهم، ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: يومَ القيامة[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر أصنافَ عذابِ هؤلاء الكفار، ثم ذكَر عَقِيبَه أنَّ أعمالَهم تَصِيرُ مُحبَطةً باطلةً؛ ذكَر في هذه الآيةِ كيفيَّةَ خَجالتِهم عند تمسُّكِ أتباعهم، وكيفيَّةَ افتضاحهم عندهم؛ وهذا إشارةٌ إلى العذابِ الرُّوحاني الحاصل بسببِ الفضيحة والخَجالة[(٣)].

ثم أخبَر تعالى عن تخاصُمِ المجرمين في المَحشَرِ، وتبرُّئِهم مِن بعضِهم، بقولِه سبحانه: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨٢).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣١٠).

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾

ولمَّا كان الشَّيطانُ أعظَمَ المستكبِرين، خُصَّ بالإفرادِ بالجواب، فقيل: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ ﴾(١).

أفضَتْ مجادلةُ الضُّعفاءِ وسادتِهم في تغريرِهم بالضَّلالة إلىٰ نُطْقِ مصدرِ الضَّلالة؛ وهو الشَّيطان؛ إمَّا لأنَّهم بعد أن اعتذَر إليهم كبراؤهم بالحرمانِ مِن الهدىٰ عَلِموا أنَّ سببَ إضلالهم هو الشَّيطانُ؛ لأنَّ نَفْيَ الاهتداءِ يرادِفُه الضَّلال، وإمَّا لأنَّ المستكبِرين انتقَلوا مِن الاعتذارِ للضُّعفاء إلىٰ مَلامةِ الشَّيطان الموسوِسِ لهم ما أوجَبَ ضَلالَهم؛ فجملةُ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾(٢).

لمَّا ذكَر محاوَرةَ الأتباع لرؤسائهم الكفَرةِ، ذكَر محاورةَ الشيطان وأتباعِه مِن الإنس؛ وذلك لاشتراكِ الرؤساءِ والشياطينِ في التلبُّسِ بالإضلال(٣).

﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣ ﴾

ولمَّا ذكَر الظالمين، أتبعه ذِكْرَ المؤمنين، فقال بانيًا للمفعولِ -لأنَّ الدخولَ هو المقصودُ بالذَّات-: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٨).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٢٧).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤٠٨).

عطفٌ على جملة ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وهو انتقالٌ لوصفِ حالِ المؤمنين يومئذٍ بمناسبة ذِكْرِ حالِ المشركين؛ لأنَّ حالَ المؤمنين يومئذٍ مِن جملةِ الأحوال المقصودة بالوصفِ إظهارًا لتفاوُتِ الأحوال، فلم يدخُلِ المؤمنون يومئذٍ في المنازَعة والمجادلة؛ تنزيهًا لهم عن الخوضِ في تلك الغَمْرة، مع التَّنبيه على أنَّهم حينئذٍ في سلامةٍ ودعَةٍ(١).

لمَّا جمَع الفريقينِ في قوله: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وذكَر شيئًا مِن أحوالِ الكفار؛ ذكَر ما آلَ إليه أمرُ المؤمنين مِن إدخالهم الجنَّةَ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بالَغ في شرحِ أحوال الأشقياءِ مِن الوجوه الكثيرة، شرَح أحوالَ السُّعداء، وقد عرَفْتَ أنَّ الثَّوابَ يجب أن يكونَ منفعةً خالصةً دائمةً مقرونةً بالتَّعظيم؛ فالمنفعةُ الخالصة إليها الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، وكونُها دائمةً أُشيرَ إليه بقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾(٣).

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بما مضى أنَّ الحقَّ ما قاله اللهُ أو فعَله أو أَذِن فيه، وأنَّ الباطلَ ما كان على غيرِ أمره ممَّا يُنسَب إلى الشَّيطان أو غيرِه مِن قولٍ أو فعل، وأنَّه لا يصلُحُ في الحِكْمةِ أن ينفى الحق، ولا أن يبقى الباطل، وقَصَّ سبحانه كلامَ أوليائه الذي هو

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٣٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨٩).

مِن كلامه؛ فهو أثبَتُ الأشياءِ وأطيبها وأعظمها ثمرةً، وكلامَ أعدائه الذي هو مِن كلام الشَّيطان؛ فهو أبطَلُ الأشياء وأخبثها: قرَّب سبحانه ذلك بمثَلٍ يَتعارَفُه المخاطَبون، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ اقتضته مناسبةُ ما حُكِي عن أحوالِ أهل الضَّلالة وأحوالِ أهل الهداية، ابتداءً مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، فضرَب اللهُ مثَلًا لكلمةِ الإيمان وكلمةِ الشَّر[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ الأشقياء وأحوالَ السُّعداء، ذكَر مثالًا يبيِّنُ الحالَ في حُكْمِ هذين القِسْمَينِ؛ وهو هذا المثَلُ[3].

لمَّا ذكَر سبحانه مثَلَ أعمالِ الكفار، وأنَّها كرمادٍ اشتدَّتْ به الرِّيحُ، ثم ذكَر نعيمَ المؤمنين، وما جازاهم اللهُ به مِن إدخالِهم الجَنَّةَ خالدين فيها، وتحيَّةِ الملائكة لهم؛ ذكَر تعالىٰ هاهنا مثَلًا للكلمةِ الطيِّبة؛ وهي كلمةُ الإسلام: لا إلهَ إلا اللهُ[4].

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر حالَها، ذكَر ثمرتَها، فقال: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤١٠-٤١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٨٩).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٢٧).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٤١١).

ثم وصفها سبحانه بأنَّها ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا ﴾[١].

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ ﴾

ثم أتبعه مثَلَ حالِ الأعداء، فقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾[٢].

ثم ذكر ضِدَّها؛ وهي كلمةُ الكفرِ وفروعها، فقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾[٣].

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ﴾

فلمَّا برَز الكلامُ إلىٰ هذين المثالينِ، حصَل التَّعجُّبُ ممَّن يترُكُ ممثولَ الأول ويفعل ممثولَ الثاني؛ فوقَع التَّنبيهُ علىٰ أنَّ ذلك بفعلِ القاهر، فقال تعالىٰ -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: إنَّ هذا الصَّريح الحق، ثم إنَّا نجد النُّفوسَ مائلةً إلىٰ الضَّلال، وطائشةً في أرجاءِ المُحال، فكيف لنا بالامتثال؟-: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[٤].

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤١٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٢٥).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤١٤).

جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عمَّا أثاره تمثيلُ الكلمةِ الطيبة بالشجرةِ الثابتةِ الأصلِ بأن يُسألَ عن الثابت المشبَّه به: ما هو أثرُه في الحالةِ المشبَّهة؟ فيُجاب بأنَّ ذلك الثَّباتَ ظهَر في قلوبِ أصحاب الحالةِ المشبَّهة، وهم الذين آمَنوا؛ إذ ثبَتوا علىٰ الدِّينِ ولم يتزعزعوا فيه؛ لأنَّهم استثمروا مِن شجرةٍ أصلها ثابتٌ(١).

ولمَّا تقدَّم تشبيهُ الكلمةِ الطيِّبة علىٰ تشبيهِ الكلمة الخبيثة، تقدَّم في هذا الكلامِ مَن نُسِبتْ إليه الكلمةُ الطيِّبة، وتلاه مَن نُسِبتْ إليه الكلمةُ الخبيثة، ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما فعَل بكلِّ واحدٍ مِن القِسْمَين، ذكَر أنَّه لا يمكن اعتراضٌ فيما خَصَّ به كلَّ واحدٍ منهما؛ إذ ذاك راجعٌ إلىٰ مشيئتِه تعالىٰ؛ إنَّ اللهَ يفعل ما يشاء(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ صفةَ الكلمة الطيِّبة أن يكونَ أصلُها ثابتًا، وصفةَ الكلمةِ الخبيثة ألا يكونَ لها أصلٌ ثابتٌ، بل تكونُ منقطعةً، ولا يكون لها قرارٌ؛ ذكَر أنَّ ذلك القولَ الثَّابت الصادر عنهم في الحياة الدُّنيا يُوجِبُ ثباتَ كرامةِ الله لهم، وثباتَ ثوابه عليهم؛ والمقصود: بيانُ أنَّ الثَّباتَ في المعرفةِ والطاعةِ يُوجِب الثَّباتَ في الثَّواب والكرامة مِن الله تعالىٰ(٣).

ولمَّا كان المثَلُ مضروبًا للحقِّ والباطل في الثَّباتِ وعدمه، والقصدُ أهلَهما؛ صرَّح بهما فَذْلكةً له، فقال في أهلِ المثَلِ الأول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٣).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣١٤).

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا أخبرَ سبحانه أنَّه هو الفاعلُ وحده، أتبعه الدَّليلَ عليه إضلالَ الذين بدَّلوا الكلمةَ الطيِّبة مِن التَّوحيد بالإشراكِ، وزَلْزلتَهم واجتثاثَ كلمتِهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾(١).

أُعقِبَ تمثيلُ الدِّينَينِ ببيانِ آثارهما في أصحابهما، وابتُدئ بذِكْرِ أحوالِ المشركين؛ لأنَّها أعجَبُ، والعِبْرةُ بها أَوْلىٰ، والحذَرُ منها مقدَّمٌ علىٰ التَّحلي بضدِّها، ثم أُعقِبَ بذِكْرِ أحوال المؤمنين(٢).

لمَّا ذكَر حالَ المؤمنين وهُداهم، وحالَ الكافرين وإضلالَهم؛ ذكَر السَّببَ في إضلالهم(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ عادَ إلىٰ وصفِ أحوالِ الكفار في هذه الآيةِ(٤).

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا أفاد أنَّها مُهلِكةٌ، بيَّنها بما يُفهِم أنَّها تَلقَاهم بالعُبوسةِ كما كانوا يَلقَوْنَ أولياءَ الله مِن الرُّسلِ وغيرِهم بذلك، فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾(٥).

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطفُ بيانٍ لها، وفي الإبهامِ ثم البيانِ ما لا يَخفَىٰ مِن التَّهويل(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٣٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٤).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٤١٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (٥/ ٤٥).

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠ ﴾

ولمَّا كان هذا فِعْلَ مَن لا عَقْلَ له، بيَّنه بقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾(١).

عطفٌ على «بدَّلوا» و«أحلُّوا»؛ فالضميرُ راجعٌ إلى «الذين»؛ وهم أئمَّةُ الشرك(٢).

لمَّا حكى عنهم أنَّهم بدَّلوا نِعْمةَ الله كفرًا، ذكَر أنَّهم بعد أن كفَروا بالله جعَلوا له أندادًا(٣).

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١ ﴾

ولمَّا ذكَر كُفْرَهم وضَلالَهم عن السَّبيل، وما أمَره صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأن يقولَ لهم، وكان ذلك محرِّكًا لنفسِ السَّامع إلى الوقوفِ على ما يُقال لِمَن خلَع الأندادَ، وكان أوثَقَ عُرَى السَّبيل بعد الإيمانِ وأعمَّها الصلاةُ الناهيةُ عن الفحشاء والمنكَر، والنَّفقةُ الشاملة لوجوهِ البِرِّ؛ أمَره تعالى أن يندُبَ أولياءه إلى الإقبالِ إلى ما أعرَض عنه أعداؤه، والإعراضِ عمَّا أقبلوا بالتَّمتُّع عليه مِن ذلك، فقال: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾(٤).

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤١٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٤).
(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤١٨).

استئنافٌ نشأ عن ذِكْرِ حالِ الفريق الذي حَقَّتْ عليه الكلمةُ الخبيثة بذِكْرِ حالِ مقابِلِه؛ وهو الفريقُ الذي حَقَّتْ عليه الكلمةُ الطيِّبة، فلمَّا ابتُدئ بالفريقِ الأول لقصدِ الموعظة والتخلِّي، ثنَّىٰ بالفريقِ الثاني علىٰ طريقةِ الاعتراض بَيْنَ أغراضِ الكلام(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالَ الكفار وكُفْرَهم نِعْمتَه، وجَعْلَهم له أندادًا، وتهدَّدَهم؛ أمَر المؤمنين بلزومِ الطاعة، والتيقُّظِ لأنفسهم، والتزامِ عمودَيِ الإسلامِ -الصلاةِ والزكاة- قبل مجيءِ يومِ القيامة(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر الكافرين علىٰ سبيلِ التَّهديد والوعيد بالتَّمتُّع بنعيم الدُّنيا، أمَر المؤمنين في هذه الآيةِ بتَرْكِ التَّمتُّع بالدُّنيا، والمبالَغةِ في المجاهَدة بالنَّفس والمال(٣).

لمَّا أمَره بأن يقولَ للمبدِّلينَ نِعْمةَ الله كفرًا الجاعلينَ لله أندادًا ما قاله لهم، أمَره سبحانه أن يقولَ للطائفةِ المقابلة لهم -وهي طائفةُ المؤمنين- هذا القولَ(٤).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ جميعَ الأسبابِ النافعة في الدُّنيا في ذلك اليومِ، كان كأنَّه قيل: فمَن الحكَمُ فيه حتىٰ إنَّه يَسِيرُ سيرةً لا نعرفُها؟ فقيل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣١).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٣١).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾(١).

استئنافٌ واقعٌ موقعَ الاستدلال علىٰ ما تضمَّنته جملةُ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ الآية، وقد فُصِل بَيْنَه وبين المستدَلِّ عليه بجملةِ ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية، وأُدمِجَ في الاستدلال تَعْدادُهم لنِعَمٍ تستحقُّ الشكرَ عليها ليَظهَرَ حالُ الذين كفروها، وبالضدِّ حالُ الذين شكَروا عليها، وليزدادَ الشاكرون شُكرًا؛ فالمقصودُ الأول هو الاستدلالُ علىٰ أهلِ الجاهلية، فجيءَ في هذه الآيةِ بنِعَمٍ عامَّةٍ مشهودةٍ محسوسةٍ، لا يستطاعُ إنكارُها، إلا أنَّها للتَّذكير بأنَّ المنعِمَ بها ومُوجِدَها هو اللهُ تعالىٰ(٢).

اعلَمْ أنَّه لمَّا أطال الكلامَ في وصفِ أحوالِ السُّعداء وأحوالِ الأشقياء، وكانت العمدةُ العظمىٰ والمنزلة الكبرىٰ في حصولِ السَّعادات معرفةَ الله تعالىٰ بذاتِه وبصفاته، وفي حصولِ الشَّقاوة فِقْدانَ هذه المعرفةِ؛ لا جرَمَ ختَم اللهُ تعالىٰ وَصْفَ أحوالِ السُّعداء والأشقياء بالدَّلائلِ الدالة علىٰ وجودِ الخالق، وكمالِ علمه وقُدْرته(٣).

ثم إنَّه لمَّا ذكَر سبحانه أحوالَ الكافرين لِنِعَمِه، وأمَر المؤمنين بإقامةِ مراسمِ الطاعة شكرًا لها؛ شرَع ﷻ في تفصيلِ ما يستوجِبُ علىٰ كافةِ الأنام المثابرةَ علىٰ الشكرِ والطاعة مِن النِّعَمِ العظام، والمِنَنِ الجسام؛ حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرةِ المخلِّينَ أتمَّ إخلالٍ بها، فقال عزَّ قائلًا: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٦).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾(١).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم أتبعه ما جعَله سببًا لكمالِ التصرف، وإنضاجِ الثِّمار المَسْقيَّةِ بالماءِ النازل مِن السماء والنابعِ مِن الأرض، فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾(٢).

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

ثم عَمَّ بعد أن خَصَّ، فقال: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ تعميمٌ بعد خصوصٍ؛ فهي بمنزلةِ التَّذييل لِما قبلها لحِكَمٍ يَعلَمُها اللهُ ولا يعلمونها، وأنَّ الإنعامَ والامتنان يكون بمقدارِ البذلِ، لا بمقدارِ الحرمان(٤).

لمَّا ذكَر تلك النِّعْمةَ العظيمة، بيَّن بعد ذلك أنَّه لم يقتصِرْ عليها؛ بل أعطىٰ عبادَه مِن المنافع والمرادات ما لا يأتي علىٰ بعضِها التَّعديدُ والإحصاء، فقال:

---

(١) روح المعاني (٧/ ٢١٠).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٠-٤٢١).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٤٢١).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٦).

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ المأمورُ به مِن القولِ لكافر النِّعْمة وشاكرها، وسببُ ذلك والدَّليلُ عليه، وبان أنَّه خالقُ الموجودات كلِّها وربُّها، فلا يصحُّ أصلًا أن يكونَ شيءٌ منها شريكًا؛ أمَره صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم أن يُذكِّرَهم بأيامِ الله عند أبيهم إبراهيمَ عليه السلام؛ للدَّلالة علىٰ تبديلِهم النِّعْمةَ ظُلْمًا منهم وكفرًا، في أسلوبٍ دالٍّ علىٰ البعث، مشيرًا إلىٰ وجوبِ براءتهم مِن الأصنام، حيث كان محَطُّ حالِهم فيها تقليدَ الآباء، وهو أعظَمُ آبائهم، وإلىٰ ما سنَّه لهم مِن إقامتِهم الصلاةَ، وشكرِهم لنِعَمِه بالإنفاق وغيرِه، فقال ناعيًا عليهم -مع المخالفةِ لصريح العقل، وقاطع النَّقل- عقوقَ أبيهم الأعظَمِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ فإنَّهم كما بدَّلوا نِعْمةَ الله كفرًا، أهمَلوا الشُّكرَ علىٰ ما بوَّأهم اللهُ مِن النِّعَمِ بإجابة دعوةِ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، وبدَّلوا اقتداءَهم بسَلَفِهم الصَّالح اقتداءً بأسلافهم مِن أهلِ الضَّلالة، وبدَّلوا دعاءَ سلفِهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرًا بمُفِيضِ تلك النِّعم[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٩٩).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٧).

لمَّا ذكَر التَّعجيبَ مِن الذين بدَّلوا نِعْمةَ الله كفرًا، وجعَلوا لله أندادًا، وهم قُرَيشٌ ومَن تابَعهم مِن العربِ الذين اتخَذوا آلهةً مِن دُونِ الله، وكان مِن نِعَمِ الله عليهم إسكانُه إيَّاهم حَرَمَه؛ أردَف ذلك بذِكْرِ أصلِهم إبراهيمَ، وأنَّه صلواتُ الله عليه دعا اللهَ تعالىٰ أن يَجعَلَ مكَّةَ آمنةً، ودعا بأن يُجنِّبَ بَنِيهِ عبادةَ الأصنام، وأنَّه أسكَنه وذُرِّيتَه في بيتِه ليعبُدوه وحده بالعبادة التي هي أشرَفُ العبادة، وهي الصلاة؛ لينظُروا في دِينِ أبيهم، وأنَّه مخالِفٌ لِما ارتكَبوه مِن عبادة الأصنام، فيَزدجروا، ويَرجِعوا عنها[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن بالدَّلائل المتقدِّمة أنَّه لا معبودَ إلا اللهُ سبحانه، وأنَّه لا يجوز عبادةُ غيرِه تعالىٰ البتَّةَ؛ حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام مبالغتَه في إنكارِ عبادةِ الأوثان[(٢)].

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦ ﴾

ثم بيَّن زيادةَ الاهتمام بأمرِ الأصنام بإعادةِ النداء، وأسقَط الأداة - زيادةً في التَّملُّق بكونه مِن أهلِ القُرْبِ والانقطاعِ إليه سبحانه معللًا لِما قبله - في قوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)].

إعادةُ النداء في قوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ لإنشاءِ التَّحسُّر علىٰ ذلك، وجملةُ ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ تعليلٌ للدَّعوة بإجنابِه عبادتَها بأنَّها ضلالٌ راجَ بَيْنَ كثيرٍ مِن النَّاس؛ فحَقٌّ للمؤمن الضَّنين بإيمانه أن يَخشَىٰ أن تجترِفَه فِتنتُه[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٩).

كرَّر النداءَ استعطافًا لربِّه تعالىٰ، وذكَر سببَ طلبِه: أن يُجنَّبَ هو وبَنُوه عبادةَ الأصنام بقولِه: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ إذ قد شاهَد أباه وقومَه يعبدون الأصنامَ(١).

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

ولمَّا دعا بدَرْءِ المفاسد الناشئة مِن نوعَي الإنسان والشَّيطان بأمنِ البلد وإيمانه، ذكَر السَّببَ الحامل له علىٰ تخصيصِه بذلك مُستجلِبًا للمصالح، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(٢).

جملةُ ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ مستأنَفةٌ لابتداءِ دعاءٍ آخرَ، وافتُتحت بالنداءِ لزيادة التضرع، وفي كونِ النداء تأكيدًا لنداءٍ سابق ضربٌ مِن الربطِ بَيْنَ الجُمَلِ المفتتَحةِ بالنداء رَبْطَ المثلِ بمثلِه(٣).

كرَّر النداءَ رغبةً في الإجابة، وإظهارًا للتذلُّل والالتجاءِ إلىٰ الله تعالىٰ(٤).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

ولمَّا فرَغ مِن الدعاءِ بالأهمِّ مِن الإبقاء علىٰ الفطرةِ الأُولىٰ المشوِّقة للعزائم إلىٰ العكوفِ في دارةِ الأُنس، ومِن الكفايةِ لهم المعاش، المنتج للشُّكر بإنفاقِ الفضل،

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٤٥).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٠).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٤٤٦).

وتبيَّن مِن ذلك أنَّهم خالَفوا أعظَمَ آبائهم في جميعِ ما قصَده لهم مِن المصالح؛ أتبَعه ما يحُثُّ علىٰ الإخلاصِ في ذلك وغيرِه له ولغيره؛ ليكونَ أنجَحَ للمرادِ بضمان الإسعاد، ولا سيَّما مع تكريرِ النداء الدالِّ علىٰ مزيدِ التضرُّع، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

جاء بهذا التَّوجُّهِ إلىٰ الله جامعًا لِما في ضميرِه، وفَذْلكةً للجُمَلِ الماضية؛ لِما اشتملت عليه مِن ذِكْرِ ضَلالِ كثيرٍ مِن الناس، وذِكْرِ مَن اتبَع دعوتَه ومَن عصاه، وذِكْرِ أنَّه أراد مِن إسكانِ أبنائه بمكَّةَ رجاءَ أن يكونوا حرَّاسَ بيتِ الله، وأن يُقيموا الصلاةَ، وأن يشكُروا النِّعَمَ، وفيه تعليمٌ لأهلِه وأتباعِه بعموم علمِ الله تعالىٰ حتىٰ يراقِبوه في جميعِ الأحوال، ويُخلِصوا النيَّةَ إليه[2].

لمَّا طلَب مِن الله تيسيرَ المنافعِ لأولاده وتسهيلَها عليهم، ذكَر أنَّه لا يَعلَمُ عواقبَ الأحوال ونهاياتِ الأمور في المستقبل، وأنَّه تعالىٰ هو العالِمُ بها، المحيطُ بأسرارها، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[3].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

ولمَّا تمَّ ما دعا به مِن النَّزاهةِ عن رجاسةِ الشرك، وتبيَّن بتقديمه أنَّ أهَمَّ المهماتِ البراءةُ منه؛ أتبَعه الحمدَ علىٰ ما رزَق مِن النِّعَم، وما تَبِع ذلك مِن الإشارةِ إلىٰ

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٥).

وجوبِ الشُّكر، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[١].

لمَّا دعا اللهَ لأهَمِّ ما يُهِمُّه -وهو إقامةُ التَّوحيد-، وكان يرجو إجابةَ دعوتِه، وأنَّ ذلك ليس بعجَبٍ في أمرِ الله؛ خطَر بباله نِعْمةُ الله عليه بما كان يَسألُه؛ وهو أن وهَب له ولَدين في إبَّانِ الكِبَر، وحينَ اليأسِ مِن الولادة؛ فناجىٰ اللهَ فحَمِده علىٰ ذلك، وأثنىٰ عليه بأنَّه سميعُ الدعاء؛ تمهيدًا لإجابةِ دعوتِه هذه كما أجاب دعوتَه سلَفًا؛ فهذا مناسبةُ موقعِ هذه الجملةِ بعد ما قبلها بقرينةِ قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٢].

المناسبة بَيْنَ قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، وبَيْنَ قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾؛ هي كأنَّه كان في قلبِه أن يطلُبَ مِن الله إعانتَهما، وإعانةَ ذُرِّيتِهما بعد موتِه، ولكنَّه لم يُصرِّحْ بهذا المطلوبِ؛ بل قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾؛ أي: إنَّك تَعلَم ما في قلوبِنا وضمائرنا، ثم قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾، وذلك يدلُّ ظاهرًا علىٰ أنَّهما يبقَيانِ بعد موتِه، وأنَّه مشغولُ القلبِ بسببهما، فكان هذا دعاءً لهما بالخيرِ والمَعُونة بعد موتِه علىٰ سبيلِ الرَّمز والتَّعريض؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ الاشتغالَ بالثَّناء عند الحاجةِ إلىٰ الدُّعاء أفضَلُ مِن الدُّعاء[٣].

ثم حَمِد اللهَ سبحانه علىٰ بعضِ نِعَمِه الواصلةِ إليه، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٦).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٣٥).

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾

ولمَّا تَمَّ الحمدُ على النِّعْمةِ بعد الدُّعاء بالتخلِّي مِن مَنافي السعادة، وختَمه بالحمدِ على إجابة الدُّعاء؛ انتهَز الفرصةَ في إتباعِه الدُّعاءَ بالتَّحلي بحِلْيةِ العبادة التي أخبَر أنَّها قَصْدُه بإسكانِه مِن ذُرِّيتِه، ثم إقامتِها؛ إشارةً إلى صعوبتِها على النَّفس إلا بمعونةِ الله، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[1].

جملةٌ مستأنَفةٌ مِن تمامِ دعائه[2].

ثم دعا لنفسِه ولذُرِّيتِه، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[3].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾

ولمَّا كان الإنسانُ -ولو اجتهَد كُلَّ الاجتهاد- محَلَّ العَجْزِ الموجِب للتَّقصير، المفتقِر للسَّتر؛ قال مشيرًا إلى ذلك: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[4].

ثم دعَا بالمغفرةِ لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدَّم منه ومِن المؤمنين قبل نُبوَّتِه، وما استمَرَّ عليه أبوه بعد دعوتِه مِن الشرك، أمَّا أمُّه فلعلَّها تُوُفِّيتْ قبل نُبوَّته، وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يَتبيَّنَ له أنَّ أباه عدوٌّ لله[5].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٢٧).

(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٣).

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا ختَم دعاءَه بيومِ الحساب الموجِبِ ذِكْرُه لكلِّ سعادةٍ، ونسيانُه لكلِّ شقاوةٍ؛ ذكَر بعضَ ما يتَّفِقُ فيه رجوعًا إلىٰ ما مضىٰ مِن أحوالِ يومِ القيامة علىٰ أحسَنِ وجهٍ، فقال -عاطفًا علىٰ قوله: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾، وجلُّ المقصدِ تهديدُ أهل الظُّلْمِ بالإشراك وغيرِه، وخاطَب الرأسَ الذي لا يمكن ذلك منه؛ ليكونَ أوقَعَ في قلبِ غيره-: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ الجُمَلِ السابقة، وله اتصالٌ بجملة ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، الذي هو وعيدٌ للمشركين، وإنذار لهم بألا يَغترُّوا بسلامتهم وأمنِهم؛ تنبيهًا لهم علىٰ أنَّ ذلك متاعٌ قليلٌ زائلٌ، فأكَّد ذلك الوعيدَ بهذه الآيةِ، مع إدماجِ تسلية الرسول ﷺ علىٰ ما يَتطاوَلون به مِن النِّعْمةِ والدَّعَة[(٢)].

اعلَمْ أنَّه لمَّا بيَّن دلائلَ التَّوحيد، ثم حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه طلَب مِن الله أن يصُونَه عن الشرك، وطلَب منه أن يوفِّقَه للأعمالِ الصالحة، وأن يخُصَّه بالرحمةِ والمغفرة في يومِ القيامة؛ ذكَر بعد ذلك ما يدلُّ علىٰ وجودِ يوم القيامة، وما يدلُّ علىٰ صفةِ يوم القيامة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٧).

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾

ثم ذكر تعالىٰ كيفيَّةَ قيامِهم مِن قبورهم، ومجيئِهم إلىٰ قيامِ المَحشَر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1].

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: تَسَلَّ عنهم، ولا تَملَّلْ مِن دعوتِهم، وأنذِرْهم[2].

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لرسولِ الله ﷺ بعد إعلامه أنَّ تأخيرَهم لماذا؟ وأمرٌ له بإنذارهم، وتخويفِهم منه[3].

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم إنَّه تعالىٰ زادهم تقريعًا آخرَ بقولِه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٤٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٠٩).

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

يجوز أن يكونَ عَطْفَ خبَرٍ علىٰ خبَرٍ، ويجوز أن يكونَ حالًا مِن الناس في قوله: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾؛ أي: أنذِرْهم في حالِ وقوع مكرِهم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر صفةَ عقابهم، أتبعَها بذِكْرِ كيفيَّةِ مكرِهم، فقال: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾(٢).

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك مِن علمِه سبحانه وقُدْرتِه، تسبَّب عنه أن يقالَ -وهو كما تقدَّم في أنَّ المرادَ الأمَّةُ؛ لبلوغِ الأمر كلَّ مبلغٍ، خوطب به الرأسُ ليكونَ أوقَعَ في قلوبهم-: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ جميعِ ما تقدَّم مِن قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ وهذا محَلُّ التَّسلية(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ قال في الآيةِ الأُولىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾؛ والمقصود منه التَّنبيهُ علىٰ أنَّه تعالىٰ لو لم يُقِمِ القيامةَ، ولم ينتقِمْ للمظلومين مِن

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥٠).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١١٠).
(٣) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥١).

الظالمين؛ لَزِم إمَّا كونُه غافلًا، وإمَّا كونه مُخلِفًا في الوعد، ولمَّا تقرَّر في العقولِ السَّليمة أنَّ كلَّ ذلك مُحالٌ، كان القولُ بأنَّه لا يُقِيمُ القيامةَ باطلًا(١).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّرتْ عظَمةُ ذلك اليومِ الذي تَشخَصُ فيه الأبصارُ، وكان أعظَمَ يومٍ يَظهَرُ فيه الانتقامُ؛ بيَّنه بقولِه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٢).

استئنافٌ لزيادةِ الإنذار بيومِ الحساب؛ لأنَّ في هذا تبيينَ بعضِ ما في ذلك اليومِ مِن الأهوال(٣).

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى لمَّا قال: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، بيَّن وقتَ انتقامِه، فقال: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾، وعظَّم مِن حالِ ذلك اليومِ؛ لأنَّه لا أمرَ أعظَمُ في العقولِ والنُّفوس مِن تغييرِ السَّماوات والأرضِ(٤).

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر بروزَهم له، ذكَر حالَهم في ذلك البروزِ، فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ١١١).

(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١١١).

(٥) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٩).

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ ﴾

ثم بيَّن لباسَهم بقولِه: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[١].

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ ﴾

ثم بيَّن علَّةَ هذه الأفعالِ في ذلك اليومِ، فقال معبِّرًا بالجزاء والكسبِ الذي هو محَطُّ التَّكليفِ وظنُّ النَّفع؛ لاقتضاءِ سياقِ القهر لهما: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ هذه الصفاتِ الثلاثة، قال: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾[٣].

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢ ﴾

ولمَّا اشتمَلتْ هذه السُّورةُ علىٰ ما قرَع سمعَك مِن هذه المواعظِ والأمثال والحِكَمِ التي أبكَمتِ البُلَغاءَ، وأخرَستِ الفصحاءَ، وبهَرتِ العقولَ؛ ترجَمها سبحانه بما يصلُحُ عنوانًا لجميعِ القرآن، فقال: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٤٣٩).
(٢) نظم الدرر (١٠/ ٤٤٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١١٤).
(٤) نظم الدرر (١٠/ ٤٤١).

سُورَةُ الحِجْرِ

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

لمَّا وصَف سبحانه هذا القرآنَ بما وصَفه مِن العظَمةِ والإبانة لجميعِ المقاصد التي منها سؤالُ الكفرة عند رؤيةِ العذابِ التأخيرَ للطاعة، فقال سبحانه: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو مفتتَحُ الغرضِ وما قبله كالتَّنبيهِ والإنذار[(٢)].

ثم إنَّه سبحانه لمَّا بيَّن شأنَ الآياتِ لتوجيه المخاطَبين إلىٰ حُسْنِ تَلقِّي ما فيها مِن الأحكامِ والقصصِ والمواعظ، شرَع جلَّ شأنُه في بيانِ المتضمنِ، فقال عزَّ قائلًا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾[(٣)].

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا طرَق لهم سبحانه الاحتمالَ، كان كأنَّه قيل: هل جوَّزوه فأخَذوا في الاستعداد له؟ فقيل: بل استمَرُّوا علىٰ عنادهم، فقال مستأنفًا: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٠).

(٣) روح المعاني (٧/ ٢٥١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٥-١٦).

لمَّا دلَّت «رُب» علىٰ التَّقليل، اقتضت أنَّ استمرارَهم علىٰ غُلَوائهم هو أكثَرُ حالهم؛ وهو الإعراضُ عمَّا يَدْعوهم إليه الإسلامُ مِن الكمال النَّفسي، فبإعراضِهم عنه رَضُوا لأنفسهم بحياةِ الأنعام؛ وهي الاقتصارُ علىٰ اللَّذاتِ الجسدية؛ فخوطب الرسولُ ﷺ بما يُعرِّض لهم بذلك؛ مِن أنَّ حياتَهم حياةُ أكلٍ وشربٍ[1].

ثم أمَر تعالىٰ نبيَّه بأن يُنذِرَهم، وهو أمرُ وعيدٍ لهم وتهديدٍ؛ أي: ليسوا ممَّن يرعوي عمَّا هو فيه مِن الكفرِ والتَّكذيب، ولا ممَّن تنفعُه النَّصيحةُ والتَّذكير؛ فهم إنَّما حظُّهم حظُّ البهائمِ مِن الأكل، والتَّمتُّع بالحياة الدُّنيا، والأملُ في تحصيلها هو الذي يُلهِيهم ويَشغَلُهم عن الإيمانِ بالله ورسوله ﷺ[2].

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا هُدِّدوا بآيةِ التَّمتُّع وإلهاءِ الأمل، وكان مِن المعلوم جدًّا مِن أحوالهم الاستعجالُ بالعذاب تكذيبًا واستهزاءً؛ كان الكلامُ في قوَّةِ أن يقالَ: فقالوا: يا أيُّها الذي نُزِّل عليه الذِّكْرُ، عَجِّلْ لنا ما تتوعَّدُنا به، وكان هذا غائظًا موجِعًا، حاملًا علىٰ تَمنِّي سرعةِ الإيقاع بهم، فقيل في الجواب: إنَّ لهم أجلًا بكتابٍ معلومٍ، لا بد مِن بلوغهم له؛ لأنَّ المتوعِّدَ لا يَخافُ الفَوْتَ؛ فهو يُمهِلُ ولا يُهمِلُ؛ لأنَّه لا يُبدَّل القولُ لديه، فليَستعدُّوا؛ فإنَّ الأمر غيبٌ، فما مِن لحظةٍ إلا وهي صالحةٌ لأن يُتوقَّعَ فيها العذابُ؛ فإنَّا لا نُهلِكهم إلا إذا بلَغوا كتابَهم المعلوم: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٦٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٧).

اعتراضٌ تذييليٌّ؛ لأنَّ في هذه الجملةِ حُكْمًا يَشمَلهم، وهو حُكْمُ إمهالِ الأُمَمِ التي حَقَّ عليها الهلاكُ؛ أي: ما أهلَكْنا أمَّةً إلا وقد متَّعْناها زمنًا، وكان لهلاكِها أجلٌ ووقتٌ محدودٌ، فهي ممتَّعةٌ قبل حلولِه، وهي مأخوذةٌ عند إبَّانه(١).

ولمَّا توعَّدَهم بما يحُلُّ بهم، أردَفَ ذلك بما يُشعِر بهلاكهم، وأنَّه لا يُستبطأ؛ فإنَّ له أجلًا لا يَتعدَّاه(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ سِرَّ تأخيرِ عذابهم بقولِه: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾(٣).

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾

ثم بيَّن الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾(٤).

جملةُ ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾؛ لبيانِ فائدةِ التَّحديد: أنَّه عدمُ المجاوَزة بَدْءًا ونهايةً(٥).

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ ﴾

ثم لمَّا أجابهم بهذا الجوابِ الدالِّ علىٰ تمامِ القدرة وكمالِ العلم الدالَّينِ علىٰ الوَحْدانيَّة، عطَفَ علىٰ ما تقدَّم أنَّه في قوَّةِ الملفوظِ قولَه دالًّا علىٰ تركِهم الجوابَ إلىٰ التَّعنُّت والسَّفهِ: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٤).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٦٦).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٢٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥).

(٦) نظم الدرر (١١/ ١٨-١٩).

عطفٌ على جملةِ ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾؛ والمناسبةُ أنَّ المعطوفَ عليها تضمَّنتِ انهماكَهم في الملذَّات والآمال، وهذه تضمَّنتْ توغُّلَهم في الكفرِ، وتكذيبَهم الرسالةَ المحمَّديَّة(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بالَغ في تهديد الكفار، ذكَر بعده شُبَهَهم في إنكارِ نُبوَّته(٢).

ثم أخبَر تعالى عن عُتُوِّهم في كفرهم بقولِه: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾(٣).

﴿ وَقَالُواْ ﴾ شروعٌ في بيانِ كفرِهم بمَنْ أُنزِلَ عليه الكتابُ بعد بيانِ كفرهم بالكتاب، وما يؤُولُ إليه حالُهم(٤).

﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾

ثم أتبَعوه ما زعَموا أنَّه دليلٌ على قولهم، فقالوا: ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٥).

جملةُ ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ استدلالٌ على ما اقتضته الجملةُ قبلها؛ باعتبارِ أنَّ المقصودَ منها تكذيبُ الرسول ﷺ؛ لأنَّ ما يصدُرُ مِن المجنون مِن الكلام لا يكون جاريًا على مطابقةِ الواقع؛ فأكثرُه كذبٌ(٦).

ثم حكى عنهم أنَّهم قالوا في تقريرِ شُبَهِهم: ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٧).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢١).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٢٩).
(٤) إرشاد العقل السليم (٥/ ٦٦).
(٥) نظم الدرر (١١/ ١٩).
(٦) التحرير والتنوير (١٤/ ١٨).
(٧) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢١).

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان في قولهم أمرانِ، أجاب عن كلٍّ منهما علىٰ طريقِ الاستئناف علىٰ تقديرِ سؤالِ مَن كأنَّه قال: ربما إذا أجابهم؟ فقيل: أجاب عن الثاني -لأنَّه أقربُ- بقولِه: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾(١).

مستأنَفةٌ ابتدائيةٌ جوابًا لكلامهم وشُبُهاتهم ومقترَحاتهم، وابتُدئ في الجواب بإزالةِ شُبْهتِهم إذ قالوا: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، أُريدَ منه إزالةُ جهالتِهم إذ سألوا نزولَ الملائكة علامةً علىٰ التَّصديق؛ لأنَّهم وإن طلَبوا ذلك بقصدِ التَّهكُّم، فهم مع ذلك معتقدون أنَّ نزولَ الملائكة هو آيةُ صِدْقِ الرسول ﷺ، فكان جوابُهم مشُوبًا بطرَفٍ مِن الأسلوبِ الحكيم؛ وهو صَرْفُهم إلىٰ تعليمِهم المَيْزَ بَيْنَ آياتِ الرُّسلِ وبين آياتِ العذاب، فأراد اللهُ ألا يدَّخِرَهم هَدْيًا، وإلا فهُمْ أحرياءُ بألا يُجابوا(٢).

ثم أشار إلىٰ جوابِ مقالِهم وردِّ مقترَحِهم بقولِه تعالىٰ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

وأجاب سبحانه عن الأول بقولِه مؤكدًا لتكذيبهم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٨).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٣٠).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٠).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لإبطالِ جزءٍ مِن كلامِهم المستهزِئينَ به إذ قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، بعد أن عجَّل كَشْفَ شُبْهتِهم في قولهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، جاء نشرُ الجوابينِ على عكسِ لَفِّ المقالينِ؛ اهتمامًا بالابتداء بردِّ المقال الثاني بما فيه مِن الشُّبهة بالتَّعجيز والإفحام، ثم ثُنِيَ العِنانُ إلى ردِّ تعريضِهم بالاستهزاء وسؤالِ رؤية الملائكة، وكان هذا الجوابُ مِن نوعِ القول بالموجَبِ بتقريرِ إنزال الذِّكْرِ على الرسول ﷺ مجاراةً لظاهرِ كلامهم[1].

ثم أنكَر على الكفار استهزاءَهم برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولِهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[2].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

ولمَّا كان هذا الكلامُ الذي قالوه عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم شاقًّا، وله غائظًا موجِعًا؛ قال تعالى تسليةً له على وجهٍ رادٍّ عليهم: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3].

عطفٌ على جملة ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ باعتبارِ أنَّ تلك جوابٌ عن استهزائهم في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ فإنَّ جملةَ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ قولٌ بموجَبِ قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وجملةَ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إبطالٌ لاستهزائهم على طريقةِ التَّمثيل

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٠).
(٢) فتح القدير (٣/ ١٤٧).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٥).

بنظرائهم مِن الأُمَمِ السالفة، وفي هذا التنظيرِ تحقيقٌ لكفرِهم؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك السالفين مُقَرٌّ عند الأُمَمِ، ومتحدَّثٌ به بينهم(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ استهزاءَ الكفار به ﷺ، ونِسبتَه إلىٰ الجنون، واقتراحَ نزولِ الملائكة؛ سلَّاه تعالىٰ بأنَّ مَن أُرسِلَ مِن قبلِك كان دَيْدنُ الرُّسلِ إليهم مِثْلَ ديدنِ هؤلاء معك(٢).

ثم ذكَر سبحانه أنَّ عادةَ أمثالِ هؤلاء الكفارِ مع أنبيائهم كذلك؛ تسليةً لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٣).

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

لمَّا أساؤوا في الأدب، وخاطَبوه بالسَّفاهة، وقالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ فاللهُ تعالىٰ ذكَر أنَّ عادةَ هؤلاء الجهَّالِ مع جميع الأنبياء هكذا كانت، ولك أسوةٌ في الصبرِ علىٰ سفاهتِهم وجهالتهم بجميع الأنبياء عليهم السلام(٤).

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا كانت قلوبُ أهلِ الضَّلال موصوفةً بالضِّيقِ والحرَجِ، كان الداخلُ إليها لا يدخُلُ إلا بغايةِ العسر؛ فلذلك قال جوابًا لِمَن كأنَّه قال: أهذا خاصٌّ بهؤلاء؟ فقيل: لا؛ بل ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٦٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢٤).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٢٧).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤالٍ يخطُرُ ببالِ السامع لقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، فيَتساءل: كيف تواردت هذه الأُمَمُ على طريقٍ واحد مِن الضَّلال؛ فلم تُفِدْهم دعوةُ الرُّسلِ ﷺ؟! فأُجيبَ بأنَّ ذلك عقابٌ مِن اللهِ لهم لإجرامِهم، وتَلقِّيهم الحقَّ بالسُّخريَّةِ وعدمِ التَّدبر، ولأجلِ هذا اختيرَ لهم وصفُ «المجرمين» دُونَ «الكافرين»؛ لأنَّ وَصْفَ الكفرِ صار لهم كاللَّقبِ، لا يُشعِرُ بمعنى التَّعليل(١).

ثم أخبَر أنَّه سلَك التَّكذيبَ في قلوبِ المجرمين الذين عانَدوا، واستكبَروا عن اتباعِ الهدى(٢).

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

جملةُ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بيانٌ للسَّلْكِ المشبَّهِ به، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أي: تَعيه عقولُهم ولا يؤمنون به. وهذا عامٌّ مرادٌ به مَن ماتوا على الكفر منهم؛ والمرادُ: أنَّهم لا يؤمنون وقتًا ما(٣).

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبَره بهذه الأسرارِ منبئةً عن أحوالهم، وكانت النفسُ أشدَّ شيءٍ طلبًا لقَطْعِ حُجَّةِ المتعنِّت بإجابة سُؤْلِه؛ قال تعالى مخبِرًا بتحقيقِ ما ختَم به مِن أنَّهم لا يؤمنون للخوارق، ولو رأَوْا أعجَبَ مِن الإيتانِ بالملائكة: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٨).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾، وهو كلامٌ جامعٌ لإبطالِ جميعِ معاذيرهم بأنَّهم لا يطلُبون الدَّلالةَ علىٰ صِدْقِه؛ لأنَّ دلائلَ الصِّدق بيِّنةٌ، ولكنَّهم يَنتحلون المعاذيرَ المختلِفة[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّهم لا يتركون الاستهزاءَ بالرُّسل، وإن أتتهم الآياتُ التي تُشبِهُ الملجئةَ؛ لقوَّةِ عنادِهم وبغيِهم، بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾[(٢)].

﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

أنَّ القومَ لمَّا طلبوا نزولَ ملائكةٍ يصرِّحون بتصديقِ الرسول ﷺ في كونه رسولًا مِن عندِ الله تعالىٰ، بيَّن اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّ بتقديرِ أن يحصُلَ هذا المعنىٰ، لقال الذين كفَروا: هذا مِن بابِ السِّحر، وهؤلاء الذين يظُنُّ أنَّا نراهم، فنحن في الحقيقةِ لا نراهم. والحاصل: أنَّه لمَّا عَلِم اللهُ تعالىٰ أنَّه لا فائدةَ في نزولِ الملائكة؛ فلهذا السببِ ما أنزَلهم[(٣)].

فكأنَّه قيل: فما كان قولُهم لو فتَح عليهم ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فقيل: ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ذِكْرُ هذه الآيةِ السماوية علىٰ سبيلِ الفرض في الجوابِ عن إنكارهم النُّبوَّةَ دليلًا علىٰ مُرُودِهم[(٤)] علىٰ الكفر، وكان مِن المعلوم أنَّ ثبوتَ النُّبوَّة مترتِّبٌ علىٰ

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٣١).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢٧).
(٤) أي: استمرارهم وعتوهم.

ثبوت الوَحْدانيَّة؛ توقَّع السامعُ الفَهِمُ الإخبارَ عمَّا له تعالىٰ مِن الآياتِ المحقَّقة الوجودِ المُشاهَدة الدالةِ علىٰ قُدْرتِه، فأتبَعها بذلك استدلالًا علىٰ وَحْدانيَّته بما له مِن المصنوعات، ودليلًا علىٰ عدمِ إيمانهم بالخوارق، وابتدأ بالسماوياتِ لظهورها لكلِّ أحدٍ، وشرَفِها، وظهورِ أنَّها مِن الخوارق؛ بعدمِ ملابَستِها والوصولِ إليها، فقال مفتتِحًا بحرف التوقُّع: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[1].

لمَّا جرىٰ الكلامُ السابق في شأنِ تكذيب المشركين برسالةِ محمَّدٍ ﷺ وما تركوا به في ذلك، وكان الأصلُ الأصيل الذي بنَوْا عليه صَرْحَ التكذيب أصلينِ؛ هما: إبطالُه إلهيَّةَ أصنامهم، وإثباتُه البعثَ؛ انبرىٰ القرآنُ يبيِّنُ لهم دلائلَ تفرُّد الله تعالىٰ بالإلهيَّة، فذكَر الدلائلَ الواضحة مِن خَلْقِ السماوات والأرضِ، ثم أعقَبها بدلائلِ إمكان البعث مِن خَلْقِ الحياة والموت، وانقراضِ أُمَمٍ وخَلْفِها بأخرىٰ، وصادَف ذلك مناسبة ذِكْرِ فتحِ أبواب السماء في تصويرِ غُلَوائهم بعنادهم، فكان الانتقالُ إليه تخلُّصًا بديعًا[2].

لمَّا أجاب عن شُبْهةِ منكِري النُّبوَّة، وكان قد ثبَت أنَّ القولَ بالنُّبوَّة مفرَّعٌ علىٰ القولِ بالتوحيد؛ أتبَعه تعالىٰ بدلائلِ التوحيد، ولمَّا كانت دلائلُ التوحيد منها سماويَّة، ومنها أرضيَّة؛ بدأ منها بذِكْرِ الدلائلِ السماوية، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[3].

لمَّا ذكَر كُفْرَ الكافرين، وعَجْزَ أصنامهم؛ ذكَر كمالَ قُدرتِه ليستدِلَّ بها علىٰ وَحْدانيَّته[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٢٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٩).

﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾

قوله: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ هو إدماجٌ للتَّعليم في أثناءِ الاستدلال، وفيه التَّنويهُ بعصمةِ الوحيِ مِن أن يَتطرَّقَه الزيادةُ والنَّقص؛ بأنَّ العوالِمَ التي يصدُرُ منها الوحيُ وينتقلُ فيها محفوظةٌ مِن العناصر الخبيثة(١).

ولمَّا ذكَر تزيينَ السماءِ في الآية السابقة بالنجوم، ناسَب هنا أن يذكُرَ شيئًا مِن وظائفِ تلك النجومِ.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾

قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ لا يمكِنُ حملُ لفظةِ ﴿إِلَّا﴾ هاهنا علىٰ الاستثناءِ؛ بدليل أنَّ إقدامَهم علىٰ استراقِ السمع لا يُخرِجُ السماءَ مِن أن تكونَ محفوظةً منهم، إلا أنَّهم ممنوعون مِن دخولها؛ وإنَّما يحاولون القُرْبَ منها، فلا يصحُّ أن يكونَ استثناءً علىٰ التَّحقيق؛ فوجَب أن يكونَ معناه: لكنْ مَن استرَقَ السمع(٢).

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ محلُّه النَّصبُ علىٰ الاستثناء المتَّصِل إن فُسِّر الحفظُ بمنعِ الشياطين عن التَّعرُّض لها علىٰ الإطلاق، والوقوفِ علىٰ ما فيها في الجملة، أو المنقطِعِ إن فُسِّر ذلك بالمنع عن دخولِها، والتَّصرُّفِ فيها(٣).

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾

ولمَّا ذكَر آيةَ السماء، ثنَّىٰ بآية الأرض، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩-٣٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٣٤).

انتقالٌ مِن الاستدلالِ بالآياتِ السماوية إلى الاستدلالِ بالآياتِ الأرضية؛ لمناسبةِ المضادَّة[١].

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

اختلَفوا في المراد بالموزونِ؛ وفيه وجوه: الوجه الأول: أن يكونَ المراد أنَّه متقدِّرٌ بقَدْرِ الحاجة. قال القاضي: وهذا الوجه أقرَبُ؛ لأنَّه تعالىٰ يَعلَم المقدارَ الذي يَحتاج إليه الناسُ، وينتفعون به، فيُنبِتُ تعالىٰ في الأرض ذلك المقدارَ؛ ولذلك أتبَعه بقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾؛ لأنَّ ذلك الرزقَ الذي يَظهَر بالنبات يكون معيشةً لهم[٢].

ثم بيَّن ما أودَعَ في الأرض بقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾.

ثم ذكَر ما امتَنَّ عليهم بما يسَّر لهم مِن أسبابِ المكاسب، ووجوهِ الأسباب، وصنوفِ المعايش، وبما سخَّر لهم مِن الدوابِّ التي يَركَبونها، والأنعامِ التي يأكلونها، والعبيدِ والإماء التي يستخدمونها، ورزقُهم علىٰ خالقهم، لا عليهم؛ فلهم هم المنفعةُ، والرزقُ علىٰ الله تعالىٰ[٣].

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا اعتراضٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الآية، وهو تذييلٌ[٤].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّه أنبَت في الأرض كلَّ شيءٍ موزونٍ، وجعَل فيها معايشَ؛ أتبَعه بذِكْرِ ما هو كالسَّبب لذلك، فقال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٥).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣١).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٦).
(٥) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٣).

فلمَّا ظهَر كالشَّمس كمالُ قُدرتِه، وأنَّه واحدٌ لا شريكَ له؛ بيَّن أنَّه كما كانت هذه الأشياءُ عنده بحسابٍ قدَّره على حِكْمةٍ دبَّرها، كان غيرُها كذلك؛ فذلك هو المانع مِن معاجَلتِهم بما يَهزَؤون به مِن العذاب، فقال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعْلُومٖ ﴾[1].

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فلمَّا تمَّ ما أراد مِن آيتَي السماء والأرضِ، وختَمه بشمولِ قُدْرتِه لكلِّ شيءٍ؛ أتبعه ما ينشأ عنهما ممَّا هو بينهما مُودعًا في خزائنِ قُدْرته، فقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[2].

انتقالٌ مِن الاستدلالِ بظواهرِ السَّماء وظواهرِ الأرض إلى الاستدلال بظواهرِ كُرَةِ الهواءِ الواقعة بَيْنَ السَّماء والأرض؛ وذلك للاستدلالِ بفعلِ الرياح، والمنَّةِ بما فيها مِن الفوائد[3].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الخامس مِن دلائلِ التَّوحيد[4].

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾ عطفٌ على ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾، وما بينهما اعتراضٌ لتحقيقِ ما سبَق، وترشيحِ ما لَحِق[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٤).

(٥) إرشاد العقل السليم (٥/ ٧٢).

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فلمَّا تقرَّر تفصيلُ الخبرِ عمَّا هو سببٌ للإحياء في الجملة، فتهيَّأت النَّفسُ للانتقال منه إلىٰ الإحياءِ الحقيقي قياسًا؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[(١)].

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ إنزالِ المطر، وكان ممَّا يَسبِق إلىٰ الأذهان عند ذِكْرِ المطرِ إحياءُ الأرض به؛ ناسَب أن يُذكَر بعده جنسُ الإحياء كله؛ لِما فيه مِن غرضِ الاستدلال علىٰ الغافلين عن الوَحْدانيَّة، ولأنَّ فيه دليلًا علىٰ إمكانِ البعث، والمقصودُ ذِكْرُ الإحياءِ؛ ولذلك قدَّم الإماتةَ للتَّكميل[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ السادس مِن دلائلِ التَّوحيد؛ وهو الاستدلالُ بحصولِ الإحياءِ والإماتة لهذه الحيواناتِ علىٰ وجودِ الإلهِ القادر المختار[(٣)].

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فلمَّا ثبَت بهذا كمالُ قُدْرته، وكانت آثارُ القدرة لا تكون محكَمةً إلا بالعلم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾[(٤)].

لمَّا ذكَر الإحياءَ والإماتة، وكان الإحياءُ يذكِّرُ بالأحياء، وكانت الإماتةُ تذكِّرُ بالأمواتِ الماضين؛ تخلَّص مِن الاستدلالِ بالإحياء والإماتة علىٰ عِظَمِ القدرة إلىٰ الاستدلالِ بلازمِ ذلك علىٰ عِظَمِ عِلْمِ الله؛ وهو علمُه بالأُمَمِ البائدة، وعلمُ الأُمَمِ الحاضرة، فأُريدَ بـ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ ﴾: الذين تقدَّموا الأحياءَ إلىٰ الموت أو إلىٰ الآخرة؛

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٦).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٠).

فالتَّقدُّمُ فيه بمعنى المُضيِّ، وبـ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: الذين تأخَّروا، وهم الباقون بعد انقراضِ غيرهم إلى أجلٍ يأتي[(١)].

لمَّا قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾، أتبعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه لا يَخفَى على الله شيءٌ مِن أحوالهم، فيدخُلُ فيه علمُه تعالى بتقدُّمهم وتأخُّرهم في الحدوث والوجود، وبتقدُّمهم وتأخُّرهم في أنواع الطاعات والخيرات[(٢)].

ثم قال مُخبِرًا عن تمام علمِه بهم -أوَّلِهم وآخِرِهم-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[(٣)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا تمَّ الدَّليلُ على تمامِ القدرة وشمولِ العلم، ثبَت قطعًا إحياءُ الموتى؛ لانتفاءِ المانع مِن جهةِ القدرة، واقتضاءِ الحِكْمةِ له مِن جهة العلم؛ للعدل بَيْنَ العباد بالمقابلةِ على الصَّلاح والفساد، فقال تعالى مؤكِّدًا لإنكارهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نتيجةُ هذه الأدلة مِن قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ فإنَّ الذي يُحيِي الحياةَ الأُولى قادرٌ على الحياةِ الثانية بالأَوْلى، والذي قدَّر الموتَ ما قدَّره عبثًا بعد أن أوجَد الموجوداتِ إلا لتَستقبلوا حياةً أبديةً، ولولا ذلك، لقُدِّر الدَّوامُ على الحياة الأُولى[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤١).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٤١).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا جرَتْ سُنَّتُه الإلهيَّة أنَّه يذكُرُ ابتداءَ الخَلق دليلًا علىٰ الإعادة سابقًا ولاحقًا، وابتدأ هنا بذِكْرِ الحشرِ -لِما قام عليه مِن الدَّليلِ بإحياء الأرض-؛ توقَّع السامعُ تفصيلَ ابتداءِ الخَلق الذي هو أدلُّ دليلٍ علىٰ البعث بعد إجماله في قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ ﴾، فقال مفتتِحًا بحرف التَّوقُّع: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[1].

تكملةٌ لإقامةِ الدَّليل علىٰ انفرادِه تعالىٰ بخَلق أجناسِ العوالم وما فيها، ومنه يُتخلَّص إلىٰ التَّذكيرِ بعداوة الشَّيطان للبشر؛ ليأخذوا حِذْرَهم منه، ويحاسِبوا أنفسَهم علىٰ ما يخامِرُها مِن وَسْواسِه بما يُرْدِيهم؛ جاء بمناسبة ذِكْرِ الإحياءِ والإماتة؛ فإنَّ أهَمَّ الإحياء هو إيجادُ النوع الإنساني، ففي هذا الخبَرِ استدلالٌ علىٰ عظيمِ القدرة والحِكْمة، وعلىٰ إمكانِ البعث، وموعظةٌ وذِكرىٰ[2].

لمَّا نبَّه تعالىٰ علىٰ منتهىٰ الخَلق -وهو الحشرُ يومَ القيامة إلىٰ ما يستقِرُّون فيه-، نبَّههم علىٰ مبدأِ أصلِهم آدمَ، وما جرىٰ لعدوِّه إبليسَ مِن المحاوَرة مع الله تعالىٰ[3].

لمَّا استدَلَّ بتخليقِ الحيوانات علىٰ صحةِ التوحيد في الآيةِ المتقدِّمة، أردفه بالاستدلالِ بتخليق الإنسان علىٰ هذا المطلوبِ[4].

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه خَلْقَ الإنسان، أتبَعه ذِكْرَ ما خلقَه قبْلَه مِن الجانِّ، فقال: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٤١).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٧٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٧).
(٥) نظم الدرر (١١/ ٥٢).

عطفُ جملةِ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ ﴾ إدماجٌ وتمهيدٌ إلىٰ بيانِ نشأة العداوة بَيْنَ بني آدَمَ وجندِ إبليسَ[(١)].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾

ولمَّا كانت نِعْمةُ الإيجاد كافيةً في إخلاصِ العبادة للموجِد، ثم لم يعتبِرْها أهلُ الضَّلال؛ أشار تعالىٰ إلىٰ نِعْمةٍ هي أكبَرُ منها؛ وهي التَّفضيلُ علىٰ جميعِ المخلوقات علىٰ وجهٍ مبيِّنٍ لسببِ الضَّلال، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: اذكُرْ هذا فإنَّه كافٍ في المراد لكلِّ ذي لُبٍّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[(٢)].

عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّة[(٣)].

لمَّا ذكَر حدوثَ الإنسان الأولِ، واستدَلَّ بذِكْرِه علىٰ وجودِ الإله القادر المختار؛ ذكَر بعده واقِعتَه؛ وهو أنَّه تعالىٰ أمَر الملائكةَ بالسجود له، فأطاعوه إلا إبليسَ؛ فإنَّه أبىٰ وتمرَّد[(٤)].

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) ﴾

لمَّا بيَّن مادةَ خَلْقِ آدَمَ، بيَّن تشريفَه إيَّاه بأمرِه الملائكةَ بالسجود له.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) ﴾

فكأنَّه قيل: فماذا فعَلتِ الملائكةُ؟ فقيل: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٢).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٣).
(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٣٩).

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّـا أبلَـغ في تأكيـدِ مـا أفهمـه الجمـعُ، اسـتثنىٰ، فقـال: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[1].

استئنافٌ لجوابِ سائلٍ قال: هل سجَدوا جميعًا؟ فقيل: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالِ مَن قال: فماذا قال اللهُ تعالىٰ عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2].

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالِ مَن قال: فماذا قال إبليسُ عند ذلك؟ فقيل: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فماذا أُجيبَ؟ فقيل: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾[3].

عُطِفت جملةُ أمرِه بالخروج بالفاء؛ لأنَّ ذلك الأمرَ تفرَّع علىٰ جوابِه المنبئِ عن كفرِه، وعدمِ تأهُّله للبقاء في السَّماوات[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٧٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٥٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٦).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم أكَّد بُعْدَه بالإخبارِ باستمراره، فقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾(١).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا عَلِم مِن هذا دوامَ لَعْنِه؛ لأنَّه مُنِع التَّقرُّبَ في دارِ العمل، وما بعد ذلك محَلُّ الجزاء لا العمل، وكان ذلك مُفهِمًا لإنظاره إلىٰ ذلك الحدِّ، وكان ظاهرُه أنَّ لَعْنَه مَعْنيٌّ به؛ كان كأنَّه قيل: فماذا قال حين سَمِع ذلك؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٢).

ولمَّا كانت اللعنةُ تستمِرُّ بعد انعدامِ الملعون إذا اشتهَر بَيْنَ الناس بسُوءٍ، لم يكُنْ توقيتُها بالأبد مقيَّدًا حياةَ الملعون؛ فلذلك لم يكُنْ لإبليسَ غنًىٰ بقولِه تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ عن أن يَسألَ الإبقاءَ إلىٰ يوم الدِّين ليكونَ مصدرَ الشُّرور للنُّفوس؛ قضاء لِما جُبِل عليه مِن بَثِّ الخبثِ، فكان بذلك حريصًا علىٰ دوامِها بما يُوجَّه إليه مِن اللعنة، فسأل النَّظِرةَ حبًّا للبقاء؛ لِما في البقاء مِن استمرارِ عمله(٣).

لمَّا تحقَّق الغضبَ الذي لا مرَدَّ له، سأل مِن تمامِ حسَدِه لآدمَ وذُرِّيته النَّظِرةَ إلىٰ يومِ القيامة(٤).

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: ماذا قيل له؟ فقيل: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٦).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٥٦-٥٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٨).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٥).
(٥) نظم الدرر (١١/ ٥٧).

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قطَع عليه ما دبَّج مِن المكرِ، فقال: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ (١).

اعلَمْ أنَّ إبليسَ استنظَر إلىٰ يومِ البعثِ والقيامة، وغرضُه منه ألا يموتَ؛ لأنَّه إذا كان لا يموتُ قبل يومِ القيامة، وظاهرُه أنَّ بعد قيامِ القيامة لا يموت أحدٌ؛ فحينئذ يَلزمُ منه ألا يموتَ البتَّةَ، ثم إنَّه تعالىٰ منعه عن هذا المطلوبِ، وقال: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ (٢).

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ ما تقدَّم -كما قلنا- الحُكْمَ بإغوائه، كان السامعُ كأنَّه قال: فماذا قال؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣).

فلمَّا سَمِع اللَّعينُ ما حكَم به الربُّ تعالىٰ عليه، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم استثنىٰ منهم عبادَ اللهِ المخلَصِينَ؛ لأنَّ عزيمتَه منصرفةٌ إلىٰ الإغواء؛ فهو الملحوظُ ابتداءً عنده، علىٰ أنَّ المُغْوَيْنَ هم الأكثرُ (٤).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٤١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٠).

اعلَـمْ أنَّ إبلـيسَ اسـتثنىٰ المخلَصِـين؛ لأنَّـه عَلِـم أنَّ كيـدَه لا يعمـل فـيهم، ولا يَقبلون منه[(١)].

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ ﴾

فكأنَّه قيل: فبماذا أُجيبَ؟ فقيل: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾[(٢)].

لمَّا قسَّم إبليسُ ذُرِّيةَ آدمَ إلىٰ غاوٍ ومخلَصٍ، قال تعالىٰ: هذا أمرٌ مَصيرُه إليَّ، ووصَفه بالاستقامةِ؛ أي: هو حقٌّ، وصيرورتُهم إلىٰ هذين القِسْمَينِ ليست لك[(٣)].

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ ﴾

ثم شرَح ذلك بقولِه -مضيفًا جميعَ العباد إليه كما هـو الحقيقةُ، نافيًا مـا قـد يوهِمُـه الكلامُ مِن أنَّ لإبليسَ عملًا مستقلًّا-: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾[(٤)].

يجوز أن تكونَ الإشارةُ إلىٰ الاستثناء الـذي سبَق في حكايـةِ كـلام إبليسَ مِن قولـه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾؛ لتضـمُّنِه أنَّـه لا يسـتطيع غَوايــةَ العبـاد الــذين أخلَصـهم اللهُ للخيـر، فتكـونَ جملـةُ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ مسـتأنَفةً، أفادت نَفْيَ سلطانِه[(٥)].

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٤٤).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٥٩).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٧٨).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٦٠).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٥١).

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ثم ذكر موعدَ مَن اتبع إبليسَ بقولِه: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

ثم بيَّن أنَّهم متفاوِتون فيها، فقال: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[١].

جملةُ ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ مستأنَفةٌ لوصفِ حالِ جهنَّمَ وأبوابها لأعداد الناسِ بحيث لا تَضِيقُ عن دخولهم[٢].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الكافرين وما جرَّهم إلىٰ الضَّلال، وجرَّأهم علىٰ قبائحِ الأعمال؛ ذكَر المخلَصينَ، فقال -مؤكِّدًا لإنكارِ المكذِّبين بالبعث-: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[٣].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقالٌ مِن وعيدِ المجرمين إلىٰ بشارةِ المتَّقين؛ علىٰ عادةِ القرآن في التَّفنُّن[٤].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما أعَدَّ لأهلِ النار، ذكَر ما أعَدَّ لأهل الجنَّة؛ ليَظهَرَ تبايُنُ ما بَيْنَ الفريقينِ[٥].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٣).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٦٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٤).
(٥) البحر المحيط (٦/ ٤٨٢).

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا كان المَنزِلُ لا يحسُنُ إلا بالسَّلامةِ والأُنس والأمن، قال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (١).

جملة ﴿ ٱدۡخُلُوهَا ﴾ معمولةٌ لقولٍ محذوفٍ يُقدَّر حالًا مِن ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، والقرينةُ ظاهرة؛ والتَّقدير: يقال لهم: ادخُلوها، والقائل هو الملائكةُ عند إدخالِ المتَّقِينَ الجَنَّة (٢).

لمَّا ملَكوا جنَّاتٍ كثيرةً، فكلَّما أرادوا أن يَنتقلوا مِن جَنَّةٍ إلىٰ أخرىٰ، قيل لهم: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا ﴾، وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ المراد: ادخُلوا الجَنَّةَ مع السلامة مِن كلِّ الآفات في الحال، ومع القطعِ ببقاءِ هذه السلامةِ، والأمنِ مِن زوالها (٣).

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الأُنْسُ لا يكمُلُ إلا بالجنسِ مع كمال المودَّة، وصفاءِ القلوب عن الكَدَرِ؛ قال: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (٤).

جملةُ ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ عطفٌ علىٰ الخبَرِ؛ وهو ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾؛ والتَّقدير: إنَّ المتَّقِينَ نزَعْنا ما في صدورِهم مِن غلٍّ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٥).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٤٨).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٦٣).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٥).

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا كان النَّظرُ في الدَّوام والمآل بعد ذلك، قال: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[(١)].

ولمَّا كانت الدُّنيا محَلَّ تعَبٍ بما يقاسىٰ فيها مِن طلبِ المعيشة، ومعاناةِ التَّكاليف الضرورية لحياةِ الدُّنيا وحياةِ الآخرة، ومعاشَرة الأضداد، وعُرُوضِ الآفات والأسقام، ومحَلَّ انتقالٍ منها إلىٰ دارٍ أخرىٰ مخُوفٍ أمرُها عند المؤمن، لا محَلَّ إقامةٍ؛ أخبَر تعالىٰ بانتفاءِ ذلك في الجنَّة بقولِه: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[(٢)].

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كان المفهومُ مِن هذا السِّياق أنَّ الناجيَ إنَّما هو المتقي المُخلَص الذي ليس للشيطانِ عليه سلطانٌ، وكان مفهومُ المُخلَص مَن لا شائبةَ فيه، وكان الإنسانُ محَلَّ النقصان، وكان وقوعُه في النقص منافيًا للوفاء بحقِّ التقوىٰ والإخلاص، وكان ربما أيأسه ذلك مِن الإسعادِ، فأوجَب له التماديَ في البِعاد؛ قال سبحانه جوابًا لِمَن كأنَّه قال: فما حالُ مَن لم يقُمْ بحقِّ التقوىٰ؟ فقيل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٣)].

هذا تصديرٌ لذِكْرِ القِصَصِ التي أُريد مِن التَّذكير بها الموعظةُ بما حَلَّ بأهلها، وهي قصَّةُ قومِ لوطٍ وقصَّةُ أصحابِ الأيكةِ وقصَّةُ ثمودَ، وابتُدئ ذلك بقصَّة إبراهيمَ عليه السلام لِما فيها مِن كرامةِ الله له؛ تعريضًا بالمشركين إذ لم يَقتفوا آثارَه في التوحيد؛ فالجملةُ

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٣).
(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٨٣).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٦٣-٦٤).

مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وإنَّما قُدِّم الأمرُ بإعلام النَّاس بمغفرةِ الله وعذابه ابتداءً بالموعظةِ الأصلية قبل الموعظة بجزئيَّاتِ حوادثِ الانتقام مِن المعانِدين، وإنجاءِ مَن بَيْنَهم مِن المؤمنين؛ لأنَّ ذلك دائرٌ بَيْنَ أثرِ الغفران وبَيْنَ أثر العذاب، وقُدِّمت المغفرةُ على العذاب؛ لسَبْقِ رحمتِه غضَبَه[(١)].

ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ ما في النار، وذكرُ ما في الجَنَّة؛ أكَّد تعالى تنبيهَ النَّاس، وتقريرَ ذلك وتمكينَه في النفس بقولِه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٢)].

ولمَّا ذكَر ما يوجِبُ الرغبةَ والرهبة مِن مفعولاتِ الله مِن الجَنَّة والنار، ذكَر ما يوجِب ذلك مِن أوصافِه تعالى، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)].

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كان ذلك ربما كان سببًا للاغترار الموجِبِ للإصرار، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[(٤)].

ثم إنَّه سبحانه لمَّا أمَر رسولَه بأن يُخبِرَ عبادَه بهذه البشارةِ العظيمة، أمَره بأن يذكُرَ لهم شيئًا ممَّا يَتضمَّن التَّخويفَ والتَّحذير حتى يجتمِعَ الرَّجاءُ والخوف، ويَتقابَلَ التَّبشيرُ والتَّحذير ليكونوا راجِينَ خائفين، فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٨٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٣١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٦٤).

(٥) فتح القدير (٣/ ١٦١).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ ﴾

ولمَّا كان حصولُ القنوط سببًا لآية المغفرة، والإخبارُ بعذاب الأُمَم تمثيلًا لآية العذاب؛ ذكَر سبحانه هذه القصةَ ليزدجرَ المخاطبون، وأفردَ لهم ذكرَ مَن هو أقربُ إلىٰ بلادهم ممَّن يعرفونه مِن المعذبين؛ لأنَّه أوقعُ في النفس، فقال تعالىٰ: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[(١)].

هذا العطفُ مع اتحادِ الفعلِ المعطوف بالفعلِ المعطوف عليه في الصيغة دليلٌ علىٰ أنَّ المقصودَ الإنباءُ بكِلا الأمرين؛ لمناسبةِ ذِكْرِ القصَّة أنَّها مِن مظاهرِ رحمتِه تعالىٰ وعذابه[(٢)].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما أعَدَّ للعاصين مِن النَّار، وللطائعين مِن الجنَّة، ذكَّر العربَ بأحوالِ مَن يَعرِفونه ممَّن عصىٰ وكذَّب الرُّسلَ، فحَلَّ به عذابُ الدُّنيا قبل عذابِ الآخرة؛ ليَزدجروا عن كفرِهم، وليَعتبروا بما حَلَّ بغيرهم، فبدأ بذِكْرِ جَدِّهم الأعلىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)].

لمَّا بالَغ في تقريرِ أمرِ النُّبوَّة، ثم أردَفه بذِكْرِ دلائلِ التوحيد، ثم ذكَر عَقِيبه أحوالَ القيامة وصفةَ الأشقياء والسعداء؛ أتبَعه بذِكْرِ قِصَصِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ليكونَ سماعها مرغِّبًا في الطاعة الموجِبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذِّرًا عن المعصيةِ لاستحقاقِ دركات الأشقياء، فبدأ أولًا بقصَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٤-٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٠).

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما نبؤُهم؟ فقيل: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا أخبَر أنَّه أخبَرهم بوجَلِه منهم، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ جوابهم، فقال: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1].

فلمَّا أخبَرهم بخوفِه منهم؛ لأنَّ العادةَ أنَّ النازل علىٰ الإنسان إذا لم يأكل طعامَه، دلَّ ذلك علىٰ أنَّه يريد به سُوءًا؛ ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾[2].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[3].

ثم حكىٰ اللهُ تعالىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[4].

فقال لهم متعجِّبًا مِن هذه البشارةِ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٦).

(٢) أيسر التفاسير (٣/ ٨٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٦٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥١).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٣٢).

﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

لمَّا استبعَد ذلك استبعادَ المتعجِّب مِن حصوله، كان ذلك أثرًا مِن آثارِ رسوخِ الأمور المعتادة في نفسِه، بحيث لم يقلعه منها الخبَرُ الذي يَعلَم صِدْقَه، فبَقِي في نفسه بقيَّةٌ مِن التردُّد في حصولِ ذلك، فقارَبتْ حالُه تلك حالَ الذين يَيْئَسون مِن أمرِ الله، ولمَّا كان إبراهيمُ عليه السلام منزَّهًا عن القُنوطِ مِن رحمة الله، جاؤوا في موعظتِه بطريقةِ الأدب المناسِب، فنَهَوْهُ عن أن يكونَ مِن زمرةِ القانطين؛ تحذيرًا له ممَّا يُدخِله في تلك الزُّمرة، ولم يَفرِضوا أن يكونَ هو قانطًا؛ لرفعةِ مقام نُبوءتِه عن ذلك[1].

فكأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾.

فلمَّا ظهَرتْ عليه علاماتُ الشكِّ والتردُّد في صحة الخبر، قالوا له: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾[2].

فأجابوه مؤكِّدين لِما بشَّروه به تحقيقًا وبشارةً بعد بشارةٍ ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾[3].

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فلمَّا ألهبوه بهذا النَّهيِ، ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[4].

فلمَّا نبَّهه الملائكةُ أدنى تنبيهٍ، تذكَّر مقامًا نَسِيَه، فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٠).
(٢) أيسر التفاسير (٣/ ٨٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤١).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٦٧).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٠).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ ﴾

فلمَّا تحقَّق البشرىٰ، ورأىٰ إتيانَهم مجتمِعين علىٰ غيرِ الصِّفة التي يأتي عليها المَلَكُ للوحيِ، وكان هو وغيرُه مِن العارفين باللهِ عالِمين بأنَّه ما تُنزَّل الملائكةُ إلا بالحقِّ؛ كان ذلك سببًا لأن يَسألَهم عن أمرِهم ليُزولَ وجَلُه كلُّه؛ فلذلك ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[1].

حكايةُ هذا الحوارِ بَيْنَ إبراهيمَ والملائكةِ عليهم السلام؛ لأنَّه يَجمَع بَيْنَ بيانِ فضل إبراهيمَ عليه السلام وبَيْنَ موعظةِ قُريشٍ بما حَلَّ ببعض الأُمَمِ المكذِّبين، انتقَل إبراهيمُ عليه السلام إلىٰ سؤالهم عن سببِ نزولهم إلىٰ الأرض؛ لأنَّه يَعلَم أنَّ الملائكةَ لا يَنزِلون إلا لأمرٍ عظيمٍ[2].

لمَّا بشَّروه بالولَدِ وراجَعوه في ذلك، عَلِم أنَّهم ملائكةُ الله ورُسُلُه، فاستفهَم بقولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[3].

ثم سألهم عمَّا لأجلِه أرسَلهم اللهُ سبحانه، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[4].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ ﴾

فكأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ ﴾

ولمَّا كان إرسالُهم للعذاب، قالوا مستثنِينَ مِن الضميرِ في ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ -أي: قد أجرَموا كلُّهم إجرامًا عظيمًا-: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾، فاستثنَوْهم مِن أن يكونوا مجرِمين[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٦١).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٨٦).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٦٢).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٦٨).

ثم استثنىٰ منهم مَن ليسوا مجرِمين، فقال: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾، وهو استثناءٌ متصِلٌ؛ لأنَّه مِن الضمير في ﴿ مُّجۡرِمِينَ ﴾، ولو كان مِن ﴿ قَوۡمٍ ﴾، لكان منقطِعًا؛ لكونهم قد وُصِفوا بكونهم مجرِمين، وليس آلُ لوطٍ مجرمين.

﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثم استثنىٰ مِن آلِ لوطٍ، فقال: ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

فلمَّا تمَّ ما أُريدَ الإخبارُ عنه مِن تحاوُرِهم مع إبراهيمَ عليه السلام، أخبَر عن أمرِهم مع لوطٍ عليه السلام، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[(١)].

تفريعٌ علىٰ حكايةِ قصَّتِهم مع إبراهيمَ عليه السلام، وقد طُوِيَ ما هو معلومٌ مِن خروجِ الملائكة مِن عندِ إبراهيمَ عليه السلام؛ والتَّقدير: ففارَقوه، وذهَبوا إلىٰ لوطٍ، فلمَّا جاؤوا لوطًا[(٢)].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ هذه الجملة مستأنَفةٌ لبيانِ إهلاكِ مَن يستحِقُّ الهلاكَ، وتنجيةِ مَن يستحِقُّ النجاةَ[(٣)].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ شروعٌ في بيانِ كيفيَّةِ إهلاك المجرمين، وتنجيةِ آلِ لوطٍ حسبما أُجمِلَ في الاستثناء، ثم فُصِّل في التَّعليل نوع تفصيلٍ، ووُضِع المُظهَر موضعَ المُضمَر؛ للإيذان بأنَّ مجيئَهم لتحقيقِ ما أُرسِلوا به مِن الإهلاكِ والتنجية[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٢).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٦٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٥/ ٨٣).

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ ﴾

تولَّىٰ لوطٌ عليه السلام تلقِّيَهم؛ كما هو شأنُ كبيرِ المَنزِل، ولكنَّه وجَدهم في شكلٍ غيرِ معروف في القبائل التي كانت تمُرُّ بهم، فأُلهِمَ إلىٰ أنَّ لهم قصَّةً غريبة؛ ولذلك قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: لا تُعرَف قبيلتُكم[١].

اعلَمْ أنَّ الملائكةَ لمَّا بشَّروا إبراهيمَ عليه السلام بالولَدِ، وأخبَروه بأنَّهم مرسَلون لعذابِ قومٍ مجرِمين؛ ذهَبوا بعد ذلك إلىٰ لوطٍ وإلىٰ آله، وأنَّ لوطًا وقومَه ما عرَفوا أنَّهم ملائكةُ الله؛ فلهذا قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[٢].

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ ﴾

ولمَّا كانت حقيقةُ المنكَر ما خرَج عن عادة أشكاله، ولم يكُنْ علىٰ طريقةِ أمثاله؛ أضرَبوا عن قوله، وكان جوابَهم أنْ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[٣].

فأجابوه بما يُزيل ذلك؛ إذ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ إضرابًا عن قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وإبطالًا لِما ظنَّه مِن كونهم مِن البشرِ الذين لم يَعرِفْ قبيلتَهم، فلا يأمنُهم أن يُعامِلوه بما يضُرُّه[٤].

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ ﴾

ثم أكَّدوا ما ذكَروه بقولِهم: ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٧١).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٤).

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا أخبَروه بوقوع العذاب بهم، أمَروه بما يكون سببًا فيما أُمِروا به مِن إنجائه، فقالوا: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾[(١)].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ شروعٌ في ترتيبِ مبادئِ النَّجاة[(٢)].

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بهذا أمرُ إهلاكهم مِن غيرِ تصريحٍ ولا تعيينٍ لوقتٍ، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[(٣)].

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فلمَّا تمَّ ما دار بَيْنَه وبين الرُّسلِ مقدِّمًا لِما بيَّن، أتبَعه البيانَ عن حالِ قومه؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الملائكةَ إن كانوا بصفات البشر لم يَعرِفْهم الكفرةُ، وإن كانوا بصفاتهم أو بإظهار شيءٍ مِن خوارِقِهم لم تحتمِلْهُ قُواهم، فلا نَفْعَ لهم في مكاشَفتِهم في حالةٍ مِن الحالات؛ فسؤالُهم الإتيانَ بهم جهلٌ عظيمٌ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٧٢).
(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٨٤).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٧٣).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٧٣-٧٤).

عطفُ جزءٍ مِن قصَّةِ قوم لوطٍ، وهو الجزء الأهمُّ فيها، ومجيءُ أهلِ المدينة إليه ومحاوَرتُه معهم كان قبل أن يَعلَمَ أنَّهم ملائكةٌ، ولو عَلِم ذلك، لَمَا أشفَق ممَّا عزَم عليه أهلُ المدينة لمَّا عَلِم بما عزَموا عليه بعد مجادَلتِهم معه[1].

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ شروعٌ في حكايةِ ما صدَر عن القوم عند وقوفِهم علىٰ مكانِ الأضياف مِن الفعلِ والقول، وما ترتَّب عليه، بعدما أُشيرَ إلىٰ ذلك إجمالًا حسبما نبَّه عليه[2].

لمَّا عَلِم قومُ لوطٍ بأضيافه وصباحةِ وجوههم، جاؤوا مستبشِرين بهم فَرِحين.

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ ﴾

فكان حالَ لوطٍ عليه السلام أنْ ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾[3].

فكأنَّه قيل: فماذا قال لوطٌ لهم؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾

ثم أكَّد ذلك بقولِه: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾[4].

ثم ذكَّرهم بالوازعِ الدِّينيِّ -وإن كانوا كفارًا- استقصاءً للدَّعوة التي جاء بها، بعد الوازعِ العُرْفيِّ، فقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٨٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٧٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٤ / ٦٦).

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ ﴾

فأجابوه بقولِهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١).

فلم يكفِهم ذلك؛ بل ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ ﴾

ثم عرَض عليهم بناتِه للزواج؛ ظنًّا أنَّ ذلك يَردَعهم، ويُطفِئ شَبَقَهم؛ ولذلك قال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾(٣).

فلمَّا وصَلوا إلىٰ هذا الحدِّ مِن الوقاحة، ذكَر لهم الحريمَ -ليَحمِلَهم ذلك علىٰ الحياء؛ لأنَّه دأبُ مَن له أدنىٰ مروءةٍ، ولا سيَّما ذِكْرُ الأبكار- في سياقٍ يكاد يُصرِّح بمرادِه؛ بأنْ ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾(٤).

فأرشَدهم إلىٰ نسائهم، وما خلَق لهم ربُّهم منهنَّ مِن الفروجِ المباحة، فقال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾(٥).

﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ ﴾

ولمَّا ذكَر ما ذكَر مِن أمورهم وعظيمِ فجورهم، وهم قد فُرِغ مِن أمرِهم وقُضِيَ باستئصالهم؛ كان كلُّ مَن يَعلَم ذلك قاضيًا بأنَّهم لا عقولَ لهم، فأتبَع سبحانه ذلك ما يدلُّ عليه بقولِه: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٧).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٧٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢).

(٦) نظم الدرر (١١/ ٧٥).

جملـةُ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ معترضـةٌ بَيْنَ أجـزاءِ القصَّـة للعِبْـرة في عـدمِ جدوىٰ الموعظة فيمَن يكون في سَكْرةِ هواه[1].

هذا كلُّه وهم غافلون عمَّا يراد بهم، وما قد أحاط بهم مِن البلاء، وماذا يُصبِّحُهم مِن العذابِ المستقِرِّ؛ ولهذا قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّـا تـمَّ ذلـك، سـبَّب عـن القضـاء بقطـعِ دابـرِهم قولـه تعـالىٰ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾[3].

جملةُ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ تفريعٌ علىٰ جملـةِ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[4].

فلمَّا بيَّنتْ له الرُّسلُ حالَهم، زال عن لوطٍ ما كان يجدُه مِن الضِّيق والكَرْبِ، فامتثَل أمرَ ربِّه، وسرَىٰ بأهله ليلًا، فنجَوْا، وأمَّا أهلُ القرية ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾[5].

﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثم بيَّن سبحانه ما تسبَّب عن الصيحةِ متعقِّبًا لهـا، فقـال: ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٧٦).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٧).
(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٣٣).
(٦) نظم الدرر (١١/ ٧٧).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

جملة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ تذييلٌ، والآياتُ: الأدلة؛ أي: دلائل علىٰ حقائقَ مِن الهدايةِ وضدِّها، وعلىٰ تعرُّضِ المكذِّبين رُسُلَهم لعقابٍ شديد[1].

ثم بيَّن أنَّ فيما ذُكِر مِن القصَّة لَعلاماتٍ يُستدلُّ بها علىٰ حقيقةِ الحقِّ بقولِه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

ثم بيَّن أنَّ ذلك غيرُ خفيٍّ عنهم، ولا بعيدٍ عمَّن أراد الاتعاظَ به، فقال جَعْلًا لهم -لعدم اعتبارِهم بها، ومع رؤيتهم إيَّاها في كلِّ حينٍ- في عِدادِ المنكِرين: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾[2].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولمَّا أشار سبحانه إلىٰ الاستدلالِ بالتَّوسُّم الدال -ممَّا هي عليه مِن المخالفةِ لسائرِ مياه الأرض العَذْبة الواردة إليها علىٰ كثرتها، ومع أنَّ البلادَ التي هي بها مِن أبهَجِ البلادِ في عذوبةِ المياه، وطراوةِ الأرض، وحُسْنِ الأشجار، وغيرِ ذلك- علىٰ أنَّ لها نبأً هو في غايةِ الغرابة، وأتبَع ذلك سهولةَ الوصول إليها، حثًّا علىٰ إتيانها بقصدِ نظَرِها، والاعتبارِ بها، والسؤالِ عن سببِ كونها كذلك؛ قال تعالىٰ مشيرًا إلىٰ زيادةِ الحثِّ بالتَّأكيد: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٦٩).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٧٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٧٨).

جملةُ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تذييلٌ، والإشارةُ إلىٰ ما تقدَّم مِن قوله مِن القصَّة مع ما انضَمَّ إليها مِن التَّذكير بأنَّ قُرَاهم واضحةٌ فيها آثارُ الخَسْفِ والأمطارِ بالحجارة المُحْمَاة، وعبَّر في التَّذييلِ بالمؤمنين؛ للتَّنبيه علىٰ أنَّ المتوسِّمين هم المؤمنون[1].

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر هذه القصَّةَ، ضمَّ إليها ما هو علىٰ طريقِها ممَّا عُذِّب قومُه بنوعٍ آخرَ مِن العذاب يشابِهُ عذابَ قومِ لوطٍ في كونه نارًا مِن السماء، فقال -مؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ الكفار أن يكونَ عذابُهم لأجلِ التَّكذيب، أو عَدًّا لهم لأجلِ تَماديهم علىٰ الغَوايةِ مع العلم به عِدادَ المنكِرين-: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾[2].

عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ لِما في كلتيهما مِن الموعظة، وذِكْرُ هاتين القصتينِ المعطوفتين تكميلٌ وإدماجٌ؛ إذ لا علاقةَ بينهما وبَيْنَ ما قبلهما مِن قصَّةِ إبراهيمَ والملائكة، وخُصَّ بالذِّكر أصحابُ الأيكة وأصحابُ الحِجْرِ؛ لأنَّهم مثلُ قومِ لوطٍ في موعظةِ المشركين مِن الملائكة؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ يشاهِدون ديارَ هذه الأُمَمِ الثلاث[3].

اعلَمْ أنَّ هذه هي القصَّةُ الثالثة مِن القِصَصِ المذكورة في هذه السُّورةِ؛ فأولُها: قصَّةُ آدَمَ وإبليسَ، وثانيها: قصَّةُ إبراهيمَ ولوطٍ، وثالثها: هذه القصَّةُ، وأصحابُ الأيكةِ هم قومُ شُعَيب عليه السلام[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٠).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٧٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٠-٧١).
(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٧).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾

ولمَّا وصفهم بالظُّلم، ذكَر هنا عاقبةَ ظُلْمِهم، فقال: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾

ولمَّا كان ربما قيل: إنَّه لو كان لأصحابِ الأيكة بيوتٌ متقَنةٌ لمنَعتْهم مِن العذاب؟ عطَف عليهم مَن هم علىٰ طريقٍ أخرىٰ مِن متاجِرهم إلىٰ الشام، وكانوا قد طال اغترارُهم بالأمل حتىٰ اتخَذوا الجبال بيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوضوح، فكذَّبوا بها؛ تحقيقًا لأنَّ المتعنِّتين لو رأَوْا كلَّ آيةٍ، لقالوا: إنَّما سُكِّرتْ أبصارُنا، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[(١)].

جُمِعتْ قِصَصُ هؤلاء الأُمَمِ الثلاث -قومِ لوطٍ، وأصحابِ الأيكة، وأصحابِ الحِجْرِ- في نسَقٍ؛ لتماثُلِ حالِ العذاب الذي سُلِّط عليها؛ وهو عذابُ الصَّيحة، والرَّجفة، والصاعقة[(٢)].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾

ثم أتبَع ذلك قولَه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾[(٣)].

ثم ذكَر ما يدلُّ علىٰ صِدْقِ مَن أُرسِلَ إليهم: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾.

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾

ثم أخبَر أنَّهم كانوا مِثْلَ هؤلاء في الأمن مِن العذاب والغفلة عمَّا يراد بهم مع أنَّهم كانوا أشَدَّ منهم، فقال: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٢).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٨٠).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٨١).

جملةُ ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ ﴾ معترِضة(١).

ثم وصَفهم بشِدَّةِ النظر للدنيا والتكسُّب منها، فذكَر مِن ذلك مثالًا، فقال: ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾(٢).

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفاء في ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ للتعقيب والسَّببية(٣).

فتسبَّب عن تكذيبِهم أنْ أخذتْهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾(٤).

ولمَّا كانوا ﴿ءَامِنِينَ ﴾ مِن عذاب الله، تسبَّب عن ذلك أنْ نزَل بهم العذابُ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فهل دفعتْ عنهم الأموالُ والحصون في الجبال؟ فقيل: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا كان المتعنِّتُ ربما قال: ما له يخلُقُهم ثم يُهلِكهم وهو عالِمٌ حين خلَقهم أنَّهم يكذِّبون؟ وكانت هذه الآيةُ ملتفتةً -مع ما فيها مِن ذِكْرِ الأرض- إلىٰ تلك التي

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٣).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٤).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٨١).

أتبعها ذِكْرَ الخافقين، استدلالًا على الساعة؛ قال على ذلك النمطِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[(١)].

موقعُ «الواو» في صدرِ هذه الجملة بديعٌ؛ فهذه الجملة صالحةٌ لأن تكونَ تذييلًا لقصصِ الأُمَم المعذَّبة؛ ببيانِ أنَّ ما أصابهم قد استحَقُّوه؛ فهو مِن عدلِ الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها[(٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في موقعِ التَّعليل للأمرِ بالصَّفح عنهم؛ أي: لأنَّ في الصَّفح عنهم مصلحةً لك ولهم يَعلَمها ربُّك؛ فمصلحةُ النبي ﷺ في الصَّفح هي كمالُ أخلاقه، ومصلحتُهم في الصَّفح رجاءُ إيمانهم؛ فالله الخلَّاق لكم ولهم ولنفسك وأنفسِهم، العليمُ بما يأتيه كلٌّ منكم[(٣)].

لمَّا ذكر خَلْقَ السماوات والأرضِ وما بَيْنَهما، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾، أتى بصفةِ المبالغة لكثرةِ ما خلَق[(٤)].

ثم علَّل هذا الأمرَ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٥)].

ثم قرَّر المَعادَ، وأنَّه تعالى قادرٌ على إقامة الساعة؛ فإنَّه الخَلَّاق الذي لا يُعجِزه خَلْقُ ما يشاء، وهو العليمُ بما تمزَّق مِن الأجساد، وتفرَّق في سائرِ أقطار الأرض، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٧٨).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٤٩٣).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٨٣).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر صفةَ العلمِ بصيغة المبالغة، أتبَعها ما آتاه في هذه الدارِ مِن مادةِ العلم بصيغةِ العظَمة، فقال عطفًا على ما قدَّرتُه ممَّا دلَّ عليه السِّياقُ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[١].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا صبَّره على أذى قومِه، وأمَره بأن يَصفَحَ الصَّفحَ الجميل؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ النِّعم العظيمة التي خَصَّ اللهُ تعالى محمَّدًا ﷺ بها؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تذكَّر كثرةَ نِعَمِ الله عليه، سهُلَ عليه الصَّفحُ والتَّجاوز[٢].

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ما أوتيَه وما سيؤتاه أعظَمَ ما أوتيَه مخلوقٌ، اتصَل به قولُه: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

استئنافٌ بيانيٌّ لِما يثيرُه المقصود مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾، ومِن تساؤلٍ يَجِيشُ في النفس عن الإملاءِ للمكذِّبين في النِّعْمة والترف مع ما رُمِقوا به مِن الغضبِ والوعيد، فكانت جملةُ ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ بيانًا لِما يختلِجُ في نفسِ السامع مِن ذلك، ولكونِها بهذه المثابة فُصِلت عن التي قبلها فَصْلَ البيانِ عن المبيَّن[٤].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٨٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٥٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٨١).

لمَّا كان ذلك تسليةً للرسول ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعتُرِض بما هو مَدَدٌ لمعنىٰ التَّسليةِ؛ مِن النَّهي عن الالتفات إلىٰ دنياهم والتَّأسُّفِ علىٰ كفرِهم، ومِن الأمرِ بأن يُقبِلَ بمَجامعِه علىٰ المؤمنين[(١)].

ثم لمَّا بيَّن لرسولِ الله ﷺ ما أنعَم به عليه مِن هذه النِّعْمة الدِّينيَّة، نفَّره عن اللَّذاتِ العاجلة الزائلة، فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا كان الغالبُ علىٰ الخَلْقِ التقصيرَ، قال له: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾[(٣)].

لمَّا أمَره بألا يَحزَنَ علىٰ مَن لم يؤمِنْ، وأمَره بخفضِ جَناحِه للمؤمنين؛ أمَره أن يُعلِمَ المؤمنين وغيرَهم أنَّه هو النذيرُ المُبين؛ لئلا يظُنَّ المؤمنون أنَّهم لمَّا أُمِر عليه الصلاة والسلام بخفضِ جَناحه لهم، خرَجوا مِن عُهْدةِ النِّذارة، فأمَره تعالىٰ بأن يقولَ لهم: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لكم ولغيرِكم[(٤)].

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما التحَم بقصَّةِ أصحاب الحِجْرِ المُقتسِمين علىٰ قتلِ رسولهم، وختَمه بالإنذار الذي هم أهلُه؛ عاد إلىٰ تتميمِ أمرِهم، فشبَّههم بمَن كذَّب مِن هذه الأمَّةِ، فقال: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٩٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ١٧١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٨٩).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٤٩٧).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٨٩).

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

أجمَل المرادَ بالمُقتسِمين إجمالًا بيَّنه وصفُهم بالصلةِ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1].

ثم وصَفهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾

ثم تسبَّب عن فعلِهم هذا قولُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

فكأنَّه قيل: عن ماذا يُسألون؟ فقيل: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بصريحِه وكنايته عن التَّسلية علىٰ ما يُلاقيه مِن تكذيبِ قومه[2].

ثم أمَر اللهُ رسولَه ألا يباليَ بهم ولا بغيرِهم، وأن يَصدَعَ بما أمَر اللهُ، ويُعلِنَ بذلك لكلِّ أحدٍ، ولا يعُوقَنَّه عن أمرِه عائقٌ، ولا تصُدَّه أقوالُ المتهوِّكين[3].

﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾

ولمَّا كان هذا الصَّدعُ في غاية الشِّدَّة عليه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم -لكثرةِ ما يَلقَىٰ عليه مِن الأذىٰ-، خفَّف عنه سبحانه بقولِه مُعلِّلًا له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٨٧).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٣٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٩٧).

جملة ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعلان بما أُمِر به؛ فإنَّ اختفاءَ النبيِّ ﷺ بدار الأرقَمِ كان بأمرٍ مِن الله تعالىٰ لحِكْمةٍ عَلِمها اللهُ؛ أهَمُّها: تعدُّدُ الدَّاخلين في الإسلام في تلك المدَّة، بحيث يغتاظ المشركون مِن وَفْرة الداخلين في الدِّين مع أنَّ دَعْوتَه مخفيةٌ، ثم إنَّ الله أمَر رسولَه ﷺ بإعلانِ دَعْوتِه لحِكْمةٍ أعلىٰ، تهيَّأ اعتبارُها في علمِه تعالىٰ[1].

ثم أخبَره تعالىٰ أنَّه كفَاه المستهزئين بمصائبَ أصابتهم لم يَسْعَ فيها الرسولُ ﷺ، ولا تكلَّف لها مشقَّةً[2].

ثم أكَّد هذا الأمرَ وثبَّت قلبَ رسوله بقولِه: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[3].

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

ثم وصَفهم بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[4].

ووصَفهم بـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾؛ للتَّشويهِ بحالهم، ولتسليةِ الرسول ﷺ بأنَّهم ما اقتصَروا علىٰ الافتراء عليه؛ فقد افترَوْا علىٰ الله[5].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

ولمَّا كان صَدْعُه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم بذلك علىٰ حدٍّ مِن المشقَّة عظيمٍ، وإن أُرِيحَ مِن المستهزئين؛ لكثرةِ مَن بَقِيَ ممَّن هو علىٰ مثلِ رأيهم؛ قال يُسلِّيه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٨٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٩٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٧٣).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٩٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٠).

(٦) نظم الدرر (١١/ ٩٨).

لمَّا كان الوعيد مؤذِنًا بإمهالهم قليلًا -كما دلَّ عليه حرفُ التَّنفيس في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾-، طَمْأنَ اللهُ نبيَّه ﷺ بأنَّه مطَّلِعٌ علىٰ تحرُّجه مِن أذاهم وبُهْتانِهم: مِن أقوال الشرك، وأقوالِ الاستهزاء، فأمَره بالثَّبات والتَّفويض إلىٰ ربه؛ لأنَّ الحِكْمَةَ في إمهالهم؛ ولذلك افتُتحت الجملةُ بلامِ القَسَم وحرفِ التَّحقيق(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّ قومه يسفهون عليه، ولا سيَّما أولئك المقتسِمون وأولئك المستهزئون؛ قال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾(٢).

ثم ذكَر تسليةً أخرىٰ لرسول الله ﷺ بعد التَّسلية الأولىٰ؛ بكفايتِه شرَّهم، ودفعِه لمكرِهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾(٣).

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

فُرِّع علىٰ جملة ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ أمرُه بتسبيحِ الله تعالىٰ، وتنزيهِه عمَّا يقولونه مِن نسبةِ الشَّريك؛ أي: عليك بتنزيهِ ربِّك، فلا يضُرُّك شركُهم(٤).

ثم أمَره سبحانه بأن يَفزَعَ لكشفِ ما نابه مِن ضِيقِ الصَّدر إلىٰ تسبيحِ الله سبحانه، وحمدِه، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾(٥).

ثم أعلَمه بما يزيلُ ضِيقَ الصدرِ والحزن، وذلك بما أمَره مِن التسبيحِ، والتحميد، والصلاة(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٩١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٦٥).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٩١).

(٥) فتح القدير (٣/ ١٧٣).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٣٤٧).

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾

ولمَّا أمَره بعبادةٍ خاصةٍ، أتبَعه بالعامةِ، فقال: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[(١)].

ثم أمَره بعبادة ربِّه بالدَّوام عليها إلىٰ غايةٍ؛ هي قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[(٢)].

(١) نظم الدرر (١١/ ١٠٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ١٧٣).

سُورَةُ النَّحۡلِ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ ﴾

ولمَّا تقرَّر بذلك تنزُّهُه عن كلِّ نقصٍ: شركٍ وغيره، شرَع يصفُ نفسَه سبحانه بصفات الكمال؛ مِن الأمرِ والخَلق، فقال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾(١).

كان استعجالُهم بالعذابِ استهزاءً بالرسول ﷺ وتكذيبه، وكان ناشئًا عن عقيدةِ الإشراك التي مِن أصولها استحالةُ إرسالِ الرُّسل مِن البشر، وأُتبِع تحقيقُ مجيءِ العذاب بتنزيهِ الله عن الشَّريك، فقُفِّي ذلك بتبرئةِ الرسول ﷺ مِن الكذبِ فيما يُبلِّغه عن ربِّه، ووُصِف لهم الإرسالُ وصفًا موجزًا، وهذا اعتراضٌ في أثناءِ الاستدلال علىٰ التَّوحيد(٢).

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ تفصيلٌ لِما أُجمِلَ في قولِه ﷻ، أيقَظ أولًا، ثم نعىٰ عليهم ما هم فيه مِن الشركِ، ثم أردَفه بدلائلِ السمع والعقل، وقدَّم السَّمْعيَّ لأنَّ صاحبَه هو القائمُ

(١) نظم الدرر (١١/ ١٠٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٨).

بتحرير العقلي، وتهذيبه أيضًا، فليس النظرُ إلىٰ دليلِ السمع؛ بل إلىٰ مَن قام به مِن الملائكةِ والرُّسل عليهم السلام، وهم القائمون بالأمرينِ جميعًا، فافهمْ[1].

ولمَّا نزَّه نفسَه عمَّا وصَفه به أعداؤه، ذكَر الوحيَ الذي يُنزِّلُه علىٰ أنبيائه، ممَّا يجب اتباعُه في ذِكْرِ ما يُنسَب لله مِن صفاتِ الكمال، فقال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[2].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا وحَّد نفسَه، دلَّ علىٰ ذلك بقولِه شارحًا لإيجادِه أصولَ العالَمِ وفروعَه علىٰ وجه الحِكْمةِ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ذلك ترقَّبوا دليلَ تنزيهِ الله عن أن يكونَ له شركاءُ، فابتُدئ بالدَّلالة علىٰ اختصاصه بالخَلْقِ والتَّقدير، وذلك دليلٌ علىٰ أنَّ ما يُخلَق لا يوصَفُ بالإلهيَّة[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن فيما سبَق أنَّ معرفةَ الحق لذاتِه، وهي المرادُ مِن قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾، ومعرفةَ الخير لأجلِ العمل به، وهي المرادُ مِن قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ ﴾، روحُ الأرواح، ومطلعُ السَّعادات، ومنبع الخيرات والكرامات؛ أتبَعه بذِكْرِ الدَّلائلِ علىٰ وجودِ الخالق الإله تعالىٰ، وكمالِ قُدْرته وحِكْمته[5].

---

(١) روح المعاني (٧/ ٣٣٦).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٣٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٠٠).

(٥) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٧١).

وبعد تمهيدِ الدَّليل السَّمعي للتَّوحيد، شرَع في تحريرِ الأدلة العقليَّة، فقيل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا كان خَلْقُ السَّماواتِ والأرض غيبًا لتقدُّمه، وكان خَلْقُ الإنسانِ على هذه الصفةِ شَهادةً، مع كونه أدَلَّ على ذلك مِن حيث إنَّه أشرَفُ مِن كلِّ ما يعبُدُه مِن دُونِ الله، ولن يكونَ الربُّ أدنىٰ مِن العبد أصلًا؛ قال مُعلِّلًا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ أيضًا، وهو استدلالٌ آخَرُ على انفرادِه تعالىٰ بالإلهيَّة ووَحْدانيَّته فيها؛ وذلك أنَّه بعد أن استدَلَّ عليهم بخَلْقِ العوالم العُلْيا والسُّفلىٰ -وهي مشاهَدةٌ لديهم-، انتقَل إلى الاستدلالِ عليهم بخَلْقِ أنفسِهم المعلوم لهم، وأيضًا لمَّا استدلَّ علىٰ وَحْدانيَّته بخَلْقِ أعظَمِ الأشياء المعلومة لهم، استدلَّ عليهم أيضًا بخَلْقِ أعجَبِ الأشياء للمتأمِّل؛ وهو الإنسانُ في طرَفَيْ أطواره: مِن كونِه نُطْفةً مَهِينة إلىٰ كونه عاقلًا فصيحًا مُبِينًا بمقاصدِه وعلومه[3].

لمَّا ذكَر ما دلَّ علىٰ وَحْدانيَّته مِن خَلْقِ العالَمِ العُلْوي والأرض -وهو استدلالٌ بالخارج-، ذكَر الاستدلالَ مِن نفسِ الإنسان، فذكَر إنشاءه ﴿مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، وكان حَقَّه والواجبَ عليه أن يُطِيعَ وينقادَ لأمر الله[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٥/ ٩٦).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٠٢).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥٠٥).

اعلَمْ أنَّ أشرَفَ الأجسامِ بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسانُ، فلمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ الاستدلالَ علىٰ وجودِ الإله الحكيم بأجرامِ الأفلاك، أتبَعه بذِكْرِ الاستدلالِ علىٰ هذا المطلوبِ بالإنسان[١].

وبعدما نبَّه علىٰ صُنْعِه الكُلِّي المنطوي علىٰ تفاصيلِ مخلوقاته، شرَع في تَعْدادِ ما فيه مِن خلائقِه؛ فبدأ بفعلِه المُتعلِّق بالأنفُسِ، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[٢].

ثم لمَّا كان نوعُ الإنسان أشرَفَ أنواعِ المخلوقات السُّفلية، قدَّمه وخَصَّه بالذِّكر، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[٣].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا صار التَّوحيدُ بذلك كالشمس، وكان كلُّ ما في الكون - مع أنَّه دالٌّ علىٰ الوَحْدانيَّة - نِعْمةً علىٰ الإنسان يجبُ عليه شكرُها؛ شرَع يعدِّدُ ذلك تنبيهًا له علىٰ وجوبِ الشُّكر بالتبرؤ مِن الكفر، فقال مقدِّمًا الحيواناتِ لأنَّها أشرَفُ مِن غيرها، وقدَّم منها ما ينفع الإنسانَ لأنَّه أجَلُّ مِن غيره، مبتدئًا بما هو أَوْلاها بالذِّكْرِ لأنَّه أجَلُّها منفعةً في ضرورات المعيشة، وألزَمُها لِمَن أُنزِلَ الذِّكْرُ بلسانهم: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٧٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٩٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٧٧).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٠٧-١٠٨).

يجوز أن يُعطَفَ «الأنعام» عَطْفَ المفرَدِ على المفرد عطفًا على الإنسان؛ أي: خلَق الإنسانَ مِن نُطْفةٍ والأنعامَ، وهي أيضًا مخلوقةٌ مِن نطفة، فيحصل اعتبارٌ بهذا التَّكوينِ العجيب؛ لشَبَهِه بتكوين الإنسان، وتكونَ جملةُ ﴿خَلَقَهَا﴾ بمتعلِّقاتها مستأنَفةً، فيحصل بذلك الامتنانُ، ويجوز أن يكونَ عَطْفَ الجملةِ على الجملة، فيكونَ نصبُ «الأنعام» بفعلٍ مضمَر يفسِّره المذكورُ بعده على طريقةِ الاشتغال؛ والتَّقدير: وخلَق الأنعامَ خلَقها، فيكون الكلامُ مفيدًا للتأكيد لقصدِ تقويةِ الحُكْمِ؛ اهتمامًا بما في الأنعام مِن الفوائد؛ فيكون امتنانًا على المخاطَبين، وتعريضًا بهم؛ فإنَّهم كفَروا نِعْمةَ الله بخَلْقِها، فجعلوا مِن نتاجِها لشركائهم وجعَلوا لله نصيبًا[1].

لمَّا ذكَر خَلْقَ الإنسان، ذكَر ما امتَنَّ به عليه في قِوام معيشته، فذكَر أولًا أكثرَها منافعَ، وألزَمَ لِمَن أُنزِلَ القرآنُ بلُغتِهم، وذلك الأنعام[2].

ثم عقَّب ذِكْرَ خَلْقِ الإنسان بخَلق الأنعام؛ لِما فيها مِن النَّفعِ لهذا النَّوع؛ فالامتنانُ بها أكمَلُ مِن الامتنان بغيرها، فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[3].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞﴾

ثم تلاه بالتَّجمُّل؛ لأنَّه النهايةُ لكونِه للرجال، فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٠٤).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٠٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٧٨).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٠٨).

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾

ولمَّا كانت الأسفارُ بعد ذلك، تلاه بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[١].

ثم أشار إلىٰ فائدةٍ جامعةٍ للحاجة والزينة، فقال: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[٢].

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾

ولمَّا كانت الأنعامُ أكثرَ أموالهم، مع أنَّ منافعَها أكثرُ؛ بدأ بها، ثم ثنَّىٰ بما هو دُونَها، مُرتِّبًا له علىٰ الأشرَفِ فالأشرف، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر منافعَ الحيوانات التي ينتفعُ الإنسان بها في المنافعِ الضَّروريَّة والحاجات الأصليَّة، ذكَر بعده منافعَ الحيوانات التي ينتفع بها الإنسانُ في المنافعِ التي ليست بضروريةٍ، فقال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٤].

ثم أشار إلىٰ ما هو أتَمُّ في دفعِ المشقَّة، وإفادةِ الزِّينة، فقال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٠٩).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٢).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١١٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٧٧).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٢).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

ولمَّا كانوا في أسفارِهم واضطرابهم في المنافعِ بهذه الحيواناتِ وغيرها يَقصِدون أسهَلَ الطُّرق وأقوَمَها وأوصَلَها إلىٰ الغرض، ومَن عدَل عن ذلك كان عندهم ضالًّا، سخيفَ العقل، غيرَ مستحِقٍّ للعَدِّ في عِداد النُّبلاء؛ نبَّههم علىٰ أنَّ ما تقدَّم في هذه السُّورةِ قد بيَّن الطريق الأقوَمَ الموصل إليه سبحانه؛ بتكفُّلِه ببيانِ أنَّه واحدٌ قادر عالِمٌ مختار، وأنَّه هو المُنعِمُ؛ فوجَب اختصاصُه بالعبادة، وأخبَرهم سبحانه أنَّه أوجَب هذا البيانَ علىٰ نفسه فضلًا منه، فقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

جملةٌ معترِضةٌ، اقتضت اعتراضَها مناسبةُ الامتنان بنِعْمةِ تيسير الأسفار بالرواحلِ والخيل والبغالِ والحمير، فلمَّا ذُكِرتْ نِعْمةُ تيسير السَّبيلِ الموصلة إلىٰ المقاصدِ الجثمانية، ارتقىٰ إلىٰ التَّذكيرِ بسبيل الوصول إلىٰ المقاصدِ الرُّوحانيَّة؛ وهو سبيلُ الهدىٰ(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ مِن الحيواناتِ ما يُسار عليه في السُّبلِ الحسيَّة، نبَّه علىٰ الطُّرق المعنويَّة الدِّينيَّة، وكثيرًا ما يقع في القرآنِ العبورُ مِن الأمور الحسيَّة إلىٰ الأمورِ المعنويَّة الدِّينيَّة، ولمَّا ذكَر في هذه السُّورة الحيواناتِ مِن الأنعام وغيرها، التي يَركَبونها، ويبلُغُون عليها حاجةً في صدورهم، وتَحمِل أثقالَهم إلىٰ البلادِ والأماكن البعيدة والأسفارِ الشَّاقة؛ شرَع في ذِكْرِ الطُّرق التي يسلُكُها الناسُ إليه، فبيَّن أنَّ الحقَّ منها ما هي موصلةٌ إليه(٣).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١١١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٠).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ كفيلًا ببيانِ أنَّه الواحدُ المختار، شرَع يوضِّحُ ذلك بتفصيل الآيات إيضاحًا يدَعُه في أتمِّ انكشافٍ في سياق معدِّدٍ للنِّعم، مذكِّرٍ بها، داعٍ إلىٰ شكرِها، فقال بعد ما دلَّ به مِن الإنسان وما يَلِيه في الشَّرف مِن الحيوان، مبتدِئًا بما يَلِيهما في الشَّرف مِن النباتِ الذي هو قِوامُ حياةِ الإنسان، وما به قِوامُ حياته مِن الحيوان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾(١).

استئنافٌ لذِكْرِ دليلٍ آخرَ مِن مظاهرِ بديع خَلْقِ الله تعالىٰ، أُدمج فيه امتنانٌ بما يأتي به ذلك الماءُ العجيب مِن المنافعِ للناس: مِن نِعْمة الشَّراب، ونِعْمةِ الطعام للحيوان الذي به قِوامُ حياةِ الناس، وللناسِ أنفسهم(٢).

ولمَّا كان أشرَفُ أجسامِ العالَم السُّفلي بعد الحيوانِ النباتَ، تأثَّر ما مرَّ مِن الإنعام بالأنعامِ والدَّوابِّ التي يُستدلُّ بها علىٰ وَحْدانيَّته تعالىٰ بذِكْرِ عجائبِ أحوال النبات؛ للحِكْمةِ نفسها، فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾(٣).

لمَّا ذكَر سبحانه ما أنعَم به عليهم مِن الأنعامِ والدَّوابِّ، شرَع في ذِكْرِ نِعْمتِه عليهم في إنزالِ المطر مِن السماء(٤).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١١٣).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١).

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ ﴾

ولمَّا كان الشجرُ عامًّا، شرَع سبحانه يفصِّلُه؛ تنويعًا للنِّعم، وتذكيرًا بالتفاوت؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الفعلَ بالاختيار، فقال مبتدئًا بالأنفعِ في القُوتيَّة والائتدامِ والتَّفكُّه: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ أشرَفَ أجسامِ العالَم السُّفلي بعد الحيوان النباتُ، فلمَّا قرَّر اللهُ تعالىٰ الاستدلالَ علىٰ وجودِ الخالق الحكيم بعجائبِ أحوال الحيوانات، أتبعه في هذه الآيةِ بذِكرِ الاستدلال علىٰ وجود الخالقِ الحكيم بعجائبِ أحوال النبات[2].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾

ولمَّا كان ربما قال بعضُ الضُّلالِ: إنَّ هذه الأشياءَ مستنِدةٌ إلىٰ تأثيرِ الأفلاك، نبَّه علىٰ أنَّها لا تصلُحُ لذلك بكونها متغيِّرةً، فلا بد لها مِن قاهرٍ أثَّر فيها التغيُّر، ولا يزال الأمرُ كذلك إلىٰ أن ينتهيَ إلىٰ واحدٍ فاعلٍ بالاختيار؛ لِما تقرَّر مِن بطلانِ التَّسلسل، فقال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[3].

آياتٌ أخرىٰ علىٰ دقيقِ صُنْعِ الله تعالىٰ وعلمِه، ممزوجةٌ بامتنانٍ[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١١٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٧٩).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٢١).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١١٦).

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ موضعًا للتفكُّرِ المنتِجِ للعلم بوَحْدةِ الخالق واختيارِه، وكان التفكُّرُ في ذلك مذكِّرًا بما بعده مِن سرِّ التفاوت في اللَّون الذي لا يمكِنُ ضبطُ أصنافِه علىٰ التَّحرير، وكان في ذلك تمامُ إبطالِ القول بتأثيرِ الأفلاك والطبائع؛ لأنَّ نِسبتَها إلىٰ جميعِ أجزاء الورقةِ الواحدة والحَبَّةِ الواحدةِ واحدةٌ؛ قال تعالىٰ عطفًا علىٰ الليل: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(1).

ولمَّا نبَّه تعالىٰ علىٰ معالِمِ السماوات، نبَّه علىٰ ما خلَق في الأرضِ مِن الأمورِ العجيبة، والأشياءِ المختلِفة، مِن الحيواناتِ والمعادن والنباتات والجمادات، علىٰ اختلافِ ألوانها وأشكالها، وما فيها مِن المنافع والخواصِّ، بقولِه سبحانه: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(2).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ قُدْرتِه واختيارِه سبحانه دلالةً علىٰ القدرةِ علىٰ كلِّ ما أخبَر به -لا سيَّما الساعة- بخَلْقِ السماوات والأرضِ الذي هو أكبَرُ مِن خَلْقِ الناس، ثم ذكَر بعضَ ما في المكشوف مِن الأرضِ المحيطِ به الهواءُ مِن التفاوت الدالِّ علىٰ تفرُّدِ الخالق واختياره، وختَمه باللَّون؛ أتبَع ذلك بالمغمورِ بالماء الذي لا لَوْنَ له في الحقيقةِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه ضمَّنه مِن المنافعِ والحيوانات -التي لها مِن المقاديرِ، والكيفيَّات، والأشكالِ، والألوانِ البديعةِ التخطيطِ، الغريبةِ الصِّباغ- ما هو

(1) نظم الدرر (١١/ ١٢١).

(2) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٧).

أدَلُّ مِن ذلك، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا احتجَّ علىٰ إثباتِ الإله في المرتبة الأُولىٰ بأجرامِ السَّماوات، وفي المرتبةِ الثانية ببدَنِ الإنسانِ ونفسِه، وفي المرتبةِ الثالثة بعجائبِ خِلْقةِ الحيوانات، وفي المرتبة الرابعة بعجائبِ طبائعِ النبات؛ ذكَر في المرتبةِ الخامسة الاستدلالَ علىٰ وجودِ الخالق بعجائبِ أحوالِ العناصر؛ فبدأ منها بالاستدلالِ بعنصرِ الماء[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ الاستدلالَ بما ذرأ في الأرض، ذكَر ما امتَنَّ به مِن تسخيرِ البحر[3].

ثم نبَّه تعالىٰ ممتنًّا علىٰ تسخيرِه البحرَ وتَعْدادِ النِّعَمِ به إثْرَ امتنانِه بنِعَمِ البرِّ بقولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر الأغوارَ[5] الهابطة الضابطةَ للبحار، أتبَعها الأنجادَ[6] الشِّداد، التي هي كالأوتادِ؛ تذكيرًا بما فيها مِن النِّعم، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[7].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٨٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥١٣).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٧).

(٥) أي: المواضع المنخفضة.

(٦) أي: المواضع المرتفعة.

(٧) نظم الدرر (١١/ ١٢٦).

انتقالٌ إلىٰ الاستدلالِ والامتنان بما علىٰ سطحِ الأرض مِن المخلوقاتِ العظيمة التي في وجودِها لُطفٌ بالإنسان، وهذه المخلوقاتُ لمَّا كانت مجعولةً كالتكملةِ للأرض، وموضوعةً علىٰ ظاهرِ سطحها؛ عبَّر عن خَلْقِها ووضعها بالإلقاء الذي هو رميُ شيءٍ علىٰ الأرض(١).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ ذِكْرُ بعضِ النِّعَمِ التي خلَقها اللهُ تعالىٰ في الأرض(٢).

ثم أردَف هذه النِّعَمَ الموجِبة للتَّوحيد المفيدةَ للاستدلال علىٰ المطلوبِ بنِعْمةٍ أخرىٰ وآيةٍ كبرىٰ، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا كانت الأدلةُ في الأرض غيرَ محصورةٍ فيها، قال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه أظهَرَ في الأرض سُبُلًا مُعيَّنةً، ذكَر أنَّه أظهَرَ فيها علاماتٍ مخصوصةً حتىٰ يتمكَّن المكلَّفُ مِن الاستدلالِ بها، فيَصِلَ بواسطتها إلىٰ مقصودِه، فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٠).
(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٨٩).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٨٤).
(٤) نظم الدرر (١١/ ١٢٧).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٩١).

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ ﴾

ولـمَّا لم يَبْقَ -بذكر الدلائلِ علىٰ الوحدانيةِ علىٰ الوجه الأكملِ، والترتيبِ الأحسنِ، والنظمِ الأبلغِ- شبهةٌ في أن الخالقَ إنما هو اللهُ؛ لِمَا ثبَت مِن وَحْدانيَّته، وتمامِ علمِه وقُدْرته، وكمالِ حِكْمته، لجَعْلِه تلك الدلائلَ نِعَمًا عامةً، ومِنَنًا تامةً، مع اتضاح العَجْزِ في كلِّ ما يدَّعُون فيه الإلهيَّةَ مِن دُونِه، واتضاحِ أنَّه سبحانه في جميعِ صُنْعِه مختارٌ، للمفاوتةِ في الوجود والكيفيَّات بَيْنَ ما لا مقتضىٰ للتفاوتِ فيه غيرُ الاختيار، فثبَت بذلك أنَّه قادرٌ علىٰ الإتيانِ بما يريد؛ قال مسبِّبًا عن ذلك: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[(١)].

بعد أن أُقيمت الدَّلائلُ علىٰ انفراد الله، وثبَتتِ المِنَّةُ، وحَقَّ الشُّكرُ؛ فُرِّع علىٰ ذلك هاتانِ الجملتان لتكونا كالنتيجتينِ للأدلة السابقة؛ إنكارًا علىٰ المشركين؛ فالاستفهامُ عن المساواة إنكاريٌّ؛ أي: لا يستوي مَن يخلُقُ بمَن لا يخلُقُ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الدلائلَ الدالة علىٰ وجودِ القادر الحكيم علىٰ الترتيبِ الأحسَنِ والنَّظْمِ الأكمل، وكانت تلك الدلائلُ كما أنَّها كانت دلائلَ، فكذلك أيضًا كانت شرحًا وتفصيلًا لأنواعِ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ وأقسامِ إحسانه؛ أتبَعه بذِكْرِ إبطالِ عبادةِ غيرِ الله تعالىٰ؛ والمقصود: أنَّه لمَّا دلَّتْ هذه الدلائلُ الباهرة والبيناتُ الزاهرة القاهرة علىٰ وجودِ إلهٍ قادر حكيم، وثبَت أنَّه هو المُولِي لجميعِ هذه النِّعَم، والمعطي لكلِّ هذه الخيرات، فكيف يحسُنُ في العقول الاشتغالُ بعبادةِ موجودٍ سِواه لا سيَّما إذا كان ذلك الموجودُ جمادًا لا يَفهَم ولا يَقدِر؟! فلهذا الوجهِ قال بعد تلك الآياتِ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٩٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما خلَقه مِن المخلوقاتِ العظيمة، وما أنعَم به مِن النِّعَمِ العميمة؛ ذكَر أنَّه لا يُشبِهُه أحدٌ، ولا كُفْءَ له، ولا نِدَّ له، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كانت المقدوراتُ لا تُحصَر، وأكثرُها نِعمٌ على العباد مذكِّرةٌ لهم بخالقهم؛ قال تعالىٰ ممتنًّا عليهم بإحسانه مِن غيرِ سببٍ منهم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

جملةُ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ عطفٌ على جملة ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهي كالتَّكملةِ لها؛ لأنَّها نتيجةٌ لِما تضمَّنته تلك الأدلةُ مِن الامتنانِ كما تقدَّم، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ للامتنان؛ لأنَّ فيها عمومًا يَشمَل النِّعَمَ المذكورة وغيرَها، وهذا كلامٌ جامعٌ للتَّنبيه على وفرةِ نِعَمِ الله تعالىٰ علىٰ الناس بحيث لا يستطيع عَدَّها العادُّون، وإذا كانت كذلك، فقد حصَل التَّنبيهُ إلىٰ كثرتها بمعرفة أصولها، وما يحويها مِن العوالم، وفي هذا إيماءٌ إلىٰ الاستكثارِ مِن الشُّكر علىٰ مُجمَلِ النِّعم، وتعريضٌ بفظاعةِ كُفْرِ مَن كفَروا بهذا المُنعِمِ، وتغليظُ التَّهديد لهم[3].

لمَّا ذكَر نِعَمًا سابقة، أخبَر أنَّ جميعَ نِعَمِه لا يُطيقون عَدَّها[4].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣٧).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٢٣).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥١٦).

ثم نبَّه ﷻ على كثرةِ نِعَمِه عليهم، وإحسانِه بما لا يُحصَى؛ إشارةً إلى أنَّ حَقَّ عبادتِه غيرُ مقدورٍ، بقولِه تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١).

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ ﴾ تذكيرٌ إجماليٌّ لنِعَمِه تعالى بعد تَعْداد طائفةٍ منها(٢).

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ ﴾

ولمَّا جرَتِ العادةُ بأنَّ المكفورَ إحسانُه يبادر إلى قَطْعِه عند علمِه بالكفر، فكان ربما توهَّم متوهِّمٌ أنَّ سببَ مواتَرةِ الإحسان عدمُ العلمِ بالكفران، أو عدمُ العلم بكفرانٍ لا يدخُلُ تحت المغفرةِ؛ قال مهدِّدًا مبرِزًا للضَّمير بالاسمِ الأعظم الذي بُنِيتْ عليه السُّورةُ للفصل بالفَرْقِ بَيْنَ الخالقِ وغيرِه، ولئلا يُتوهَّمَ تقيُّدُ التَّهديد بحيثيَّة المغفرة؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك نتيجةُ ما مضى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾(٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾؛ فبعد أن أثبَتَ أنَّ اللهَ منفرِدٌ بصفة الخَلْقِ دُونَ غيرِه بالأدلةِ العديدة، انتقَل هنا إلى إثباتِ أنَّه منفرِدٌ بعموم العلم(٤).

ثم بيَّن لعباده بأنَّه عالِمٌ بجميعِ ما يصدُرُ منهم، لا تَخفَى عليه منه خافيةٌ، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾(٥).

وكما أنَّ رَحْمتَه واسعةٌ وجُودَه عميمٌ ومغفرتَه شاملةٌ للعباد؛ فعِلْمُه محيطٌ بهم(٦).

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٦٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٠٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٣٠-١٣١).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٢٤).

(٥) فتح القدير (٣/ ١٨٦).

(٦) تفسير السعدي (١/ ٤٣٧).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ ﴾

ولمَّا أثبَت لنفسِه تعالىٰ كمالَ القدرة، وتمامَ العلم، وأنَّه المنفرِد بالخَلق؛ شرَع يُقيمُ الأدلةَ علىٰ بُعْدِ ما يشركونه به مِن الإلهيَّةِ بسَلْبِ تلك الصفاتِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾[(١)].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ شروعٌ في تحقيقِ كونِ الأصنام بمَعزِلٍ مِن استحقاقِ العبادة، وتوضيحِه بحيث لا يَبقَىٰ فيه شائبةُ ريبٍ؛ بتعديدِ أوصافها، وأحوالِها المنافيةِ لذلك منافاةً ظاهرةً، وتلك الأحوالُ وإن كانت غنيَّةً عن البيان، لكنَّها شُرِحتْ للتَّنبيهِ علىٰ كمالِ حماقة عبَدتِها، وأنَّهم لا يَعرِفون ذلك إلا بالتَّصريح[(٢)].

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ ﴾

ولمَّا كان مِن المخلوقاتِ الميِّتُ والحيُّ، وكان الميتُ أبعَدَ شيءٍ عن صفةِ الإله؛ قال نافيًا عنها الحياةَ -بعد أن نفَىٰ القدرةَ والعلم- المستلزِمَ لأن يكونَ عبَدتُها أشرَفَ منها، المستلزِمَ لأنَّهم بخضوعِهم لها في غاية السَّفَهِ: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ تصريحٌ بما استُفيد مِن جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ بطريقةِ نفيِ الشَّيء بنفيِ ملزومِه[(٤)].

ثم ذكَر صفةً أخرىٰ مِن صفاتهم، فقال: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٣١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٠٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٢٥).

(٥) فتح القدير (٣/ ١٨٧).

ثم أكَّد ذلك بأنْ أثبَتَ لهم ما ينافي الألوهيَّةَ بقولِه: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت أدلةُ البعثِ قد ثبَت قيامُها، واتَّضحت أعلامُها، وعلا منارُها، وانتشرت أنوارُها؛ ساقَ الكلامَ فيها مساقَ ما لا خلافَ إلا في العلم بوقتِه مع الاتفاقِ على أصله؛ لأنَّه مِن لوازمِ التَّكليف، ولمَّا اتضَح بذلك كلِّه عَجْزُ شركائهم، أشار إلى أنَّ منشأَ العَجْزِ قَبولُ التَّعدُّد؛ إرشادًا إلى برهانِ التَّمانع، فقال على طريقِ الاستئناف؛ لأنَّه نتيجةُ ما مضى قطعًا: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[2].

استئنافُ نتيجةٍ لحاصلِ المُحاجَّة الماضية؛ أي: قد ثبَت بما تقدَّم إبطالُ إلهيَّةِ غيرِ الله، فثبَت أنَّ لكم إلهًا واحدًا لا شريكَ له، ولكونِ ما مضى كافيًا في إبطالِ إنكارهم الوَحْدانيَّةَ، عَرِيَتِ الجملةُ عن المؤكِّد؛ تنزيلًا لحالِ المشركين بعد ما سَمِعوا مِن الأدلة منزلةَ مَن لا يُظَنُّ به أنَّه يَتردَّد في ذلك[3].

ولمَّا ذكَر تعالى ما اتصَفتْ به آلهتُهم بما ينافي الألوهيَّةَ، أخبَر تعالى أنَّ إلهَ العالَمِ هو واحدٌ لا يَتعدَّد ولا يَتجزَّأ، وأنَّ الذين لا يؤمنون بالجزاءِ بعد وضوحِ بطلانِ أن تكونَ الإلهيَّةُ لغيره، بل له وَحْده: هم مستمِرُّون على شِرْكِهم، منكِرون وَحْدانيَّتَه، مستكبِرون عن الإقرارِ بها؛ لاعتقادِهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم، وتكبُّرِها في الوجود[4].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٥٧).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٢٧).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥١٨).

لمَّا زيَّف سبحانه طريقةَ عبدةِ الأوثان، صرَّح بما هو الحقُّ في نفسِ الأمر، فقال: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾(١).

لمَّا بيَّن استحالةَ الإشراك بالله تعالىٰ، بيَّن أنَّ المعبودَ واحدٌ لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سِواه(٢).

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كانوا -لكونِ الإنسانِ أكثَرَ شيء جدَلًا- ربما أنكَروا الاستكبارَ، وادَّعَوْا أنَّه لو ظهَر لهم الحقُّ لأنابوا؛ قال علىٰ طريقِ الجواب لِمَن كأنَّه قال: إنَّهم لا يأبَوْنَ استكبارًا ما لا يشُكُّون معه في أنَّ هذا كلامُ الله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾(٣).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الطعنُ في القرآن -بما ثبَت مِن عَجْزِهم عن معارَضته- دليلَ الاستكبار؛ قال تعالىٰ -عاطفًا علىٰ قوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾-: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(٤).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ لأنَّ مضمونَ هذه مِن أحوالهم المتقدِّمِ بعضُها؛ فإنَّه ذكَر استكبارَهم وإنكارَهم الوَحْدانيَّةَ، وأتبَع بمعاذيرِهم الباطلة لإنكارِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وبصَدِّهم الناسَ عن اتباع الإسلام(٥).

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٨٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٩٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٣٤).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٣٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بالَغ في تقريرِ دلائلِ التوحيد، وأورَد الدلائلَ القاهرة في إبطالِ مذاهبِ عبَدةِ الأصنام؛ ذكَر بعد ذلك شُبهاتِ منكِري النُّبوَّة مع الجواب عنها(١).

﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ ﴾

ولمَّا كان الكتابُ هو الصراطَ المستقيم المُنقِذَ مِن الهلاك، وكان قولُهم هذا صَدًّا عنه، فكان -مع كونِه ضَلالًا- إضلالًا، ومِن المعلوم أنَّ مَن ضَلَّ كان عليه إثمُ ضَلاله، ومَن أضَلَّ كان عليه وِزْرُ إضلالِه، هذا ما لا يَخفَىٰ علىٰ ذي عقلٍ صحيح، فلمَّا كان هذا بيِّنًا، وكانوا يَدَّعُون أنَّهم أبصَرُ الناسِ بالخفيَّات، فكيف بالجليَّاتِ؛ حسُنَ جدًّا قولُه: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ شُبَهَهم، قال: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ اللامُ في ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ ﴾ لامُ العاقبة؛ وذلك لأنَّهم لم يَصِفوا القرآنَ بكونِه أساطيرَ الأوَّلين لأجلِ أن يَحمِلوا الأوزارَ، ولكن لمَّا كانت عاقبتُهم ذلك، حسُنَ ذِكْرُ هذه اللامِ(٣).

﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ﴾

ولمَّا كان المرادُ مِن هذا الاستكبارِ مَحْوَ الحقِّ وإخفاءَ أمرِه مِن غيرِ تصريحٍ بالعناد، بل مع إقامةِ شُبَهٍ ربما راجت -وإن اشتَدَّ ضَعْفُها- علىٰ عقولٍ هي أضعَفُ منها؛ شرَع يهدِّدُ الماكرين، ويحذِّرُهم وقوعَ ما وقَع بمَن كانوا أكثَرَ منهم عَدَدًا، وأقوىٰ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٩٧).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٩٧).

يدًا، ويُرجِّي المؤمنين في نَصْرِهم عليهم، بما له مِن عظيمِ القوَّة، وشديدِ السَّطوة، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١).

لمَّا ذكَر عاقبةَ إضلالهم وصَدِّهم السائلين عن القرآنِ والإسلام في الآخرة، أتبَع بالتهديد بأن يقعَ لهم ما وقَع فيه أمثالُهم في الدُّنيا مِن الخِزْيِ والعذاب مع التأييسِ مِن أن يبلُغوا بصُنْعِهم ذلك مَبلَغَ مرادهم، وأنَّهم خائبون في صُنْعِهم كما خاب مِن قبلِهم الذين مكَروا برُسُلِهم(٢).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن الآية المبالَغةُ في وصفِ وعيدِ أولئك الكفار(٣).

ثم حكىٰ سبحانه حالَ أضرابهم مِن المتقدِّمين، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٤).

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ المكرةِ المتمرِّدين عليه في الدُّنيا، أخذ يذكُرُ حالَهم في الآخرة تقريرًا للآخرة، وبيانًا لأنَّ عذابَهم غيرُ مقصورٍ علىٰ الدُّنيوي، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٣٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٩٨).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٨٨).

(٥) نظم الدرر (١١/ ١٤١).

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ عطف على ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ ذلك وعيدٌ لهم، وهذا تكملةٌ له[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ عذابَهم لا يكون مقصورًا علىٰ هذا القَدْرِ؛ بل اللهُ تعالىٰ يُخزِيهم يومَ القيامة، والخِزْيُ هو العذابُ مع الهوانِ[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم رغَّبهم في التوبة بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

فبعد أن ذُكِر حالُ حلولِ العذاب بمَن حلَّ بهم الاستئصالُ، وما يحُلُّ بهم يومَ القيامة؛ ذُكِرتْ حالةُ وفاتِهم التي هي بَيْنَ حالَيِ الدُّنيا والآخرة، وهي حالٌ تَعرِضُ لجميعِهم، سواءٌ منهم مَن أدركه الاستئصالُ ومَن هلَك قبل ذلك[(٤)].

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا الفعلُ مع هذا العلمِ سببًا لدخول جهنَّمَ مِن غيرِ أن يُقامَ لهم وزنٌ؛ لأنَّه لا وَزْنَ لِما ضُيِّعَ أساسُه؛ قال معقِّبًا مسبِّبًا: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ١٩٩).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٣٨).

(٥) نظم الدرر (١١/ ١٤٥).

ولمَّا أكذَبوهم مِن دعواهم، أخبَروا أنَّه هو العالِمُ بأعمالهم؛ فهو المُجازي عليها، ثم أمَروهم بالدخول[(١)].

ثــم صــرَّح بــذِكْرِ العقــاب، فقــال: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[(٢)].

﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾

ولمَّا تَمَّ الخبَرُ عن المنكِرِ لِما أنزَل اللهُ على ألسنةِ الملائكة مِن الرُّوحِ مِن أمرِه على الأنبياءِ عليهم السلام إنكارًا لفضلِهم، وتكبُّرًا بما ليس لهم، بالاعتراضِ على خالقهم؛ ابتدأ الخبَرَ عن المُقِرِّينَ تصديقًا لهُداتِهم، واعترافًا بفضلهم، وتسليمًا لِمَن هم عبيدُه في تفضيلِ مَن يشاء، منبِّهًا على الوصفِ الذي أوجَب لهم الاعترافَ بالحق، فقال حاذفًا لـ«إذا» دلالةً على الرِّضا بأيسَرِ شيءٍ مِن الخيرِ والمدح عليه ولو لم يتكــرَّرْ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[(٣)].

لمَّا افتُتِحت صفةُ سيِّئاتِ الكافرين وعواقبِها بأنَّهم إذا ﴿قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، جاءت هنا مقابَلةُ حالهم بحالِ حسنات المؤمنين، وحُسْنِ عواقبها، فافتُتِح ذلك بمقابِلِ ما افتُتِحت به قصَّةُ الكافرين؛ فجاء النظيرُ بَيْنَ القصَّتَينِ في أبدَعِ نَظْمٍ[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٥٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٤١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أحوالَ الأقوام الذين ﴿قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وذكَر أنَّهم يَحمِلون أوزارَهم ومِن أوزارِ أتباعهم، وذكَر أنَّ الملائكةَ تَتوفَّاهم ظالِمِي أنفسِهم، وذكَر أنَّهم في الآخرة يُلقُون السَّلَمَ، وذكَر أنَّه تعالىٰ يقول لهم: ادخلوا أبوابَ جهنَّمَ؛ أتبَعه بذِكْرِ وصفِ المؤمنين الذين إذا قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾، وذكرِ ما أعَدَّه لهم في الدُّنيا والآخرةِ مِن منازلِ الخيرات، ودرجاتِ السَّعادات؛ ليكونَ وعدُ هؤلاء مذكورًا مع وعيدِ أولئك[1].

ثم أتبَع أوصافَ الأشقياءِ بأوصاف السُّعداء، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١)﴾

ولمَّا كان هذا المدحُ مشوِّقًا لتفصيلِ ذلك، قيل: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾

ثم حَثَّ علىٰ ملازمةِ التقوىٰ بالتَّنبيهِ علىٰ أنَّ العِبْرةَ بحالِ الموت، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) فتح القدير (٣/ ١٩١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٤٧).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٤٨).

الآية مقابِلُ قولِه في أضدادهم: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، فما قيل في مقابِلِه يقالُ فيه[(١)].

ثم إنَّه تعالىٰ عادَ إلىٰ وصفِ المتَّقِينَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾[(٢)].

ثم أخبَر تعالىٰ عن حالِهم عند الاحتضار، في مقابَلةِ أولئك، بقولِه سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن أحوالِ الكفار السائلين في نزولِ الملائكة بعد أن وهَّىٰ شُبَهَهم، وأخبَر عن تَوفِّي الملائكةِ لهم ولأضدادِهم المؤمنين، مشيرًا بذلك إلىٰ أنَّ سُنَّته جرَتْ بأنَّهم لا يَنزِلون إلا لإنزالِ الرُّوحِ مِن أمرِه علىٰ مَن يَختصُّه لذلك، أو لأمرٍ فَيْصَلٍ لا مُهْلةَ فيه؛ قال منكِرًا عليهم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[(٤)].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن جملة ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ لأنَّها تُثِيرُ سؤالَ مَن يسأل عن إبَّانِ حلولِ العذاب علىٰ هؤلاء كما حَلَّ بالذين مِن قبلِهم، فقيل: ما ينظُرون إلا أحدَ أمرينِ؛ هما: مجيءُ الملائكة لقبضِ أرواحهم، فيَحِقُّ عليهم الوعيدُ المتقدِّم. أو أن يأتيَ أمرُ الله؛ والمرادُ به: الاستئصالُ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٢).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٦٦).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٤٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٤ / ١٤٥).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهةُ الثانية لمنكِري النُّبوَّةِ؛ فإنَّهم طلبوا مِن النبيِّ ﷺ أن يُنزِّلَ اللهُ تعالىٰ ملكًا مِن السماء يَشهَد علىٰ صِدْقِه في ادعاءِ النُّبوَّة، فقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ في التصديق بنبوَّتِك ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ شاهِدِينَ بذلك. ويحتملُ أن يقالَ: إنَّ القومَ لمَّا طعَنوا في القرآنِ بأن قالوا: إنَّه أساطيرُ الأوَّلين، وذكَر اللهُ تعالىٰ أنواعَ التهديدِ والوعيد لهم، ثم أتبعَه بذِكْرِ الوعد لِمَن وصَف القرآنَ بكونه خيرًا وصِدْقًا وصوابًا؛ عاد إلىٰ بيانِ أنَّ أولئك الكفارَ لا ينزجرون عن الكفرِ بسبب البياناتِ التي ذكَرْناها؛ بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوالِ الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكةُ بالتهديد، وأتاهم أمرُ ربِّك؛ وهو عذابُ الاستئصال(١).

ثم أشار إلىٰ تقريعِ المشركين وتهديدِهم علىٰ تَماديهم في الباطلِ واغترارِهم بالدُّنيا بقولِه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فتسبَّب عن ظُلْمِهم لأنفسهم أن أصابهم ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٣).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا تمَّ ما هو عجَبٌ مِن مقالِهم ومآلِهم في سُوءِ أحوالِهم، وختَم بتهديدِهم؛ عطَف علىٰ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ موجِبًا آخَرَ للتهديد، معجِّبًا مِن

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٣).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٦٦).
(٣) نظم الدرر (١١/ ١٥٠).

حالهم فيه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

عطفُ قصَّةٍ على قصَّةٍ؛ لحكايةِ حالٍ مِن أحوال شُبُهاتهم ومكابَرتهم، وبابٍ مِن أبوابِ تكذيبِهم[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهة الثالثة لمنكِري النُّبوَّة[3].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾

ولمَّا كان جَمْعُ الرُّسلِ مُفهِمًا لتوزيعهم على الأُمَمِ، كان موضعَ توقُّعِ التَّصريح بذلك، فقال - دافعًا لكَرْبِ هذا الاستشرافِ، نافيًا لطروقِ احتمال، دالًّا على أنَّ هذا القولَ السابق منصبٌّ إنكارُه بالذات إلى اعتراضِهم على الإرسال، ومسلِّيًا لنبيِّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحاثًّا لهم على الاعتبار، عطفًا على ما تقديرُه: فلقد بعَثْناك في أمَّتِك هذه لأن يعبُدوا اللهَ وَحْدَه، ويَجتنبوا الطاغوتَ؛ فمنهم مَن هدَيْنا، ومنهم مَن حَقَّتْ عليه الضلالةُ؛ فكان مِن غيرِ شكٍّ بعضُهم مُرضِيًا لله، وبعضُهم مُغضِبًا له؛ فإنَّه لا يكون حُكْمُ المتنافِيَينِ واحدًا أبدًا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4].

(١) نظم الدرر (١١/ ١٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٤٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٤) نظم الدرر (١١/ ١٥٨).

عطفٌ على جملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، وهو تكملةٌ لإبطالِ شُبْهةِ المشركين إبطالًا بطريقةِ التفصيل بعد الإجمال لزيادةِ تقرير الحُجَّة؛ فقولُه تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ بيانٌ لمضمونِ جملةِ ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾، وجملةُ ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ إلىٰ آخِرها بيانٌ لمضمونِ جملة ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾[(١)].

لمَّا قال: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾، بيَّن ذلك هنا بأنَّه بعَث الرُّسلَ بعبادتِه، وتجنُّبِ عبادةِ غيره؛ فمنهم مَن اعتبَر فهَدَاه الله، ومنهم مَن أعرَض وكفَر، ثم أحالهم في معرفةِ ذلك علىٰ السَّيرِ في الأرض واستقراءِ الأُمَم، والوقوفِ علىٰ عذاب الكافرين المكذِّبين[(٢)].

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ تحقيقٌ لكيفيَّةِ تعلُّقِ مشيئته تعالىٰ بأفعالِ العباد بعد بيانِ أنَّ الإلجاءَ ليس مِن وظائفِ الرسالة، ولا مِن باب المشيئةِ المتعلِّقة بما يدور عليه الثوابُ والعقاب مِن الأفعالِ الاختياريَّة لهم[(٣)].

﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧ ﴾

ولمَّا كان المحقَّقُ أنَّه ليس بعد الإيصالِ في الاستدلال إلىٰ الأمرِ المحسوس إلا العنادُ، أعرَض عنهم ملتفِتًا إلىٰ الرؤوفِ بهم، الشفيقِ عليهم، فقال مسلِّيًا له صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٤٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٢٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٠٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٥٩).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تقسيمَ كلِّ أمَّةٍ ضالَّةٍ إلىٰ مهتدٍ منها وباقٍ علىٰ الضَّلال يُثِيرُ سؤالًا في نفسِ النبي ﷺ عن حالِ هذه الأمَّةِ: أهو جارٍ علىٰ حال الأُمَمِ التي قبلها، أو أنَّ اللهَ يَهديهم جميعًا؟ وذلك مِن حرصِه علىٰ خيرِهم، ورأفتِه بهم؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه مع حرصِه علىٰ هُداهم، فإنَّهم سيبقَىٰ منهم فريقٌ علىٰ ضَلالةٍ(١).

ثم خاطَب نبيَّه ﷺ وأعلَمَه أنَّ مَن حتَم عليه بالضَّلالةِ لا يُجدي فيه الحرصُ علىٰ هدايتِه(٢).

ثم خصَّص الخطابَ برسوله ﷺ مُؤكِّدًا لِما تقدَّم، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾(٣).

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان مِن حقِّهم -بعد قيامِ الأدلة علىٰ كمالِ قُدْرته، وشمولِ علمه، وبلوغِ حِكْمتِه في إبداع جميعِ المخلوقات ممَّا نَعلَم وما لا نَعلَم علىٰ أبدَعِ ترتيبٍ، وأحسَنِ نظامٍ- تصديقُ الهُداةِ في إعلامهم بأنَّه سبحانه يُعِيدُهم للبعث، وأنَّهم لم يَفعَلوا، ولا طرقوا لذلك احتمالًا؛ بل حلَفوا علىٰ نفيِه مِن غير شُبْهةٍ عرَضتْ لهم، ولا إخبارٍ عن علمٍ وصَل إليهم؛ فِعْلَ الجِلْفِ الجافي، الغبيِّ العاسي: أتبَع ذلك سبحانه تعجيبًا آخَرَ مِن حالهم، فقال -عاطفًا علىٰ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ لأنَّ كلًّا مِن الجملتين لبيانِ تكذيبِهم الرُّسلَ، والتَّعجيبِ منهم في ذلك، دالًّا علىٰ أنَّ اعتقادَهم مضمونَ هذه

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٥١).
(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٢٨).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٩٤).

الجملةِ هو الذي جرَّأهم على قولِ الأُولى وما تفرَّع منها-: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

انتقالٌ لحكايةِ مقالةٍ أخرىٰ مِن شنيعِ مقالاتهم في كفرِهم، واستدلالٌ مِن أدلة تكذيبِهم الرسولَ ﷺ فيما يُخبِرُ به إظهارًا لدَعْوتِه في مظهرِ المُحال؛ وذلك إنكارُهم الحياةَ الثانية والبعثَ بعد الموت[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهة الرابعة لمنكِري النُّبوَّة[3].

ثم بيَّن تعالىٰ نوعًا آخَرَ مِن أباطيلهم -وهو إنكارُهم البعثَ- بقولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه لا بد مِن ذلك لسَبْقِ الوعدِ به مِن القادر، بيَّن حِكْمتَه بأمرٍ مبينٍ أنَّه لا يسُوغُ تركُه بوجهٍ، وهو أنَّه لا يجوز في عقلِ عاقلٍ أنَّ أحدًا مَلِكًا فما دُونَه يأمر عبيدَه بشيءٍ ثم يُهمِلُهم فلا يَسألهم، ولا سيَّما إن اختلَفوا، ولا سيَّما إن أدىٰ اختلافُهم إلىٰ المقاطَعة والمقاتَلة، فكيف إن كان حاكمًا؟ فكيف إذا كان حكيمًا؟ فكيف وهو أحكَمُ الحاكمين؟! فقال معلِّقًا بما دلَّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٦١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٥٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٦).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٣).

(٥) نظم الدرر (١١/ ١٦٢-١٦٣).

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ تعليلٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ لقصدِ بيان حِكْمةِ جَعْلِه وعدًا لازمًا لا يَتخلَّف؛ لأنَّه منُوطٌ بحِكْمةٍ، واللهُ تعالىٰ حكيمٌ، لا تجري أفعالُه علىٰ خلاف الحِكْمةِ التامة؛ أي: جعَل البعثَ ليبيِّنَ للناس الشيءَ الذي يَختلفون فيه مِن الحقِّ والباطل، فيَظهَر حَقُّ المُحِقِّ، ويَظهَر باطلُ المُبطِل في العقائدِ ونحوِها مِن أصول الدِّين، وما أُلحِقَ بها(١).

ثم بيَّن السَّببَ الذي لأجلِه كان وعدًا حقًّا علىٰ الله تعالىٰ؛ وهو التَّمييز بَيْنَ المطيع وبين العاصي، وبَيْنَ المُحِقِّ والمُبطِل، وبَيْنَ الظالم والمظلوم؛ وهو قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾(٢).

ثم ذكَر حِكْمتَه تعالىٰ في المَعاد، وحَشْرِ الأجساد يومَ التَّناد، بقولِه سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾(٣).

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا بيَّن تحتُّمَه وحِكْمته، بيَّن إمكانَه ويُسْرَه عليه، وخِفَّتَه لديه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤).

هذه الجملة متَّصلةٌ بجملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ جهلَهم بمدىٰ قدرةِ الله تعالىٰ هو الذي جرَّأهم علىٰ إنكارِ البعث، واستحالتِه عندهم؛ فهي

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٧).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٣).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٦٣).

بيانٌ للجملة التي قبلها؛ ولذلك فُصِلتْ، ووقَعتْ جملةُ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إلىٰ آخرِها اعتراضًا بَيْنَ البيان والمبيَّن(١).

ثم بيَّن عظيمَ قُدْرته، وأنَّه لا يُعجِزُه شيءٌ ما، بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ تفصيلًا لفريقَيِ المبيَّنِ لهم وترغيبًا في الهجرة؛ لأنَّها بعد الإيمانِ أوثَقُ عُرَىٰ الإسلامِ: فالذين كفَروا واغترُّوا بما شاهَدوه مِن العَرَضِ الفاني لنُخزِيَنَّهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولنُجازِيَنَّهم بجميعِ ما كانوا يعملون؛ عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

لمَّا ثبَتتْ حِكْمةُ البعث بأنَّها تبيينُ الذي اختلَف فيه الناسُ مِن هُدًىٰ وضلالة، ومِن ذلك أن يَتبيَّنَ أنَّ الذين كفَروا كانوا كاذبين يُعلَم منه أنَّه يتبين بالبعث أنَّ الذين آمَنوا كانوا صادقين بدلالةِ المضادَّة، وأنَّهم مُثابُون ومُكرَمون، فلمَّا عُلِم ذلك مِن السِّياقِ، وقَع التَّصريحُ به في هذه الآية(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٥-١٥٦).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٤).
(٣) نظم الدرر (١١/ ١٦٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن الكفار أنَّهم أقسَموا بالله جَهْدَ أيمانِهم علىٰ إنكارِ البعث والقيامة، دلَّ ذلك علىٰ أنَّهم تمادَوْا في الغَيِّ، والجهل، والضَّلال، وفي مثلِ هذه الحالةِ، لا يبعُدُ إقدامُهم علىٰ إيذاءِ المسلمين وضرِّهم، وإنزالِ العقوبات بهم، وحينئذٍ يَلزمُ علىٰ المؤمنين أن يهاجِروا عن تلك الديارِ والمساكن، فذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ حُكْمَ تلك الهجرةِ، وبيَّن ما لهؤلاء المهاجِرين مِن الحسناتِ في الدُّنيا، والأجرِ في الآخرة مِن حيث هاجَروا، وصبَروا، وتوكَّلوا علىٰ الله؛ وذلك ترغيبٌ لغيرِهم في طاعة الله تعالىٰ[1].

ثم أخبَر تعالىٰ عن جزائه للمهاجِرين الذين فارَقوا الدارَ والأهل والخُلَّانَ؛ رجاءَ ثوابِه، وابتغاءَ مرضاتِه، بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا نبَّه علىٰ إحسانِه إليهم، وكان فيه مِن أولِ الأمر نوعُ غموضٍ لظهورِ الكفَرةِ في بادي الرأي؛ وصَفهم بما يحتاجُ إليه في الاستجلابِ لتمامه حثًّا وإلهابًا، فقال تعالىٰ -واصفًا للمهاجِرين؛ بيانًا لأصلِ ما حمَلهم علىٰ ما استحَقُّوا به هذا الأجرَ الجزيل-: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

ثم وصَفهم تعالىٰ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٠٩).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٥).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه بعَث الرُّسلَ، وكان عاقبةَ مَن كذَّبهم الهلاكُ، بدلالةِ آثارهم، وكانوا قد قدَحوا في الرسالة بكونِ الرسول بشَرًا، ثم بكونه ليس معه مَلَكٌ يؤيِّده؛ رَدَّ ذلك بقولِه -مخاطِبًا لأشرَفِ خَلْقِه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم؛ لكونِه أفهَمَهم عنه، مع أنَّه أجَلُّ مَن توكَّل وصبَر، عائدًا إلىٰ مظهرِ الجلال بيانًا لأنَّه يُظهِر مَن يشاء علىٰ مَن يشاء-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(1).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهة الخامسة لمنكِري النُّبوَّة، كانوا يقولون: اللهُ أعلىٰ وأجَلُّ مِن أن يكونَ رسولُه واحدًا مِن البشَرِ، بل لو أراد بَعْثةَ رسولٍ إلينا، لكان يَبعَث مَلَكًا؛ فأجاب اللهُ تعالىٰ عن هذه الشُّبهةِ بقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(2).

ولمَّا عَجِبوا مِن إيحاءِ الله لرسوله، واصطفائِه برسالته؛ قيل في دَرْءِ شُبْهتِهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(3).

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾

لمَّا كانت رُسُلُ الملوك تقترن بما يُعرِّف بصِدْقِهم، قال -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: بأيِّ دلالةٍ أُرسِلوا؟-: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾(4).

---

(1) نظم الدرر (11/ 166).

(2) مفاتيح الغيب (19/ 210).

(3) محاسن التأويل (6/ 375).

(4) نظم الدرر (11/ 167).

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا نبَّه سبحانه علىٰ التَّفكُّر، وكان داعيًا للعاقلِ إلىٰ تجويزِ الممكن، والبُعْدِ مِن الخطر؛ سبَّب عنه إنكارَ الأمنِ مِن ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

بعد أن ذُكِرتْ مَساوئُهم ومكايدُهم، وبعد تهديدِهم بعذابِ يوم البعث تصريحًا وبعذابِ الدُّنيا تعريضًا؛ فُرِّع علىٰ ذلك تهديدُهم الصَّريح بعذابِ الدُّنيا بطريقِ استفهام التَّعجيب مِن استرسالهم في المعانَدةِ غيرَ مقدِّرين أن يقعَ ما يهدِّدُهم به اللهُ علىٰ لسانِ رسوله ﷺ، فلا يُقلِعون عن تدبيرِ المكرِ بالنبي ﷺ، فكانت حالُهم في استرسالهم كحالِ مَن هم آمِنون بأسَ الله؛ فالاستفهامُ مستعمَلٌ في التَّعجيب المَشُوبِ بالتَّوبيخ[2].

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر في تهديدِهم أمورًا: الأول: أن يَخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ كما خسَف بقارونَ. الثاني: أن يأتيَهم العذابُ مِن حيث لا يشعُرون؛ والمراد: أن يأتيَهم العذابُ مِن السماء مِن حيث يَفجَؤُهم، فيُهلِكهم بَغْتةً كما فعَل بقومِ لوطٍ. والثالث: أن ﴿يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٦٥).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٦٩).

ثم بيَّن سبحانه صورةً أخرىٰ مِن صُوَرِ الإهلاك بقولِه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

📖 ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ 📖

لمَّا كانت هذه الأحوالُ الثلاثة السابقة في حالِ أمنِهم مِن العذاب، ذكَر الحالَ الرابعة في حالِ خوفِهم مِن العذاب، فقال تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

📖 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ 📖

ولمَّا خوَّفهم، دلَّ علىٰ تمامِ قُدْرتِه علىٰ ذلك وغيرِه بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[١].

بعد أن نهَضتْ براهينُ انفرادِه تعالىٰ بالخَلْقِ بما ذكَر مِن تَعْدادِ مخلوقاته العظيمة، جاء الانتقالُ إلىٰ دلالةٍ مِن حالِ الأجسام التي علىٰ الأرض كلِّها مُشعِرةً بخضوعها لله تعالىٰ خضوعًا مقارِنًا لوجودها، وتقلُّبِها آنًا فآنًا، عَلِم بذلك مَن عَلِمه، وجَهِله مَن جَهِله، وأنبأ عنه لسانُ الحال بالنسبةِ لِما لا عِلْمَ له، وهو ما خلَق اللهُ عليه النظام الأرضيَّ خَلْقًا يَنطِقُ لسانُ حالِه بالعبودية لله تعالىٰ، وذلك في أَشَدِّ الأعراض ملازَمةً للذوات، ومطابَقةً لأشكالها؛ وهو الظِّل[٢].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٦٨).

لمَّا ذكَر تعالىٰ قُدْرتَه علىٰ تعذيبِ الماكرين، وإهلاكِهم بأنواعٍ مِن الأخذ؛ ذكَر تعالىٰ طواعيَةَ ما خلَق مِن غيرِهم وخضوعَه ضدَّ حالِ الماكرين؛ لينبِّهَهم علىٰ أنَّه ينبغي بل يجبُ عليهم أن يكونوا طائعينَ منقادينَ لأمرِه(١).

لمَّا خوَّف المشركين بالأنواعِ الأربعة المذكورة مِن العذاب، أردَفه بذِكْرِ ما يدلُّ علىٰ كمالِ قُدْرتِه في تدبيرِ أحوال العالَمِ العُلْوي والسُّفْلي، وتدبيرِ أحوالِ الأرواح والأجسام؛ ليظهرَ لهم أنَّ مع كمالِ هذه القدرةِ القاهرة والقوَّةِ الغيرِ المتناهية لا يَعجِزُ عن إيصالِ العذاب إليهم علىٰ أحدِ تلك الأقسامِ الأربعة(٢).

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

لمَّا ذُكِر في الآيةِ السابقة السجودُ القَسْريُّ، ذُكِر بعده هنا سجودٌ آخَرُ: بعضُه اختيار، وفي بعضِه شِبْهُ اختيار(٣).

ولمَّا حكَم علىٰ الظِّلالِ بما عَمَّ أصحابَها مِن جمادٍ وحيوان، وكان الحيوانُ أشرَفَ مِن الجماد؛ رقَّىٰ الحُكْمَ إليه بخصوصه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٤).

ثم بيَّن سجودَ سائرِ المخلوقات، سواءٌ كانت لها ظِلالٌ أم لا، بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٥).

(١) البحر المحيط (٦/ ٥٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢١٢).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٧).

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ٥٠ ﴾

ثم علَّل خضوعَهم بقولِه -دلالةً على أنَّهم كغيرهم في الوقوف بَيْنَ الخوف والرجاء-: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾(٢).

لمَّا مدَحهم بكثرةِ الطاعة والخضوعِ لله، مدَحهم بالخوف مِن الله الذي هو فَوْقَهم بالذاتِ والقهر، وكمالِ الأوصاف؛ فهم أذلَّاءُ تحت قهرِه(٣).

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ ﴾

ولمَّا كان التوحيدُ أعظَمَ المأمورات، وكان العصيانُ فيه أعظَمَ العصيان، وكان سبحانه قد أكثَرَ التخويفَ مِن عصيانه؛ أبلَغَ الأمرَ إلى نهايتِه بالإخبار بأنَّ الملائكةَ تَخافُه، وكان الملائكةُ مِن أعظَمِ الموحِّدين، كما كانوا مِن أعظَمِ الساجدين، مِن أهلِ السماوات والأرَضِين، وكانت هذه الآياتُ مِن أعظَمِ أدلةِ التوحيد؛ أتبعَها قولَه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾(٤).

لمَّا أُشبِعَ القولُ في إبطالِ تعدُّد الآلهةِ الشائعِ في جميع قبائلِ العرب، وأُتبِعَ بإبطالِ الاختلاق على الرسولِ ﷺ والقرآنِ؛ نُقِل الكلامُ إلى إبطالِ نوعٍ آخرَ مِن الشركِ متَّبَعٍ عند قبائلَ مِن العرب؛ وهو الإشراكُ بإلهيَّةِ أصلَينِ للخيرِ والشرِّ، تقلَّدتْهُ قبائلُ العرب المجاوِرةُ بلادَ فارسَ، والساري فيهم سلطانُ كِسْرَى وعوائدُهم(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧١).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٤٢).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٧٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧١).

لَمَّا ذكَر انقيادَ ما في السموات وما في الأرض لِما يريده تعالىٰ منها، فكان هو المتفرِّدَ بذلك؛ نَهَىٰ أن يُشرَكَ به، ودلَّ النَّهيُ عن اتخاذِ إلهينِ علىٰ النهيِ عن اتخاذِ آلهةٍ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لَمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ كلَّ ما سِوىٰ الله منقادٌ خاضع لجلالِ الله تعالىٰ وكبريائه، أتبَعه في هذه الآيةِ بالنَّهْيِ عن الشركِ، وبالأمرِ بأنَّ كلَّ ما سِواه فهو مُلْكُه ومِلْكُه، وأنَّه غنيٌّ عن الكلِّ، فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾(٢).

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾

ولمَّا كان أسلوبُ الغَيْبة مِن الحاضر دالًّا علىٰ التردِّي بحجابِ الكِبْرِ المؤذِن بشِدَّةِ البطشِ، وسرعةِ الانتقام، وبُعْدِ المقام؛ رجَع إليه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾(٣).

مناسبةُ موقعِ جملة ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بعد جملةِ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾: أنَّ الذين جعَلوا إلهينِ جعَلوهما النُّورَ والظُّلمة، وإذ كان النُّور والظُّلمة مَظهَرينِ مِن مظاهرِ السماء والأرض، كان المعنىٰ: أنَّ ما تزعُمونه إلهًا للخير وإلهًا للشر هما مِن مخلوقاته(٤).

ثم لمَّا قرَّر سبحانه وَحْدانيَّته، وأنَّه الذي يجب أن يُخَصَّ بالرَّهبةِ منه والرَّغبةِ إليه؛ ذكَر أنَّ الكلَّ في مُلْكِه، وتحتَ تصرُّفِه، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٥٤٣-٥٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢١٩).

(٣) نظم الدرر (١١/ ١٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧٥).

(٥) فتح القدير (٣/ ٢٠٢).

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وأتبَع ذلك ما يوجِبُ تعظيمَ الإنكار عليهم، فقال مبيِّنًا أنَّه لا ينبغي أن يَتعلَّقَ خوفٌ ولا رجاء إلا به: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[(١)].

عطفُ خبَرٍ علىٰ خبَرٍ، وهو انتقالٌ مِن الاستدلال بمصنوعاتِ الله الكائنةِ في ذات الإنسان وفيما يحيطُ به مِن الموجودات إلىٰ الاستدلال بما ساقَ اللهُ مِن النِّعَمِ؛ فمِن الناسِ معرِضون عن التدبُّر فيها، وعن شكرِها؛ وهم الكافرون، فكان في الأدلةِ الماضية القصدُ إلىٰ الاستدلال ابتداءً متبوعًا بالامتنان[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن بالآيةِ الأُولىٰ أنَّ الواجبَ علىٰ العاقل ألا يتَّقيَ غيرَ الله، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه يجب عليه ألا يشكُرَ أحدًا إلا اللهَ تعالىٰ؛ لأنَّ الشكرَ إنَّما يَلزمُ علىٰ النِّعْمة، وكلُّ نِعْمةٍ حصَلتْ للإنسان فهي مِن اللهِ تعالىٰ؛ لقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فثبَت بهذا أنَّ العاقلَ يجب عليه ألا يخافَ وألا يتَّقِيَ أحدًا إلا اللهَ، وألا يشكُرَ أحدًا إلا اللهَ تعالىٰ[(٣)].

ثم امتَنَّ سبحانه عليهم بأنَّ جميعَ ما هم متقلِّبون فيه مِن النِّعَمِ هو منه لا مِن غيرِه، فقال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[(٤)].

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الرجوعُ إلىٰ الإشراكِ بعد الإخلاص مستبعَدًا أيضًا -لاستهجانِهم سرعةَ الاستحالة-، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٢١).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٠٢).

(٥) نظم الدرر (١١/ ١٨٠).

وأتبَع هذه بنِعْمةٍ أخرىٰ؛ وهي نِعْمةُ كشفِ الضرِّ عن الناس بقولِه تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ الآية، و﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيبِ الرُّتبي؛ كما هو شأنُها في عطفِ الجُمَل، وجيءَ بحرفِ ﴿ ثُمَّ ﴾؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفة أبعَدُ في النظرِ مِن مضمونِ المعطوف عليها؛ فإنَّ الإعراضَ عن المُنعِمِ بكشفِ الضرِّ وإشراكَ غيرِه به في العبادة أعجَبُ حالًا، وأبعَدُ حصولًا مِن اللُّجْأِ إليه عند الشِّدة؛ والمقصودُ: تسجيلُ كفرانِ المشركين، وإظهارُ رأفةِ الله بالخَلْقِ بكشفِ الضرِّ عنهم عند التجائهم إليه، مع عِلْمِه بأنَّ مِن أولئك مَن يُشرِك به، ويستمِرُّ علىٰ شِرْكِه بعد كشفِ الضرِّ عنه(١).

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا ملزومًا بجَحْدِ النِّعْمة، وكان مِن شأنِ العاقل البصيرِ بالأمور -كما يَدَّعُونه لأنفسهم- أن يغفُلَ عن شيءٍ مِن لوازمِ ما يُقدِم عليه؛ قال: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

لامُ التعليل متعلِّقةٌ بفعلِ ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾، الذي هو مِن جوابِ قوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾، والكفرُ هنا كفرُ النِّعْمة؛ ولذلك علَّق به قولَه تعالىٰ: ﴿ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾؛ أي: مِن النِّعم(٣).

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا هدَّدهم بإشراكِهم المستلزِم لكفرِ النِّعْمة، أتبَعه عجَبًا آخرَ مِن أمرِهم، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧٧).
(٢) نظم الدرر (١١/ ١٨٠-١٨١).
(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٧٩).
(٤) نظم الدرر (١١/ ١٨١-١٨٢).

عطفُ حالةٍ مِن أحوال كفرِهم لها مساسٌ بما أنعَم اللهُ عليهم مِن النِّعْمة؛ فهي معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، ويجوز أن تكونَ حالًا مِن الضميرِ المجرور في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ علىٰ طريقِ الالتفات، ويجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ مِن قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن بالدلائلِ القاهرة فسادَ أقوالِ أهل الشرك، شرَح في هذه الآيةِ تفاصيلَ أقوالِهم، وبيَّن فسادَها وسخافتَها[(٢)].

ثم حكىٰ سبحانه نوعًا آخَرَ مِن قبائحِ أعمالهم، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾[(٣)].

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سفَهَهم في صرفِهم ممَّا آتاهم إلىٰ ما هو في عدادِ العَدَمِ الذي لا يُعلَم، بيَّن لهم سفَهًا هو أعظَمُ مِن ذلك؛ بجعلِهم لمالكِ المُلْكِ ومَلِكِه أحقَرَ ما يعُدُّونه ممَّا أوجَده لهم؛ لافتقارِهم إليه، وغِناه عنه، علىٰ وجهِ التوالد المستحيلِ عليه، مع كراهتِه لأنفسهم، فصار ذلك أعجَبَ العجَبِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾، هذا استدلالٌ بنِعْمةِ الله عليهم بالبنينَ والبنات، وهي نِعْمةُ النَّسل، وأُدمِجَ في هذا الاستدلالِ وهذا الامتنان

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٨٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٢٣).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٠٣).

(٤) نظم الدرر (١١/ ١٨٢-١٨٣).

ذِكْرُ ضربٍ شنيع مِن ضروبِ كفرهم؛ وهو افتراؤهم: أنْ زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ الله(١).

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثم بيَّن حالَهم إذا حصَل لهم نوعُ ما جعَلوه له سبحانه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٢).

ثم ذكَر سبحانه كراهتَهم للإناثِ التي جعَلوها لله سبحانه، فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٣).

ثم أشار إلىٰ شِدَّةِ كراهتهم للإناث بما يمثِّلُ عِظَمَ تلك النسبةِ إلىٰ الجَنابِ الأقدسِ وفظاعتها بقولِه ﷻ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٤).

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا كان سوادُ الوجهِ والكَظْمُ قد لا يَصحَبه الخِزْيُ، وصَل به قولَه تعالىٰ: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٨٢).
(٢) نظم الدرر (١١/ ١٨٣).
(٣) فتح القدير (٣/ ٢٠٤).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٨٠).
(٥) نظم الدرر (١١/ ١٨٤).

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا كان شرحُ هذا أنَّهم تكلَّموا بالباطل في جانبِه تعالىٰ وجانبِهم، بيَّن ما هو الحقُّ في هذا المقامِ، فقال تعالىٰ علىٰ تقديرِ الجواب لِمَن كأنَّه قال: فما يقالُ في ذلك؟ مُظهِرًا في موضعِ الإضمار، تنبيهًا علىٰ الوصفِ الذي أوجَب الإقدامَ علىٰ الأباطيل مِن غيرِ خوفٍ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١).

هذه الجملةُ معترِضةٌ جوابًا عن مقالتِهم التي تضمَّنَها قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾؛ فإنَّ لها ارتباطًا بجملةِ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ كما تقدَّم؛ فهي بمنزلةِ جملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، غيرَ أنَّ جملةَ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ جوابٌ بتنزيهِ الله عمَّا نسَبوه إليه، وهذه جوابٌ بتحقيرِهم علىٰ ما يعامِلون به البناتِ، مع نِسبتِهم إلىٰ اللهِ هذا الصِّنْفَ المُحقَّر عندهم(٢).

ثم لم يَكفِهم هذا حتىٰ نسَبوا له أردأَ القِسمين؛ وهو الإناثُ اللاتي يأنَفون بأنفسهم عنها ويَكرَهونها، فكيف ينسبونها للهِ تعالىٰ؟! فبئس الحُكْمُ حُكْمُهم، ولمَّا كان هذا مِن أمثالِ السَّوْءِ التي نسَبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٨٥-١٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٤ / ١٨٦).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٤٢).

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ ﴾

هذا اعتراضٌ في أثناءِ التوبيخ على كفرِهم الذي مِن شرائعِه وَأْدُ البنات، فلمَّا وصَف جَعْلَهم لله البناتِ اللاتي يأنفون منها لأنفسهم، ووصَف ذلك بأنَّه حُكْمُ سَوْءٍ، ووصَف حالَهم بأنَّها مَثَلُ سَوْءٍ، وعرَّفهم بأخصِّ عقائدهم أنَّهم لا يؤمنون بالآخرةِ؛ أتبَع ذلك بالوعيدِ على أقوالِهم وأفعالهم[(١)].

لمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكفار عظيمَ ما ارتكَبوه مِن الكفرِ ونسبةِ التوالُدِ له، بيَّن تعالى أنَّه يُمهِلُهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبة؛ إظهارًا لفضلِه ورحمتِه[(٢)].

ثم لمَّا حكى سبحانه عن القوم عظيمَ كفرِهم، بيَّن سَعةَ كرمِه وحِلْمِه؛ حيث لم يعاجِلْهم بالعقوبةِ، ولم يؤاخِذْهم بظُلْمِهم، فقال: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[(٣)].

لمَّا ذكَر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكَر كمالَ حِلْمِه وصبرِه، فقال: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٨٧).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٥٠).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٠٥).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٤٣).

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾

ولمَّا كان ما تقدَّم أَمارةً على كراهتهم لِما نسَبوه إلى الله تعالى، أتبعَه التصريحَ بعد التلويح بقولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾[(١)].

هذا ضِغْثٌ على إبَّالةٍ[(٢)] مِن أحوالِهم في إشراكِهم تُخالِفُ قصَّةَ قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ باعتبارِ ما يَختَص بهذه القصَّة مِن إضافتِهم الأشياءَ المكروهة عندهم إلى الله ممَّا اقتضته كراهتُهم البناتِ بقولِه تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾، فكان ذلك الجَعْلُ ينطوي على خَصْلتينِ مِن دِينِ الشرك؛ وهما: نسبةُ البنوَّة إلى الله، ونسبةُ أخَسِّ أصنافِ الأبناء في نظَرِهم إليه، فخُصَّتِ الأُولى بالذِّكْرِ بقولِه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ مع الإيماءِ إلى كراهتِهم البناتِ كما تقدَّم، وخُصَّتْ هذه بذِكْرِ الكراهيَةِ تصريحًا؛ ولذلك كان الإتيانُ بالموصولِ والصلة ﴿مَا يَكْرَهُونَ ﴾ هو مقتضى المقامِ الذي هو تفظيعُ قولهم، وتشنيعُ استئثارهم[(٣)].

ثم ذكَر نوعًا آخرَ مِن جهلِهم وحُمْقِهم، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٨٨).

(٢) الإبالة: الحزمة من الحطب، والضغث: القبضة منه، وهذا مثل يضرب لمن يحمل صاحبه مكروهًا ثم يزيده عليه.

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٩١).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٠٥).

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن مآلهم، وكانوا يقولون: إنَّ لهم مَن يُشفَّع فيهم؛ بيَّن لهم ما يكون مِن حالهم، بالقياسِ على أشكالهم تهديدًا، وتسليةً للنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(1).

استئنافٌ ابتدائيٌّ داخل في الكلام الاعتراضيِّ، قُصِد منه تنظيرُ حالِ المشركين المتحدَّثِ عنهم وكفرِهم في سُوءِ أعمالهم وأحكامهم بحالِ الأُمَمِ الضالَّة مِن قبلِهم الذين استهواهم الشيطانُ مِن الأُمَمِ البائدة: مثل عادٍ وثمودَ، والحاضرة: كاليهود والنصارى(2).

ثم ذكَر تعالى نِعْمتَه في إرسالِ الرُّسل وتكذيبِ أُمَمِهم -ليَتأسَّى صلوات الله عليه بهم- بقوله سبحانه: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(3).

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان حاصلُ ما مضى الخلافَ والضَّلال والنِّقمة، كان كأنَّه قيل: فبَيِّنْ لهم وخوِّفْهم ليَرجِعوا؛ فإنَّا ما أرسَلْناك إلا لذلك، ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(4).

---

(1) نظم الدرر (11/ 189).

(2) التحرير والتنوير (14 / 193).

(3) محاسن التأويل (6/ 382).

(4) نظم الدرر (11/ 190).

عطفٌ علىٰ جملةِ القَسَم، والمناسبةُ أنَّ القرآنَ أُنزِلَ لإتمامِ الهداية، وكشفِ الشُّبهات التي عرَضتْ للأُمَم الماضية والحاضرة، فتُرِكتْ أمثالُها في العربِ وغيرهم، فلمَّا ذُكِرتْ ضلالاتُهم وشُبهاتهم، عُقِّب ذلك ببيانِ الحِكْمةِ في إرسال محمَّدٍ ﷺ، وإنزالِ القرآن إليه؛ فالقرآن جاء مبيِّنًا للمشركين ضَلالَهم بيانًا لا يتركُ للباطل مَسلَكًا إلىٰ النفوس، ومُفصِحًا عن الهدىٰ إفصاحًا لا يتركُ للحَيرة مجالًا في العقول، ورحمةً للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرة(١).

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ۝٦٥﴾

ولمَّا انقضىٰ الدليلُ علىٰ أنَّ قلوبهم منكِرةٌ استكبارًا وما يَتعلَّق به، وختَمه بما أحيا به القلوبَ بالإيمان والعلمِ بعد موتِها بالكفر والجهل، وكان المقصودُ الأعظم مِن القرآن تقريرَ أصولٍ أربعة: الإلهيات، والنبوَّات، والمَعاد، وإثبات القضاء والقَدَر، وكان أجَلَّ هذه المقاصدِ الإلهياتُ؛ شرَع في أدلةِ الوَحْدانيَّة المستلزِمة للقدرة علىٰ البعثِ علىٰ وجهٍ غيرِ المتقدِّم؛ ليُعلَمَ أنَّ أدلةَ ذلك أكثرُ مِن أوراق الأشجار، وأجلىٰ مِن ضياءِ النهار، فقال جامعًا في الدليل بَيْنَ العالَمِ العُلْوي والعالَم السُّفْلي: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾(٢).

انتهىٰ الكلامُ المعترَض به، وعاد الكلامُ إلىٰ دلائلِ الانفراد بالخَلق، مع ما أُدمِجَ فيه ذلك مِن التذكيرِ بالنِّعم؛ فهذه مِنَّةٌ مِن المِنَن، وعِبْرة مِن العِبَر، وحُجَّة مِن الحُجَج المتفرِّعةِ عن التذكيرِ بنِعَم الله، والاعتبارِ بعجيبِ صُنْعه(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٩٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٩١).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٩٧).

ثم أشار إلىٰ عظيمِ قُدْرتِه في آياتِه الكونية الدالَّةِ علىٰ وَحْدانيَّته، إثْرَ قُدْرتِه في إحياءِ القلوب الميِّتة بالكفر، بما أنزله مِن وَحْيِه وهُدَاه ورحمتِه، بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[(١)].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه هذا الأمرَ العام، ونبَّه علىٰ ما فيه مِن غريبِ الصُّنْعِ الذي غُفِل عنه لشِدَّةِ الإلفِ به؛ أتبَعه بعضَ ما ينشأ عنه مِن تفاصيلِ الأمور المحتوية علىٰ عجائبِ المقدور، وبدأ بأعمِّها وأشَدِّها ملابَسةً لهم، وأكثَرِها في نفسه وأعظَمِها منفعةً ودخولًا في قِوامِ عيشِهم، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[(٢)].

هذه حُجَّةٌ أخرىٰ، ومِنَّةٌ مِن المِنَنِ الناشئة عن منافعِ خَلْقِ الأنعام، أُدمِجَ في مِنَّتِها العِبْرةُ بما في دلالتها علىٰ بديعِ صُنْعِ الله، ومناسبةُ ذِكْرِ هذه النِّعْمةِ هنا: أنَّ بألبانِ الأنعام حياةَ الإنسان، كما تَحيَا الأرضُ بماءِ السماء، وأنَّ لآثارِ ماء السماء أثرًا في تكوينِ ألبانِ الحيوان بالمرعىٰ[(٣)].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ إحياءَ الأرض بعد موتها، ذكَر ما ينشأ عمَّا ينشأ عن المطرِ؛ وهو حياةُ الأنعام التي هي مألوفُ العرب بما يتناوله مِن النباتِ الناشئ عن المطرِ، ونبَّه علىٰ العِبْرةِ العظيمة؛ وهو خروجُ اللَّبَنِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ودمٍ[(٤)].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٨٢).

(٢) نظم الدرر (١١/ ١٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٤ / ١٩٩).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥٥٣).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾

ثـم عطَـف عليـه مـا هـو أنفَسُ منـه عنـدهم، وأقـرَبُ إليـه في المعـاني المـذكورةِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾(1).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾، ووجـود «مِن» في صدرِ الكلام يـدلُّ علىٰ تقدير فعلٍ يدلُّ عليه الفعلُ الذي في الجملة قبلها؛ وهـو ﴿نُّسۡقِيكُم﴾؛ فالتقـدير: ونسقيكم مِن ثمراتِ النخيل والأعناب، وليس متعلِّقًا بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، كما دلَّ علىٰ ذلك وجودُ «مِن» الثانيةِ في قولـه: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾، المـانعِ مِن اعتبار تعلُّقِ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ فإنَّ نَظْمَ الكلام يدلُّ علىٰ قصدِ المتكلِّم، ولا يصحُّ جَعْلُه متعلِّقًا بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ مقدَّمًا عليـه؛ لأنَّـه يُبعد المعنىٰ عن الامتنانِ بلُطْفِ الله تعالىٰ إذ جعَل نفسَه الساقيَ للناس، وهـذا عطفُ مِنَّةٍ علىٰ مِنَّةٍ؛ لأنَّ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ وقَع بيانًا لجملة ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾، ومُفادُ فعلِ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ مُفادُ الامتنان؛ لأنَّ السَّقْيَ مزيَّةٌ، وكلتا العِبْرتينِ في السَّقي، والمناسبةُ أنَّ كلتيهما ماءٌ، وأنَّ كلتيهما يُضغَط باليد(2).

لمَّـا ذكَـر تعـالىٰ مـا مَنَّ بـه مِـن بعضِ منـافعِ الحيـوان، ذكَـر مـا مَـنَّ بـه مِـن بعضِ منافعِ النبات(3).

---

(1) نظم الدرر (١١/ ١٩٤).

(2) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٠٢).

(3) البحر المحيط (٦/ ٥٥٧).

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كان أمرُ النَّحْلِ في الدلالةِ علىٰ تمام القدرة وكمال الحِكْمة أعجَبَ ممَّا تقدَّم وأنفَسَ، ثلَّث به وأخَّره؛ لأنَّه أقَلُّ الثلاثة عندهم، وغيَّر الأسلوب وجعَله مِن وحيِه إيماءً إلىٰ ما فيه مِن غريبِ الأمر وبديع الشأنِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[1].

عطفُ عِبْرةٍ علىٰ عبرة، ومِنَّةٍ علىٰ منة، وغيَّر أسلوبَ الاعتبار لِما في هذه العبرةِ مِن تنبيهٍ علىٰ عظيمِ حِكْمةِ الله تعالىٰ؛ إذ أودَع في خِلْقةِ الحشَرةِ الضعيفة هذه الصَّنعةَ العظيمة، وجعَل فيها هذه المنفعةَ، كما أودَع في الأنعامِ ألبانَها، وأودَع في ثمراتِ النخيل والأعناب شرابًا، وكان ما في بطونِ النَّحل وسَطًا بَيْنَ ما في بطونِ الأنعام وما في قلبِ الثمار؛ فإنَّ النَّحلَ يمتصُّ ما في الثمراتِ والأنوار[2] مِن الموادِّ السُّكَّريةِ العسَليةِ، ثم يُخرِجه عسَلًا، كما يخرُجُ اللَّبنُ مِن خلاصةِ المرعىٰ[3].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ المِنَّةَ بالمشروب: اللَّبَنِ وغيرِه، أتَمَّ النِّعْمةَ بذِكْرِ العسلِ[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ إخراجَ الألبان مِن النَّعَمِ وإخراجَ السَّكَرِ والرزقِ الحسَنِ مِن ثمراتِ النخيل والأعناب دلائلُ قاهرة وبيِّناتٌ باهرة علىٰ أنَّ لهذا العالَمِ إلهًا قادرًا حكيمًا، فكذلك إخراجُ العسَلِ مِن النَّحلِ دليلٌ قاطع وبرهانٌ ساطع علىٰ إثباتِ هذا المقصود[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ١٩٦).

(٢) أي: الأزهار.

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٠٤).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥٥٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٣٦).

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ ﴾

ولمَّا كان أهَمَّ شيءٍ للحيوان بعد الراحةِ مِن هَمِّ المَقِيلِ الأكلُ، ثَنَّىٰ به، ولمَّا كان عامًّا في كلِّ ثمَرٍ، ذكَره بحرفِ التراخي؛ إشارةً إلىٰ عجيبِ الصُّنْعِ في ذلك، وتيسيرِه لها، فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(١)].

﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرُّتبي؛ لأنَّ إلهامَ النَّحلِ للأكل مِن الثمرات يَترتَّب عليه تكوُّنُ العسَلِ في بطونِها؛ وذلك أعلىٰ رُتْبةً مِن اتخاذِها البيوتَ؛ لاختصاصِها بالعسَلِ دُونَ غيرها مِن الحشرات التي تَبني البيوتَ، ولأنَّه أعظَمُ فائدةً للإنسان، ولأنَّ منه قُوتَها الذي به بقاؤُها، وسُمِّي امتصاصُها أكلًا؛ لأنَّها تقتاتُه، فليس هو بشُرْبٍ[(٢)].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾

ولمَّا أيقَظهم مِن رَقْدتهم، ونبَّههم علىٰ عظيمِ غفلتِهم عن عمومِ القدرة وشمولِ العلم، المقتضي للفعلِ بالاختيار، المحقِّقِ للبعث وغيرِه، مِن كلِّ ما يريده سبحانه ببعضِ آياته المبثوثةِ في الآفاق: مِن جمادٍ ثم حيوان، وختَم ذلك بما هو شفاءٌ؛ ثنَّىٰ ببعضِ ما في أنفسِهم مِن الأدلةِ علىٰ ذلك، مذكِّرًا بمراتبِ عُمُرِ الإنسان الأربعِ؛ وهي: سِنُّ الطفوليَّةِ والنُّمو، ثم سِنُّ الشباب الذي يكون عند انتهائِه الوقوفُ، ثم سِنُّ الكهولة، وفيه يكونُ الانحطاطُ مع بقاء القوَّة، ثم سِنُّ الانحطاط مع ظهورِ الضَّعف، وهو الشيخوخة، مضمِّنًا ما لا يُغنِي عنه دواءٌ؛ حثًّا علىٰ التفكُّر في آياته، والتعقُّل لها

(١) نظم الدرر (١١/ ١٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٠٧).

قبل حلولِ ذلك الحادث، فيفُوت الفَوْتُ، ويَندَموا حيث لا يَنفَعُ الندمُ، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[١].

انتقالٌ مِن الاستدلال بدقائقِ صُنْعِ الله علىٰ وَحْدانيَّته إلىٰ الاستدلالِ بتصرُّفِه في الخَلْقِ التصرُّفَ الغالب لهم الذي لا يستطيعون دَفْعَه علىٰ انفرادِه بربوبيَّتِهم، وعلىٰ عظيمِ قُدْرتِه[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ تلك الآياتِ التي في الأنعامِ والثَّمرات والنَّحل، ذكَر ما نبَّهَنا به علىٰ قُدْرتِه التامة في إنشائنا مِن العدَمِ وإماتتِنا، وتنقُّلِنا في حالِ الحياة مِن حالةِ الجهل إلىٰ حالةِ العلم؛ وذلك كلُّه دليلٌ علىٰ القدرةِ التامة، والعلمِ الواسع؛ ولذلك ختَم بقوله: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[٣].

لمَّا ذكَر تعالىٰ بعضَ عجائبِ أحوال الحيوانات، ذكَر بعده بعضَ عجائبِ أحوال الناس؛ فمنها ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ، وهو إشارةٌ إلىٰ مراتبِ عُمُرِ الإنسان، والعقلاءُ ضبَطوها في أربَعِ مراتبَ: أولها: سِنُّ النَّشْوِ والنماء. وثانيها: سِنُّ الوقوف؛ وهو سِنُّ الشباب. وثالثها: سِنُّ الانحطاطِ القليل؛ وهو سِنُّ الكهولة. ورابعها: سِنُّ الانحطاطِ الكبير؛ وهو سِنُّ الشيخوخة[٤].

لمَّا ذكَر سبحانه مِن عجائبِ أحوالِ ما ذكَر مِن الماءِ والنبات والأنعام والنَّحل، أشار إلىٰ بعضِ عجائبِ أحوال البشر مِن أولِ عُمُرِه إلىٰ آخرِه، وتطوُّراته فيما بَيْنَ ذلك[٥].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١١).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٦٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٣٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٢٦).

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ ﴾

ولمَّا ذكَر المفاوَتةَ في الأعمار، المناديةَ بإبطالِ الطبائع، الموجِبةَ للمسابقة إلىٰ الاعتبارِ لأُولي الأبصار، للخوفِ كلَّ لحظةٍ مِن مصيبةِ الموت؛ ثنَّىٰ بالمفاوَتةِ في الأرزاق، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[1].

هذا مِن الاستدلال علىٰ أنَّ التصرُّفَ القاهر لله تعالىٰ؛ وذلك أنَّه أعقَب الاستدلالَ بالإحياء والإماتة وما بَيْنَهما مِن هَرَم بالاستدلالِ بالرزق، ولمَّا كان الرزقُ حاصلًا لكلِّ موجود، بُنِيَ الاستدلالُ علىٰ التفاوت فيه، بخلافِ الاستدلال بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ ﴾؛ ووجهُ الاستدلالِ به علىٰ التصرُّف القاهر: أنَّ الرزقَ حاصلٌ لجميعِ الخَلق، وأنَّ تفاضُلَ الناسِ فيه غيرُ جارٍ علىٰ رغَباتِهم، ولا علىٰ استحقاقِهم؛ فقد تجد أكيَسَ الناسِ وأجوَدَهم عقلًا وفهمًا مُقتَّرًا عليه في الرزقِ، وبضدِّه ترىٰ أجهَلَ الناسِ وأقلَّهم تدبيرًا موسَّعًا عليه في الرزقِ[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ خَلْقَنا، ثم إماتتَنا وتفاوُتَنا في السنِّ؛ ذكَر تفاوُتَنا في الرزقِ، وأنَّ رِزْقَنا أفضَلُ مِن رزقِ المماليك، وهم بشَرٌ مثلُنا، وربما كان المملوكُ خيرًا مِن المَوْلَىٰ في العقلِ والدِّين والتصرف، وأنَّ الفاضلَ في الرزقِ لا يساهِمُ مملوكَه فيما رُزِق فيُساويَه[3].

اعلَمْ أنَّ هذا اعتبارُ حالٍ أخرىٰ مِن أحوالِ الإنسان؛ وذلك أنَّا نرىٰ أكيَسَ الناس وأكثَرَهم عقلًا وفهمًا يُفني عُمُرَه في طلبِ القَدْرِ القليل مِن الدُّنيا، ولا يتيسَّر له ذلك،

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٦٣).

ونرىٰ أجهَلَ الخَلْقِ وأقَلَّهم عقلًا وفهمًا تنفتحُ عليه أبواب الدُّنيا، وكلُّ شيءٍ خطَر بباله ودارَ في خياله فإنَّه يحصُلُ له في الحال، ولو كان السببُ جُهْدَ الإنسانِ وعقْلَه، لوجَب أن يكونَ الأعقَلُ أفضَلَ في هذه الأحوال، فلمَّا رأَيْنا أنَّ الأعقَلَ أقلُّ نصيبًا، وأنَّ الأجهَلَ الأخَسَّ أوفَرُ نصيبًا؛ علِمْنا أنَّ ذلك بسببِ قِسْمةِ القَسَّام[(١)].

ثم لمَّا بيَّن سبحانه خَلْقَ الإنسان وتقلُّبَه في أطوارِ العُمُرِ، ذكَر طرَفًا مِن أحواله لعلَّه يتذكَّر عند ذلك، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الخَلْقَ والرزق، أتبَعهما الألذاذَ بالتأنُّسِ بالجنس مِن الأزواجِ والأولاد وغيرِهما، اللازمِ له القيامُ بالمصالح، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ التي قبلها، وهو استدلالٌ ببديعِ الصُّنعِ في خَلْقِ النَّسْلِ؛ إذ جُعِل مقارِنًا للتأنُّس بَيْنَ الزوجينِ؛ إذ جعَل النَّسْلَ منهما، ولم يَجعَلْه مفارِقًا لأحدِ الأبوَينِ أو كلَيْهما[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢١٣).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢١٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١٧).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن أحوالِ الناس، ذكَره اللهُ تعالىٰ ليستدِلَّ به علىٰ وجودِ الإلـه المختـار الحكـيم، وليكـونَ ذلـك تنبيهًـا علـىٰ إنعـامِ الله تعـالىٰ علـىٰ عبيـدِه بمثـلِ هذه النِّعم(١).

ثـم ذكَـر سبحانه الحالـةَ الأخـرىٰ مِـن أحـوال الإنسـان، فقـال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾(٢).

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ ﴾

ثم قال عطفًا علىٰ ما أنكَره عليهم هنـاك: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ جملتَيِ التوبيخ، وهو مزيدٌ مِن التوبيخ؛ فإنَّ الجملتينِ المعطوفَ عليهما أفادتا توبيخًا علىٰ إيمـانِهم بالآلهـةِ الباطـل، وكفرِهم بنِعْمـةِ المعبود الحقِّ، وهـذه الجملةُ المعطوفة أفادت التوبيخَ علىٰ شكرِ ما لا يستحِقُّ الشُّكرَ؛ فإنَّ العبـادةَ شكرٌ، فهم عبَدوا ما لا يستحِقُّ العبادةَ، ولا بيَدِه نِعْمةٌ؛ وهـو الأصنامُ؛ لأنَّهـا لا تَملِكُ مـا يأتيهم مِـن الـرزقِ: لاحتياجِهـا، ولا تستطيع رِزْقَهـم: لعَجْزِهـا؛ فمُفـادُ هـذه الجملـةِ مؤكِّدٌ لمُفادِ ما قبلها، مع اختلافِ الاعتبار بموجِبِ التوبيخِ في كلتيهما(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢١٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أنواعًا كثيرة في دلائلِ التوحيد، وتلك الأنواعُ كما أنَّها دلائلُ علىٰ صحَّةِ التوحيد؛ فكذلك بدأ بذِكْرِ أقسام النِّعَم الجليلة الشريفة، ثم أتبَعها في هذه الآيةِ بالردِّ علىٰ عبَدةِ الأصنام[(١)].

﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ﴾

ولمَّا دحَض بهذه الحُجَّةِ جميعَ ما أقاموه مِن الشُّبَهِ وضرَبوه مِن الأمثال فيما ارتكَبوه مِن قولهم: إنَّ المَلِكَ لا يُتوصَّلُ إليه إلا بأعوانٍ مِن حاجبٍ ونائب ونحوِ ذلك، ولا يُتوصَّل إليه إلا بأنواعِ القربان، فعبَدوا الأصنامَ، وفعَلوا لها ما يُفعَل له تشبيهًا به عزَّ شأنه، وتعالىٰ سلطانه؛ لأنَّ الفرْقَ أنَّ ملوكَ الدُّنيا المَقِيسَ عليهم إنَّما أقاموا مَن ذُكِر لحاجتِهم وضعفِ مُلْكِهم ومِلْكِهم، فحالُهم مخالِفٌ لوصفِ مَن لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، ولا يَشغَله شأنٌ عن شأن، وكلُّ شيءٍ في قبضتِه، وتحتَ قهرِه وعظَمتِه؛ فلذلك تسبَّب عنها قولُه تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[(٢)].

تفريعٌ علىٰ جميع ما سبَق مِن الآياتِ والعِبَر والمِنَن؛ إذ قد استقام مِن جميعها انفرادُ الله تعالىٰ بالإلهيَّة، ونفيُ الشريكِ له فيما خلَق وأنعَم، وبالأَوْلىٰ نفيُ أن يكونَ له ولَدٌ، وأن يُشبَّهَ بالحوادث؛ فلا جرَمَ استتَبَّ للمقام أن يُفرَّع علىٰ ذلك زجرُ المشركين عن تمثيلِهم غيرَ الله بالله في شيءٍ مِن ذلك، وأن يمثِّلوه بالموجودات[(٣)].

ثم نهاهم سبحانه عن أن يُشبِّهوه بخلْقِه، فقال: ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢١٣-٢١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢٢).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢١٥).

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا ختَم سبحانه بذلك تأكيدًا لإبطالِ مذهب عبَدةِ الأصنام بسَلْبِ العلمِ الذي هو مناطُ السَّداد عنهم، حسُنَ أن يصلَ به قولَه -إقامةً للدليل علىٰ علمِه بأنَّ أمثالَه لا يتطرَّق إليها الطعنُ، ولا يتوجَّه نحوَها الشُّكوكُ-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(١)].

أعقَب زَجْرَهم عن أن يُشبِّهوا اللهَ بخَلْقِه أو أن يُشبِّهوا الخَلْقَ بربِّهم بتمثيلِ حالهم في ذلك بحالِ مَن مثَّل عبدًا بسيِّدِه في الإنفاق؛ فجملةُ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا﴾ إلخ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن تعالىٰ ضَلالَهم في إشراكِهم بالله غيرَه وهو لا يجلبُ نفعًا ولا ضرًّا لنفسه ولا لعابدِه، ضرَب لهم مثَلًا قصَّةَ عبدٍ في مِلْكِ غيرِه، عاجزٍ عن التصرُّف، وحُرٍّ غنيٍّ متصرِّفٍ فيما آتاه اللهُ، فإذا كان هذانِ لا يستويان عندكم مع كونهما مِن جنسٍ واحد، ومشترِكَينِ في الإنسانيةِ، فكيف تشركون بالله وتُسَوُّون به مَن هو مخلوقٌ له مقهور بقُدْرتِه مِن آدميٍّ وغيرِه، مع تبايُنِ الأوصاف، وأنَّ مُوجِدَ الوجود لا يمكن أن يُشبِهَه شيءٌ مِن خَلْقِه، ولا يمكن لعاقلٍ أن يُشبِّهَ به غيرَه؟![(٣)].

(١) نظم الدرر (١١/ ٢١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٦٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أكَّد إبطالَ مذهبِ عبدَةِ الأصنام بهذا المثالِ[١].

ولمَّا نهاهم عن ضَرْبِ المثَلِ الفعلي -وهو الإشراك-، عقَّبه بالكشفِ لذي البصيرةِ عن حالهم في تلك الغفلةِ، وحالِ مَن تابَعهم، بقولِه سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

لمَّا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾؛ أي: بالمعلومات التي مِن جملتِها كيف يَضرِبُ الأمثالَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، علَّمهم سبحانه كيف تُضرَب الأمثالُ، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ هذا المثَلُ كافيًا في المراد، ملزِمًا لهم لاعترافهم بأنَّ الأصنامَ عبيدُ الله في قولهم: «لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تَملِكُه وما ملَك»[٤]، وكان ربما كابَر مكابِرٌ، فقال: إنَّهم ليسوا مِلْكًا له؛ أتبعه مثَلًا آخَرَ لا تمكِنُ المكابَرةُ

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٦).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٣٩٠).
(٣) فتح القدير (٣/ ٢١٦).
(٤) أخرجه مسلم (١١٨٥).

فيـه، فقـال تعـالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١].

هذا تمثيلٌ ثانٍ للحالتينِ بحالتينِ باختلاف وجهِ الشَّبه، فاعتُبر هنا المعنىٰ الحاصلُ مِن حالِ الأبكَمِ؛ وهو العَجْزُ عن الإدراك، وعن العمل، وتعذُّرُ الفائدةِ منه في سائرِ أحواله، والمعنىٰ الحاصلُ مِن حالِ الرجُلِ الكاملِ العقلِ والنُّطق في إدراكِه الخيرَ وهَدْيِه إليه وإتقانِ عملِه وعملِ مَن يَهديه؛ ضرَبه اللهُ مثَلًا لكمالِه وإرشاده الناسَ إلىٰ الحقِّ، ومثَلًا للأصنامِ الجامدة التي لا تنفعُ ولا تضُرُّ[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أبطَل قولَ عبَدةِ الأوثان والأصنام بهذا المثَلِ الثاني؛ وتقريره: أنَّه كما تقرَّر في أوائلِ العقول أنَّ الأبكَمَ العاجز لا يكون مساويًا في الفضلِ والشَّرف للناطقِ القادر الكامل مع استوائهما في البشَريَّةِ، فلَأَنْ يُحكَمَ بأنَّ الجمادَ لا يكون مُساوِيًا لربِّ العالَمين في المعبودية كان أَوْلىٰ[٣].

ثم ذكَر سبحانه مثَلًا ثانيًا ضرَبه لنفسِه، ولِما يُفيضُ علىٰ عباده مِن النِّعَم الدِّينية والدُّنيوية، وللأصنام التي هي أمواتٌ لا تضُرُّ ولا تنفعُ، فقال: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٨).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢١٧).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٧٧﴾

ولمَّا تمَّ هذانِ المثَلانِ الدالَّانِ علىٰ تمامِ علمه وشمولِ قُدْرته، والقاضيانِ بأنَّ غيرَه عدَمٌ؛ عطَف علىٰ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ قولَه مصرِّحًا بتمامِ علمه وشمولِ قُدْرته: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

كان ممَّا حُكِي مِن مقالاتِ كفرِهم: أنَّهم أقسَموا بالله لا يَبعَث اللهُ مَن يموت؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ إفناءَ هذا العالَمِ العظيم وإحياءَ العظامِ وهي رميمٌ أمرٌ مستحيل، وأبطَل اللهُ ذلك علىٰ الفَوْرِ بأنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ كلِّ ما يريده، ثم انتقَل الكلامُ عَقِب ذلك إلىٰ بَسْطِ الدلائل علىٰ الوَحْدانيَّة والقدرةِ وتسلسُلِ البيان، وتفنَّنتِ الأغراضُ بالمناسبات، فكان مِن ذلك تهديدُهم بأنَّ اللهَ لو يؤاخِذُ الناسَ بظُلْمِهم ما ترَك علىٰ الأرض مِن دابَّةٍ، ولكنَّه يُمهِلُهم ويؤخِّرهم إلىٰ أجلٍ عيَّنه في علمِه لحِكْمتِه، وحذَّرهم مِن مفاجأته، فثَنَىٰ عِنانَ الكلامِ إلىٰ الاعتراض بالتذكير بأنَّ اللهَ لا يخرُجُ عن قُدْرتِه أعظَمُ فعلٍ ممَّا غاب عن إدراكهم، وأنَّ أمرَ الساعةِ التي أنكَروا إمكانَها وغرَّهم تأخيرُ حلولِها هي ممَّا لا يخرُجُ عن تصرُّفِ الله ومشيئته متىٰ شاءه؛ فذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، بحيث لم يغادِرْ شيئًا ممَّا حُكِي عنهم مِن كفرِهم وجدالهم إلا وقد بيَّنه لهم؛ استقصاءً للإعذارِ لهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ مثَلَ الكفار بالأبكَمِ العاجز، ومثَّل نفسه بالذي يأمر بالعدلِ وهو علىٰ صراطٍ مستقيم، ومعلومٌ أنَّه يمتنِعُ أن يكونَ آمرًا بالعدل

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٢٩).

وأن يكونَ علىٰ صراطٍ مستقيم إلا إذا كان كاملًا في العلمِ والقدرة؛ ذكَر في هذه الآيةِ بيانَ كونه كاملًا في العلمِ والقدرة، أمَّا بيانُ كمالِ العلم فهو قولُه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

ولمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ المثلَين، مدَح نفسَه بقولِه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولمَّا انقضىٰ توبيخُهم علىٰ إيمانِهم بالباطل وكفرانِهم بالحقِّ وما استتبَعه، وختَم بأمرِ الساعة؛ عطَف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ما هو مِن أدلَّةِ الساعة، وكمالِ القدرة، والفعلِ بالاختيار مِن النَّشأة الأُولىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

عَوْدٌ إلىٰ إكثارِ الدلائل علىٰ انفرادِ الله بالتصرُّف، وإلىٰ تَعْداد النِّعَم علىٰ البشرِ؛ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ بعدما فصَل بَيْنَ تَعْدادِ النِّعَم بما اقتضاه الحالُ مِن التذكيرِ والإنذار، وقد اعتُبِر في هذه النِّعَمِ ما فيها مِن لُطْفِ الله تعالىٰ بالناس؛ ليكونَ مِن ذلك التخلُّصُ إلىٰ الدعوةِ إلىٰ الإسلام، وبيانِ أصولِ دعوة الإسلام[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٤٩).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢١٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٢١).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣١).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ أمرَ الساعة، وأنَّها كائنةٌ لا محالةَ، فكان في ذلك دلالةٌ علىٰ النَّشأةِ الآخِرة، وتقدَّم وصفُهم بانتفاءِ العلم؛ ذكَر تعالىٰ النَّشأةَ الأُولىٰ -وهي إخراجُهم مِن بطونِ أمَّهاتهم غيرَ عالِمين شيئًا-؛ تنبيهًا علىٰ وقوعِ النَّشأة الآخِرة[1].

ثم إنَّه سبحانه ذكَر حالةً أخرىٰ للإنسان دالَّةً علىٰ غايةِ قُدْرتِه، ونهايةِ رأفتِه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن تَعْداد هذه النِّعَمِ الإعلامُ بأنَّه الفاعل بالاختيارِ وَحْدَه، لا الطبائعُ ولا غيرُها؛ دلَّهم علىٰ ذلك مضمومًا إلىٰ ما مضىٰ بقولِه مقرِّرًا لهم: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[3].

موقعُ هذه الجملةِ موقعُ التَّعليل والتَّدليل علىٰ عظيمِ قدرةِ الله وبديعِ صُنْعِه، وعلىٰ لُطفِه بالمخلوقات؛ فإنَّه لمَّا ذكَر موهبةَ العقل والحواسِّ التي بها تحصيلُ المنافع ودفعُ الأضرار، نبَّه الناسَ إلىٰ لُطفٍ يشاهِدونه أجلىٰ مشاهَدةً لأضعَفِ الحيوان؛ بأنَّ تسخيرَ الجوِّ للطير وخَلْقَها صالحةً لأن تُرفرفَ فيه بدُونِ تعليمٍ هو لُطفٌ بها اقتضاه ضَعْفُ بنياتِها؛ إذ كانت عادمةً وسائلَ الدفاع عن حياتِها، فجعَل اللهُ لها سرعةَ الانتقال مع الابتعادِ عن تناوُلِ ما يعدو عليها مِن البشَرِ والدَّوابِّ؛ فلأجلِ هذا

(١) البحر المحيط (٦/ ٥٧٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢١٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٢٣).

الموقعِ لم تُعطَفِ الجملةُ على التي قبلها؛ لأنَّها ليس في مضمونها نِعْمةٌ على البشر، ولكنَّها آيةٌ على قدرةِ الله تعالى وعلمِه (١).

ولمَّا ذكَر تعالى مداركَ العلمِ الثلاثةَ: السمعَ، والنَّظر، والعقل، والأوَّلانِ مَدرَكُ المحسوس، والثالثُ مَدرَك المعقول؛ اكتفى مِن ذِكْرِ مَدرَك المحسوس بذِكْرِ النَّظرِ؛ فإنَّه أغرَبُ؛ لِما يشاهَدُ به مِن عظيمِ المخلوقات على بُعْدِها المتفاوِت، كمشاهَدتِه النَّيِّراتِ التي في الأفلاك، وجعَل هنا موضعَ الاعتبارِ والتعجُّبِ الحيوانَ الطائر؛ فإنَّ طيرانَه في الهواء مع ثِقَلِ جسمِه ممَّا يُعجَب منه، ويُعتبَر به (٢).

ثم ذكَر سبحانه دليلًا آخرَ على كمالِ قُدْرتِه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

ولمَّا ذكَّرهم سبحانه بنِعْمةِ الإدراك بعد ابتداء الخَلْقِ، وأتبعه ما مَنَّ به على الطيرِ مِن الارتفاع الحامي لها مِن الحَرِّ؛ أتبعَه ما يسكُنون إليه فيُظِلُّهم ويَجمَعهم؛ لأنَّه أهَمُّ الأشياءِ للحيوان، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٤).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٧٥).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢١٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٢٤).

هذا مِن تَعْدادِ النِّعَم التي ألهَمَ اللهُ إليها الإنسانَ؛ وهي نِعْمةُ الفِكْرِ بصُنْعِ المنازلِ الواقية والمرفَّهة وما يُشبِهُها مِن الثيابِ والأثاث؛ عطفًا على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، وكلُّها مِن الألطاف التي أعَدَّ اللهُ لها عقلَ الإنسانِ، وهيَّأ له وسائلَها[(١)].

لمَّا ذكَر تعالى ما مَنَّ به عليهم مِن خَلْقِهم، وما خلَق لهم مِن مداركِ العلم؛ ذكَر ما امتَنَّ به عليهم ممَّا يَنتفعون به في حياتِهم مِن الأمورِ الخارجية عن دوابِّهم؛ مِن البيوت التي يسكُنونها، مِن الحجَرِ والمَدَرِ، والأخشاب وغيرِها[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن دلائلِ التوحيد، وأقسامِ النِّعَم والفضل، والسَّكَن[(٣)].

ثم بيَّن تعالى نِعْمتَه على البشر -ليستدِلَّ به على وَحْدانيَّتِه- بقولِه عطفًا على ما مَرَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾[(٤)].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾

ولمَّا ذكَر ما يخُصُّهم، أتبَعه ما يشارِكون فيه سائرَ الحيوانات، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٦).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٢).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٩٧).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٢٢٦).

وهذا امتنانٌ بنِعْمةِ الإلهام إلىٰ التَّوقِّي مِن أضرارِ الحَرِّ والقُرِّ في حالةِ الانتقال، أُعقِبت به المِنَّةُ بذلك في حالِ الإقامة والسُّكنىٰ، وبنِعْمةِ خَلْقِ الأشياء التي يكون بها ذلك التَّوقِّي باستعمالِ الموجود، وصُنْعِ ما يحتاج إليه الإنسانُ مِن اللِّباس؛ إذ خلَق اللهُ الظِّلالَ صالحةً للتَّوقِّي مِن حَرِّ الشمسِ، وخلَق الكهوفَ في الجبال ليُمكِنَ اللُّجْأُ إليها، وخلَق موادَّ اللباسِ مع الإلهام إلىٰ صناعةِ نَسْجِها، وخلَق الحديدَ لاتخاذِ الدُّروع للقتال[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما مَنَّ به عليهم ممَّا سبَق ذِكْرُه، وكانت بلادهم غالبًا عليها الحَرُّ؛ ذكَر امتنانَه عليهم بما يَقِيهم الحَرَّ؛ مِن خَلْقِ الأجرام التي لها ظِلٌّ -كالشجرِ وغيرِه- ممَّا يَمنَع مِن أذىٰ الشمس[(٢)].

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٨٢ ﴾

فلمَّا صار هذا البيانُ، إلىٰ أجلىٰ مِن العِيان؛ كان ربما وقَع في الوَهْمِ أنَّهم إن لم يُجيبوا لَحِقَ الداعيَ بسبب إعراضهم حرَجٌ، فقال تعالىٰ نافيًا لذلك، مُعرِضًا عنهم بإعراضِ المُغضَب، مُقبِلًا عليه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم إقبالَ المسلِّي، معبِّرًا بصيغةِ «التفعُّل» المُفهِمة لأنَّ الفِطَرَ الأُولىٰ داعيةٌ إلىٰ الإقبالِ علىٰ الله، فلا يُعرِض صاحبُها عمَّا يُرضِيه سبحانه إلا بنوعِ معالَجةٍ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٧٧).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٢٧-٢٢٨).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، وقَع اعتراضًا بَيْنَ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، وجملةِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [سورة النحل: ٨٤]، وقد حوَّل الخطابَ عنهم إلىٰ خطابِ النبي ﷺ، وهو نوعٌ مِن الالتفاتِ؛ فيه التفاتٌ مِن أسلوبٍ إلىٰ أسلوب، والتفاتٌ عمَّن كان الكلامُ موجَّهًا إليه بتوجيهِ الكلام إلىٰ شخصٍ آخرَ[١].

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

فكأنَّه قيل: فهل كان إعراضُهم عن جهلٍ أو عناد؟ فقيل: فيهم، وفيهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تولِّيَهم عن الإسلام مع وَفرةِ أسبابِ اتِّباعه يُثيرُ سؤالًا في نفسِ السامع: كيف خَفِيَتْ عليهم دلائلُ الإسلام؟ فيجاب بأنَّهم عرَفوا نِعْمةَ الله، ولكنَّهم أعرَضوا عنها إنكارًا ومكابَرةً[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ ذَمَّهم، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وذلك نهايةٌ في كفرانِ النِّعْمة[٤].

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ استئنافٌ لبيانِ أنَّ تولِّيَهم وإعراضَهم عن الإسلام ليس لعدَمِ معرفتهم بما عُدِّد مِن نِعَمِ الله تعالىٰ أصلًا؛ فإنَّهم يَعرِفونها، ويعترفون أنَّها مِن الله تعالىٰ[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤١).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٤).

(٥) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٣٤).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أجلِّ المقاصدِ بهذه الأساليبِ التخويفُ مِن البعث، وكان مِن المعلومِ أنَّه ليس بعد الإعراضِ عن البيان والإصرارِ على كفران المعروف مِن الإحسان إلا المجازاةُ -لأنَّ الحكيمَ يُمهِل ولا يُهمِل-؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[1].

الواوُ عاطفةٌ جملةَ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ إلخ على جملةِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾؛ بتقديرِ: واذكُرْ يومَ نَبعَث مِن كلِّ أمَّة شهيدًا؛ فالتذكير بذلك اليوم مِن البلاغ المبين؛ والمعنى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾، وسنجازي يوم ﴿نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ عليها؛ ذلك أنَّ وَصْفَ شهيدٍ يقتضي أنَّه شاهِدٌ على المؤمنين به وعلى الكافرين؛ أي: شهيدٌ؛ لأنَّه بلَّغهم رسالةَ الله[2].

لمَّا ذكَر إنكارَهم لنِعْمةِ الله تعالى، ذكَر حالَ يومِ القيامة حيث لا ينفعُ فيه الإنكارُ؛ على سبيلِ الوعيد لهم بذلك اليوم[3].

ثم أخبَر تعالى عن شأنهم في مَعادِهم بقولِه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[4].

لمَّا بيَّن سبحانه مِن حالِ هؤلاء أنَّهم عرَفوا نِعْمةَ الله ثم أنكروها، وأنَّ أكثَرهم كافرون؛ أتبَعه بأصنافِ وعيدِ يومِ القيامة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٧٩).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٣٩٩).

(٥) فتح القدير (٣/ ٢٢٣).

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

عطفٌ على جملة ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

لمَّا كانت حالةُ العذاب في الدُّنيا مخالِفةً لحالِ الآخرة -إذ مَن رأى العذابَ في الدُّنيا رجا أن يُؤخَّرَ عنه، وإن وقَع فيه أن يُخفَّفَ عنه-، أخبَر تعالى أنَّ عذابَ الآخرة لا يكون فيه تخفيفٌ ولا نَظِرةٌ[2].

ثم إنَّه تعالى أكَّد هذا الوعيدَ، فقال: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[3].

ثم وصَل به أنَّ ما يوجِبُه الغضبُ يدوم عليهم في ذلك اليوم، فقال تعالى -عاطفًا على ما بعد ﴿ثُمَّ﴾-: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[4].

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه حاصِلَ أمرِهم في البعثِ وما بعده، وكان مِن أهمِّ المهمِّ أمرُهم في الموقفِ مع شركائهم الذين كانوا يَترجَّونهم؛ عطَف على ذلك قولَه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٥).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٢٩).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٢٣٠).

﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ هم الذين ظلَموا الذين يرَوْنَ العذابَ، وهم الذين كفَروا الذين لا يؤذَنُ لهم، وإجراءُ هذه الصلاتِ الثلاث عليهم لزيادةِ التَّسجيل عليهم بأنواعِ إجرامهم الراجعةِ إلىٰ تكذيبِ ما دعَاهم اللهُ إليه، وهو نُكْتةُ الإظهارِ في مقام الإضمار هنا؛ كما تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ هذا أيضًا مِن بقيَّةِ وعيد المشركين(٢).

ثم أخبَر تعالىٰ عن تبرُّؤِ آلهتهم منهم أحوَجَ ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٣).

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

وأُعيدَ فعلُ «ألقَوْا» في قوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾؛ لاختلافِ فاعل الإلقاء؛ فضميرُ القولِ الثاني عائدٌ إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾، ولك أن تجعَلَ فعلَ «ألقَوا» الثاني مماثِلًا لفعل «ألقوا» السابق، ولك أن تجعلَ الإلقاءَ تمثيلًا لحالهم بحالِ المحارِب إذا غُلِب إذ يُلقِي سلاحه بَيْنَ يدَيْ غالبِه؛ ففي قولِه: «ألقَوا» مكنيَّةٌ تمثيليَّة، مع ما في لفظِ «ألقوا» مِن المشاكَلة(٤).

فحينئذٍ استسلَموا لله، وخضَعوا لحُكْمِه، وعَلِموا أنَّهم مستحِقُّون للعذاب، ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٤).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٤٦).

فلمَّا ظهَرتْ عند ذلك فضيحةُ الكفار بتكذيبِ مَن عبَدوها بأنَّها لم تكُنْ آلهةً، ولا أمَرتْهم بعبادتِها؛ استسلَموا وخضَعوا، ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: هذا لِلَّذين أشرَكوا، فما للذين كانوا دُعاةً إلىٰ الشركِ مانعين مِن الانتقالِ عنه؟ فقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾(١).

لمَّا ذكَر العذابَ الذين هم لاقُوهُ علىٰ كفرِهم، استأنَف هنا بذِكْرِ زيادةِ العذاب لهم علىٰ الزيادةِ في كفرهم بأنَّهم يصُدُّون الناسَ عن اتِّباع الإسلام، وهو المرادُ بالصَّدِّ عن سبيل الله؛ أي: السبيلِ الموصلة إلىٰ الله؛ أي: إلىٰ الكونِ في أوليائه وحِزْبه؛ والمقصود: تنبيهُ المسلمين إلىٰ كيدِهم وإفسادهم، والتَّعريضُ بالتَّحذير مِن الوقوع في شِراكِهم(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر وعيدَ الذين كفَروا، أتبَعه بوعيدِ مَن ضَمَّ إلىٰ كفرِه صَدَّ الغيرِ عن سبيل الله(٣).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم كرَّر التَّحذيرَ مِن ذلك اليومِ علىٰ وجهٍ يَزيدُ علىٰ ما أفهَمتْهُ الآيةُ السالفة؛ وهو أنَّ الشَّهادةَ تقع علىٰ الأُمَمِ، لا لهم، وتكون بحضرتِهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٧).

أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

تكريرٌ لجملة ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾؛ ليُبنىٰ عليه عطفُ جملةِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ علىٰ جملةِ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم ﴾، ولمَّا كان تكريرًا، أُعيدَ نظيرُ الجملة علىٰ صورةِ الجملة المؤكَّدة مقترنةً بالواو، ولأنَّ في هذه الجملةِ زيادةَ وصفِ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، فحصَلتْ مغايَرةٌ مع الجملةِ السابقة، والمغايَرة مقتضيةٌ للعطف أيضًا، ومِن دواعي تكريرِ مضمون الجملة السابقة أنَّه لبُعْدِ ما بَيْنَ الجملتين بما اعترَض بينهما مِن قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾، فهو كالإعادةِ، مع أنَّ الإعادةَ هنا أجدَرُ؛ لأنَّ الفصلَ أطوَلُ، وقد حصَل مِن هذه الإعادةِ تأكيدُ التَّهديد والتَّسجيل[2].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ فضلَ هذا القرآنِ بما يَقطَع حُجَّتَهم، وكان قد قدَّم فضلَ مَن يأمرُ بالعدل وهو علىٰ صراطٍ مستقيم؛ أخَذ يبيِّنُ اتصافَ القرآن ببيانِ كلِّ شيءٍ، وتضمُّنَه لذلك الطريقِ الأقوَمِ، فقال تعالىٰ جامعًا لِما يتصلُ بالتَّكاليف فرضًا ونفلًا، وما يتصلُ بالأخلاقِ والآداب عمومًا وخصوصًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٠).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٣٥).

لمَّا جاء أنَّ هذا القرآنَ تِبْيانٌ لكلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةٌ وبُشرَىٰ للمسلمين، حسُنَ التَّخلُّصُ إلىٰ تبيانِ أصول الهدىٰ في التَّشريع للدِّين الإسلامي، العائدةِ إلىٰ الأمر والنَّهيِ؛ إذ الشريعة كلُّها أمرٌ ونَهْيٌ، والتقوىٰ منحصِرةٌ في الامتثالِ والاجتناب؛ فهذه الآية استئنافٌ لبيانِ كونِ الكتاب تبيانًا لكلِّ شيءٍ، فهي جامعةٌ أصولَ التَّشريع[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا استقصىٰ في شرحِ الوعدِ والوعيد والتَّرغيبِ والتَّرهيب، أتبعه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، فجمَع في هذه الآيةِ ما يتَّصِلُ بالتَّكليفِ فرضًا ونفلًا، وما يتَّصل بالأخلاقِ والآداب عمومًا وخصوصًا[(٢)].

ثم لمَّا ذكَر سبحانه أنَّ في القرآنِ تِبْيانَ كلِّ شيءٍ، ذكَر عَقِبه آيةً جامعةً لأصولِ التَّكليف كلِّها تصديقًا لذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[(٣)].

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾

ولمَّا تقرَّرتْ هذه الجُمَلُ التي جمَعتْ -بجَمْعِها للمأمورات والمنهيَّات- ما تَضِيقُ عنه الدفاترُ والصدور، وشَهِد لها المعانِدون مِن بُلَغاءِ العرب أنَّها بلَغتْ قاموسَ البحر، وتعالَتْ عن طَوْقِ البشر؛ عطَف علىٰ ما أفهَمَه السياقُ -مِن نحوِ: فتذكَّروا أو فالزَموا ما أُمِرْتم به، ونابِذوا ما نُهيتم عنه- بعضَ ما أجمَلتْهُ، وبدأ بما هو مع جَمْعِه أهَمُّ؛ وهو الوفاءُ بالعهد الذي يَفهَم منه العلماءُ بالله ما دلَّ عليه العقلُ مِن الحُجَجِ القاطعة بالتوحيد، وصِدْقِ الرُّسل، ووجوبِ اتباعهم، فكانت أعظَمَ العهود، ويَفهَم

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٥٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٢٤).

منه غيرُهم ما يَتعارفونه ممَّا يَجري بينهم مِن المواثيقِ، فإذا ساروا فيها بما أمَر سبحانه، وتحرَّوْا رِضاه علمًا منهم بأنَّه العدلُ؛ قادهم ذلك إلىٰ رُتْبةِ الأوَّلين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[1].

لمَّا أمَر اللهُ المؤمنين بمِلاكِ المصالح، ونهاهم عن مِلاكِ المفاسد بما أومأ إليه قولُه: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، فكان ذلك مناسبةً حسَنة لهذا الانتقالِ، الذي هو مِن أغراضِ تفنُّنِ القرآن، وأوضَح لهم أنَّهم قد صاروا إلىٰ كمالٍ وخيرٍ بذلك الكتابِ المبينِ لكلِّ شيءٍ؛ لا جرَمَ ذكَّرهم الوفاءَ بالعهد الذي عاهَدوا اللهَ عليه عندما أسلَموا؛ وهو ما بايَعوا عليه النبيَّ ﷺ، ممَّا فيه: ألَّا يَعصُوه في معروفٍ، وقد كان النبيُّ ﷺ يأخذ البَيْعةَ علىٰ كلِّ مَن أسلَم مِن وقتِ ابتداءِ الإسلام في مكَّةَ[2].

لمَّا جمَع كلَّ المأمورات والمنهيَّات في الآيةِ الأُولىٰ علىٰ سبيل الإجمال، ذكَر في هذه الآيةِ بعضَ تلك الأقسامِ؛ فبدأ تعالىٰ بالأمرِ بالوفاء بالعهد[3].

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ولمَّا أمَر بالوفاء ونهىٰ عن النَّقض، شرَع في تأكيدِ وجوبِ الوفاء وتحريمِ النَّقض وتقبيحِه؛ تنفيرًا منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦٣).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٤٢).

تشنيعٌ لحالِ الذين ينقُضون العهدَ، وعطفٌ على جملةِ ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، واعتمَد العطفُ على المغايَرةِ في المعنى بَيْنَ الجملتين؛ لِما في هذه الثانيةِ مِن التمثيل، وإن كانت مِن جهةِ الموقع كالتوكيدِ لجملة ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، نُهُوا عن أن يكونوا مَضرِبَ مثَلٍ معروفٍ في العربِ بالاستهزاء؛ وهو المرأة التي تنقُضُ غزْلَها بعد شَدِّ فتْلِه[1].

ثم إنَّه تعالى أكَّد وجوبَ الوفاء، وتحريمَ النَّقض، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾[2].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ولمَّا أمَر ونهى، وخوَّف مِن العذابِ في القيامة، وكان ربما ظَنَّ مَن لا عِلْمَ له -وهم الأكثر- مِن كثرةِ التصريح بالحَوالةِ على القيامة نَقْصَ القدرةِ في هذه الدارِ؛ صرَّح بنفْيِ ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

لمَّا أحال البيانَ إلى يومِ القيامة، زادهم إعلامًا بحِكْمةِ هذا التأخيرِ، فأعلَمَهم أنَّه قادرٌ على أن يبيِّنَ لهم الحقَّ مِن هذه الدارِ، فيَجعَلَهم أمَّةً واحدة، ولكنَّه أضَلَّ مَن شاء؛ أي: خلَق فيه داعيةَ الضَّلال، وهدَى مَن شاء؛ أي: خلَق فيه داعيةَ الهدى، وأحال الأمرَ هنا على المشيئة إجمالًا؛ لتعذُّرِ نشرِ مطاوي الحِكْمةِ مِن ذلك[4].

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا كلَّف القومَ بالوفاءِ بالعهد وتحريمِ نَقْضِه، أتبَعه ببيانِ أنَّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ أن يَجمَعَهم علىٰ هذا الوفاءِ، وعلىٰ سائر أبواب الإيمان، ولكنَّه سبحانه بحُكْمِ الإلهيَّة يُضِلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَن يشاء(١).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ الكذبَ وما جَرَّ إليه أقبَحُ القبائح، وأبعَدُ الأشياء عن المكارم، وكان مِن أعظَمِ أسباب الخلاف، فكان أمرُه جديرًا بالتأكيد؛ أعاد الزَّجْرَ عنه بأبلَغَ ممَّا مضىٰ بصريحِ النَّهْيِ مرهِّبًا ممَّا يَترتَّب علىٰ ذلك، فقال معبِّرًا بالافتعال إشارةً إلىٰ أنَّ ذلك لا يُفعَلُ إلا بعلاجٍ شديد مِن النفس؛ لأنَّ الفِطْرةَ السليمة يَشتدُّ نِفارُها منه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

لمَّا حذَّرهم مِن النَّقْضِ الذي يؤُولُ إلىٰ اتخاذِ أيمانهم دخَلًا فيهم، وأشار بالإجمال إلىٰ ما في ذلك مِن الفسادِ فيهم؛ أعاد الكَرَّةَ إلىٰ بيانِ عاقبةِ ذلك الصنيعِ إعادةً تفيد التصريحَ بالنَّهْيِ عن ذلك، وتأكيدَ التحذير، وتفصيلَ الفساد في الدُّنيا، وسُوءَ العاقبةِ في الآخرة؛ فكان قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ تصريحًا بالنَّهي(٣).

جاء النَّهيُ بقولِه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ استئنافَ إنشاءٍ عن اتخاذِ الأيمان دخَلًا علىٰ العموم، فيَشمَل جميعَ الصُّوَرِ: مِن الحَلِفِ في المبايَعة، وقَطْعِ الحقوقِ المالية، وغيرِ ذلك(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٨).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٥٩٠).

لمَّا حذَّر في الآيةِ الأُولىٰ عن نَقْضِ العهود والأيمانِ علىٰ الإطلاق، حذَّر في هذه الآيةِ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، وليس المرادُ منه التحذيرَ عن نقضِ مطلَقِ الأيمان، وإلا لَزِم التكريرُ الخالي عن الفائدةِ في موضعٍ واحد؛ بل المرادُ نَهْيُ أولئك الأقوام المخاطَبين بهذا الخطابِ عن نَقْضِ أيمانٍ مخصوصة أقدَموا عليها(١).

ثم لمَّا نهاهم سبحانه عن نَقْضِ مطلَقِ الأيمان، نهاهم عن نَقْضِ أيمانٍ مخصوصة، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ وهي أيمانُ البَيْعة(٢).

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾

ولمَّا كان هذا خاصًّا بالأيمان، أتبَعه النَّهْيَ عن الخيانةِ في عمومِ العهد تأكيدًا بعد تأكيدٍ؛ للدلالة علىٰ عظيمِ النَّقض، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾(٣).

الثَّمَنُ القليل هو ما يَعِدُهم به المشركون إن رجَعوا عن الإسلام مِن مالٍ وهناءِ عيشٍ، وهذا نَهْيٌ عن نَقْضِ عهدِ الإسلام لأجلِ ما فاتهم بدخولِهم في الإسلام مِن منافعَ عند قومِ الشرك، وبهذا الاعتبارِ عُطِفتْ هذه الجملةُ علىٰ جملة ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾، وعلىٰ جملة ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ منها تلتفِتُ إلىٰ غرضٍ خاصٍّ ممَّا قد يَبعَثُ علىٰ النَّقض(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٢٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧١).

ثم أكَّد هذا التحذيرَ، فقال: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾؛ يريد: عرَضَ الدُّنيا وإن كان كثيرًا، إلا أنَّ ما ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ثم نهاهم سبحانه عن الميلِ إلىٰ عرَضِ الدُّنيا، والرجوعِ عن العهد لأجلِه، فقال: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾(٢).

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

ثم بيَّن خيريَّتَه وكثرتَه بقولِه تعالىٰ -علىٰ سبيل التَّعليل-: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ تذييلٌ وتعليل لمضمونِ جملة ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ بأنَّ ما عند الله لهم خيرٌ متجدِّد لا نفادَ له، وأنَّ ما يُعطيهم المشركون محدودٌ نافد؛ لأنَّ خزائنَ الناسِ صائرةٌ إلىٰ النَّفاد بالإعطاءِ، وخزائنَ اللهِ باقيةٌ(٤).

ثم ذكَر الدليلَ القاطع علىٰ أنَّ ما عند الله خيرٌ ممَّا يجدونه مِن طيِّباتِ الدُّنيا، فقال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(٥).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

ولمَّا وعَد بعد أن توعَّد، أتبَعه ما يبيِّنُ أنَّ ذلك لا يخُصُّ شريفًا ولا وضيعًا، وإنَّما هو دائرٌ مع الوصفِ الذي رمَز إليه فيما مضىٰ بالعدلِ تارةً، وبالعهدِ أخرىٰ؛ وهو

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٢٦٦).
(٢) فتح القدير (٣/ ٢٢٩).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٤٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧٠).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٦٦).

الإيمانُ، فقال تعالىٰ جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هذا خاصٌّ بأحدٍ دُونَ أحد، مرغِّبًا في عمومِ شرائعِ الإسلام: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

لمَّا كان الوعدُ المتقدِّم بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ خاصًّا بأولئك الذين نُهُوا عن أن يَشتروا بعهدِ الله ثمنًا قليلًا، عقَّب بتعميمِه لكلِّ مَن ساواهم في الثَّباتِ علىٰ الإسلامِ والعمل الصالح مع التبيينِ للأجرِ، فكانت هذه الجملةُ بمنزلةِ التذييلِ للتي قبلها، والبيانِ لِما تضمَّنتْهُ مِن مُجمَلِ الأجر، وكِلا الاعتبارينِ يُوجِب فَصْلَها عمَّا قبلها[٢].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ هذا شروعٌ في تحريضِ كافَّةِ المؤمنين علىٰ كلِّ عملٍ صالح غِبَّ ترغيبِ طائفةٍ منهم في الثَّبات علىٰ ما هم عليه مِن عملٍ صالح مخصوص؛ دفعًا لتوهُّمِ اختصاصِ الأجر الموفورِ بهم، وبعملِهم المذكور[٣].

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

ولمَّا تقرَّرتْ هذه الأحكامُ علىٰ هذه الوجوهِ الجليلة، وأشارت بحُسْنِ ألفاظها وشرَفِ سياقها إلىٰ أغراضٍ هي مع جلالتها غامضةٌ دقيقة، فلاحَ بذلك أنَّ القرآنَ تِبْيانٌ لكلِّ شيء في حقِّ مَن سَلِم مِن غوائلِ الهوىٰ وحبائلِ الشيطان، وختَم ذلك بالحثِّ علىٰ العمل الصالح، وكان القرآنُ -تلاوةً وتفكُّرًا وعملًا بما ضُمِّن- أجَلَّ الأعمالِ الصالحة؛ تسبَّب عن ذلك الأمرُ بأنَّه إذا قُرِئ هذا القرآن المُنزَّل علىٰ مثلِ

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٤٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٣٩).

تلك الأساليبِ الفائقة يُستعاذ مِن الشيطانِ؛ لئلا يحُولَ بوساوسِه بَيْنَ القارئ وبَيْنَ مثلِ تلك الأغراضِ والعملِ بها، وحاصلُه الحثُّ علىٰ التدبُّر، وصَرْفِ جميعِ الفِكر إلىٰ التفهُّم، والالتجاءِ إليه تعالىٰ في كلِّ عملٍ صالح؛ لئلا يُفسِدَه الشيطانُ بوساوسه، أو يحُولَ بَيْنَ الفَهْمِ وبينه؛ بيانًا لقَدْرِ الأعمال الصالحة، وحثًّا علىٰ الإخلاصِ فيها، وتشميرِ الذَّيْلِ عند قصدِها، لا سيَّما أفعال القلوب التي هي أغلَبُ ما تقدَّم هنا، فقال تعالىٰ مخاطِبًا لأشرَفِ خَلْقِه ليَفهَم غيرُه مِن بابِ الأَوْلىٰ، فيكونَ أبلَغَ في حثِّه، وأدعىٰ إلىٰ اتباعِه: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[1].

موقعُ فاءِ التفريع هنا خَفِيٌّ ودقيق؛ ولذلك تصدىٰ بعضُ حُذَّاق المفسِّرين إلىٰ البحثِ عنه، فقال في «الكشاف»: «لمَّا ذكَر العملَ الصالح ووعَد عليه، وصَل به قولَه تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾؛ إيذانًا بأنَّ الاستعاذةَ مِن جملةِ الأعمال التي يجزلُ عليها الثواب» اهـ. وهو إبداءُ مناسبةٍ ضعيفة لا تقتضي تمكُّنَ ارتباطِ أجزاء النَّظم. وقال فخرُ الدِّين: «لمَّا قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، أرشَد إلىٰ العلمِ الذي تخلُصُ به الأعمالُ مِن الوسواس» اهـ. وهو أمكَنُ مِن كلام «الكشاف». وزاد أبو السُّعودِ: «لمَّا كان مدارُ الجزاء هو حُسْنَ العملِ، رتَّب عليه الإرشادَ إلىٰ ما به يحسُنُ العمَلُ الصالح؛ بأن يخلُصَ مِن شَوْبِ الفساد». وفي كلاميهما مِن الوَهْنِ أنَّه لا وجهَ لتخصيصِ الاستعاذة بإرادةِ قراءة القرآن. وقول ابنِ عطيَّةَ: «الفاء في ﴿ فَإِذَا ﴾ واصلةٌ بَيْنَ الكلامينِ، والعربُ تستعملها في مثلِ هذا». فتكونُ الفاءُ علىٰ هذا لمجردِ وصلِ كلامٍ بكلام، واستشهَد له بالاستعمال، والعُهْدةُ عليه. وقال شرَفُ الدِّينِ الطِّيبيُّ: «قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ متصِلٌ بالفاء بما

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

سبَق مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ لمَّا مَنَّ علىٰ النبي ﷺ بإنزالِ كتابٍ جامع لصفاتِ الكمال، وأنَّه تِبْيانٌ لكلِّ شيء، ونبَّه علىٰ أنَّه تِبْيانٌ لكلِّ شيء بالكلمةِ الجامعة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآيةَ، وعطَف عليه ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾، وأكَّده ذلك التأكيدَ؛ قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: إذا شرَعتَ في قراءةِ هذا الكتاب الشريف الجامعِ الذي نُبِّهتَ علىٰ بعضِ ما اشتمَل عليه، ونازَعك فيه الشيطانُ بهَمْزِه ونَفْثِه؛ فاستعِذْ باللهِ منه، والمقصودُ إرشادُ الأمَّة» اهـ. وهذا أحسَنُ الوجوه، وقد انقدَح في فكري قبل مطالَعةِ كلامه، ثم وجَدتُه في كلامه، فحَمِدتُ اللهَ، وترحَّمْتُه عليه؛ وعليه فما بَيْنَ جملةِ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ إلخ، وجملةِ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: جملةٌ معترِضة، والمقصودُ بالتفريعِ: الشروعُ في التنويهِ بالقرآن(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وذكَر أشياءَ ممَّا بيَّن في الكتابِ، ثم ذكَر قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ ذكَر ما يصُونُ به القارئُ قراءتَه مِن وسوسةِ الشيطان ونَزْغِه، فخاطَب السامعَ بالاستعاذة منه إذا أخَذ في القراءة. فإن كان الخطابُ للرسول ﷺ لفظًا، فالمرادُ أمَّتُه(٢).

لمَّا قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أرشَد إلىٰ العملِ الذي به تخلُصُ أعمالُه عن الوساوسِ، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٩٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٦٨).

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك ربما أوهَم تعظيمَه، نفىٰ ذلك بقولِه -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هل له سلطان؟-: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾ الآية، تعليلٌ للأمرِ بالاستعاذة مِن الشيطان عند إرادةِ قراءة القرآن، وبيانٌ لصفةِ الاستعاذة[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر رسولَه ﷺ بالاستعاذةِ مِن الشيطان، وكان ذلك يُوهِمُ أنَّ للشيطان قدرةً علىٰ التَّصرف في أبدانِ الناس؛ فأزال اللهُ تعالىٰ هذا الوهمَ، وبيَّن أنَّه لا قدرةَ له البتَّةَ إلا علىٰ الوسوسةِ، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(٣)].

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ثم وصَل بذلك ما أفهَمه مِن أنَّ له سلطانًا علىٰ غيرهم، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ مضمونَ الجملة قبلها يُثير سؤالَ سائلٍ يقول: فسلطانُه علىٰ مَن؟[(٥)].

ثم حصَر سبحانه سلطانَ الشيطان، فقال: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٦٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٥٣).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧٩).

(٦) فتح القدير (٣/ ٢٢٤).

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾

استمَرَّ الكلامُ علىٰ شأنِ القرآن، وتنزيهِه عمَّا يُوسوسه الشيطانُ في الصدِّ عن متابَعتِه(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ إنزالَ الكتاب تبيينًا لكلِّ شيء، وأمَر بالاستعاذةِ عند قراءته؛ ذكَر تعالىٰ نتيجةَ وَلايةِ الشيطان لأوليائه المشركين، وما يُلقِيه إليهم مِن الأباطيلِ، فألقىٰ إليهم إنكارَ النَّسْخ لمَّا رأَوْا تبديلَ آيةٍ مكانَ آية(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ شرَع مِن هذا الموضعِ في حكايةِ شُبهاتِ منكِري نبوَّة محمَّدٍ ﷺ(٣).

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

فكأنَّه قيل: فما أقول؟ فقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٤).

جوابٌ عن قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭ﴾؛ فلذلك فُصِل فعلُ ﴿ قُلْ ﴾؛ لوقوعه في المحاوَرة؛ أي: قل لهم: لستُ بمُفْترٍ، ولا القرآنُ بافتراءٍ؛ بل ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ مِن الله، وفي أمرِه بأن يقولَ لهم ذلك شَدٌّ لعزمِه؛ لكيلا يكونَ تجاوزُه الحدَّ في البهتان صارفًا إيَّاه عن محاوَرتِهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٠).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٤).

ثم بيَّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حِكْمةِ النَّسخ، الزاعمين أنَّ ذلك لم يكُنْ مِن عندِ الله، وأنَّ رسولَه ﷺ افتراه، فقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

ولمَّا نقَض شُبْهتَهم هذه إشارةً وعبارةً بما فضَحهم، نقَض لهم شُبْهةً أخرىٰ بأوضَحَ مِن ذلك وأفضَحَ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾، وهذا إبطالٌ لتلبيسٍ آخَرَ ممَّا يُلبِّسون به علىٰ عامَّتِهم؛ وذلك أن يقولوا: إنَّ محمَّدًا يَتلقَّىٰ القرآنَ مِن رجُلٍ مِن أهلِ مكَّةَ[3].

اعلَمْ أنَّ المراد مِن هذه الآيةِ حكايةُ شُبْهةٍ أخرىٰ مِن شُبهاتِ منكِري نبوَّة محمَّدٍ ﷺ؛ وذلك لأنَّهم كانوا يقولون: إنَّ محمَّدًا إنَّما يذكُرُ هذه القِصَصَ وهذه الكلماتِ لأنَّه يستفيدها مِن إنسانٍ آخَرَ، ويتعلَّمها منه[4].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

فلمَّا بانت بهذا فضيحتُهم، كان كأنَّه قيل: إنَّ مِن العجَبِ إقدامَهم علىٰ مثلِ هذا العارِ وهم يَدَّعُون النزاهةَ؟ فأجاب بقولِه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٣٢).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧١).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٢٥٧).

جملةٌ معترِضةٌ، وورودُ هذه الآيةِ عَقِب ذِكْرِ اختلاق المتقعِّرين على القرآنِ المرجِفِين بالقالةِ فيه بَيْنَ الدَّهْماء يومئ إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هم أولئك المردودُ عليهم آنفًا، وهم فريقٌ معلوم بشِدَّةِ العداوة للنبيِّ ﷺ، وبالتصلُّب في التصدي لصرفِ الناس عنه، بحيث بلَغوا مِن الكفرِ غايةً ما وراءها غايةٌ، فحَقَّتْ عليهم كلمةُ الله أنَّهم لا يؤمنون، فهؤلاء فريقٌ غيرُ مُعيَّنٍ يومئذٍ، ولكنَّهم مشار إليهم على وجهِ الإجمال، وتكشِف عن تعيينِهم عواقبُ أحوالهم(١).

ولمَّا ذكَر سبحانه جوابَهم، وبَّخهم وهدَّدهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا زيَّف شُبَهَهم، أثبَتَ لهم ما قذَفوه به وهو بريءٌ منه مقصورًا عليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾(٣).

هذا ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ بقلبِ ما زعَموه عليهم؛ كما كان قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾. فبَعْدَ أنْ نُزِّه القرآنُ عن أن يكونَ مفترًى، والمُنزَّلُ عليه عن أن يكونَ مُفتريًا؛ ثُنِيَ العِنانُ لبيانِ مَن هو المفتري، وهذا مِن طريقةِ القلب في الحال. ووجهُ مناسبة ذِكره

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٨).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٣٣).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٥٧).

هنا: أنَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يستلزمُ تكذيبَ النبي ﷺ في أنَّ ما جاء به منزَّلٌ إليه مِن عندِ الله، فصاروا بهذا الاعتبارِ يؤكِّدون بمضمونه قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ فيؤكِّدُ أحدُ القولينِ القولَ الآخر، فلمَّا رُدَّ قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، ورُدَّتْ مقالتُهم الأخرىٰ في صريحِها بقولِه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾، ورُدَّ مضمونُها هنا بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية، حصَل به رَدُّ نظيرِها -أعني قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾- بكلامٍ أبلغَ مِن كلامهم(١).

ثم لمَّا وقَع منهم نسبةُ الافتراءِ إلىٰ رسول الله ﷺ، رَدَّ عليهم بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾(٢).

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾

ولمَّا ذكَر الذين لا يؤمنون مطلقًا، أتبَعهم صِنْفًا منهم هم أشَدُّهم كفرًا، فقال تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٣).

لمَّا سبَق التحذيرُ مِن نَقْضِ عهدِ الله الذي عاهَدوه، وألا يغُرَّهم ما لأمَّةِ المشركين مِن السَّعةِ والربو، والتحذيرُ مِن زَلَلِ القَدَمِ بعد ثبوتها، وبُشِّروا بالوعدِ بحياةٍ طيبة،

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٣٣).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٥٨).

وجزاءِ أعمالهم الصالحة مِن الإشارة إلىٰ التمسُّك بالقرآن والاهتداءِ به، وألا تغُرَّهم شُبَهُ المشركين وفُتُونُهم في تكذيب القرآن؛ عقَّب ذلك بالوعيدِ علىٰ الكفر بعد الإيمان؛ فالكلام استئنافٌ ابتدائيٌّ (١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عظَّم تهديدَ الكافرين، ذكَر في هذه الآيةِ تفصيلًا في بيانِ مَن يكفُرُ بلسانه لا بقلبِه، ومَن يكفُرُ بلسانه وقلبه معًا (٢).

لمَّا بيَّن تعالىٰ فَضْلَ مَن آمَن وصبَر علىٰ أذىٰ المشركين في المحاماةِ عن الدِّين، تأثَّره ببيانِ ما للرِّدَّةِ وإيثارِ الضَّلال علىٰ الهدىٰ مِن الوعيدِ الشَّديد بهذه الآياتِ (٣).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾

ولمَّا كان مَن يَرجِع إلىٰ الظُّلمات بعد خروجه منها إلىٰ النور جديرًا بالتعجُّب منه، كان كأنَّه قيل: لِمَ يفعَلون، أو لِمَ يُفعَل بهم ذلك؟ فقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الارتدادُ أو الوعيد العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (٤).

هذه الجملةُ واقعةٌ موقعَ التَّعليل؛ فلذلك فُصِلتْ عن التي قبلها، وإشارةُ ذلك إلىٰ مضمونِ قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٣).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤١١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٦).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ ﴾

ولمَّا كان استمرارُهم على الكفرِ أعجَبَ مِن ارتدادِهم، أتبَعه سببَه فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1].

جملةٌ مبيِّنة لجملةِ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ بأنَّ حرمانَهم الهدايةَ بحرمانِهم الانتفاعَ بوسائلها: مِن النظرِ الصادق في دلائلِ الوَحْدانيَّة، ومِن الوعيِ لدعوةِ الرسول ﷺ والقرآنِ المنزَّل عليه، ومِن ثباتِ القلب على حفظِ ما داخَلَه مِن الإيمان، حيث انسلَخوا منه بعد أن تلبَّسوا به[2].

ثم وصَفهم بقولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[3].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ﴾

ثم أتبَع ذلك جزاءَهم عليه، فقال تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[4].

جملةُ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ واقعةٌ موقعَ النتيجة لِما قبلها؛ لأنَّ ما قبلها صار كالدَّليلِ على مضمونها؛ ولذلك افتُتحت بكلمةِ نَفْيِ الشكِّ[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٣٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٨).

ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، واعلَمْ أنَّ الموجِبَ لهذا الخسران هو أنَّ اللهَ تعالىٰ وصَفهم في الآيات المتقدِّمة بصفاتٍ ستة: الصفة الأولىٰ: أنَّهم استوجَبوا غضَبَ الله. والصفة الثانية: أنَّهم استحَقُّوا العذابَ الأليم. والصفة الثالثة: أنَّهم استحَبُّوا الحياةَ الدُّنيا علىٰ الآخرة. والصفة الرابعة: أنَّه تعالىٰ حرَمهم مِن الهداية. والصفة الخامسة: أنَّه تعالىٰ طبَع علىٰ قلوبهم وسَمْعِهم وأبصارهم. والصفة السادسة: أنَّه جعَلهم مِن الغافلين عمَّا يراد بهم مِن العذاب الشديدِ يوم القيامة. فلا جرَمَ لا يَسعَوْنَ في دفعِها؛ فثبَت أنَّه حصَل في حقِّهم هذه الصفاتُ الستة، التي كلُّ واحدٍ منها مِن أعظَمِ الأحوال المانعة عن الفوزِ بالخيرات والسعادات، ومعلومٌ أنَّه تعالىٰ إنَّما أدخَل الإنسانَ الدُّنيا ليكونَ كالتاجرِ الذي يشتري بطاعاتِه سعاداتِ الآخرة، فإذا حصَلتْ هذه الموانعُ العظيمة، عظُمَ خسرانُه؛ فلهذا السَّببِ قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾

ولمَّا قدَّم الفاتنَ والمفتون، أتبَع ذلك ذِكْرَ حُكْمِهما علىٰ القراءتين، فقال تعالىٰ -بحرفِ التراخي إشارةً إلىٰ تقاصُرِ رتبتِهما عن رتبةِ مَن لم يَفعَلْ ذلك-: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ حالَ مَن كفَر بعد الإيمان، وحالَ مَن أُكرِهَ؛ ذكَر حالَ مَن هاجَر بعدما فُتِن[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٧).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٦١).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٦٠٠).

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١ ﴾

ولمَّا تقدَّم كثيرٌ مِن التحذير والتبشير، وتقدَّم أنَّه لا يُؤذَن للذين كفَروا ولا هم يُستعتبون، وختَم ذلك بانحصارِ الخَسار في الكفار؛ بيَّن اليومَ الذي تَظهَر فيه تلك الآثارُ، ووصَفه بغيرِ الوصف المقدَّم باعتبارِ المواقف، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

يجوز أن يكونَ هذا استئنافًا وتذييلًا بتقدير: اذكُرْ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، وقَع عَقِب التحذيرِ والوعيد وعيدًا للذين أُنذِروا ووعدًا للذين بُشِّروا. ويجوز أن يكونَ متصلًا بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فيكون انتصابُ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ على الظَّرفية ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: يَغفِر لهم ويَرحَمهم يومَ القيامة بحيث لا يجدون أثرًا لذُنوبِهم[2].

﴿ ۞ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢ ﴾

ولمَّا عقَّب سبحانه ما ضرَب سابقًا مِن الأمثال، وتلاه بذِكْرِ الساعة، واستمَرَّ فيما مضَتْ مناسباتُه آخِذًا بعضُه بحُجَزِ بعضٍ حتى ختَم بالساعةِ، وآمَنَ مِن الظُّلْمِ فيها، وبيَّن أنَّ الأعمالَ هناك هي مناطُ الجزاء؛ عطَف على ما مضى -مِن الأمثال المفروضة المقدَّرة المرغبة- مثَلًا محسوسًا موجودًا، مبيِّنًا أنَّ الأعمالَ في هذه

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠١).

الدار أيضًا مناطُ الجزاء، مرهِّبًا مِن المعاجَلةِ فيها بسَوْطٍ مِن العذاب، فقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[(١)].

عطفُ عِظَةٍ علىٰ عظةٍ، والمعطوفُ عليها هي جُمَلُ الامتنانِ بنِعَمِ الله تعالىٰ عليهم وما اتصل بها، فانتقَل الكلامُ بعد ذلك بتهديدٍ، فبَعْدَ أن توعَّدهم بقوارعِ الوعيد، عاد الكلامُ إلىٰ تهديدِهم بعذابٍ في الدُّنيا؛ بأنْ جعَلهم مَضرِبَ مثَلٍ لقرية عُذِّبتْ عذابَ الدُّنيا، أو جعَلهم مثَلًا وعِظةً لِمَن يأتي بمِثْلِ ما أتَوْا به مِن إنكارِ نِعْمة الله[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا هدَّد الكفارَ بالوعيد الشديد في الآخرة، هدَّدهم أيضًا بآفاتِ الدُّنيا؛ وهو الوقوعُ في الجوعِ والخوف؛ كما ذكَره في هذه الآيةِ[(٣)].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ولمَّا كان تعالىٰ لا يُعذِّب حتىٰ يَبعَثَ رسولًا، حقَّق ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[(٤)].

لمَّا أخبَر عنهم بأنَّهم أُذيقوا لباسَ الجوعِ والخوف بما كانوا يَصنَعون، وكان إنَّما ذكَر مِن صُنْعِهم أنَّهم كفَروا بأنعُمِ الله؛ زِيدَ هنا أنَّ ما كانوا يَصنَعون عامٌّ لكلِّ عملٍ لا يُرضي اللهَ، غيرَ مخصوصٍ بكفرِهم نِعْمةَ الله، وإنَّ مِن أشنَعِ ما كانوا يَصنَعون

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٨).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٦٦).

تكذيبَهم رسولَ الله ﷺ مع أنَّه منهم، وذلك أظهَرُ في معنىٰ الإنعامِ عليهم والرِّفْقِ بهم، وما مِن قريةٍ أُهلِكتْ إلا وقد جاءها رسولٌ مِن أهلها[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر المثَلَ، ذكَر المُمثَّلَ، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[(٢)].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

ولمَّا تقرَّر بما مضىٰ مِن أدلةِ التوحيد، فثبَت ثباتًا لا يَتطرَّق إليه شكٌّ أنَّ اللهَ هو الإلهُ وَحْدَه كما أنَّه هو الرازقُ وحده، ونبَّههم علىٰ دقائقَ في تقديرِه للأرزاق تدلُّ علىٰ عظَمتِه، وشمولِ علمه وقُدْرتِه، واختيارِه، فثبَت أنَّهم ظالمون فيما جعَلوا للأصنام مِن رزقِه، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يَتحرَّكَ إلا بأمرِه سبحانه، وختَم ذلك بهذا المثَلِ المحذِّرِ مِن كفرانِ النِّعم؛ عقَّبه بقولِه تعالىٰ صادًّا لهم عن أفعالِ الجاهليَّة: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[(٣)].

تفريعٌ علىٰ الموعظةِ وضربِ المثَلِ، وخوطب به فريقٌ مِن المسلمين؛ كما دل عليه قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ولعلَّ هذا موجَّهٌ إلىٰ أهلِ هجرة الحبشةِ؛ إذ أصبَحوا آمِنينَ عند مَلِكٍ عادلٍ، في بلدٍ يجدون فيه رزقًا حلالًا؛ وهو ما يُضافون به، وما يَكسِبونه بكَدِّهم[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٠).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠٨).

ولمَّا وعَظ تعالىٰ بضَرْبِ ذلك المثَلِ، وصَل هذا الأمرُ للمؤمنين بالفاء، فأمَر المؤمنين بأكلِ ما رزَقهم، وشُكْرِ نِعْمتِه؛ ليُبايِنوا تلك القريةَ التي كفرتْ بنِعَمِ الله، ولمَّا تقدَّم ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، جاء هنا: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[(١)].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٥﴾

ولمَّا كان الإذنُ إنَّما هو في بعضِ الرزق في الحال المذكور، فاحتِيجَ إلىٰ معرفته، وكانت المباحاتُ أكثَرَ مِن المحظورات؛ حصَر القليلَ ليُعلَم منه الكثيرُ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّينِ معروفين إجمالًا عُيِّن أحدُهما، عُرِف مِن تعيينِه الآخَرُ، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[(٢)].

هذه الجملة بيانٌ لمضمونِ جملة ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ لتمييزِ الطيِّبِ مِن الخبيث؛ فإنَّ المذكوراتِ في المحرَّمات هي خبائثُ خُبْثًا فِطْريًّا؛ لأنَّ بعضَها مُفسِدٌ لتولُّد الغذاءِ لِما يشتمِلُ عليه مِن المَضرَّةِ؛ وتلك هي المَيْتةُ، والدمُ، ولحم الخِنزير، وبعضُها منافٍ للفِطرة؛ وهو ما أُهِلَّ به لغيرِ الله؛ لأنَّه مُنافٍ لشكرِ المُنعِم بها؛ فاللهُ خلَق الأنعامَ، والمشركون يذكُرون اسمَ غيرِ الله عليها[(٣)].

لمَّا أمَرهم بالأكل ممَّا رزَقهم، عدَّد عليهم محرَّماتِه تعالىٰ، ونهاهم عن تحريمِهم وتحليلهم بأهوائهم دُونَ اتِّباعِ ما شرَع اللهُ علىٰ لسانِ أنبيائه[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٦٠٥).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٦٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠٩-٣١٠).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٦٠٥).

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

ولمَّا تبيَّن بهذه الآيةِ -كما مضىٰ تقريرُه في الأنعام- جميعُ المحرَّمِ أكلُه مِن الحيوانات، فعُلِم بذلك جهلُهم فيما حرَّموه علىٰ أنفسهم لأجلِ أصنامهم؛ صرَّح بالنَّهي عنه إبلاغًا في تأكيدِ ذلك الحصرِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[1].

عاد الخطابُ إلىٰ المشركين بقرينةِ قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾؛ فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ الآية، وفيه تعريضٌ بتحذيرِ المسلمين؛ لأنَّهم كانوا قريبي عهدٍ بجاهليَّةٍ، فربما بَقِيَتْ في نفوسِ بعضهم كراهيَةُ أكلِ ما كانوا يَتعفَّفون عن أكلِه في الجاهليَّة[2].

لمَّا بيَّن تعالىٰ ما حرَّم، بالَغ في تأكيدِ ذلك بالنَّهي عن الزيادةِ فيما حرَّم: كالبَحِيرة، والسَّائبة، وفيما أحَلَّ: كالمَيْتةِ، والدَّمِ[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حصَر المحرَّماتِ في تلك الأربع، بالَغ في تأكيدِ ذلك الحصر، وزيَّف طريقةَ الكفارِ في الزيادةِ علىٰ هذه الأربع تارةً، وفي النقصانِ عنها أخرىٰ؛ فإنَّهم كانوا يُحرِّمون البَحِيرةَ والسَّائبة والوَصيلة والحام، وكانوا يقولون: ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا، ومحرَّمٌ علىٰ أزواجنا، فقد زادوا في المحرَّمات،

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٠).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٦٠٥-٦٠٦).

وزادوا أيضًا في المحلَّلات؛ وذلك لأنَّهم حلَّلوا المَيْتةَ، والدَّمَ، ولحمَ الخِنزير، وما أُهِلَّ به لغيرِ الله تعالىٰ(١).

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ ﴾

ولمَّا كان الفلاحُ عندهم هو العيشَ الواسع في هذه الدُّنيا، أجاب مَن كأنَّه قال: فإنَّا نُنظِرُهم بنِعْمةٍ ورفاهة؟ فقال تعالىٰ: ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(٢).

جملةُ ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ في صورةِ جوابٍ عمَّا يَجِيشُ بخاطرِ سائلٍ يَسأل عن عدمِ فلاحِهم مع مشاهَدة كثيرٍ منهم في حالةٍ مِن الفلاح، فأُجيبَ بأنَّ ذلك متاعٌ؛ أي: نفعٌ مؤقَّت زائل، ولهم بعده عذابٌ أليم(٣).

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ﴾

ولمَّا بيَّن لهم نِعْمتَه بتوسعتِه عليهم بما ضيَّقوا به على أنفسهم، بيَّن لهم نِعْمةً أخرىٰ بتمييزِهم علىٰ بني إسرائيلَ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾(٤).

لمَّا شنَّع علىٰ المشركين أنَّهم حرَّموا علىٰ أنفسِهم ما لم يُحرِّمْهُ الله، وحذَّر المسلمين مِن تحريمِ أشياءَ علىٰ أنفسهم جريًا علىٰ ما اعتاده قومُهم مِن تحريمِ ما

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨١).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٢).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٧٠-٢٧١).

أُحِلَّ لهم؛ نظر أولئك، وحذَّر هؤلاء؛ فهذا وجهُ تعقيبِ الآية السالفة بآيةِ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ ﴾[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما يَحِلُّ وما يحرُمُ لأهل الإسلام، أتبعه ببيانِ ما خَصَّ اليهودَ به مِن المحرَّمات، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ ﴾[٢].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما حرَّمه علينا مِن المَيْتةِ والدَّمِ إلخ، بيَّن ما كان حرَّمه علىٰ اليهود في شريعتهم ممَّا ليس فيه أيضًا شيءٌ ممَّا حرَّمه المشركون؛ تحقيقًا لافترائهم بأنَّ ما حظَروه لا سنَدَ له في شريعةٍ سابقةٍ ولا لاحقةٍ، فقال سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[٣].

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩ ﴾

ولمَّا بيَّن هذه النِّعْمةَ الدُّنيوية، عطَف عليها نِعْمةً هي أكبَرُ منها جدًّا؛ استجلابًا لكلِّ ظالم، وبيَّن عظَمتَها بحرفِ التراخي، فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٤].

لمَّا ذُكِرتْ أحوالُ أهل الشرك، وكان منها ما حرَّموه علىٰ أنفسهم، وكان المسلمون قد شارَكوهم أيامَ الجاهلية في ذلك، ووردَتْ قوارعُ الذَّم لِما صنَعوا؛ كان ممَّا يُتوهَّم علوقُه بأذهانِ المسلمين أن يَحسَبوا أنَّهم سينالُهم شيءٌ مِن غَمْصٍ[٥] لِما اقترفوه في

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٢).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤١٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٢٧١).

(٥) أي: تحقير وتقليل.

الجاهلية، فطَمْأنَ اللهُ نفوسَهم بأنَّهم لمَّا تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام، وأصلَحوا عمَلَهم بعد أن أفسَدوا، فإنَّ اللهَ قد غفَر لهم مغفرةً عظيمة، ورَحِمهم رحمةً واسعة، ووقَع الإقبالُ بالخطاب علىٰ النبيِّ ﷺ؛ إيماءً إلىٰ أنَّ تلك المغفرةَ مِن بركاتِ الدِّين الذي أُرسِلَ به[١].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ بيانُ أنَّ الافتراءَ علىٰ الله ومخالفةَ أمرِ الله لا يَمنَعهم مِن التوبةِ وحصولِ المغفرة والرحمة[٢].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾

ولمَّا دعاهم إلىٰ مكارمِ الأخلاق، ونهاهم عن مساوئِها بقَبوله لِمَن أقبَلَ إليه، وإن عظُمَ جُرْمُه، إجابةً لدعوةِ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام؛ أتبَع ذلك ذِكْرَه؛ ترغيبًا في اتباعِه في التوحيد، والميلِ مع الأمر والنَّهيِ إقدامًا وإحجامًا، إن كانوا ممَّن يتَّبِعُ الحقَّ أو يُقلِّد الآباءَ، فقال علىٰ سبيل التَّعليل لِما قبله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقال إلىٰ غرضِ التَّنويه بدِينِ الإسلام بمناسبة قوله: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾؛ المقصودُ به: أنَّهم كانوا في الجاهلية، ثم اتَّبَعوا الإسلامَ، فبَعْدَ أن بشَّرهم بأنَّه غفَر لهم ما عَمِلوه مِن قبلُ، زادهم فضلًا ببيانِ فضلِ الدِّين الذي اتَّبَعوه[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٣).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٧٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٤).

لمَّا أبطَل تعالىٰ مذاهبَ المشركين في هذه السُّورةِ مِن إثباتِ الشركاء لله، والطَّعْنِ في نبوَّةِ رسولِ الله ﷺ، وتحليلِ ما حرَّم، وتحريمِ ما أحَلَّ، وكانوا مفتخِرين بجَدِّهم إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُقِرِّينَ بحُسْنِ طريقتِه، ووجوبِ الاقتداء به؛ ذكَره في آخرِ السُّورة، وأوضَح منهاجَه، وما كان عليه مِن توحيدِ الله تعالىٰ، ورفضِ الأصنام؛ ليكونَ ذلك حاملًا لهم علىٰ الاقتداء به، وأيضًا فلمَّا جرىٰ ذِكْرُ اليهودِ، بيَّن طريقةَ إبراهيمَ؛ ليَظهَرَ الفرقُ بَيْنَ حالِه وحالِهم وحالِ قُرَيشٍ(١).

ثم نوَّه تعالىٰ بإبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ دُعاءً لهم إلىٰ سلوكِ طريقتِه في التوحيد، ورفضِ الوثنيَّة، وتبرئةً لمقامِه ممَّا كانوا يَفترُون عليه، بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

ثم بيَّن حالَه، فقال: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ خبرٌ رابع عن ﴿كَانَ﴾، وهو مدحٌ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعريضٌ بذُرِّيته الذين أشرَكوا وكفَروا نِعْمةَ الله(٤).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

ثم بيَّن جزاءَه، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٦٠٩).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٢٠).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٢٧٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٧).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر مِن عظَمتِه في الدُّنيا والآخرة ما هو داعٍ إلىٰ اتِّباعِه، صرَّح بالأمرِ به تنبيهًا علىٰ زيادةِ عظَمتِه بأمرٍ متباعِدٍ في الرُّتبةِ علىٰ سائرِ النُّعوت التي أثنىٰ عليه بها؛ وذلك كونُه صار مقتدًىٰ لأفضَلِ ولَدِ آدمَ، مشيرًا إلىٰ ذلك بحرفِ التراخي الدالِّ علىٰ علوِّ رُتْبتِه بعلوِّ رتبةِ مَن أُمِر باتِّباعه فيما مهَّده ممَّا أُمِر به مِن التوحيدِ والطريقِ الواضح السهل، فقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرُّتْبي المشير إلىٰ أنَّ مضمونَ الجملة المعطوفة متباعِدٌ في رتبةِ الرِّفعة علىٰ مضمونِ ما قبلها؛ تنويهًا جليلًا بشأنِ النبيِّ ﷺ وبشريعةِ الإسلام، وزيادةً في التنويهِ بإبراهيمَ عليه السلام[2].

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

ولمَّا دعا سبحانه فيها إلىٰ معالي الشِّيَمِ وعدمِ الاعتراض، وختَم بالأمرِ بالمِلَّةِ الحنيفيَّةِ التي هي سهولةُ الانقياد للدليل، وعدمُ الكونِ مع الجامدين، اقتداءً بالأبِ الأعظَمِ، وكان الخلافُ والعُسْرُ مخالِفًا لمِلَّتِه، فكان لا يجُرُّ إلىٰ خيرٍ، وكان مِن المعلوم أنَّ كلَّ حُكْمٍ حدَث بعده ليس مِن مِلَّتِه، وكان اليهود يزعُمون -جهلًا- أنَّه كان علىٰ دِينِهم، وكان السَّبْتُ مِن أعظَمِ شعائرهم؛ أنتَج ذلك قولَه تعالىٰ -جوابًا لِمَن قد يَدَّعي مِن اليهودِ أنَّه كان علىٰ دِينِهم، وتحذيرًا مِن العقوبةِ علىٰ الاختلافِ في

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٨).

الحـقِّ بالتشـديد في الأمـر-: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

موقـعُ هـذه الآيـة ينـادي علىٰ أنَّهـا تضـمَّنتْ معنًىٰ يـرتبط بملَّـةِ إبـراهيمَ، وبمجيءِ الإسلام علىٰ أساسها، فلمَّا نفَتِ الآيةُ قبل هذه أن يكونَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن المشـركين -ردًّا علىٰ مزاعمِ العرب المشركين أنَّهم علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ-، انتقَل بهذه المناسبةِ إلىٰ إبطالِ ما يُشبِه تلك المزاعمَ[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر محمَّدًا ﷺ بمتابعةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان محمَّدٌ ﷺ اختار يومَ الجمعة، فهذه المتابعةُ إنَّما تحصُلُ إذا قلنا: إنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد اختار في شَرْعِه يومَ الجمعة، وعند هذا لسائلٍ أن يقولَ: فلِمَ اختار اليهودُ يومَ السَّبت؟ فأجاب اللهُ تعالىٰ عنه بقولِه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[٣].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

ولمَّـا قـدَّم سـبحانه في هـذه السُّـورةِ حكايـةَ كثيـرٍ مِـن استهزائهم بوعـدِه ووعيـده، وتكذيبِهم لرُسُلِه علىٰ أبشَعِ وجهٍ، والتَّفتيرِ[٤] عن حُرْقةِ الحرصِ عليهم، المفضي إلىٰ شِدَّةِ التأسُّف علىٰ ضَلالهم، وغير ذلك ممَّا ربما أيأسَ منهم فأقعَدَ عن دعائهم، وأتبَعه ضَرْبَ الأمثال، ونصَب الجدالَ -علىٰ تلك المناهجِ المعجزة بما يَسبِق مِن ظواهرها إلىٰ الفَهْمِ عند قَرْعِ السمعِ مِن المعاني الجليلة، والمقاصدِ الجميلة- لعامَّةِ

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٥).

(٤) أي: التقليل والإضعاف.

الخَلْقِ ما يَجِلُّ عن الوصفِ، وإذا تأمَّلها الخواصُّ وجَدوا فيها مِن دقائقِ الحقائق، ومشارعِ الرقائق، ومُحكَم الدلائل، ومُتقَن المقاصدِ والوسائل: ما يوضِّحُ -بتفاوتِ الأفهام، وتباينِ الأفكار- أنَّه بحرٌ لا ساحلَ له ولا قرار، ولا منتهىٰ لِما تَستخرج منه الأنظار، وختَم باتِّباع الأبِ الأعظَمِ؛ لمَّا كان ذلك، وأمَر سبحانه نبيَّه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم -وهو السميعُ المطيع- أن يَستنَّ بآثاره، ويقتديَ بإضمارِه وإظهاره؛ فسَّر له تلك المِلَّةَ التي أمَره باتِّباعها، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[(١)].

يَتنزَّلُ معنىٰ هذه الآيةِ منزلةَ البيان لقوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾؛ فإنَّ المرادَ بما أُوحيَ إليه مِن اتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ هو دِينُ الإسلام، ودِينُ الإسلام مبنيٌّ علىٰ قواعدِ الحنيفية؛ فلا جرَمَ كان الرسول ﷺ بدعوته الناسَ إلىٰ الإسلام داعيًا إلىٰ اتباعِ ملَّةِ إبراهيمَ[(٢)].

لمَّا أمَر محمَّدًا ﷺ باتباعِ إبراهيمَ عليه السلام، بيَّن الشيءَ الذي أمَره بمتابعتِه فيه، فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[(٣)].

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾

ولمَّا بيَّن أمرَ الدعوة، وأوضَحَ طُرقَها، وقدَّم أمرَ الهجرةِ والإكراه في الدِّين والفتنِ فيه المشير إلىٰ ما سبَّب ذلك مِن المِحَنِ والبلاء مِن الكفار ظُلْمًا، وختَم ذلك بالأمرِ

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٦).

بالرِّفق بهم؛ عمَّ -بعدما خَصَّه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم به مِن الأمرِ بالرفق- بالأمرِ لأشياعه بالعدلِ والإحسان كما تقدَّم، ولو مع أعدىٰ الأعداء، والنَّهْيِ عن مجازاتهم إلا علىٰ وجه العدلِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: إن كان المقامُ مقامَ الدعوة، فلتكُنْ دَعْوتُك إيَّاهم كما وصَفْنا، وإن كنتم أيُّها المؤمنون معاقِبينَ المشركين علىٰ ما نالكم مِن أذاهم، فعاقِبوهم بالعدل، لا بتجاوُزِ حدِّ ما لَقِيتم منهم؛ فهذه الآيةُ متصِلة بما قبلها أتَمَّ اتصالٍ، وحَسْبُك وجودُ العاطف فيها، وهذا تدرُّجٌ في رُتَبِ المعاملة مِن معاملة الذين يُدْعَوْنَ ويُوعَظون إلىٰ معاملةِ الذين يجادِلون ثم إلىٰ معاملةِ الذين يُجازَوْنَ علىٰ أفعالهم، وبذلك حصَل حُسْنُ الترتيبِ في أسلوبِ الكلام[(٢)].

أنَّه تعالىٰ أمَر محمَّدًا ﷺ أن يدعوَ الخَلْقَ إلىٰ الدِّين الحقِّ بأحدِ الطُّرق الثلاثة؛ وهي: الحِكْمةُ، والموعظة الحسنة، والجدال بالطريق الأحسن، ثم إنَّ تلك الدعوةَ تَتضمَّن أمرَهم بالرجوع عن دِينِ آبائهم وأسلافهم، وبالإعراضِ عنه والحُكْمِ عليه بالكفرِ والضَّلالة، وذلك ممَّا يشوِّشُ القلوبَ، ويوحِشُ الصدور، ويَحمِل أكثَرَ المستمِعين علىٰ قَصْدِ ذلك الداعي بالقتل تارةً، وبالضَّرب ثانيًا، وبالشَّتم ثالثًا، ثم إنَّ ذلك المُحِقَّ إذا شاهَد تلك السفاهاتِ، وسَمِع تلك المشاغَباتِ؛ لا بد وأن يَحمِلَه طبعُه علىٰ تأديبِ أولئك السفهاءِ تارةً بالقتل، وتارة بالضَّرب؛ فعند هذا أمَر المُحِقِّينَ في هذا المقامِ برعاية العدل والإنصاف، وتركِ الزيادة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٨٨-٢٨٩).

ثم لمَّا كانت الدَّعوةُ تَتضمَّن تكليفَ المدعوِّين بالرجوع إلىٰ الحقِّ، فإن أبَوْا قُوتِلوا؛ أمَر الداعيَ بأن يَعدِلَ في العقوبة، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فاصبِروا، عطَف عليه إفرادًا له صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم بالأمر؛ إجلالًا له، وتسليةً فيما كان سببَ نزولِ الآية مِن التمثيلِ بعمِّه حَمْزةَ رضي الله عنه، وتنويهًا بعِظَمِ مقامِ الصبر زيادةً في حثِّ الأمَّة؛ لأنَّ أمرَ الرئيس أدعىٰ لامتثال أتباعه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2].

خَصَّ النبيَّ ﷺ بالأمر بالصبر؛ للإشارة إلىٰ أنَّ مقامَه أعلىٰ؛ فهو بالتزامِ الصبر أَوْلىٰ؛ أخذًا بالعزيمة بعد أن رخَّص لهم في المعاقَبة[3].

لمَّا خُيِّر المخاطَبون في المعاقَبة والصبر عنها، عُزِم علىٰ الرسول ﷺ في الذي هو خيرٌ؛ وهو الصبرُ؛ فأُمِر هو وَحْده بالصبر[4].

ثم أكَّد تعالىٰ الأمرَ بالصبر -ليُقوِّيَ الثَّباتَ والاحتمال لكلِّ ما يلاقيه في سبيل الحقِّ- بقولِه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٤٣).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣٦).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٦١٤).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٤٢٤).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1].

تعليلٌ للأمرِ بالاقتصار علىٰ قَدْرِ الجُرْمِ في العقوبة، وللتَّرغيبِ في الصبر علىٰ الأذىٰ، والعفوِ عن المعتدِين، ولتخصيص النبيِّ ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانةِ علىٰ تحصيله بمعونةِ الله تعالىٰ، ولصرفِ الكَدَرِ عن نفسه مِن جرَّاءِ أعمال الذين لم يؤمنوا به، عُلِّل ذلك كلُّه بأنَّ اللهَ مع الذين يتَّقُونه، فيَقِفون عند ما حَدَّ لهم، ومع المحسِنين[2].

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣٨).

سورة الإسراء

﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذه الخارقةِ ما أخبَر به عن نفسِه المقدَّسةِ مِن عظيمِ القدرةِ علىٰ كلِّ ما يريد، وما حباه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم به مِن الآياتِ البيِّنات في هذا الوقتِ اليسير: أتبَعه ما مُنِح في المسيرِ مِن مِصْرَ إلىٰ الأرضِ المقدَّسةِ مِن الآيات في مُدَدٍ طِوالٍ جدًّا موسىٰ عليه السلام، الذي كان أعظَمَ الأنبياءِ بركةً علىٰ هذه الأمَّةِ ليلةَ الإسراء؛ لِما أرشَد النبيَّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم إليه مِن مراجعةِ اللهِ تعالىٰ في تخفيفِ الصلاة حتىٰ رجَعتْ مِن خمسين إلىٰ خَمْسٍ مع أجرِ خمسين، والذي كان أنهىٰ العُروج به، إذ ناجاه الله وقرَّبه رأسَ جبلِ الطُّورِ بعد الأمرِ بالرياضةِ بالصوم، والتخلِّي أربعين يومًا، والذي تقدَّم في آخِرِ «النحلِ» أنَّ قومَه اختلَفوا عليه في السَّبتِ؛ تنفيرًا مِن مثلِ حالهم، وتسليةً عمَّن تَبِعهم في تكذيبِهم وضلالِهم، وذلك في سياقٍ محذِّرٍ للمكذِّبين عظائمَ البلاء، فقال تعالىٰ - عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فآتَيْنا عبدَنا محمَّدًا صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم الكتابَ المفصَّل المُعجِز، وجعَلناه هُدًىٰ للخَلْقِ كافَّةً، وتولَّيْنا حِفْظَه؛ فكان آيةً باقيةً حافظًا لدِينِه دائمًا-: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[1].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٩٩).

عطفٌ على جملةِ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ إلخ؛ فهي ابتدائيَّةٌ؛ والتقديرُ: اللهُ أسرىٰ بعبدِه محمَّدٍ، وآتىٰ موسىٰ الكتابَ؛ فهما مِنَّتانِ عظيمتان علىٰ جزءٍ عظيمٍ مِن البشرِ، وهو انتقالٌ إلىٰ غرضٍ آخَرَ لمناسبةِ ذِكْرِ المسجدِ الأقصىٰ؛ فإنَّ أطوارَ المسجدِ الأقصىٰ تمثِّلُ ما تطوَّرَ به حالُ بني إسرائيلَ في جامعتِهم مِن أطوارِ الصلاحِ والفساد، والنهوضِ والرُّكود؛ ليَعتبرَ بذلك المسلمون؛ فيَقتدوا، أو يَحذَروا[(١)].

ولمَّا ذكَر تشريفَ الرسولِ ﷺ بالإسراءِ، وإراءتِه الآياتِ؛ ذكَر تشريفَ موسىٰ بإيتائِه التَّوراةَ[(٢)].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

ثم أتبَعه ما يدلُّ علىٰ شرَفِهم بشرفِ أبيهم، وأنَّه لم يَنفَعْهم إدلاؤهم إليه - عند إرادةِ الانتقام - بما ارتكَبوا مِن الإجرام، فقال - منبِّهًا علىٰ الاهتمامِ بالتوحيد، والأمرِ بالإخلاص بالعَوْدِ إلىٰ مظهرِ العظمةِ حيث لا لَبْسَ، ناصبًا علىٰ الاختصاصِ في قراءةِ أبي عمرٍو، وعلىٰ النداءِ عند الباقين؛ تذكيرًا بنعمةِ الإنجاء مِن الغرقِ-: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[(٣)].

يجوز أن يكونَ اعتراضًا في آخرِ الحكايةِ ليس داخلًا في الجملةِ التفسيرية؛ فانتصابُ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ علىٰ الاختصاصِ؛ لزيادةِ بيانِ بني إسرائيلَ بيانًا مقصودًا به التعريضُ بهم إذ لم يشكُروا النِّعْمةَ، ويجوز أن يكونَ مِن تمامِ الجملةِ التفسيرية؛ أي: حالَ كونِهم ذُريةَ مَن حمَلْنا مع نوحٍ عليه السلام[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥).

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

ثم أتبَع ذلك ما يدلُّ علىٰ شرَفِ كتابِ موسىٰ وصحَّةِ نسبتِه إليه تعالىٰ بما يقتضي شمولَ العلمِ وتمامَ القدرة بما كشَف عنه الزمانُ مِن صِدْقِ إخباره، وفظاظةِ وعيدِه وإنذارِه؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن كذَّب بكتابِه أهلَكه، كائنًا مَن كان، وإن طال إمهالُه؛ فلا تَغترُّوا بحِلْمِه؛ لأنَّ الملوكَ لا تُقِرُّ علىٰ أمرٍ يَقدَحُ في مُلْكِها، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: آتَيْنا موسىٰ الكتابَ هُدًىٰ، وبيَّنَّا لبني إسرائيلَ في الكتابِ ما يحُلُّ بهم مِن جراءِ مخالَفةِ هَدْيِ التَّوراة؛ إعلامًا لهذه الأمَّةِ بأنَّ اللهَ لم يدَّخِرْ أولئك إرشادًا ونصحًا؛ فالمناسبةُ ظاهرةٌ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر إنعامَه علىٰ بني إسرائيلَ بإنزالِ التَّوراة عليهم، وبأنَّه جعَل التَّوراةَ هُدًىٰ لهم؛ بيَّن أنَّهم ما اهتدَوْا بهُدَاه، بل وقَعوا في الفسادِ، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[(٣)].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

ثم بيَّن عاقبةَ الإفسادِ في الأرض، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٩).

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّه قادرٌ على إذلالِ العزيز بعد ضخامةِ عِزِّه، بيَّن أنَّه مقتدِرٌ على إدالتِه[1] على مَن قهره بعد طُولِ ذُلِّه إذا نقَّاه مِن دَرَنِه، وهذَّبه مِن ذُنوبه، فقال تعالى مشيرًا بأداةِ التراخي إلى عظمةِ هذه الإدالةِ بخَرْقِها للعوائد: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾[2].

عطَف جملةَ ﴿فَجَاسُوا﴾؛ فهو مِن تمامِ جوابِ «إذا» مِن قولِه: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾، ومِن بقيَّةِ المقضيِّ في الكتابِ، وهو ماضٍ لفظًا، مستقبَلٌ معنًى؛ لأنَّ «إذا» ظرفٌ لِما يُستقبل، وجِيءَ به في صيغةِ الماضي لتحقيقِ وقوع ذلك؛ والمعنى: نَبعَث عليكم عبادًا لنا فيجُوسُون، ونرُدُّ لكم الكَرَّةَ عليهم، ونمدُّكم بأموالٍ وبنين، ونَجعَلكم أكثَرَ نفيرًا، و﴿ ثُمَّ ﴾ تفيدُ التراخيَ الرُّتْبيَّ والتراخيَ الزَّمَنيَّ معًا[3].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

فلمَّا ثبَت بكونِ ما توعَّد به سبحانه في أوقاتِه كما أخبَر به بطشُه وحِلْمُه، فثبَتتْ قُدْرتُه وعلمُه: أشار إلى أنَّ مِن سببِ إذلالِه لِمَن يريدُ به الخيرَ: المعصيةَ، وسببِ إعزازِه: الطاعةَ، فقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[4].

(١) أي: جعله يظفر عليه.

(٢) نظم الدرر (١١/ ٣١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٢).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٣٤٠).

قولُه: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ مِن جملةِ المقضيِّ في الكتاب ممَّا خوطِبَ به بنو إسرائيلَ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عنهم أنَّهم لمَّا عصَوْا سلَّط عليهم أقوامًا قصَدوهم بالقتلِ والنَّهْبِ والسَّبْيِ، ولمَّا تابوا أزال عنهم تلك المِحْنةَ، وأعاد عليهم الدَّولةَ؛ فعند ذلك ظهَر أنَّهم إن أطاعوا فقد أحسَنوا إلىٰ أنفسهم، وإن أصَرُّوا علىٰ المعصيةِ فقد أساؤوا إلىٰ أنفسِهم، وقد تقرَّر في العقولِ أنَّ الإحسانَ إلىٰ النفس حسَنٌ مطلوب، وأنَّ الإساءةَ إليها قبيحةٌ؛ فلهذا المعنىٰ قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾(٢).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

ولمَّا انقضىٰ ذلك، كان كأنَّه قيل: أمَا لهذه المرَّةِ مِن كَرَّةٍ كالأُولىٰ؟! فأطمَعهم بقولِه ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾(٣).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ بعد المرَّةِ الثانية إن تُبْتُم وانزجَرْتم عن المعاصي، وهذه الترجئةُ ليست لرجوعِ دَوْلةٍ، وإنَّما هي مِن بابِ ترحُّمِ المُطِيعِ منهم، وكان مِن الطاعةِ أن يتَّبِعوا عيسىٰ ومحمَّدًا عليهما الصلاة والسلام، فلم يَفعلوا(٤).

ثم أشار إلىٰ أنَّ فِعْلَه تعالىٰ ليُخلِصوا توبتَهم وأعمالهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٧٨).

(٤) البحر المحيط (٧/ ١٧).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٤٤٣).

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت أنَّ كتابَ موسىٰ عليه السلام الذي أُنزِلَ عليه فيما بَيْنَ مِصْرَ وبيتِ المقدسِ في تلك المدةِ المتطاوِلة هو هُدًىٰ لبني إسرائيلَ، صادقُ الوعدِ والوعيد فيما قضَىٰ فيه إليهم مِن أمرِهم وأمرِ بيتِ المقدس مِن ترقيةِ حالِ مَن أطاعه وإعلائهم، وأخذِ مَن عاداهم، ومِن تعكيسِ أحوالِ العصاة مرَّةً بعد أخرىٰ بتسليطِ الأعداءِ عليهم بالقتلِ والأَسْرِ والنَّهْبِ وتخريب البلاد؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ طاعةَ اللهِ تَجلِبُ كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيتَه توجِبُ كلَّ بليَّةٍ؛ كما كشَف عنه الزمانُ علىٰ ما هو معروفٌ مِن تواريخِ اليهودِ وغيرِها: لاحَ أنَّ القرآنَ يَزيدُ عليه في كلِّ معنًىٰ حسَنٍ وأمرٍ شريف فيما أتىٰ به مِن الوعودِ الصادقة، والأحكامِ المُحكَمة، والمعاني الفائقة، في النُّظومِ العَذْبة الرائقة، مع الإعجازِ عن الإتيانِ بآيةٍ مِن مثلِه لجميعِ الإنس والجانِّ بنسبةِ ما زاد المسيرُ المحمَّديُّ إلىٰ بيتِ المقدس - الذي أراه فيه مِن آياتِه - علىٰ المسيرِ المُوسَويِّ الذي آتاه فيه الكتابَ، فقال - في جوابِ مَن كأنَّه قال: قد عُلِم أنَّ كتابَ موسىٰ عليه السلام الذي أُنزِلَ في مسيرِه لقصدِ محَلِّ المسجدِ الأقصىٰ قيِّمٌ في الهدايةِ والوعود الصادقة؛ فما حالُ كتابِ محمَّدٍ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم الذي أُنزِلَ عليه منه في سببِ مسيرِه إليه في ذلك؟-: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به الكلامُ إلىٰ الغرضِ الأهَمِّ مِن هذه السُّورة؛ وهو تأييدُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالآياتِ والمُعجِزات، وإيتاؤه الآياتِ التي أعظَمُها آيةُ القرآن؛ كما قدَّمْناه عند قولِه تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وأعقَب ذلك بذِكْرِ ما أُنزِلَ علىٰ

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٧٩-٣٨٠).

بني إسرائيلَ مِن الكتبِ للهُدَىٰ والتحذير، وما نالهم مِن جرَّاءِ مخالَفتِهم ما أَمَرهم اللهُ به، ومِن عدولِهم عن سَنَنِ أسلافِهم مِن عهدِ نوحٍ عليه السلام، وفي ذلك فائدةُ التحذيرِ مِن وقوعِ المسلمين فيما وقَع فيه بنو إسرائيلَ، وهي الفائدةُ العُظْمىٰ مِن ذِكْرِ قَصَصِ القرآنِ، وهي فائدةُ التاريخ(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ مَن اختصَّه بالإسراءِ؛ وهو محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ، ومَن آتاه التَّوراةَ؛ وهو موسىٰ عليه السلام، وأنَّها هُدًىٰ لبني إسرائيلَ، وذكَر ما قضَىٰ عليهم فيها مِن التسليطِ عليهم بذُنوبِهم؛ كان ذلك رادعًا مَن عقَلَ عن معاصي اللهِ، فذكَر ما شرَّف اللهُ به رسولَه مِن القرآنِ الناسخ لحُكْمِ التَّوراةِ، وكلِّ كتابٍ إلهيٍّ، وأنَّه يَهدي للطريقةِ أو الحالة التي هي أقوَمُ(٢).

لمَّا شرَح ما فعَله في حقِّ عبادِه المخلِصين؛ وهو الإسراءُ برسولِ الله ﷺ، وإيتاءُ الكتابِ لموسىٰ عليه السلام، وما فعَله في حقِّ العصاة والمتمرِّدين؛ وهو تسليطُ أنواعِ البلاء عليهم: كان ذلك تنبيهًا علىٰ أنَّ طاعةَ الله توجِبُ كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيته توجِبُ كلَّ بليَّةٍ وغرامة؛ لا جرَمَ أثنىٰ علىٰ القرآنِ، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٣).

ثم بيَّن تعالىٰ مزيَّةَ التنزيلِ الكريم التي فاقَ بها سائرَ ما أُنزِلَ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٤).

لمَّا ذكَر المعراجَ، ذكَر ما قضَىٰ إلىٰ بني إسرائيلَ، وكان ذلك دَلالةً علىٰ نبوَّةِ محمَّد ﷺ، ثم بيَّن أنَّ الكتابَ الذي أنزَله اللهُ عليه سببُ اهتداءٍ(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١٧-١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٣).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٤٤٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢٤).

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

ولمَّا بشَّرهم بما لهم في أنفسِهم، أتبَعه ما لهم في أعدائهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(١).

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، بُشِّروا بفوزِهم بالجنَّةِ، وبكينونةِ العذابِ الأليم لأعدائهم الكفارِ؛ إذ في عِلْمِ المؤمنين بذلك وتبشيرِهم به مَسَرَّةٌ لهم؛ فهما بِشارتانِ، وفيه وعيدٌ للكفار(٢).

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما لكلامِه مِن الدعاءِ إلىٰ الأقوَمِ، أتبَعه ما عليه الإنسانُ مِن العِوَجِ الداعي له إلىٰ العدولِ عن التمسُّكِ بشرائعِه القويمة، والإقدامِ علىٰ ما لا فائدةَ فيه؛ تنبيهًا علىٰ ما يجبُ عليه مِن التأنِّي؛ للنظرِ فيما يدعو إليه نفسَه، ووزنِه بمعيارِ الشرع، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾(٣).

موقعُ هذه الآيةِ هنا غامضٌ، وانتزاعُ المعنىٰ مِن نظمِها وألفاظِها أيضًا، ولم يأتِ فيها المفسِّرون بما يثلُجُ له الصدرُ، والذي يَظهَرُ لي أنَّ الآيةَ التي قبلها لمَّا اشتمَلتْ علىٰ بشارةٍ وإنذارٍ، وكان المُنذَرون إذا سَمِعوا الوعيدَ والإنذار يستهزئون به ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ عطَف هذا الكلامَ علىٰ ما سبَق؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ لذلك الوعدِ أجلًا مسمًّىٰ؛ فالمرادُ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الإنسانُ الذي لا يؤمِن بالآخرة، وإطلاقُ الإنسانِ علىٰ الكافرِ كثيرٌ في القرآن(٤).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٤١-٤٢).

اعلَمْ أنَّ وجهَ النَّظْمِ هو أنَّ الإنسانَ بعد أن أنزَل اللهُ عليه القرآنَ، وخصَّه بهذه النِّعْمةِ العظيمة والكرامةِ الكاملة: قد يَعدِلُ عن التمسُّكِ بشرائعِه والرجوعِ إلىٰ بياناتِه، ويُقدِم علىٰ ما لا فائدةَ فيه، فقال: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾[(١)].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ۝١٢﴾

ولمَّا ثبَت ما لِصِفَتِه تعالىٰ مِن العلوِّ، ولصفةِ الإنسان مِن السُّفولِ؛ تلاه بما لأفعالِه تعالىٰ مِن الإتقانِ، ذاكرًا ما هو الأقومُ مِن دلائلِ التوحيد والنبوَّة في العالَمِين: العُلْوي والسُّفْلي، ثم ما لأفعالِ الإنسان مِن العِوَجِ جريًا مع طبعِه، أو مِن الإحسانِ بتوفيقِ اللطيف المنان، فقال تعالىٰ مبيِّنًا ما منَحهم به مِن نِعَمِ الدنيا بعد ما أنعم عليهم به مِن نِعَمِ الدِّينِ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِ﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ إلخ، والمناسبةُ أنَّ جملةَ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تتضمنُ أنَّ الإبطاءَ تأخيرُ الوعدِ لا يَرفعُه، وأنَّ الاستعجالَ لا يُجدِي صاحبَه؛ لأنَّ لكل شيء أجلًا، ولمَّا كان الأجلُ عبارةً عن أزمانٍ، كان مشتمِلًا علىٰ ليلٍ ونهار متقضِّيَينِ، وهذا شائعٌ عند الناسِ في أنَّ الزمانَ متقضٍّ، وإن طال[(٣)].

لمَّا ذكَر عجَلةَ الإنسانِ وانتقالَه مِن حالٍ إلىٰ حال، ذكَر أنَّ كلَّ هذا العالَمِ كذلك في الانتقالِ، لا يثبُتُ علىٰ حالٍ؛ فنُورٌ عَقِبَ ظُلْمةٍ، وبالعكسِ، وازديادُ نورٍ وانتقاص[(٤)].

لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة ما أوصَل إلىٰ الخَلْقِ مِن نِعَمِ الدِّين -وهو القرآنُ-، أتبعَه ببيانِ ما أوصَل إليهم مِن نِعَمِ الدنيا، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِ﴾،

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٤).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٣٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٣).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٠).

وكما أنَّ القرآنَ ممتزجٌ مِن المُحكَمِ والمتشابِهِ، فكذلك الدهرُ مركَّبٌ مِن النهارِ والليل؛ فالمُحكَمُ كالنهارِ، والمتشابِهُ كالليل، وكما أنَّ المقصودَ مِن التكليف لا يَتِمُّ إلا بذِكْرِ المُحكَمِ والمتشابِه، فكذلك الوقتُ والزمان لا يكمُلُ الانتفاعُ به إلا بالنهارِ والليل(١).

ثم أشار تعالى إلى بعضِ وجوهِ الهداية في القرآنِ بالإرشادِ إلى مسلكِ الاستدلالِ بالآياتِ والدلائل الآفاقية، التي كلٌّ منها برهانٌ نيِّرٌ لا ريبَ فيه، ومنهاجٌ بيِّنٌ لا يَضِلُّ مَن ينتحيه، بقولِه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾(٢).

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا دقيقًا جدًّا، أتبعه ما هو أدقُّ منه وأغربُ في القدرةِ والعلم مِن تفاصيلِ أحوال الآدميِّين، بل كل مكلف بعضها مِن بعض مِن قبلِ أن يخلُقَهم، فقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾(٣).

لمَّا كان سياقُ الكلامِ جاريًا في طريقِ الترغيب في العملِ الصالح، والتحذيرِ مِن الكفرِ والسيئات، ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾، وما عقبه ممَّا يتعلَّقُ بالبشارةِ والنِّذارةِ، وما أُدمِجَ في خلالِ ذلك مِن التذكيرِ، ثم بما دَلَّ على أنَّ عِلْمَ الله محيطٌ بكلِّ شيءٍ تفصيلًا، وكان أهَمَّ الأشياءِ في هذا المقامِ إحاطةُ علمِه بالأعمالِ كلِّها، فأُعقِبَ ذِكْرُ ما فصَّله اللهُ مِن الأشياءِ بالتنبيه على تفصيلِ أعمالِ الناس تفصيلًا لا

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٥).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٤٧).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٨٦).

يَقبَلُ الشكَّ ولا الإخفاءَ، وهو التفصيلُ المشابِه للتقييد بالكتابة، فعطفُ قولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ إلخ على قوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ۝١٢﴾ عطفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ بهذا الخاص[1].

في كيفيةِ النَّظْمِ وجوهٌ: الوجهُ الأول: لمَّا قال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ۝١٢﴾، كان معناه أنَّ كلَّ ما يُحتاج إليه مِن دلائلِ التوحيد والنبوَّة والمَعاد فقد صار مذكورًا، وكلَّ ما يُحتاج إليه مِن شرحِ أحوالِ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب فقد صار مذكورًا، وإذا كان الأمرُ كذلك، فقد أُزيحت الأعذارُ، وأُزيلت العِلَلُ؛ فلا جرَمَ كلُّ مَن ورَد عَرْصةَ القيامةِ، فقد ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾. الوجهُ الثاني: أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّه أوصَل إلى الخَلْقِ أصنافَ الأشياءِ النافعةِ لهم في الدِّينِ والدنيا -مثل آيتَيِ الليلِ والنهار وغيرِهما- كان مُنعِمًا عليهم بأعظَمِ وجوهِ النِّعَم؛ وذلك يقتضي وجوبَ اشتغالِهم بخدمتِه وطاعتِه؛ فلا جرَمَ كلُّ مَن ورَد عَرْصةَ القيامةِ، فإنَّه يكون مسؤولًا عن أعمالِه وأقواله. الوجهُ الثالث: أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّه ما خلَق الخَلْقَ إلا ليَشتغلوا بعبادته، فلمَّا شرَح أحوالَ الشمسِ والقمر والليلِ والنهار، كان المعنى: إنِّي إنَّما خلَقتُ هذه الأشياءَ لتَنتفعوا بها، فتَصيروا متمكِّنين مِن الاشتغالِ بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك، فكلُّ مَن ورَد عَرْصةَ القيامةِ، سألتُه أنَّه هل أتى بتلك الخدمةِ والطاعة، أو تمرَّد وعصَى وبغَى؟![2].

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾

فإذا لَقِيَ كتابَه يومَ العَرْضِ، قيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٨٧).

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ، أنتج قطعًا معنىٰ ما قُلْنا لبني إسرائيلَ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ الآيةَ، لكلِّ أحدٍ منهم، ومِن غيرِهم؛ وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[1].

هذه الجملةُ بيانٌ أو بدَلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ مع توابعِها، وفيه تبيينُ اختلافِ الطائر بَيْنَ نافعٍ وضارٍّ؛ فطائرُ الهدايةِ نفعٌ لصاحبِه، وطائرُ الضَّلالِ ضُرٌّ لصاحبه، ولكونِ الجملة كذلك، فُصِلتْ ولم تُعطَفْ علىٰ التي قبلها[2].

لمَّا قال في الآيةِ الأُولىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾؛ ومعناه: أنَّ كلَّ أحدٍ مختصٌّ بعملِ نفسِه؛ عبَّر عن هذا المعنىٰ بعبارةٍ أخرىٰ أقربَ إلىٰ الأفهامِ، وأبعَدَ عن الغلَطِ، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[3].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا أشار إلىٰ عذابِ المخالِفين، قرَّر أسبابَه، وعرَّف أنَّها بقَدَرِه، وأنَّ قَدَرَه لا يَمنَعُ حُقوقَ العذابِ؛ لبناءِ الأمرِ علىٰ ما يَتعارفُه ذوو العقولِ بينهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣١١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٣٩٠-٣٩١).

هذا تفصيلٌ للحُكْمِ المتقدِّم، قُصِد به تهديدُ قادةِ المشركين، وتحميلُهم تَبِعةَ ضَلالِ الذين أضَلُّوهم، وهو تفريعٌ لتبيينِ أسباب حلولِ التعذيب بعد بعثةِ الرسول، أُدمِجَ فيه تهديدُ المضلِّين؛ فكان مقتضى الظاهرِ أن يُعطَفَ بالفاءِ على قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾، ولكنَّه عُطِف بالواوِ؛ للتنبيهِ على أنَّه خبرٌ مقصود لذاتِه، باعتبارِ ما يتضمَّنُه مِن التحذيرِ مِن الوقوع في مثلِ الحالةِ الموصوفة، ويَظهَرُ معنى التفريعِ مِن طبيعةِ الكلام؛ فالعطفُ بالواوِ هنا تخريجٌ على خلافِ مقتضى الظاهرِ في الفصلِ والوصل؛ فهذه الآيةُ تهديدٌ للمشركين مِن أهلِ مكَّةَ، وتعليمٌ للمسلمين[(١)].

لمَّا ذكَر تعالى أنَّه لا يعذِّبُ أحدًا حتى يَبعَثَ إليه رسولًا، بيَّن بعد ذلك عِلَّةَ إهلاكِهم؛ وهي مخالَفةُ أمرِ الرسول ﷺ، والتمادي على الفسادِ والفسقِ[(٢)].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾

ولمَّا قرَّر أنَّ هذا شأنُه إذا أراد أن يُهلِكَ، أخبَر أنَّه فعَل ذلك بمَن لا يُحصِيهم العَدُّ مِن القرون، ولا يحيطُ بهم الحدُّ مِن الأُمَم؛ لأنَّ الاعتبارَ بالمُشاهَد أوقَعُ في القلبِ، وأهوَلُ عند النفس، فكأنَّه قال: كم فعَلْنا ذلك بالقُرى، ولم نستعجِلْ في إهلاكِ قريةٍ منهم، ولا أخَذْناهم مِن غيرِ إنذارٍ؛ بل أرسَلْنا فيهم، وأملَيْنا لهم إلى أن كان ما عَلِمناه في الأزَلِ، وجاء الوقتُ الذي قدَّرْناه، وبلَغوا في الذُّنوبِ ما يَستحقون به الأخذَ، ولقد أهلَكْنا قومَ نوحٍ على هذا السَّنَنِ، وكانوا أهلَ الأرضِ؛ كما مضَتِ الإشارةُ إليه، ووقَع التنبيهُ عليه، وإهلاكُهم كان في إبلاغِ أهلِ الأرض ما أرسَلْنا به رُسُلَنا مِن

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٣).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٤).

التوحيدِ؛ لأنَّ ذلك لم يخفِّفْ علىٰ أحدٍ بعدهم، وعُطِف علىٰ هذا المقدَّرِ قولُه تعالىٰ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

ضُرِب مثالٌ لإهلاكِ القُرىٰ الذي وُصِف سببُه وكيفيَّته في الآيةِ السابقة، فعُقِّب ذلك بتمثيلِه؛ لأنَّه أشَدُّ في الكشف، وأدخَلُ في التحذيرِ المقصود، وفي ذلك تحقيقٌ لكونِ حلولِ العذاب بالقُرىٰ مقدَّمًا بإرسالِ الرسول إلىٰ أهلِ القرية، ثم بتوجيهِ الأوامر إلىٰ المُترَفِين، ثم فِسْقِهم عنها، وكان زعماءُ الكفَرةِ مِن قومِ نوحٍ مُترَفين، وهم الذين قالوا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود: ٢٧]، وقال لهم نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود: ٣١][2].

اعلَمْ أنَّ المرادَ أنَّ الطريقَ الذي ذكَرْناه هو عادتُنا مع الذين يفسُقون ويتمرَّدون فيما تقدَّم مِن القرونِ الذين كانوا بعد نوحٍ؛ وهم: عادٌ، وثمودُ، وغيرُهم[3].

ثم ذكَر سبحانه أنَّ هذه عادتُه الجارية مع القرونِ الخالية، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[4].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه سبحانه خبيرٌ بذُنوبِهم بعد تزهيدِه في الدنيا بما ذكَر مِن مَصارِعِ الأوَّلين، أتبَعه الإخبارَ بأنَّه يعامِلُهم علىٰ حسَبِ علمِه؛ علىٰ وجهٍ معرِّفٍ بعلمِه بجميعِ طَوِيَّاتهم مِن خيرٍ وشرٍّ، مرغِّبٍ في الآخرة، مرهِّبٍ مِن الدنيا؛ لأنَّها المانعةُ مِن

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣١٦).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٥٥).

اتباعِ الرُّسل والتقيُّدِ بطاعتهم؛ خوفًا مِن نقصِ الحظِّ مِن الدنيا بزوالِ ما هو فيه مِن الرئاسةِ والمال والانهماكِ في اللذة؛ جهلًا بأنَّ ما قدَّر لا يكونُ غيرُه، سواءٌ كان صاحبُه في طاعة أو معصيةٍ، فقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[1].

هذا بيانٌ لجملةِ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، وهو راجعٌ أيضًا إلىٰ جملةِ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ تدريجًا في التِّبيانِ للناس بأنَّ أعمالَهم مِن كَسْبِهم واختيارهم، فابتُدِئوا بأنَّ اللهَ قد ألزَمهم تَبِعةَ أعمالهم بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾، ثم وكَل أمرَهم إليهم، وأنَّ المسيءَ لا يضُرُّ بإساءتِه غيرَه، ولا يَحمِلُها عنه غيرُه، فقال: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ الآية[2].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾

ولمَّا ذكَر الجاهلَ، ذكَر العالِمَ العاملَ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[3].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾

ولمَّا أخبَر عن نفسِه الشريفة بما يشيرُ إلىٰ التوسعةِ علىٰ مَن يريدُ مِن أهلِ الباطل، أخبَر بأنَّه قضىٰ بذلك في الأزلِ تفضُّلًا، فقال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٨).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٩٦).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٣٩٧).

تذييلٌ لآيةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ إلىٰ آخرِها، وهذه الآيةُ فَذْلكةٌ للتنبيهِ علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لم يترُكْ خَلْقَه مِن أثَرِ رحمتِه، حتىٰ الكفَرةَ منهم الذين لا يؤمِنون بلقائه(١).

ثم بيَّن سبحانه كمالَ رأفتِه، وشمولَ رحمتِه، فقال: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾(٢).

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾

ثم أمَر بالنظرِ في عطائه هذا علىٰ وجهٍ مرغِّبٍ في الآخرة، مزهِّدٍ في الدنيا، فقال تعالىٰ آمرًا بالاعتبارِ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾(٣).

لمَّا كان العطاءُ المبذول للفريقينِ هو عطاءَ الدنيا، وكان الناسُ مفضَّلِين فيه علىٰ وجهٍ يُدرِكون حِكْمتَه؛ لفَت اللهُ لذلك نظَرَ نبيِّه ﷺ لَفْتَ اعتبارٍ وتدبُّر، ثم ذكَّره بأنَّ عطاءَ الآخرةِ أعظَمُ عطاءٍ، وقد فضَّل اللهُ به المؤمنين(٤).

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾

ولمَّا تقرَّر بما مضىٰ أنَّ له سبحانه الأمرَ كلَّه، وأنَّه متَّصِفٌ بجميعِ الكمال، منزَّهٌ عن شوائبِ النقص؛ أنتَج أنَّه لا إلهَ غيرُه، فقال تعالىٰ يخاطِبُ الرأسَ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٦١).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٥٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٣٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٦٣).

أوقَعُ في أنفُسِ الأتباعِ، وإشارة إلىٰ أنَّه لا يوحِّدُه حقَّ توحيدِه سِواه، ويجوز أن يكونَ خطابًا عامًّا لكلِّ مَن يصحُّ أن يخاطَبَ به: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾(١).

تذييلٌ هو فَذْلكةٌ لاختلافِ أحوالِ المسلمين والمشركين؛ فإنَّ خلاصةَ أسبابِ الفوز تَرْكُ الشركِ؛ لأنَّ ذلك هو مبدأُ الإقبالِ علىٰ العمل الصالح؛ فهو أولُ خُطواتِ السعيِ لمريدِ الآخرة؛ لأنَّ الشركَ قاعدةُ اختلالِ التفكيرِ، وتضليلِ العقول(٢).

لمَّا بيَّن أنَّ الناسَ فريقانِ: منهم مَن يريد بعملِه الدنيا فقط -وهم أهلُ العقابِ والعذاب-، ومنهم مَن يريد به طاعةَ الله -وهم أهلُ الثواب-، ثم شرَط ذلك بشرائطَ ثلاثةٍ: أولها: إرادةُ الآخرة، وثانيها: أن يعملَ عملًا ويسعىٰ سعيًا موافِقًا لطلب الآخرة، وثالثها: أن يكونَ مؤمنًا؛ لا جرَمَ فصَّل في هذه الآيةِ تلك المُجمَلات؛ فبدأ أولًا بشرحِ حقيقةِ الإيمان، وأشرَفُ أجزاءِ الإيمان هو التوحيدُ، ونفيُ الشركاءِ والأضداد، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾(٣).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ ما به تُنالُ درجاتُ الآخرة مِن البراءةِ مِن الشرك، ومِن الاعتصامِ بالإيمانِ وشُعَبِه، بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾(٤).

ثم لمَّا أجمَلَ سبحانه أعمالَ البِرِّ، أخَذ في تفصيلِ ذلك مبتدئًا بأشرَفِها، الذي هو التوحيدُ، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣١٩).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٤٥٣).

(٥) فتح القدير (٣/ ٢٥٩).

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا قرَع الأسماعَ بهذا النهيِ المحتِّمِ لتوحيدِه، أتبَعه الإخبارَ بالأمرِ بذلك؛ جمعًا في ذلك بَيْنَ صريحَيِ الأمرِ والنهي؛ تصريحًا بعد التنزيهِ له عن الشريكِ بالإفراد له في العبادةِ في أسلوبِ الخبَرِ؛ إعلامًا بعِظَمِ المقامِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1].

عطفٌ علىٰ الكلامِ السابق عَطْفَ غرضٍ علىٰ غرض؛ تخلُّصًا إلىٰ أعمدةٍ مِن شريعةِ الإسلام بمناسبةِ الفَذْلكة المتقدِّمة؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ إصلاحَ الأعمال متفرِّعٌ علىٰ نَبْذِ الشرك[2].

لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ ما هو الركنُ الأعظم في الإيمانِ، أتبَعه بذِكْرِ ما هو مِن شعائرِ الإيمان وشرائطِه؛ وهي أنواعٌ: النوعُ الأول: أن يكونَ الإنسانُ مشتغِلًا بعبادةِ الله تعالىٰ، وأن يكونَ محترزًا عن عبادةِ غيرِ الله تعالىٰ، وهذا هو المرادُ مِن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3].

ثم لمَّا ذكَر ما هو الركنُ الأعظم -وهو التوحيدُ-، أتبَعه سائرَ الشعائرِ والشرائع، ووجهُ ذِكْرِ الإحسانِ إلىٰ الوالدَينِ بعد عبادة الله سبحانه: أنَّهما السببُ الظاهر في وجودِ المتولِّد بينهما، وفي جَعْلِ الإحسانِ إلىٰ الأبوَينِ قرينًا لتوحيدِ الله وعبادته مِن الإعلان بتأكُّدِ حقِّهما والعنايةِ بشأنهما ما لا يَخفَىٰ، وهكذا جعَل سبحانه في آيةٍ أخرىٰ شُكْرَهما مقترِنًا بشكره[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٦٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢١).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٥٩).

لمَّا نهىٰ تعالىٰ عن الشركِ به، أمَر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(١).

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم ارتقىٰ في الوصايةِ بالوالدَينِ إلىٰ أمرِ الولَدِ بالتواضع لهما تواضعًا يبلُغُ حدَّ الذُّلِّ لهما؛ لإزالةِ وحشةِ نفوسِهما إن صارا في حاجةٍ إلىٰ معونةِ الولد؛ لأنَّ الأبوينِ يَبغيانِ أن يكونا هما النافعَينِ لولدِهما، والقصدُ مِن ذلك التخلُّقُ بشُكْرِه علىٰ أنعامِهما السابقة عليه، وصِيغَ التعبيرُ عن التواضعِ بتصويره في هيئةِ تذلُّلِ الطائرِ عندما يعتريه خوفٌ مِن طائرٍ أشَدَّ منه؛ إذ يَخفِضُ جَناحَه متذلِّلًا(٢).

ثم أمَره تعالىٰ بالمبالَغةِ في التواضُعِ معهما بقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾(٣).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك عَسِرًا جدًّا، حذَّر مِن التهاونِ به بقوله تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٧).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٠٤).

تذييلٌ لآيةِ الأمر بالإحسانِ بالوالدَينِ وما فصلَ بـه، ومـا يقتضـيه الأمـرُ مِن اختلافِ أحوال المـأمورين بهـذا الأمرِ قبـل ورودِه بَيْنَ موافِقٍ لمقتضـاه، ومُفـرِّط فيـه، ومِن اختلافِ أحوالهم بعد ورودِه مِن محافِظٍ على الامتثـالِ، ومقصِّـرٍ عـن قصـدٍ، أو عـن بادرةِ غفلةٍ[١].

لمَّا نهىٰ تعالىٰ عن عبادةِ غيرِه، وأمَرَ بالإحسانِ إلىٰ الوالـدَينِ، ولا سيما عند الكِبَـرِ، وكان الإنسانُ ربما تظاهَرَ بعبادةٍ وإحسانٍ إلىٰ والديه دون عقدِ ضميرٍ علىٰ ذلك ريـاءً وسُمْعة؛ أخبَرَ تعالىٰ أنَّه أعلَـمُ بمـا انطـوت عليـه الضـمائرُ مِـن دُونِ قصـدِ عبـادةِ الله، والبرِّ بالوالدَينِ[٢].

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

لمَّا حثَّ علىٰ الإحسانِ إليهما بالخصوص، عَمَّ بالأمرِ به لكلِّ ذي رَحِمٍ وغيرِه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٣].

لمَّا أمَر تعالىٰ ببِرِّ الوالدَينِ، أمَر بصلةِ القَرابة[٤].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الرابع مِن أعمالِ الخير والطاعةِ المذكورة في هذه الآياتِ[٥].

ثـم وصَّـىٰ تعـالىٰ بغيـرِ الوالـدَينِ مِـن الأقـاربِ بعـد الوصـيَّةِ بهمـا بقولـه سـبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٤).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٩).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٠٥).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢٨).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٤٥٥).

﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ ﴾

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[1].

لمَّا ذكَر البَذْلَ المحمود، وكان ضِدُّه معروفًا عند العرَبِ؛ أعقَبه بذِكْرِه للمناسبة[2].

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ قُبْحِ التبذيرِ بإضافتِه إيَّاه إلىٰ أفعالِ الشياطين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[3].

﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨ ﴾

ولمَّا أمَر بما هو الأَوْلىٰ في حالةِ الوِجْدانِ، أمَر بمثلِ ذلك حالةَ العدمِ، فقال مؤكِّدًا -تنبيهًا علىٰ أنَّه ينبغي أن يكونَ الإعراضُ عنهم في حيِّزِ الاستبعادِ والاستنكار-: ﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾[4].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ ﴾؛ لأنَّه مِن تمامِه، والخطابُ لغيرِ معيَّنٍ؛ ليعُمَّ كلَّ مخاطَبٍ، والمقصودُ بالخطابِ النبيُّ ﷺ؛ لأنَّه علىٰ وِزانِ نَظْمِ قولِه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾؛ فإنَّ المواجهةَ بـ﴿ رَبُّكَ ﴾ في القرآنِ جاءت غالبًا لخطابِ النبي ﷺ، ويَعدِلُه ما رُوِيَ: أنَّ النبيَّ كان إذا سأله أحدٌ مالًا ولم يكُنْ عنده ما يعطيه، يُعرِضُ عنه حياءً، فنبَّهه اللهُ إلىٰ أدبٍ أكمَلَ مِن الذي تعهَّدَه مِن قبلُ، ويحصُلُ مِن ذلك تعليمٌ لسائرِ الأمَّة[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٠٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ والمعنى: أنَّك إن أعرَضتَ عن ذي القُرْبىٰ والمسكينِ وابنِ السبيل حياءً مِن التصريح بالردِّ بسبب الفقر والقِلَّة، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾؛ أي: سهلًا ليِّنًا(١).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾

ولمَّا أمَر بالجُودِ الذي هو لازِمُ الكرَمِ، نهىٰ عن البخلِ الذي هو لازِمُ اللَّوْمِ، في سياقٍ يُنفِّرُ منه، ومِن الإسرافِ، فقال ممثِّلًا بادئًا بمثال الشُّحِّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾(٢).

عَوْدٌ إلىٰ بيانِ التبذير والشحِّ؛ فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، ولولا تخلُّلُ الفصلِ بَيْنَهما بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ، لكانت جملةُ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ غيرَ مقترنةٍ بواو العطف؛ لأنَّ شأنَ البيانِ ألا يُعطَفَ علىٰ المبيَّنِ، وأيضًا علىٰ أنَّ في عطفِها اهتمامًا بها يَجعَلُها مستقلَّةً بالقصدِ؛ لأنَّها مشتمِلةٌ علىٰ زيادةٍ علىٰ البيانِ بما فيها مِن النَّهيِ عن البخلِ المقابِلِ للتبذير(٣).

لمَّا أمَره بالإنفاقِ في الآيةِ المتقدِّمة، علَّمه في هذه الآيةِ أدبَ الإنفاقِ(٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾

ولمَّا كان سببُ البخلِ خوفَ الفقرِ، وسببُ البسطِ محبةَ إغناءِ المعطي؛ قال مسلِّيًا لرسوله ﷺ عمَّا كان يُرهِقه مِن الإضافةِ عن التوسعة علىٰ مَن يسألُه بأنَّ ذلك إنَّما

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢٨).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٢٩).

هو لتربيةِ العباد بما يُصلِحهم، لا لهوانٍ بالمضيَّقِ عليه، ولا لإكرامٍ للموسَّعِ عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[(١)].

موقعُ هذه الجملةِ موقعُ اعتراضٍ بالتعليلِ لِما تقدَّم مِن الأمرِ بإيتاءِ ذي القُرْبىٰ والمساكينِ، والنهيِ عن التبذيرِ، وعن الإمساكِ المفيدِ الأمرَ بالقصدِ، بأنَّ هذا واجبُ الناسِ في أموالهم وواجبُهم نحوَ قَرابتِهم، وضعفاءِ عشائرهم؛ فعليهم أن يمتثلوا ما أمَرهم اللهُ مِن ذلك، وليس الشُّحُّ بمُبْقٍ مالَ الشحيحِ لنفسِه، ولا التبذيرُ بمُغْنٍ مَن يبذِّرُ فيهم المالَ؛ فإنَّ اللهَ قدَّر لكلِّ نفسٍ رِزْقَها[(٢)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ما أراد مِن الوصيَّةِ بالأصولِ وما تَبِع ذلك، وختَمه بما قرَّر مِن أنَّ قَبْضَ الرزقِ وبَسْطَه منه، مِن غيرِ أن يَنفَعَ في ذلك حيلةٌ؛ أوصاهم بالفروعِ؛ لكونِهم في غايةِ الضَّعف، وكانوا يقتُلون بناتِهم خوفَ الفقرِ، وكان اسمُ البنتِ قد صار عندهم لطُولِ ما استهجَنوه موجِبًا للقسوةِ، فقال في النهيِ عن ذلك مواجهًا لهم -إعلامًا ببُعْدِه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم عن هذا الخُلُقِ قبل الإسلام وبعده-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[(٣)].

عطَف جملةَ حُكْمٍ علىٰ جملةِ حُكْمٍ؛ للنهيِ عن فعلٍ ينشأ عن اليأسِ مِن رزقِ الله، وهذه الوصيَّةُ السابعة مِن الأحكامِ المذكورة في آيةِ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ الآيةَ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٦).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٠٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٧).

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّه هو المتكفِّلُ بأرزاقِ العباد حيث قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾، أتبَعه بالنهيِ عن قتلِ الأولاد[١].

ولمَّا وجَب إيتاءُ ذي القُرْبىٰ والمسكينِ وابنِ السبيل؛ لحفظِ أرواحِهم؛ كان الأولادُ بحفظِ الأرواح أَوْلىٰ؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[٢].

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان في قتلِ الأولاد حظٌّ مِن البخلِ، وفي فعلِ الزنا داعٍ مِن الإسرافِ؛ أتبَعه به، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٣].

عطفُ هذا النهيِ على النهيِ عن وَأْدِ البنات إيماءٌ إلىٰ أنَّهم كانوا يعُدُّون مِن أعذارِهم في وأدِ البنات الخشيةَ مِن العارِ الذي قد يَلحَق مِن جرَّاءِ إهمالِ البنات الناشئِ عن الفقر، الرامي بهنَّ في مَهاوي العَهْر، ولأنَّ في الزنا إضاعةَ نسَبِ النَّسْلِ، بحيث لا يُعرَف للنسلِ مرجعٌ يأوي إليه، وهو يُشبِهُ الوأدَ في الإضاعةِ[٤].

لمَّا نهىٰ تعالىٰ عن قتلِ الأولاد، نهىٰ عن التسبُّبِ في إيجادِه مِن الطريق غيرِ المشروعة؛ فنهىٰ عن قِرْبانِ الزِّنا، واستلزَم ذلك النهيَ عن الزنا[٥].

ولمَّا نهىٰ عن قتلِ الأولاد، نهىٰ عن قطعِ النَّسْلِ بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٦].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٣).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٥٨).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٩).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٤٣).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٤٥٩).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ النهيَ عن هذين الأمرَينِ المتَّحِدَينِ في وصفِ الفُحْشِ، وفي السببِ على تقدير، وفي إهلاكِ الولدِ بالقتلِ وما في معناه؛ أتبعهما مطلَقَ القتلِ الذي مِن أسبابِه تحصيلُ المال، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾(١).

معلومةٌ حالةُ العرَبِ في الجاهليَّةِ مِن التسرُّعِ إلى قتلِ النفوس؛ فكان حفظُ النفوسِ مِن أعظَمِ القواعدِ الكليَّة للشريعةِ الإسلامية؛ ولذلك كان النهيُ عن قتلِ النفس مِن أهَمِّ الوصايا التي أوصى بها الإسلامُ أتباعَه في هذه الآياتِ الجامعة؛ وهذه هي الوصيَّةُ التاسعة(٢).

لمَّا نهى عن قتلِ الأولادِ، وعن إيجادِهم مِن الطريقِ غيرِ المشروعة؛ نهى عن قتلِ النفس؛ فانتقَل مِن الخاصِّ إلى العام(٣).

ثم ذكَر ما هو أعظَمُ في التنفيرِ والتفرِقة، فقال تعالى مَجْدُه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾(٤).

ولمَّا فرَغ مِن ذِكْرِ النهيِ عن القتلِ لخصوصِ الأولاد، وعن النهيِ عن الزِّنا الذي يُفضِي إلى ما يُفضي إليه قتلُ الأولادِ؛ مِن اختلاطِ الأنساب، وعدمِ استقرارِها؛ نهى عن قتلِ الأنفُسِ المعصومةِ على العموم، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩١).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٤).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ٤٥٩).
(٥) فتح القدير (٣/ ٢٦٥).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا نهىٰ عن الإغارةِ علىٰ الأرواحِ والأبضاع التي هي سببُها، أتبَعه النهيَ عن نَهْبِ ما هو عَدِيلُها؛ لأنَّ به قِوَامَها؛ وهو الأموالُ، وبدأ بأحَقِّ ذلك بالنهيِ؛ لشِدَّةِ الطمعِ فيه؛ لضَعْفِ مالكِه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾[١].

هذا مِن أهَمِّ الوصايا التي أوصىٰ اللهُ بها في هذه الآياتِ؛ لأنَّ العرَبَ في الجاهليَّةِ كانوا يستحِلُّون أموالَ اليتامىٰ؛ لضَعْفِهم عن التفطُّنِ لِمَن يأكُلُ أموالَهم، وقلَّةِ نصيرِهم لإيصالِ حقوقهم، فحذَّر اللهُ المسلمين مِن ذلك؛ لإزالةِ ما عسىٰ أن يَبقَىٰ في نفوسِهم مِن أثرِ مِن تلك الجاهليَّةِ؛ وهذه الوصيَّةُ العاشرة[٢].

لمَّا كان اليتيمُ ضعيفًا عن أن يَدفَعَ عن مالِه لصِغَرِه، نصَّ علىٰ النهيِ عن قِرْبانِ مالِه[٣].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثالث مِن الأشياءِ التي نهىٰ اللهُ عنها في هذه الآياتِ، اعلَمْ أنَّا ذكَرْنا أنَّ الزِّنا يوجِبُ اختلاطَ الأنسابِ؛ وذلك يوجبُ منعَ الاهتمامِ بتربيةِ الأولاد؛ وذلك يوجبُ انقطاعَ النَّسْلِ؛ وذلك يوجبُ المنعَ مِن دخولِ الناسِ في الوجود، وأمَّا القتلُ فهو عبارةٌ عن إعدامِ الناس بعد دخولِهم في الوجود؛ فثبَت أنَّ النهيَ عن الزِّنا والنهيَ عن القتلِ يَرجِعُ حاصلُه إلىٰ النهيِ عن إتلافِ النفوس، فلمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ ذلك، أتبَعه بالنهيِ عن إتلافِ الأموال؛ لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ بعد النفوسِ الأموالُ[٤].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩٦).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٣٦).

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ بالكيلِ أو الوزنِ مِن جملةِ الأمانات الخفيَّةِ كالتصرُّفِ لليتيمِ، وكان الائتمانُ عليه كالمعهودِ فيه؛ أتبعه قوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾[١].

هذان حُكْمانِ هما الثاني عشَرَ والثالث عشَرَ مِن الوصايا التي قضىٰ اللهُ بها[٢].

ثم أمَر تعالىٰ بإيفاءِ الكيلِ، وبالوزنِ المستقيم؛ وذلك ممَّا يَرجِعُ إلىٰ المعاملةِ بالأموال[٣].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك ممَّا تَشهَدُ القلوبُ بحُسْنِه، وأضدادُه ممَّا تتحقَّقُ النفوسُ قُبْحَه؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جبَلَ الإنسانَ علىٰ ذلك؛ كما قال صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «البِرُّ ما سكَن إليه القلبُ، واطمأنَّتْ إليه النفسُ، والإثمُ ما حاكَ في القلبِ، وتردَّد في الصدرِ، وإن أفتاكَ المُفتونَ، وأفتَوْكَ»[٤]، وقال: «إنَّ ممَّا أدركَ الناسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأُولىٰ: إذا لم تَسْتَحْيِ، فاصنَعْ ما شئتَ»[٥]، وكان قد جمَع الضمائرَ سبحانه، تلاه سبحانه بما يعُمُّه وغيره، فقال تعالىٰ مفرِدًا الضميرَ ليصوِّبَ النهيَ إلىٰ كلٍّ مِن الجمعِ

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩٧).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٦).
(٤) أخرجه أحمد في "المسند" (١٧٧٤٢).
(٥) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

والإفراد في حالتَي الاجتماعِ والانفرادِ على حدٍّ سواءٍ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[(١)].

لمَّا شرَح الأوامرَ الثلاثة، عاد بعده إلى ذِكْرِ النواهي؛ فنهى عن ثلاثةِ أشياءَ: أولُها: قولُه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[(٢)].

ثم أمَر سبحانه بإصلاحِ اللسانِ والقلب، فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[(٣)].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الكِبْرُ والأنَفةُ أعظَمَ مُوقِفٍ عن العلمِ الداعي إلى كلِّ خيرٍ، ومرَضٍ بمرضِ الجهلِ الحامل على كلِّ شرٍّ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[(٤)].

نُهِيَ عن خَصْلةٍ مِن خصالِ الجاهليَّةِ؛ وهي خَصْلةُ الكبرياءِ، وكان أهلُ الجاهليَّة يَتعمَّدونها؛ وهذه الوصيَّةُ الخامسةَ عَشْرة[(٥)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن الأشياءِ التي نهى اللهُ عنها في هذه الآياتِ[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١٣-٤١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٣٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ٢٦٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤١٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٣).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤١).

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

ثم عظَّم جميعَ ما مضىٰ مِن المنهيَّاتِ وأضدادِ المأمورات بقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾(١).

تذييلٌ للجُمَلِ المتقدِّمةِ، ابتداءً مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ باعتبارِ ما اشتمَلتْ عليه مِن التحذيراتِ والنواهي؛ فكلُّ جملةٍ فيها أمرٌ هي مقتضيةٌ نهيًا عن ضِدِّه، وكلُّ جملةٍ فيها نهيٌ هي مقتضيةٌ شيئًا منهيًّا عنه(٢).

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا تمَّتْ هذه الأوامرُ والزواجر علىٰ هذا الوجهِ الأحكَم، والنظامِ الأقوَم؛ أشار إلىٰ عظيمِ شأنِه ومُحكَمِ إتقانِه بقولِه علىٰ طريقِ الاستئناف -تنبيهًا للسامعِ علىٰ أن يَسألَ عنه-: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾(٣).

عدَلَ عن مخاطبةِ الأمَّةِ بضمائرِ جمعِ المخاطَبين وضمائرِ المخاطَبِ غيرِ المعيَّنِ إلىٰ خطابِ النبيِّ ﷺ؛ ردًّا إلىٰ ما سبَق في أولِ هذه الآياتِ، وهو تذييلٌ معترِضٌ بَيْنَ جُمَلِ النهيِ، والإشارةُ إلىٰ جميعِ ما ذُكِر مِن الأوامرِ والنواهي صراحةً مِن قولِه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٤).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤١٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٥).

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا كان ادعاؤهم أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ادعاءً لأنَّ له مناسِبًا ومجانِسًا في أخصِّ الصفاتِ؛ وهي الإلهيَّة، وكانت عبادتُهم لهم تحقيقًا لذلك، وكان ذلك أزيَدَ مِن مجردِ الشركِ في الجهلِ: ساقَه مساقَ التقريعِ والتوبيخ؛ تنبيهًا علىٰ ظهورِ فسادِه متصِلًا بما مضىٰ مِن النهيِ عن الشرك؛ فكان كأنَّه قيل: لا تَفعَلْ ذلك كما فعَل هؤلاء الذين أفرَطوا في الجهلِ؛ فنسَبوا إليه مِن خَلْقِه أدنىٰ الجزأين، ثم عبَدوا ذلك الجزءَ وهم لا يَرضَوْنه لأنفسِهم، ثم التفَتَ إليهم مخاطِبًا بما دَلَّ علىٰ تَناهي الغضبِ، فقال: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[(١)].

تفريعٌ علىٰ مقدَّرٍ يدلُّ علىٰ تقديرِه المفرَّعِ عليه؛ والتقديرُ: أَفَضَّلَكم اللهُ فأعطاكم البنينَ وجعَل لنفسِه البناتِ؟! ومناسَبتُه لِما قبله: أنَّ نسبةَ البناتِ إلىٰ الله ادعاءُ آلهةٍ تنتسبُ إلىٰ اللهِ بالبنوَّة؛ إذ عبَد فريقٌ مِن العرَبِ الملائكةَ كما عبَدوا الأصنامَ، واعتلُّوا لعبادتِهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ تعالىٰ، فلمَّا نُهُوا عن أن يَجعَلوا مع اللهِ إلهًا آخرَ، خصَّص بالتحذيرِ عبادةَ الملائكةِ؛ لئلا يَتوهَّموا أنَّ عبادةَ الملائكةِ ليست كعبادةِ الأصنام؛ لأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ ليَتوهَّموا أنَّ اللهَ يَرضَىٰ بأن يعبُدوا أبناءَه، وقد جاء إبطالُ عبادةِ الملائكة بإبطالِ أصلِها في معتقَدِهم؛ وهو أنَّهم بناتُ اللهِ، فإذا تبيَّنَ بطلانُ ذلك، عَلِموا أنَّ جَعْلَهم الملائكةَ آلهةً يساوي جَعْلَهم الأصنامَ آلهةً[(٢)].

لمَّا نبَّه تعالىٰ علىٰ فسادِ مَن أثبَتَ لله شريكًا ونظيرًا، أتبَعه بفسادِ طريقةِ مَن أثبَت للهِ ولدًا[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٧).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥٢).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان في هذا مِن البيانِ ما لا يَخفَىٰ علىٰ الإنسانِ ولم يَرجِعوا، أشار إلىٰ أنَّ لهم أمثالَ هذا الإعراضِ عن أمثالِ هذا البيانِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾(١).

لمَّا ذكَر فظاعةَ قولِهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله، أعقَب ذلك بأنَّ في القرآنِ هَدْيًا كافيًا، ولكنَّهم يزدادون نفورًا مِن تدبُّرِه(٢).

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما يفعلُ بهم؟ فقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾(٣).

عَوْدٌ إلىٰ إبطالِ تعدُّدِ الآلهةِ زيادةً في استئصالِ عقائدِ المشركين مِن عروقِها؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد جملةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾، والمخاطَبُ بالأمرِ بالقول هو النبيُّ ﷺ؛ لدمغِهم بالحجَّةِ المُقنِعةِ بفسادِ قولهم، وللاهتمامِ بها افتُتِحت بـ﴿قُل﴾؛ تخصيصًا لهذا بالتبليغِ، وإن كان جميعُ القرآن مأمورًا بتبليغِه(٤).

لمَّا ذكَر تعالىٰ نسبةَ الولَدِ إليهم، وردَّ عليهم في ذلك؛ ذكَر قولَهم أنَّه تعالىٰ معه آلهةٌ، وردَّ عليهم(٥).

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٢١).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٩).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٢٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٠).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٥٣).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

ثم نزَّه نفسه تعظيمًا عن ذلك، وعن كلِّ نقصٍ، فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(١).

إنشاءُ تنزيهٍ لله تعالىٰ عمَّا ادَّعَوْه مِن وجودِ شركاءَ له في الإلهيَّةِ، وهذا مِن المَقُولِ اعتراضٌ بَيْنَ أجزاءِ المقُولِ، وهو مستأنفٌ؛ لأنَّه نتيجةٌ لبطلانِ قولهم: إنَّ مع اللهِ آلهةً، بما نهضتْ به الحجَّةُ عليهم مِن قولِه: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾(٢).

لمَّا أقام الدليلَ القاطع علىٰ كونِه منزَّهًا عن الشركاءِ، وعلىٰ أنَّ القولَ بإثباتِ الآلهة قولٌ باطل؛ أردَفه بما يدلُّ علىٰ تنزيهِه عن هذا القولِ الباطل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٣).

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

ثم استأنَف بيانَ عظمةِ هذا التنزيهِ مقرونًا بالوصفِ بالكمال، فقال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾(٤).

ثم بيَّن سبحانه جلالةَ مُلْكِه، وعظمةَ سلطانِه، فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤٦).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٢٣).

(٥) فتح القدير (٣/ ٢٧٤).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر في سياقِ التوحيد أنَّهم في الحضيضِ مِن الغباوةِ، التفتَ إلىٰ سيِّدِ أُولي الفهمِ، فقال مشيرًا إلىٰ النبوَّةِ عاطفًا علىٰ ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾، منبِّهًا علىٰ أنَّهم لا يفهمون لسانَ القالِ، فضلًا عن لسانِ الحالِ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.[(١)]

عطَف جملةً علىٰ جملةٍ، وقِصَّةً علىٰ قِصَّةٍ؛ فإنَّه لمَّا نوَّه بالقرآنِ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، ثم أعقَب بما اقتضاه السياقُ مِن الإشارةِ إلىٰ ما جاء به القرآنُ مِن أصولِ العقيدةِ، وجوامعِ الأعمال، وما تخلَّل ذلك مِن المواعظِ والعِبرِ؛ عاد هنا إلىٰ التنبيهِ علىٰ عدمِ انتفاعِ المشركين بهَدْيِ القرآنِ لمناسبةِ الإخبار عن عدمِ فِقْهِهم دلالةَ الكائناتِ علىٰ تنزيهِ الله تعالىٰ عن النقائصِ، وتنبيهًا للمشركين علىٰ وجوبِ إقلاعهم عن بغيهم وعنادِهم، وتأمينًا للنبيِّ ﷺ مِن مَكْرِهم به، وإضمارِهم إضرارَه، وقد كانت قراءتُه القرآنَ تَغِيظُهم، وتُثِيرُ في نفوسهم الانتقامَ[(٢)].

لمَّا تكلَّم في الآيةِ المتقدِّمة في المسائلِ الإلهيَّة، تكلَّم في هذه الآيةِ فيما يتعلقُ بتقريرِ النبوَّة[(٣)].

ثم مثَّل تعالىٰ حالةَ المشركين مع التنزيلِ الكريم حينما يقرؤه عليهم الرسولُ صلوات الله عليه يَدْعوهم إلىٰ العملِ بما فيه مِن التوحيدِ ورفضِ الشرك وغيرِ ذلك

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٥-١١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤٩).

مِن ضَلالِهم بمَن طمَس علىٰ بصيرتِه وبصَرِه وسمعِه بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[1].

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾

عطَف «جعَل» علىٰ «جعَل»، والتصريحُ بإعادةِ فعلِ الجَعْلِ يؤذِنُ بأنَّ هذا جَعْلٌ آخَرُ، فيرجَّحُ أن يكونَ جَعْلُ الحجابِ المستور جَعْلَ الصَّرْفةِ عن الإضرارِ، ويكونَ هذا جَعْلَ عدمِ التدبُّرِ في القرآنِ خِلْقةً في نفوسهم[2].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كانوا ربما ادَّعَوُا السمعَ والفهمَ، فشكَّكوا بعضَ مَن لم يرسَخْ إيمانُه؛ أتبَعه تعالىٰ ما يؤكِّدُ ما مضىٰ، ويُثبِّت السامعين فيه، فقال تعالىٰ علىٰ طريقةِ الجواب مهدِّدًا ودالًّا علىٰ أنَّ مداركَهم معروفةٌ: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[3].

كان المشركون يحيطون بالنبيِّ ﷺ في المسجدِ الحرام إذا قرأ القرآنَ يستمعون لِما يقوله ليتلقَّفوا ما في القرآنِ ممَّا يُنكِرونه؛ مثلُ: توحيدِ الله، وإثباتِ البعثِ بعد الموت، فيعجِّبُ بعضُهم بعضًا مِن ذلك؛ فكان الإخبارُ عنهم بأنَّهم جُعِلتْ في قلوبهم أكنَّةٌ أن يَفقَهوه، وفي آذانِهم وَقْرٌ، وأنَّهم يولُّون علىٰ أدبارِهم نفورًا إذا ذُكِر اللهُ وَحْدَه:

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٤٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٧).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٣٦).

يُثِيرُ في نفسِ السامع سؤالًا عن سببِ تجمُّعِهم لاستماعِ قراءةِ النبي ﷺ، فكانت هذه الآيةُ جوابًا عن ذلك السؤالِ؛ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا[(١)].

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) ﴾

ثم وصَل بذلك الدليلَ على نسبتِهِ سبحانه لهم إلى الجهلِ الذي كان نتيجةَ قولِهم هذا، فقال تعالى ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[(٢)].

جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ونظائرُها كثيرةٌ في القرآنِ، والتعبيرُ بفعلِ النظر إشارةٌ إلى أنَّه بلَغ مِن الوضوحِ أن يكونَ منظورًا[(٣)].

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾

ولمَّا جرَتْ عادةُ القرآن بإثباتِ التوحيد والنبوَّة والمَعاد، وقدَّم الدَّلالةَ على الأوَّلين، وختَم بإثباتِ جهلِهم في النبوَّةِ مع ظهورها؛ أتبَع ذلك أمرًا جليًّا في ضلالِهم عن السبيلِ في أمرِ المَعاد، وقرَّره غايةَ التقرير، وحرَّره أتَمَّ تحرير، فقال تعالى مُعجِّبًا منهم: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[(٤)].

يجوز أن يكونَ جملةُ ﴿ وَقَالُوا ﴾ معطوفةً على جملةِ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾، باعتبارِ ما تشتملُ عليه مِن قوله: ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾؛ لقصدِ استئصال ضلالةٍ أخرى مِن ضلالاتِهم بالحجَّةِ الدامغة، بعد استئصالِ التي قبلها بالحجَّةِ القاطعة، بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ الآيةَ، وما بينهما بمنزلةِ الاعتراض، ويجوز أن تكونَ عطفًا على جملةِ ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ التي مضمونُها مظروفٌ

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٩).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٩).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٣٨).

للنَّجوىٰ، فيكون هذا القولُ ممَّا تناجَوْا به بينهم، ثم يَجهَرون بإعلانِه، ويعُدُّونه حُجَّتَهم علىٰ التكذيبِ(١).

لمَّا تكلَّم أولًا في الإلهيَّاتِ، ثم أتبعه بذِكْرِ شُبهاتِهم في النبوَّاتِ؛ ذكَر في هذه الآيةِ شُبهاتِ القومِ في إنكارِ المَعادِ والبعث والقيامة، وقد ذكَرْنا كثيرًا أنَّ مدارَ القرآنِ علىٰ المسائلِ الأربعة؛ وهي: الإلهياتُ، والنبوَّات، والمَعاد، والقضاء والقَدَر، وأيضًا أنَّ القومَ وصَفوا رسولَ الله ﷺ بكونِه مسحورًا فاسدَ العقل، فذكَروا مِن جملةِ ما يدلُّ علىٰ فسادِ عقله أنَّه يدَّعي أنَّ الإنسانَ بعدما يَصِيرُ عظامًا ورفاتًا، فإنَّه يعُودُ حيًّا عاقلًا كما كان، فذكَروا هذا الكلامَ روايةً عنه؛ لتقريرِ كونِه مختَلَّ العقل(٢).

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾

فكأنَّه قيل: فماذا يقال لهم في الجوابِ؟ فقيل: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾(٣).

جوابٌ عن قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يُجيبَهم بذلك(٤).

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ صلابتُه وزيادته علىٰ قوةِ الحديدِ وصلابتِه، ولم يعيِّنْهُ، ترَك ذلك إلىٰ أفكارِهم وجوَلانها فيما هو أصلَبُ مِن الحديدِ، فبدأ أولًا بالصُّلْبِ، ثم ذكَر علىٰ سبيلِ الترقِّي الأصلَبَ منه، ثم الأصلَبَ مِن الحديد(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٥٢).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٣٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٢٤).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٦٢-٦٣).

فقيل لهم: فافرِضوا شيئًا آخَرَ أبعَدَ عن قَبولِ الحياةِ مِن الحجَرِ والحديد بحيث يستبعِدُ عقلُكم كونَه قابلًا للحياةِ، وعلىٰ هذا الوجهِ، فلا حاجةَ إلىٰ أن يتعيَّنَ ذلك الشيءُ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ أبدانَ الناسِ وإن انتهَتْ بعد موتها إلىٰ أيِّ صفةٍ فُرِضتْ، وأيِّ حالةٍ قُدِّرتْ، وإن كانت في غايةِ البُعْدِ عن قَبولِ الحياة: فإنَّ اللهَ تعالىٰ قادرٌ علىٰ إعادةِ الحياة إليها[1].

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

ثم استأنَف جازمًا بقوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا أمَره سبحانه بإبلاغِهم هذا الكلامَ، وفيه مِن التهكُّمِ بهم والتبكيتِ لهم والاستخفافِ بعقولهم ما لا يَعلَم مقدارَه إلا مثلُهم مِن البُلَغاءِ والعرَبِ العَرْباءِ، وكان لكونِه كلامَ العليمِ بالعواقب الخبيرِ بما تجُنُّ الضمائرُ، ربما استَنَّ به المؤمنون فخاطَبوهم بنحوِه مِن عندِ أنفسهم؛ نهاهم عن ذلك؛ لئلا يقولوا ما يَهِيجُ شرًّا، أو تُثِيرُ ضرًّا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[3].

لمَّا أعقَب ما أمَر النبيَّ ﷺ بتبليغِه إلىٰ المشركين مِن أقوالٍ تَعِظُهم وتُنَهْنِهُهم مِن قولِه تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾، وقوله: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً ﴾، وقوله:

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٥٣).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٣٨).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٤١).

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ ﴾؛ ثُنِيَ العِنانُ إلىٰ الأمرِ بإبلاغِ المؤمنين تأديبًا يَنفعُهم في هذا المقامِ؛ علىٰ عادةِ القرآن في تلوينِ الأغراض، وتعقيبِ بعضِها ببعضِ أضدادِها؛ استقصاءً لأصنافِ الهُدَىٰ، ومختلِفِ أساليبِه، ونفعِ مختلِفِ الناس[(١)].

لمَّا تقدَّم ما نسَب الكفارُ للهِ تعالىٰ مِن الولدِ، ونفورُهم عن كتابِ الله إذا سَمِعوه، وإيذاءُ الرسولِ ﷺ ونِسْبتُه إلىٰ أنَّه مسحورٌ، وإنكارُ البعثِ؛ كان ذلك مَدْعاةً لإيذاءِ المؤمنين، ومَجلَبَةً لبُغْضِ المؤمنين إيَّاهم، ومعامَلتِهم بما عامَلوهم؛ فأمَر اللهُ تعالىٰ نبيَّه أن يوصيَ المؤمنين بالرِّفْقِ بالكفارِ، واللُّطْفِ بهم في القولِ، وألا يعامِلوهم بمثلِ أفعالهم وأقوالهم؛ فعلىٰ هذا يكونُ المعنىٰ: قُلْ لعبادي المؤمنين يقولوا للمشركين الكَلِمةَ التي هي أحسَنُ[(٢)].

لمَّا ذكَر الحجَّةَ اليقينيَّةَ في إبطالِ الشرك؛ وهو قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ ﴾، وذكَر الحجَّةَ اليقينيَّةَ في صحَّةِ المَعاد؛ وهو قوله: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؛ قال في هذه الآيةِ: وقُلْ يا محمَّدُ لعبادي: إذا أردتم إيرادَ الحجَّةِ علىٰ المخالِفين، فاذكُروا تلك الدلائلَ بالطريقِ الأحسَن[(٣)].

📖 ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ ﴾ 📖

ثم فسَّر ﴿ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ممَّا علَّمهم ربُّهم مِن النَّصَفةِ بقولِه تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٣١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٦٥-٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٥٥).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٤٢).

هـذا الكـلامُ متصِـلٌ بقولـه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ إلـىٰ قولِـه: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾؛ فإنَّ ذلك ينطوي علىٰ ما هو شأنُ نَجْواهم مِن التصميمِ علىٰ العنادِ والإصرار علىٰ الكفرِ، وذلك يَسُوءُ النبيَّ ﷺ ويحزُنُه ألا يهتدوا؛ فوجَّه هـذا الكـلامَ إليه تسليةً له[1].

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا أمَرهم بأن ينسُبوا الأعلَميَّةَ بهم إليه سبحانه، أخبَر بما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال تعالىٰ إعلامًا بأنَّ عِلْمَه ليس مقصورًا عليهم، بل هو محيطٌ، قاصرًا الخطابَ علىٰ أعلَمِ الخَلْقِ به سبحانه؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يَعلَم هذا حقَّ علمِه غيرُه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2].

لمَّـا ذكَـر تعـالىٰ أنَّـه أعلَـمُ بمَـن خـاطَبهم بقولـه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، انتقَـل مِـن الخصـوصِ إلـىٰ العمـوم، فقـال مخاطِبًا لرسـوله ﷺ: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ ليبـيِّنَ أنَّ عِلْمَـه غيـرُ مقصـورٍ علـيكم، بـل عِلْمُـه متعلِّـقٌ بجميـعِ مَـن في السماواتِ والأرض؛ بأحوالِهم، ومقاديرِهم، وما يستأهِلُ كلُّ واحدٍ منهم[3].

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا أثبَتَ أنَّ شأنَه تعالىٰ فِعْلُ ذلك وأمثالِه مِن التفضيلِ والتحويل علىٰ حسَبِ عِلمِه وقُدْرتِه، ثبَت بغيرِ شُبْهةٍ أن لا مَفزَعَ إلا إليه؛ فأمَره صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٣٣).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٤٣).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٦٨).

تحقيقًا لذلك أن يأمرَهم بما يَظهَرُ به عَجْزُ شركائهم؛ ردًّا عليهم في قولِهم: لَسْنا بأهلٍ لعبادتِه استقلالًا؛ فنحن نعبُدُ بعضَ المقرَّبين ليَشفَعَ لنا عنده، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، وجملةِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾؛ وذلك أنَّه لمَّا جرىٰ ذِكْرُ الأفضلِينَ مِن الأنبياءِ في أثناءِ آيةِ الردِّ علىٰ المشركين مقالتَهم في اصطفاءِ محمَّدٍ ﷺ للرسالة، واصطفاءِ أتباعِه لوَلايتِه ودِينِه؛ وهي آيةُ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلىٰ آخِرِها: جاءت المناسبةُ لردِّ مقالةٍ أخرىٰ مِن مقالاتِهم الباطلةِ؛ وهي اعتذارُهم عن عبادةِ الأصنام بأنَّهم ما يعبُدونهم إلا ليقرِّبوهم إلىٰ اللهِ زُلْفَىٰ؛ فجعَلوهم عبادًا مقرَّبين، ووسائلَ لهم إلىٰ اللهِ، فلمَّا جرىٰ ذِكْرُ المقرَّبين حقًّا، انتُهِزت مناسبةُ ذِكْرِهم؛ لتكونَ مَخلَصًا إلىٰ إبطالِ ما ادَّعَوْهُ مِن وسيلةِ أصنامهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ الردُّ علىٰ المشركين، وقد ذكَرْنا أنَّ المشركين كانوا يقولون: ليس لنا أهليَّةٌ أن نشتغِلَ بعبادةِ الله تعالىٰ؛ فنحن نعبُدُ بعضَ المقرَّبين مِن عبادِ الله؛ وهم الملائكةُ، ثم إنَّهم اتخَذوا لذلك المَلَكِ الذي عبَدوه تمثالًا وصورةً، واشتغَلوا بعبادتِه علىٰ هذا التأويلِ، واللهُ تعالىٰ احتجَّ علىٰ بطلانِ قولهم في هذه الآيةِ، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٣٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٥٦-٣٥٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه لا ضُرَّ لهم ولا نَفْعَ، بيَّن أنَّهم يتسابقون إلىٰ القُرْبِ إليه؛ رجاءَ أن يَنفعَهم، وخوفَ أن يضُرَّهم، فقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾(١).

ثم إنَّه سبحانه أكَّد عدمَ اقتدارِهم ببيانِ غاية افتقارِهم إلىٰ اللهِ في جَلْبِ المنافعِ، ودَفْعِ المَضارِّ، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾(٢).

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾

ولمَّا كان المعنىٰ: فاحذَرونا؛ فإنَّا أَبَدْنا الأُمَمَ السالفة، ودمَّرْنا القُرَىٰ المشيَّدةَ؛ عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾(٣).

ولمَّا عرَّض بالتهديدِ للمشركين في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾، وتحدَّاهم بقوله: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾؛ جاء بصريحِ التهديدِ علىٰ مَسمَعٍ منهم بأنَّ كلَّ قريةٍ مثلُ قريتِهم في الشركِ لا يَعْدُوها عذابُ الاستئصالِ وهو

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٥٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٨٢).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٥١).

يأتي على القريةِ وأهلِها، أو عذابُ الانتقامِ بالسيف والذُّلِّ والأَسْرِ والخوف والجوع وهو يأتي على أهلِ القريةِ مثلَ صَرْعَى بَدْرٍ؛ كلُّ ذلك في الدنيا(١).

ثم بيَّن سبحانه مآلَ الدنيا وأهلِها، فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾(٢).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا كانت كفارُ قُريشٍ تكرِّرُ اقتراحَهم للآياتِ بعد أن اشتَدَّ أذاهم، وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لشِدَّةِ حرصِه على إيمانِ كلِّ أحدٍ؛ فكيف بقومِه العرَبِ؟! فكيف ببَنِي عمِّهِ منهم؟! - ربما أحَبَّ أنَّ اللهَ تعالى يُجِيبُهم إلى مقترَحِهم؛ طمعًا في إيمانِهم، وإراحةً له ولأتباعِه مِن أذاهم، وكان ما رأَوْه مِن آيةِ الإسراء أمرًا باهرًا ثم لم يؤمِنوا، بل ارتَدَّ بعضُ مَن كان آمَنَ منهم: كان المقامُ في قوةِ اقتضائه أن يقالَ بعد ذِكرِ آيةِ العذاب: ما لهم لا يُعجَّلُ عذابُهم أو يجابون إلى مقترَحاتِهم ليُقضَى الأمرُ؟! فيقال في الجوابِ: ما منَعَنا مِن تعجيلِ عذابِهم إلا أنَّا ضرَبْنا لهم أجَلًا لا بد مِن بلوغِه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾(٣).

الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ الآيةَ؛ أي: إنَّما أمهَلْنا المتمرِّدين على الكفرِ إلى أجلِ نزولِ العذاب، ولم نُجِبْهم إلى ما طلَبوا مِن

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤١).
(٢) فتح القدير (٣/ ٢٨٢).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٥٤-٤٥٥).

الآياتِ؛ لعدمِ جدوىٰ إرسالِ الآياتِ للأوَّلين مِن قَبلِهم في الكفرِ علىٰ حسَبِ اقتراحِهم، فكذَّبوا بالآياتِ(١).

لمَّا ذكَر الدليلَ علىٰ فسادِ قولِ المشركين، وأتبَعه بالوعيدِ؛ أتبَعه بذِكْرِ مسألةِ النبوَّة(٢).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ للتعريفِ بمطابقةِ الخُبْرِ الخبَرَ: اذكُرْ أنَّا قُلْنا لك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، واذكُرْ ما وقَع مِن ذلك ماضيًا مِن آياتِ الأوَّلين، وحالًا مِن قِصَّةِ الإسراءِ؛ عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾(٣).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ هذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ علىٰ حُزْنِه مِن تكذيبِ قومِه إيَّاه، ومِن إمهالِ عُتاةِ أعداءِ الدِّينِ الذين فتَنوا المؤمنين، فذكَّره اللهُ بوعدِه نَصْرَه(٤).

لمَّا طالَبوا الرسولَ ﷺ بالآياتِ المقترَحة، وأخبَر اللهُ بالمصلحةِ في عدمِ المجيءِ بها؛ طعَن الكفَّارُ فيه، وقالوا: لو كان رسولًا حقًّا، لأتىٰ بالآياتِ المقترَحة؛ فبيَّن اللهُ أنَّه ينصُرُه ويؤيِّده، وأنَّه أحاطَ بالناس(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٥٩).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٥٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٥).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٧٣).

ولمَّا ذكَر سبحانه الامتناعَ مِن إرسالِ الآياتِ المقترَحة علىٰ رسولِه للصارفِ المذكور، قوَّىٰ قلبَه بوعدِ النصرِ والغلَبة، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّهم استبعَدوا الإعادةَ مِن أجلِ صيرورتِهم بعد الموت رُفاتًا، وأخبَر تعالىٰ بقُدْرتِه علىٰ ذلك، ولو صاروا إلىٰ ما هو أعسَرُ عندهم في الإعادةِ مِن الرُّفاتِ؛ بأن يكونوا حجارةً أو حديدًا، وأشار إلىٰ قُدْرتِه علىٰ التصرُّفِ بخَرْقِ العادةِ في الحديد بإلانتِه لعبدٍ مِن عبيدِه، ثم في الحجارةِ علىٰ سبيل الترقِّي في النشرِ المشوشِ بما هو أعجَبُ مِن ذلك -وهو إفاضةُ الحياةِ عليها- لعبدٍ آخَرَ مِن عبيدِه: أشار إلىٰ تصرُّفِه في الترابِ الذي هو نهايةُ الرُّفاتِ الذي حمَلهم علىٰ الاستبعادِ بما هو أعجَبُ مِن كلِّ ما تقدَّمه؛ وذلك بإفاضةِ الحياةِ الكاملة بالنطقِ عليه مِن غيرِ أن تَسبِقَ له حالةُ حياةٍ أصلًا؛ وذلك بخَلْقِ آدمَ عليه السلام الذي هو أصلُهم، مع ما في ذلك مِن حفظِ السياقِ في التسلية بأنَّ الآياتِ لا تَنفَعُ المحكومَ بشقاوتِه، وبأنَّ آدمَ عليه السلام قد سُلِّط عليه الحاسدُ، واشتَدَّ أذاه له، مع أنَّه صَفِيُّ اللهِ، وأولُ أنبيائِه، مع البيانِ لأنَّ أغلَبَ أسبابِ الطغيان الحسَدُ الذي حمَل إبليسَ علىٰ ما فعَل، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(٢).

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٨٣).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٦١-٤٦٢).

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾، والمقصودُ مِن هذا هو تذكيرُ النبيِّ ﷺ بما لَقِيَ الأنبياءُ قبله مِن معانَدةِ الأعداءِ والحسَدةِ مِن عهدِ آدمَ حين حسَده إبليسُ على فضلِه، وأنَّهم لا يَعدَمون مع ذلك معترفين بفضلِهم، وهم خِيرةُ زمانِهم؛ كما كانت الملائكةُ نحو آدمَ ﵇، وأنَّ كِلَا الفريقَينِ في كلِّ عصرٍ يمُتُّ إلى أحدِ الفريقينِ الذي في عهدِ آدمَ؛ فلفريق الملائكةِ المؤمنون، ولفريق الشيطان الكافرون؛ كما أومأ إليه قولُه تعالى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ الآيةَ؛ ففي ذلك تسليةٌ للنبيِّ ﵊؛ فأمرُ اللهِ نبيَّه بأن يذكُرَ ذلك يتضمَّنُ تذكيرَه إيَّاه به، وذكرُ النبيِّ ذلك موعظةٌ للناس بحالِ الفريقينِ؛ لينظُرَ العاقلُ أين يضعُ نفسَه؟!(١).

في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجوهٌ: الأولُ: اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان في مِحْنةٍ عظيمة مِن قومِه وأهلِ زمانه، بيَّن أنَّ حالَ الأنبياءِ مع أهلِ زمانهم كذلك؛ ألا ترى أنَّ أولَ الأولياءِ هو آدمُ ﵇، ثم إنَّه كان في محنةٍ شديدة مِن إبليسَ؟! الثاني: أنَّ القومَ إنَّما نازَعوا رسولَ الله ﷺ وعانَدوه، واقترَحوا عليه الاقتراحاتِ الباطلةَ لأمرينِ: الكِبْرِ والحسدِ؛ أمَّا الكِبْرُ فلأنَّ تكبُّرَهم كان يَمنعُهم مِن الانقياد، وأمَّا الحسدُ فلأنَّهم كانوا يحسُدونه على ما آتاه اللهُ مِن النبوَّةِ والدرجة العالية؛ فبيَّن تعالى أنَّ هذا الكِبْرَ والحسَدَ هما اللذان حمَلَا إبليسَ على الخروجِ مِن الإيمان، والدخولِ في الكفر؛ فهذه بليَّةٌ قديمة ومحنة عظيمة للخَلْقِ. والثالث: أنَّه تعالى لمَّا وصَفهم بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾، بيَّن ما هو السببُ لحصولِ هذا الطغيان؛ فلأجلِ هذا المقصودِ، ذكَر اللهُ تعالى قِصَّةَ إبليسَ وآدمَ؛ فهذا هو الكلامُ في كيفيَّةِ النَّظمِ(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٦٥).

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ بتكبُّرِه، كان كأنَّه قيل: إنَّ هذه لَوقاحةٌ عظيمة، واجتراءٌ علىٰ الجَنابِ الأعلىٰ، فهل كان غيرُ هذا؟ فقيل: نعم! ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1].

جملةُ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾، باعتبارِ ما تشتملُ عليه مِن احتقارِ آدمَ، وتغليطِ الإرادةِ مِن تفضيله [2].

فلمَّا تبيَّنَ لإبليسَ تفضيلُ الله لآدمَ عليه السلام، ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3].

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾

جوابٌ مِن اللهِ تعالىٰ عن سؤالِ إبليسَ التأخيرَ إلىٰ يومِ القيامةِ؛ ولذلك فُصِلتْ جملةُ ﴿ قَالَ ﴾ علىٰ طريقةِ المحاوَرات [4].

فكأنَّه قيل: لقد أطال في الاجتراءِ، فما قال له ربُّه بعد الثالثةِ؟ فقيل: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٦١).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٢).
(٥) نظم الدرر (١١/ ٤٦٤).

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا بدأ سبحانه بالوعيدِ لطفًا بالمكلَّفين، عطَف على ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ قولَه ممثِّلًا حالَه في تسلُّطِه على مَن يُغْوِيه بمِغْوارٍ أوقَع بقومٍ، فصوَّت بهم صوتًا يستفِزُّهم مِن أماكنِهم، ويَقلَعُهم عن مراكزِهم، وأجلَبَ عليهم بجندِه مِن خيَّالة ورجَّالةٍ حتى استأصَلهم: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[1].

ثم كرَّر سبحانه الإمهالَ لإبليسَ اللعينِ، فقال: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2].

ثم أمَره اللهُ أن يفعلَ كلَّ ما يَقدِرُ عليه مِن إضلالِهم، فقال: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[3].

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ ﴾

ثم رجَع إلى مواجهتِه بما يُحقِّرُ أمرَه؛ فإنَّ المواجهةَ بالتحقيرِ أنكَأُ، مصرِّحًا بنتيجةِ ذلك؛ وهي أنَّه غيرُ قادرٍ إلا بإذنِه سبحانه، وممنوعٌ عنه ما لم يقدِّرْهُ له؛ دفعًا لِما قد يوهِمُه ما مضى مِن أنَّه يؤثِّرُ شيئًا استقلالًا، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٦٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٨٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٦١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٧٠).

جملةُ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ مِن تمامِ الكلام المحكيِّ بـ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾، وهي جملةٌ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾؛ فإنَّ مفهومَ ﴿فَمَن تَبِعَكَ ﴾ و﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ مِن قَبيلِ مفهومِ الصفة، فيفيدُ أنَّ فريقًا مِن ذريةِ آدمَ لا يَتَّبِعُ إبليسَ، فلا يَحتنِكُه(١).

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه الوكيلُ الذي لا كافيَ غيرُه في حفظِه؛ لاختصاصِه بشمولِ علمِه، وتمامِ قُدْرتِه؛ أتبعه بعضَ أفعالِه الدالةِ على ذلك، فقال تعالى -عَوْدًا إلى دلائلِ التوحيدِ الذي هو المقصودُ الأعظم بأحوالِ البحرِ الذي يُخلِصون فيه، في أسلوبِ الخطاب؛ استعطافًا لهم إلى المَتاب-: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو عَوْدٌ إلى تقريرِ أدلة الانفرادِ بالتصريف في العالَمِ، المشُوبةِ بما فيها مِن نِعَمٍ على الخَلْقِ، والدالَّةِ بذلك الشَّوْبِ على إتقانِ الصُّنْعِ ومُحكَمِ التدبيرِ لنظامِ هذا العالَمِ، وسيادةِ الإنسانِ فيه، وعليه(٣).

لمَّا ذكَر تعالى وَصْفَ المشركين في اعتقادِهم آلهتَهم، وأنَّها تضُرُّ وتَنفَع، وأتبَع ذلك بقِصَّةِ إبليسَ مع آدمَ، وتمكينِه مِن وسوسةِ ذُرِّيتِه وتسويلِه؛ ذكَر ما يدلُّ مِن أفعالِه

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٦).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٧١).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٧).

علىٰ وَحْدانيَّته، وأنَّه هو النافعُ الضارُّ، المتصرِّفُ في خَلْقِه بما يشاءُ؛ فذكَر إحسانَه إليهم بحرًا وبرًّا، وأنَّه تعالىٰ متمكِّنٌ بقُدْرتِه ممَّا يريده(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ عاد إلىٰ ذِكْرِ الدلائلِ الدالَّة علىٰ قُدْرتِه وحِكْمته ورحمته، وقد ذكَرْنا أنَّ المقصودَ الأعظم في هذا الكتابِ الكريم تقريرُ دلائلِ التوحيد، فإذا امتدَّ الكلامُ في فصلٍ مِن الفصول، عاد الكلامُ بعده إلىٰ ذِكْرِ دلائلِ التوحيد، والمذكورُ هاهنا الوجوهُ المستنبَطة مِن الإنعاماتِ في أحوالِ رُكوبِ البحر(٢).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾

ولمَّا كان المرادُ المؤمنين خاصَّةً، وإن كان خطابًا للمجموعِ؛ خَصَّ المشركين كذلك، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾(٣).

بعد أن ألزَمَهم الحجَّةَ علىٰ حقِّ إلهيَّةِ الله تعالىٰ بما هو مِن خصائصِ صُنْعِه باعترافهم، أعقبه بدليلٍ آخَرَ مِن أحوالِهم المتضمِّنةِ إقرارَهم بانفرادِه بالتصرُّف، ثم بالتعجيبِ مِن مناقَضةِ أنفسِهم عند زوالِ اضطرارِهم؛ فجملةُ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ خبرٌ مستعمَل في التقريرِ، وإلزامِ الحجَّة؛ إذ لا يُخبِرُ أحدٌ عن فعلِه إخبارًا حقيقيًّا(٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧١).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٧٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٥٩).

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: أعرَضتم بعد إذ أنجاكم فكفَرتم بذلك، وكان الكفرُ وصفًا لكم لازمًا، فتسبَّب عن ذلك أنَّكم أمِنْتم؛ أي: فعَلتم بذلك فِعْلَ الآمن؛ أنكر عليهم هذا الأمرَ؛ لكونه مِن أجهلِ الجهل، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾(1).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، وما بَيْنَهما اعتراضٌ، وفُرِّع الاستفهامُ التوبيخيُّ علىٰ إعراضهم عن الشُّكر وعَوْدِهم إلىٰ الكفر(2).

ثم خوَّفهم تعالىٰ بقُدْرته العظيمةِ بقوله سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾(3).

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

﴿أَمْ﴾ عاطفةُ الاستفهامِ، وهي للإضراب الانتقاليِّ(4).

ثم حذَّرهم مرةً أخرىٰ بخَلْقِ دواعٍ تُلجِئهم إلىٰ أن يَرجِعوا إلىٰ البحرِ فيَركَبوه بقولِه: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦١).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦٣).

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه بهذه الجُمَلِ ما يسَّر لهم مِن البرِّ، وسهَّل مِن شدائدِ البحر في مَعرِض التهديد؛ أتبعه أنَّه فعَل ذلك تكريمًا لهم علىٰ سائر مخلوقاتِه؛ كما هو شأنُه في القدرة؛ علىٰ ما يريد في المفاوتة بَيْنَ الأمورِ التي كانت متساويةً عند أوَّل خلقِه لها؛ ليستدلُّوا بذلك علىٰ سهولة الإعادةِ؛ مشيرًا إلىٰ أنَّه ركَّبَ جوهرَ الإنسان مِن نفسٍ هي أشرفُ النُّفوسِ؛ بما فضَّلها علىٰ قُوَىٰ النفسِ النباتيةِ؛ مِن الاغتذاءِ والنُّموِّ والتوليد بالحِسِّ ظاهرًا وباطنًا، وبالحركةِ بالاختيار، وخَصَّه علىٰ سائر الحيوانِ بالقوةِ العاقلةِ المدرِكة لحقائق الأشياءِ كما هي، ويتجلَّىٰ بها نورُ معرفةِ الله، ويُشرِقُ فيها ضوءُ كبريائه، وتَطَّلِعُ علىٰ عالَمَيِ الخَلق والأمر، وتُحيط بأقسامِ المخلوقات مِن الأرواح والأجسامِ كما هي، فكانت بذلك النفسُ الإنسانيةُ أشرَفَ نفوس هذا العالَمِ، وبَدَنُه كذلك؛ باختصاصِه باعتدال القامةِ وامتدادِها والتناولِ باليدِ وغيرِ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١).

اعتراضٌ جاء بمناسبةِ العِبْرة والمنَّة علىٰ المشركين، فاعترض بذِكْرِ نِعَمِه علىٰ جميع الناسِ، فأشبَه التذييلَ؛ لأنَّه ذكَر به ما يَشمَلُ ما تقدَّم، والمراد ببني آدمَ جميعُ النوع؛ فالأوصاف المثبَتةُ هنا إنَّما هي أحكامٌ للنوع مِن حيث هو؛ كما هو شأنُ الأحكام التي تُسنَدُ إلىٰ الجماعات، وقد جمَعت الآيةُ خمسَ مِنَنٍ: التكريمِ، وتسخيرِ المَراكب في البرِّ، وتسخيرِ المَراكب في البحر، والرزقِ مِن الطَّيِّبات، والتفضيلِ علىٰ كثير مِن المخلوقات(٢).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦٤).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما امتَنَّ به عليهم: مِن إزجاءِ الفُلْكِ في البحرِ، ومِن تنجيتهم مِن الغرَقِ؛ تمَّم ذِكْرَ المنَّة بذكر تكرِمَتِهم ورزقهم وتفضيلِهم. أو لمَّا هدَّدَهم بما هدَّدَ: مِن الخَسْفِ والغرَقِ، وأنَّهم كافِرُو نعمتِه؛ ذكَر ما أنعَمَ به عليهم؛ ليَتذكروا فيشكروا نِعَمَه، ويُقلِعوا عمَّا كانوا فيه مِن الكُفْرِ، ويُطيعوه تعالىٰ(١).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآية ذِكْرُ نِعْمةٍ أُخرىٰ جليلةٍ رفيعة مِن نِعَم الله تعالىٰ علىٰ الإنسانِ؛ وهي الأشياءُ التي بها فُضِّلَ الإنسانُ علىٰ غيره(٢).

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه قُدْرتَه علىٰ التفضيل في الحياة الحِسِّيَّة والمعنوية، والمفاضلةِ بَيْنَ الأشياء في الشيئينِ، فثبتَت بذلك قُدْرتُه علىٰ البعثِ، وختَم ذلك بتفضيلِ البشر، وكان يومُ الدِّين أعظَمَ يومٍ يظهر فيه التفضيلُ؛ أبدَل مِن قوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ مُرَهِّبًا مِن سَطَواته في ذلك اليوم، ومُرَغِّبًا في اقتناء الفضائلِ في هذا اليومِ، قولَه تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾(٣).

انتقالٌ مِن غرضِ التهديد بعاجل العذاب في الدُّنيا الذي في قوله: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ إلىٰ ذِكْرِ

(١) البحر المحيط (٧/ ٨٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧٢).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٧٧).

حال الناس في الآخرةِ؛ تبشيرًا وإنذارًا. فالكلام استئنافٌ ابتدائيٌّ، والمناسبةُ ما عَلِمْتَ[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنواعًا مِن كراماتِ الإنسان في الدُّنيا، ذكَر شيئًا مِن أحوال الآخرةِ، فقال: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[٢].

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ شروعٌ في بيان تفاوُتِ أحوالِ بني آدمَ في الآخرة بعد بيانِ حالهم في الدُّنيا[٣].

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢ ﴾

لمَّا كان القَسيمُ المعطوفُ عليه هم مَن أوتوا كتابَهم باليمينِ، عُلِمَ أنَّ المعطوف بضدِّ ذلك يؤتىٰ كتابَه بالشِّمالِ؛ فاستُغني عن ذِكْرِ ذلك، وأُتِيَ له بصِلةٍ أخرىٰ؛ وهي كونُه أعمَىٰ؛ حُكْمًا آخرَ مِن أحوالِه الفظيعةِ في ذلك اليوم[٤].

لم يأتِ هنا قَسيمُ مَن ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ وهو مَن يؤتىٰ كتابَه بشمالِه، وإن كان قد أتىٰ في غيرِ هذه الآيةِ؛ بل جاء قَسيمُه قولُه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ ﴾؛ وذلك مِن حيث المعنىٰ مقابلُه؛ لأنَّ مَن ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ هم أهلُ السعادةِ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ ﴾ هم أهلُ الشَّقاوة[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦٧).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٨٦).
(٣) روح المعاني (٨/ ١١٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٠).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٨٨).

ولم يذكُرْ أصحابَ الشِّمال تصريحًا، ولكنَّه ذكَر سبحانه ما يدلُّ علىٰ حالِهم القبيحِ، فقال: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[1].

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ ﴾

ولمَّا قرَّر أنَّ مَن ترك سبيلَ الرُّشد كان كالأعمىٰ، ومَن تَبِعها كان كالبصيرِ؛ أتبَعه دليلَه، فقال مُحَذِّرًا للبُصَراء عن الاغترار بوساوسِ الأشقياء: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾[2].

حكايةُ فنٍّ مِن أفانينِ ضَلالِهم وعَماهم في الدُّنيا؛ فالجملة عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ ﴾، وهو انتقالٌ مِن وصفِ حالهم وإبطالِ مقالهم في تكذيب النبي ﷺ إلىٰ ذِكْرِ حالٍ آخرَ مِن حال معارضتهم وإعراضهم؛ وهي حالُ طَمَعِهم في أن يَستنزِلوا النبيَّ ﷺ لأن يقولَ قولًا فيه حُسْنُ ذِكْرٍ لآلهتهم؛ ليتنازلوا إلىٰ مُصالحتِه وموافقتِه إذا وافَقهم في بعض ما سألوه[3].

لمَّا عدَّد نِعَمَه علىٰ بني آدمَ، ثم ذكَر حالَهم في الآخرة: مِن إيتاء الكتاب باليمين لأهل السَّعادة، ومِن عَمَىٰ أهلِ الشَّقاوة؛ أتبَع ذلك بما يهُمُّ به الأشقياءُ في الدُّنيا: مِن المكر والخداع والتلبيس علىٰ سيِّدِ أهل السعادة، المقطوعِ له بالعِصْمة[4].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٩٣).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧١).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٨٩).

لمَّا عدَّد في الآيات المتقدِّمةِ أقسامَ نِعَمِه على خَلْقِه، وأتبَعها بذِكْرِ درجاتِ الخَلق في الآخرة، وشرحِ أحوال السُّعَداء؛ أردَفه بما يجري مَجرى تحذير السُّعداء؛ مِن الاغترارِ بوساوسِ أربابِ الضَّلال، والانخداع بكلامهم المشتمِل على المكرِ والتلبيس، فقال: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[1].

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّره سبحانه بما كان في ذلك مِن رُشْدِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أتبَعه ببيانِ أنَّه إنَّما كان بعِصْمة الله له ليزدادَ شكرًا، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[2].

يجوزُ أن يكونَ هذا كلامًا مستقلًّا غيرَ متصِلٍ بقولِه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾؛ بِناءً على ما نحَوْناه في تفسير الآية السابقةِ، وهذه مِنَّةٌ أخرى ومقامٌ آخَرُ مِن مقامِ رسول الله ﷺ تجاهَ المشركين. ويجوز أن يكونَ مِن تكملة ما قبله، فيكونَ الرُّكونُ إليهم ركونًا فيما سألوه منه[3].

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

جملةُ ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ جزاءٌ لجملة ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧٨).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٥).

ثم توعَّده في ذلك أشدَّ التَّوعُّد، فقال: ﴿ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾(١).

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ ﴾

ولـمَّا بيَّن أنَّهم استمالوه بالرِّفْقِ حتىٰ كادوا - لو لا العصمةُ - أن يُميلوه، دلَّ علىٰ أنَّهم أخافوه بعد ذلك حتىٰ كادوا أن يُخرِجوه مِن وطنه قبل الإذن الخاص بالهجرةِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾؛ تَعْدادًا لسيئات أعمالهم(٣).

﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧ ﴾

ولـمَّا أخبَره بذلك، أعلَمه أنَّه سُنَّتُه في جميع الرُّسُل، فقال تعالىٰ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾(٤).

جملةُ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان سببِ كون لُبْثِهم بعده قليلًا، وإنَّما سنَّ اللهُ هذه السُّنَّةَ لرُسُلِه؛ لأنَّ تآمُرَ الأقوام علىٰ إخراجهم يستدعي حِكْمةَ اللهِ تعالىٰ لِأَنْ تتعلَّقَ إرادتُه بأمره إياهم بالهجرةِ؛ لئلا يَبقَوا مرموقين بعين الغَضاضةِ بَيْنَ قومِهم وأجوارِهم بِشُبَهِ ما كان يُسمَّىٰ بالخُلْعِ عند العرب(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧٩).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٤٨٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٨).
(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٩٠).
(٥) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨١).

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر أمرَ أصولِ الدِّين بالوَحْدانية والقدرة على المَعاد، وقرَّر أمرَهم أحسنَ تقريرٍ، واستعطفهم بنِعَمِه، وخوَّفهم مِن نِقَمِه، وقرَّر أنَّه سبحانه عصَمه عليه الصلاة والسلام مِن فِتْنتهم بالسرَّاء والضرَّاء بما أنار به مِن بصيرتِه، وأحسَنَ مِن علانيتِه وسريرته؛ صار مِن المعلومِ أنَّه قد تفرَّغ للعبادة، وتهيَّأ للمراقبة، فبدأ بأشرفِها، فوَصَل بذلك قولَه تعالىٰ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾.[1].

مناسبةُ موقِعِها عَقِبَ ما قبلها: أنَّ اللهَ لمَّا امتنَّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ بالعصمةِ وبالنصرِ، ذكَّره بشكرِ النِّعْمة؛ بأنْ أمَرَه بأعظمِ عبادةٍ يعبُدُه بها، وبالزيادة منها؛ طلبًا لازدياد النِّعْمة عليه[2].

لمَّا ذكَر كيدَهم للرسول ﷺ، وما كانوا يَرُومون به؛ أمَره تعالىٰ أن يُقبِلَ علىٰ شأنه مِن عبادة ربه، وألَّا يَشغَلَ قلبَه بهم[3].

لمَّا قرَّر أمرَ الإلهيَّات والمَعادِ والنُّبُوات، أردَفها بذِكْرِ الأمر بالطاعات بعد الإيمانِ، وأشرَفُ الطاعات بعد الإيمانِ الصلاةُ؛ فلهذا السبب أمَر بها[4].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

ثم حثَّ بعدها علىٰ التهجُّدِ لأفضليَّته وأشدِّيَّته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٩١).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨١).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٢).

(٥) نظم الدرر (١١/ ٤٩٣).

لمَّا أمَره تعالىٰ بإقامةِ الصلاة للوقت المذكور، ولم يدُلَّ أمرُه تعالىٰ إياه علىٰ اختصاصه بذلك دُونَ أمَّته؛ ذكَر ما اختصَّه به تعالىٰ وأوجَبه عليه مِن قيام الليل، وهو في أمَّتِه تطوُّعٌ[(١)].

لمَّا أمَر بالصَّلوات الخمسِ علىٰ سبيل الرمز والإشارة، أردَفه بالحثِّ علىٰ صلاة الليل[(٢)].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا المقام صالحًا للشَّفاعةِ ولكلِّ مقامٍ يقومه، وكان كلُّ مقامٍ يحتاج إلىٰ التوفيق في مباشرته والانفصال عنه؛ تلاه- حاثًّا علىٰ دوام المراقبة واستشعارِ الافتقارِ- بقولِه مقدِّمًا المدخلَ لأنَّه أهمُّ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾[(٣)].

لمَّا أمَره اللهُ تعالىٰ بالشُّكر الفعلي، عطَف عليه الأمرَ بالشُّكر اللِّساني؛ بأن يبتهِلَ إلىٰ الله بسؤال التوفيقِ في الخروج مِن مكان، والدخولِ إلىٰ مكان؛ كيلا يضُرَّه أن يَستفِزَّه أعداؤه مِن الأرض ليُخرِجوه منها، مع ما فيه مِن المناسبةِ لقولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾، فلمَّا وعَده بأن يُقِيمَه مقامًا محمودًا، ناسب أن يسألَ أن يكونَ ذلك حالَه في كل مقامٍ يقومُه[(٤)].

لمَّا أمَره تعالىٰ بإقامة الصلاة والتهجُّد، ووعَده بَعْثَه مقامًا محمودًا، وذلك في الآخرةِ؛ أمَره بأن يدعوَه بما يَشمَلُ أمورَه الدُّنيويةَ والأخرويةَ[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٩٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٦).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٦).

(٥) البحر المحيط (٧/ ١٠٢).

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا كان الدُّعاءُ قد لا يُستجاب، قال- مُبشِّرًا له بأنَّه ليس بَيْنَ دعائه وبَيْنَ استجابته إلا قولُه، ومُحققًّا لتلك البشرىٰ بالأمر بأن يُخبِرَ بها-: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[(١)].

أعقَب تلقينَه الدعاءَ بسَدادِ أعمالِه وتأييدِه فيها؛ بأنْ لقَّنه هذا الإعلانَ المنبِئَ بحصول إجابة الدعوة الملهِمة بإبراز وعدِه بظهور أمرِه في صورة الخبر عن شيءٍ مضىٰ، ولمَّا كانت دعوةُ الرسول هي لإقامةِ الحقِّ وإبطال الباطلِ، كان الوعدُ بظهور الحق وعدًا بظهور أمرِ الرسول وفوزِه علىٰ أعدائه، واستحفَظه اللهُ هذه الكلمةَ الجليلةَ إلىٰ أن ألقاها يومَ فتحِ مكَّةَ علىٰ مسامعِ مَن كانوا أعداءه[(٢)].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا كان القرآنُ الذي نوَّه به في آيةِ ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هو السببَ الأعظمَ في إزهاق الباطل الذي هو كالسِّحر خيالٌ وتمويهٌ، وهو الجامعُ لجميع ما مضىٰ مِن الإلهيَّات والبعثِ وما تَبِعَ ذلك؛ قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٣)].

عَطْفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ ﴾؛ علىٰ ما في تلك الجملة والجُمَل التي سبقَتْها مِن معنىٰ التأييد للنبيِّ ﷺ، ومِن الإغاظةِ للمشركين؛ ابتداءً مِن قوله: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾؛ فإنَّه بعد أنِ امتَنَّ عليه بأن أيَّده بالعصمة مِن الرُّكون إليهم، وتبشيره بالنُّصرة عليهم وبالخلاص مِن كيدِهم، وبعد

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٧).
(٣) نظم الدرر (١١/ ٤٩٧).

أن هدَّدَهم بأنَّهم صائرون قريبًا إلىٰ هلاكٍ، وأنَّ دِينَهم صائرٌ إلىٰ الاضمحلال؛ أعلَن له ولهم في هذه الآيةِ أنَّ ما منه غيظُهم وحَنَقُهم - وهو القرآنُ الذي طَمِعوا أن يسألوا النَّبيَّ أن يبدِّلَه بقرآنٍ ليس فيه ذِكْرُ أصنامِهم بسُوءٍ - أنَّه لا يزال متجددًا مستمرًّا، فيه شفاءٌ للرسول وأتباعِه، وخَسارةٌ لأعدائه الظالمين، ولأنَّ القرآن مصدَرُ الحق ومَدحَضُ الباطلِ أعقَب قولَه: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ بقولِه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ﴾ الآيةَ؛ ولهذا اختِير للإخبارِ عن التنزيل الفعلُ المضارعُ المشتقُّ مِن «فَعَّلَ» المضاعَفِ؛ للدلالةِ علىٰ التجديد والتكرير والتكثير، وهو وَعْدٌ بأنَّه يستمرُّ هذا التنزيلُ زمنًا طويلًا[1].

لمَّا أطنَب في شرح الإلهيَّات والنُّبُوات والحشر والمَعاد والبعثِ وإثبات القضاء والقدر، ثم أتبَعه بالأمرِ بالصلاة، ونبَّه علىٰ ما فيها مِن الأسرار، وإنَّما ذكَر كلَّ ذلك في القرآن؛ أتبَعه ببيان كون القرآن شفاءً ورحمةً، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[2].

ثم بيَّن تعالىٰ خَسارَ المشركين؛ بإعراضِهم عمَّا يَشفي أمراضَهم المعنويةَ، وهو القرآنُ الكريم، ونجاحَ المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته، بقولِه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[3].

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾﴾

ثم عطَف علىٰ هذا المقدَّر المعلومِ تقديرُه ما هو أعَمُّ منه وأبيَنُ في الفتنة والاجتراءِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٩).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤٩٦).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٤٩٨).

لمَّا كان القرآنُ نعمةً عظيمةً للناس، وكان إعراضُ المشركين عنه حرمانًا عظيمًا لهم مِن خيرات كثيرةٍ، ولم يكُنْ مِن شأن أهل العقول السليمةِ أن يَرضَوا بالحرمان مِن الخير؛ كان الإخبار عن زيادته الظالمين خَسارًا مستغرَبًا؛ مِن شأنه أن يُثيرَ في نفوس السامعين التساؤلَ عن سبب ذلك؛ أُعقِبَ ذلك ببيان السبب النَّفْساني الذي يُوقِع العقلاءَ في مَهْواةِ هذا الحرمان؛ وذلك بعد الاشتغال بما هو فيه مِن نعمةٍ هَوِيَها وأُولِعَ بها، وهي نعمةٌ تتقاصرُ عن أَوْجِ تلك النِّعَمِ التي حُرِم منها، لولا الهوىٰ الذي عَلِقَ بها، والغُرورُ الذي أراه إياها قُصَارىٰ المطلوبِ، وما هي إلا إلىٰ زوالٍ قريبٍ؛ فهذه الجملة مضمونُها مقصودٌ بذاته، استُفيد بيانُها بوقوعها عَقِبَ التي قبلها(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ تنويعَ ما أنزَل مِن القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمن، وبزيادة خَسارٍ للظالم؛ عرَّض بما أنعَم به وما حَواه مِن لطائفِ الشرائع علىٰ الإنسان، ومع ذلك أعرَض عنه، وبعُدَ بجانبه اشمئزازًا له، وتكبُّرًا عن قُرْبِ سماعه، وتبديلًا مكانَ شكرِ الإنعام كُفْرَه(٢).

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر السببَ الأصليَّ في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالِّين في أودية الضَّلالِ، ومقامات الخِزْيِ والنَّكال؛ وهو حبُّ الدُّنيا، والرغبةُ في المال والجاه، واعتقادُهم أنَّ ذلك إنَّما يحصُلُ بسبب جِدِّهم واجتهادهم، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾(٣).

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾

ولمَّا كان المفرَدُ المحلَّىٰ باللام يعُمُّ، كان هذا ربما اقتضىٰ مِن بعض المتعنِّتين اعتراضًا بأن يقالَ: إنَّا نرىٰ بعضَ الإنسانِ إذا أُعطِي شكَر، وإذا ابتُلِيَ صبَر، وكان هذا

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩١).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٩٠).

الاعتراضُ ساقطًا لا يُعبأُ به؛ فلذلك أعرَض تعالىٰ عنه، وأمَره بالجواب عن القِسْمَين: المشارِ إليه، والمنصوصِ عليه، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[1].

هذا تذييلٌ، وهو تنهيةٌ للغرض الذي ابتُدِئَ مِن قولِه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾، الراجعِ إلىٰ التذكير بنِعَمِ الله تعالىٰ علىٰ الناسِ؛ في خلال الاستدلالِ علىٰ أنَّه المتصرِّفُ الوحيد، وإلىٰ التحذير مِن عواقبِ كُفْرانِ النِّعم[2].

ثم إنَّه سبحانه بعد أن ذكَر حالَ القرآنِ بالنسبة إلىٰ المؤمنين وإلىٰ الكافرين، وبيَّن حالَ الكافر في حالَيِ الإنعامِ ومقابِلِه؛ ذكَر ما يصلُح جوابًا لمن يقولُ: لِمَ كان الأمرُ كذلك؟ فقال عزَّ قائلًا: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[3].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه- بعد التَّعجيب مِن إنكارهم البعثَ- جَهْلَ الإنسان، وما هو عليه مِن الضَّلال والنسيانِ، إلا مَن فضَّله علىٰ أبناءِ نوعِه، كما فضَّل طينتَه علىٰ سائر الطِّين، وختَم بآيةِ المشاكَلة التي منها مشاكَلةُ بعضِ الأرواح لبعضٍ، ومشاكَلتُها للطِّباع، وبانَ بذلك أنَّه ﷻ قادرٌ علىٰ فعلِ ما يشاءُ، عالِمٌ بكل معلومٍ؛ رجَع إلىٰ التَّعجيبِ منهم بما هو مِن شأنِ الأرواحِ التي مِن شأنِها التشاكُل، فقال تعالىٰ عاطفًا

(١) نظم الدرر (١١/ ٤٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٣).

(٣) روح المعاني (٨/ ١٤٣).

علىٰ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا﴾: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(١).

لمَّا ختَم الآيةَ المتقدِّمة بقوله: ﴿كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، وذكَرْنا أنَّ المرادَ منه مشاكَلةُ الأرواحِ للأفعال الصادرةِ عنها؛ وجَب البحثُ هاهنا عن ماهية الرُّوحِ وحقيقتِها؛ فلذلك سألوا عن الرُّوح(٢).

ثم لمَّا انجرَّ الكلامُ إلىٰ ذِكْرِ الإنسان وما جُبِل عليه، ذكَر سبحانه سؤالَ السائلين لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عن الرُّوحِ، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(٣).

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾

ولمَّا شرَح إرادتهم الفتنةَ عمَّا جاءهم مِن العلم بتبديل المنزَّل، وإخراجِ المُرسَل، وما تَبِع ذلك؛ حتىٰ ختَم بتجهيلهم إذ سألوا تعنُّتًا عن الرُّوحِ الحسِّيِّ، وكان الأنفعَ لهم سؤالُهم استفادةً وتفهُّمًا عن دقائقِ الرُّوح المعنويِّ، الذي أعظَم اللهُ شرَفهم به بإنزاله إليهم علىٰ لسان رجُلٍ منهم هو أشرَفُهم مجدًا، وأطهَرُهم نفسًا، وأعظَمُهم مولدًا، وأزكاهم عنصرًا، وأعلاهم هِمَّةً، وختَم بتقليل عِلْمِهم؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم لا يَفهَمون إلا أن يُفهِمَهُموه سبحانه، وهو أعلَمُ بما يَفهَمونه وما لا يَفهمونه؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾؛ تنبيهًا لهم علىٰ أنَّه لو شاء لذهَب بسبب هذا العِلْمِ القليل الذي وهَبَهُموه، فعمَّهم الجهلُ كما كانوا، وعلىٰ أنَّه لم يَكفِهم تركُ

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٠٠-٥٠١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٩١).

(٣) فتح القدير (٣/ ٣٠١).

السؤال عمَّا يَعنِيهم حتىٰ سألوا عمَّا لا يَعنِيهم، وأرادوا تبديلَ ما ينفعهم ويَعنِيهم بما يُبيدُهم ويُفنِيهم، فضَلُّوا قولًا وفِعلًا: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾[1].

هذا متصلٌ بقولِه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ الآيةَ، أفضَت إليه المناسبةُ؛ فإنَّه لمَّا تضمَّن قولُه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ تلقينَ كلمةِ علمٍ جامعةٍ، وتضمَّن أنَّ الأمَّةَ أوتيت علمًا ومُنِعت علمًا، وأنَّ علمَ النُّبوءة مِن أعظمِ ما أوتِيَتْهُ؛ أعقَب ذلك بالتنبيه إلىٰ الشكر علىٰ نعمة العلمِ؛ دفعًا لغرور النفس؛ لأنَّ العلمَ بالأشياء يكسبُها إعجابًا بتميُّزها عمَّن دُونَها فيه، فأُوقِظَتْ إلىٰ أنَّ الذي منَح العلمَ قادرٌ علىٰ سَلْبِه، وخوطب بذلك النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ عِلْمَه أعظمُ علمٍ، فإذا كان وجودُ علمه خاضعًا لمشيئة اللهِ، فما الظنُّ بعلمِ غيرِه؟ تعريضًا لبقية العلماء[2].

قال صاحبُ التحرير: ويَحتمِل عندي في تأويل الآية وجهٌ غيرُ ما ذُكِر؛ وهو أنَّه ﷺ لمَّا أبطَأ عليه الوحيُ لمَّا سئل عن الرُّوح، شَقَّ ذلك عليه، وبلَغ منه الغايةَ؛ فأنزَل الله تعالىٰ تهذيبًا له هذه الآيةَ، ويكون التقديرُ: أيَعِزُّ عليك تأخُّرُ الوحي؟ فإنَّا لو شِئنا ذهَبْنا بما أوحينا إليك جميعِه، فسكَت النَّبيُّ ﷺ، وطاب قلبُه، ولَزِم الأدبَ[3].

لمَّا بيَّن في الآية الأُولىٰ أنَّه ما آتاهم مِن العلم إلا قليلًا، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه لو شاء أن يأخذَ منهم ذلك القليلَ أيضًا، لقدَرَ عليه؛ وذلك بأن يمحوَ حِفْظَه مِن القلوب، وكتابتَه مِن الكتب، وهذا وإن كان أمرًا مخالفًا للعادةِ إلا أنَّه تعالىٰ قادرٌ عليه[4].

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٠٥).

📖 ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ 📖

ولمَّا كان لا ملجأ منه سبحانه إلا إليه، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾(١).

📖 ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ 📖

ولمَّا كان بمَعرِضِ أن يقولوا: إن ذهَب عليك مِن شيءٍ، فائتِ بمِثْلِه مِن عندِ نفسِك، وممَّا اكتسبتَه منه مِن الأساطيرِ؛ أمَره أن يُجِيبَهم عن هذا بقولِه دلالةً علىٰ مضمونِ ما قبلَه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٢).

استئنافٌ للزيادةِ في الامتنان، وهو استئنافٌ بيانيٌّ لمضمون جملةِ ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾، وهذا تنويهٌ بشرَفِ القرآن، فكان هذا التنويهُ امتنانًا علىٰ الذين آمنوا به؛ وهم الذين كان لهم شفاءً ورحمةً، وتحدِّيًا بالعَجْزِ عن الإتيان بمِثلِه للذين أَعرَضوا عنه؛ وهم الذين لا يَزيدُهم إلا خَسارًا(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ إنعامَه علىٰ نبيِّه ﷺ بالنبوَّة بإنزال وَحْيِه عليه وباهرِ قُدْرتِه؛ بأنَّه تعالىٰ لو شاء لذهَب بالقرآن؛ ذكَر ما منَحه تعالىٰ مِن الدليلِ علىٰ نبوته الباقي بقاءَ الدهر؛ وهو القرآنُ الذي عجَز العالم عن الإتيان بمثله، وأنَّه مِن أكبر النِّعَم والفضل الذي أبقىٰ له ذِكْرًا إلىٰ آخر الدهرِ، ورفَع له قَدْرًا به في الدُّنيا والآخرة، وإذا كان فُصَحاءُ اللسان الذي نزل به وبُلَغاؤهم عجَزوا عن الإتيان بسورةٍ واحدة مثلِه، فلَأَنْ يكونوا

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٠٧).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٥٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٢).

أعجَزَ عن أن يأتوا بمِثْلِ جميعِه، ولو تعاوَن الثَّقَلان عليه لا يأتون بمثله، ولمَّا كان الجنُّ تفعل أفعالًا مستغرَبةً- كما حكىٰ اللهُ عنهم في قِصَّة سليمانَ عليه السلام-، أُدرِجوا مع الإنس في التعجيز؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في العَجْزِ[1].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

ولمَّا تمَّت هذه الجُمَلُ علىٰ هذا الوجهِ الجميل والوصفِ الجليل، نبَّه علىٰ ذلك سبحانه بقولِه- عطفًا علىٰ نحو: صرَّفْنا هذه الأمثالَ كما ترَون علىٰ أعلىٰ منهاجٍ وأبلَغِ سياق في أبدع انتظام-: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[2].

لمَّا تحدَّىٰ اللهُ بُلَغاءَ المشركين بالإعجازِ، تطاوَل عليهم بذِكْرِ فضائلِ القرآن علىٰ ما سِواه مِن الكلام؛ مُدمِجًا في ذلك النَّعْيَ عليهم؛ إذ حرَموا أنفسَهم الانتفاعَ بما في القرآن مِن كل مَثَلٍ، وذُكرت هنا ناحيةٌ مِن نواحي إعجازه؛ وهي ما اشتمَل عليه مِن أنواع الأمثالِ[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ عَجْزَ الإنس والجِنِّ عن أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ، نبَّه علىٰ فضلِه تعالىٰ بما ردَّد فيه وضرَب مِن الأمثال والعِبَرِ التي تدل علىٰ توحيدِه تعالىٰ، ومع كثرة ما ردَّد مِن الأمثلة، وأسبَغ مِن النِّعَم، لم يكونوا إلا كافرينَ به وبنِعَمِه[4].

(١) البحر المحيط (٧/ ١٠٨).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٥١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٤).

(٤) البحر المحيط (٧/ ١١١).

ثـم بـيَّن سـبحانه أنَّ الكفَّـار مـع عَجْـزِهم عـن المعارضـة اسـتمرُّوا علـىٰ كفـرِهم وعـدم إيمـانِهم، فقـال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾(١).

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا مُعجِّبًا، عجَّب منهم تعجيبًا آخرَ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾(٢).

لمَّا تحدَّاهم بأن يأتوا بمِثْلِ هذا القرآن، فتبيَّن عَجْزُهم عن ذلك وإعجازُه، وانضمَّت إليه معجزاتٌ أخَرُ وبيِّناتٌ واضحةٌ، فلَزِمتهم الحُجَّةُ وغُلِبوا؛ أخَذوا يتعلَّلون باقتراح آياتٍ؛ فِعْلَ الحائرِ المبهوتِ المحجوجِ، فقالوا ما حكاه اللهُ عنهم(٣).

لمَّا بيَّن بالدليل كونَ القرآن مُعجِزًا، وظهر هذا المعجزُ علىٰ وَفْقِ دعوىٰ محمَّدٍ ﷺ، فحينئذ تمَّ الدليلُ علىٰ كونه نبيًّا صادقًا؛ لأنَّـا نقـولُ: إنَّ محمَّـدًا ادعـىٰ النبـوَّةَ، وظهـر المعجِزُ علىٰ وَفق دعواه، وكلُّ مَن كان كـذلك فهـو نبيٌّ صـادق، فهـذا يـدلُّ علـىٰ أنَّ محمَّـدًا ﷺ صـادقٌ، ولـيس مِـن شـرط كونـه نبيًّـا صـادقًا تـواترُ المعجـزات الكثيـرة وتَواليها؛ لأنَّا لو فتحنا هذا البابَ لَلَزِم ألا ينتهيَ الأمرُ فيه إلىٰ مَقطَعٍ، وكلما أتىٰ الرسولُ بمعجِزٍ، اقترَحوا عليه معجزًا آخرَ، ولا ينتهي الأمرُ فيه إلىٰ حدٍّ ينقطع عنده عنادُ المعاندين وتغلُّبُ الجاهلين؛ لأنَّه تعـالىٰ حكـىٰ عـن الكفـارِ أنَّهـم بعـد أن ظهَـر كونُ القرآن معجِزًا، التمَسوا مِن الرسول ﷺ ستةَ أنواعٍ مِن المعجزات القاهرة(٤).

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٠٥).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٥١١).
(٣) البحر المحيط (٧/ ١١١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٠٧).

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾

اعلَمْ أنَّهم اقترَحوا علىٰ رسولِ الله ﷺ أنواعًا مِن المعجزات؛ أوَّلُها قولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ (..)، وثانيها: قولهم: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾؛ والتقديرُ: كأنَّهم قالوا: هَبْ أنَّك لا تُفجِّرُ هذه الأنهارَ لأجلِنا، ففجِّرْها مِن أجلِك(١).

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

قولهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ انتقالٌ مِن تَحدِّيه بخوارقَ فيها منافعُ لهم إلىٰ تَحدِّيه بخوارقَ فيها مَضرَّتُهم، يريدون بذلك التوسيعَ عليه؛ أي: فليأتِهم بآيةٍ علىٰ ذلك ولو في مَضرَّتِهم، وهذا حكايةٌ لقولهم كما قالوا، ولعلَّهم أرادوا به الإغراقَ في التعجيبِ مِن ذلك، فجمَعوا بَيْنَه وبين جَعْلِ الإسقاط لنفس السماءِ، وعزَّزوا تعجيبَهم بالجملة المعترِضةِ؛ وهي ﴿ كَمَا زَعَمْتَ ﴾؛ إنباءً بأنَّ ذلك لا يصدِّقُ به أحدٌ(٢).

ثم زادوا في الاقتراحِ، فقالوا: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٠٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٩).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥١٢).

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

ثم اقترحوا اقتراحًا خامسًا، فقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

ولمَّا أمَر بما تضمَّن أنَّه كإخوانه مِن الرُّسل في كونِه بشرًا، أتبَعه قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[(١)].

بعد أن عُدَّتْ أشكالُ عنادِهم ومظاهرُ تكذيبِهم، أُعقبت ببيان العلَّةِ الأصلية التي تَبعَثُ علىٰ الجحود في جميع الأمم؛ وهي توهُّمُهم استحالةَ أن يَبعَثَ اللهُ للناس برسالةٍ بشرًا مِثْلَهم، فذلك التوهُّمُ هو مثارُ ما يأتونه مِن المعاذير، فالذين هذا أصلُ معتقَدِهم لا يُرجىٰ منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ، وما قصدُهم مِن مختلِفِ المقترَحات إلا إرضاءُ أوهامهم بالتنصُّلِ مِن الدخول في الدِّين، فلو أتاهم الرسولُ بما سألوه لانتقلوا فقالوا: إنَّ ذلك سِحْرٌ، أو: قلوبُنا غُلْفٌ، أو نحوَ ذلك، ومع ما في هذا مِن بيان أصلِ كفرِهم هو أيضًا ردٌّ بالخصوصِ لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾، وردٌّ لقولهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ آخره[(٢)].

لمَّا حكىٰ شُبْهةَ القومِ في اقتراح المعجِزات الزائدةِ، وأجاب عنها؛ حكىٰ عنهم شُبْهةً أخرىٰ؛ وهي أنَّ القوم استبعَدوا أن يَبعَثَ اللهُ إلىٰ الخَلْقِ رسولًا مِن البشرِ، بل اعتقدوا أنَّ اللهَ تعالىٰ لو أرسَل رسولًا إلىٰ الخَلْقِ، لوجَب أن يكونَ ذلك الرسولُ مِن الملائكة؛ فأجاب الله تعالىٰ عن هذه الشُّبهة مِن وجوهٍ[(٣)].

(١) نظم الدرر (١١/ ٥١٣-٥١٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١١).
(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٠).

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥ ﴾

فلمَّا أنكَروا كونَ الرسولِ بشرًا بعد أن جعَلوا الإلهَ حَجَرًا، علَّمه جوابَهم بقولِه تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾(١).

﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦ ﴾

ولمَّا نصَب البرهانَ القاطعَ علىٰ أنَّ القرآنَ الموحىٰ إليه مِن عند الله، ونفىٰ شُبْهتَهم في إنكارِ كون الرسولِ بشرًا؛ بأنَّه ما خرَج عن عادةِ مَن قبله ممَّن كانوا مُقِرِّين بأنَّهم أنبياءُ، وبأنَّ الجنسَ لا يَفهَم عن جنسٍ آخرَ، فالبشرُ لا يَفهَم عن الملَك إلا بخارقةٍ، ولا يكون ذلك إلا للرُّسلِ ومَن أراد اللهُ مِن أتباعِهم: لم يَبقَ إلا محضُ العناد الذي لا رجوعَ فيه إلا إلىٰ السيفِ عند القدرةِ، وإلىٰ اللهِ عند فَقْدِها، وكان في مكَّةَ المشرَّفةِ غيرَ قادرٍ علىٰ السيفِ، أمَره اللهُ تعالىٰ بالرجوعِ إلىٰ السيفِ، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾(٢).

بعد أن خَصَّ الله محمَّدًا ﷺ بتلقين الحُجَّةِ القاطعةِ للضَّلالة، أردَف ذلك بتلقينِه أيضًا ما لقَّنه الرُّسلَ السابقين مِن تفويض الأمرِ إلىٰ الله، وتحكيمِه في أعدائه؛ فأمَره بـ ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ تسليةً له، وتثبيتًا لنفسه، وتعهُّدًا له بالفصل بَيْنَه وبينهم؛ كما قال نوحٌ وهودٌ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾، وغيرُهما مِن الرُّسل قال قريبًا مِن ذلك، وفي هذا ردٌّ لمجموع مقترَحاتهم المتقدِّمة علىٰ وجه الإجمال(٣).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥١٤).
(٢) نظم الدرر (١١/ ٥١٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٣-٢١٤).

لمَّا دعاهم ﷺ إلىٰ الإيمانِ، وتحدَّىٰ علىٰ صِدْقِ نبوَّتِه بالمعجِزِ الموافقِ لداعوه؛ أمَره تعالىٰ أن يُعلِمَهم بأنَّه تعالىٰ هو الشهيدُ بينه وبينهم علىٰ تبليغِه، وما قام به مِن أعباءِ الرسالة، وعدمِ قَبولهم وكفرِهم، وما اقترحوا عليه مِن الآيات علىٰ سبيلِ العناد(١).

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّه ﷻ أعلَمُ بالمهتدي والضالِّ، وكان خَتْمُ هذه الآيةِ مُرشِدًا إلىٰ أنَّ المعنىٰ: فمَن عَلِم منه بجوابِه قابليةً للخيرِ، وفَّقه للعملِ علىٰ تلك المشاكَلةِ، ومَن عَلِم منه قابليةً للشر، أضَلَّه؛ عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾(٢).

يجوز أن تكونَ الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ جمعًا بَيْنَ المانع الظاهرِ المعتاد مِن الهُدىٰ، وبين المانعِ الحقيقيِّ؛ وهو حرمانُ التوفيق مِن اللهِ تعالىٰ، فمَن أصَرَّ علىٰ الكفر مع وضوحِ الدليل لذوي العقول، فذلك لأنَّ اللهَ تعالىٰ لم يوفِّقْهُ. وأسبابُ الحرمان غضبُ الله علىٰ مَن لا يُلقي عقلَه لتَلقِّي الحقِّ، ويتخذُ هَواه رائدًا له في مواقف الجِدِّ. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ ارتقاءً في التسلية؛ أي: لا يحزُنْكَ عدمُ اهتدائهم؛ فإنَّ اللهَ حرَمهم الاهتداءَ لَمَّا أخذوا بالعناد قبل التدبُّرِ في حقيقة الرسالةِ(٣).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ١١٤-١١٥).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٥١٥-٥١٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٤-٢١٥).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الإقرارَ والإنكارَ مستنِدان إلىٰ مشيئته، فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

ثم بيَّن علَّةَ تعذيبِهم؛ ليَرجِعَ منهم مَن قضىٰ بسعادتِه، فقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ العقابَ الفظيعَ المحكيَّ يُثير في نفوس السامعين السؤالَ عن سبب تركُّبِ هذه الهيئة مِن تلك الصورة المُفظِعة؛ فالجوابُ بأنَّ ذلك بسببِ الكفرِ بالآيات، وإنكار المَعادِ[3].

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

ثم أتبَعه بقاطعٍ في بيانِ جهلِهم، فقال- منبِّهًا علىٰ أنَّهم أولىٰ بالإنكارِ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: ألم يَروا أنَّ اللهَ الذي ابتدأ خَلْقَهم قادرٌ علىٰ أن يُعيدَهم-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[4].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٠٩).

(٢) نظم الدرر (١١/ ٥١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٨).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٥١٨).

جملةُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾؛ باعتبار ما تضمَّنته الجملةُ المعطوف عليها مِن الرَّدعِ عن قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾، فبعد زَجْرِهم عن إنكارهم البعثَ بأسلوب التهديدِ، عطَف عليه إبطالَ اعتقادهم بطريقِ الاستدلال بقياس التمثيلِ في الإمكان، وهو كافٍ في إقناعِهم هنا؛ لأنَّهم إنَّما أنكروا البعثَ باعتقاد استحالتِه؛ كما أفصَح عنه حكايةُ كلامِهم بالاستفهام الإنكاري[(١)].

لمَّا أنكَروا البعثَ، نبَّههم تعالىٰ علىٰ عظيم قُدْرتِه، وباهرِ حِكْمتِه، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾[(٢)].

لمَّا أجاب عن شُبُهاتِ منكِري النبوَّةِ، عاد إلىٰ حكاية شُبْهةِ منكِري الحشرِ والنَّشرِ ليجيبَ عنها، وتلك الشُّبْهةُ هي أنَّ الإنسانَ بعد أن يَصِيرَ رُفاتًا ورميمًا يبعُدُ أن يعودَ هو بعينِه، وأجاب اللهُ تعالىٰ عنه بأنَّ مَن قدَر علىٰ خَلْقِ السماواتِ والأرض، لم يبعُدْ أن يَقدِرَ علىٰ إعادتهم بأعيانِهم[(٣)].

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾

ولمَّا قدَّم في هذه السورة أنَّه هو المعطي، وأنَّ عطاءه الجمَّ- الذي فات الحصرَ، وفضَل عن الحاجةِ، وقامت به الحُجَّةُ علىٰ العبادِ في تمام قُدْرتِه وكمالِ عِلْمِه- غيرُ محظورٍ عن أحدٍ، وأنَّهم يقتُلون أولادَهم مع ذلك خشيةَ الإملاق، وهم يطلُبون أن يُظهِرَ لهم مِن جنسِ ما خلَق مِن الينابيع والجنَّاتِ والذهب والزُّخرفِ علىٰ كيفيات

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٠).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٢).

مخصوصةٍ لغير حاجة ما تقدَّم ذِكْرُه، وقد امتنَعوا بُخْلًا وأَنَفةً وجهلًا عن الاعتراف له بما أوجَبه عليهم؛ شكرًا لنعمتِه، واستدفاعًا لنِقْمتِه، بعد قيام الدلائل، وزوال الشُّبَهِ، فلا أبخَلَ منهم؛ لأنَّهم بَخِلوا بما يجبُ عليهم مِن الكلام؛ أمَره أن يُنبِّهَهم علىٰ سَفَهِهم في ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾[1].

اعتراضٌ ناشئٌ عن بعض مقترحاتِهم التي توهَّموا عدمَ حصولِها دليلًا علىٰ انتفاء إرسالِ بشيرٍ؛ فالكلام استئنافٌ لتكملةِ ردِّ شُبُهاتِهم، وهذا ردٌّ لِما تضمَّنه قولُهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ إلىٰ قولِه: ﴿تَفْجِيرًا ۝٩١﴾، وقولُهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ مِن تعذُّرِ حصول ذلك؛ لعظيمِ قيمتِه[2].

مناسبةُ قولِه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ﴾ الآيةَ: أنَّ المشركين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، فطلَبوا إجراءَ الأنهار والعيونِ في بلدهم؛ لتكثُرَ أقواتُهم، وتتَّسِعَ عليهم، فبيَّن تعالىٰ أنَّهم لو ملكوا خزائنَ رحمة الله، لبقُوا علىٰ بُخْلِهم وشُحِّهم، ولَمَا قَدِموا علىٰ إيصالِ النفع لأحدٍ، وعلىٰ هذا فلا فائدةَ في إسعافِهم بما طلبوا[3].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّ أكثرَ الناس جحَد الآياتِ لكونه حكَم بضَلالِه، ومَن حكَم بضلالِه لا يمكِنُ هُداه، وختَم بأنَّ مَن جُبِل علىٰ شيءٍ لم ينفكَّ عنه؛ شرَع يُسلِّي نبيَّه ﷺ

(١) نظم الدرر (١١/ ٥١٩-٥٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٢).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١١٧).

بما اتفق لِمَن قبله مِن إخوانه الأنبياءِ، مع التنبيه علىٰ أنَّه يجُودُ بالآياتِ علىٰ حسَبِ المقتضيات، وعلىٰ أنَّ خوارقَ العاداتِ لا تنفعُ في إيمانِ مَن حكَم عليه بالضَّلال، وتوجِبُ- كما في سُنَّة الله- إهلاكَ مَن عصىٰ بعد ذلك بعذاب الاستئصالِ، فقال عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ﴾: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾[1].

بقِيَ قولُهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ غيرَ مردودٍ عليهم؛ لأنَّ له مخالفةً لبقيَّةِ ما اقترَحوه؛ بأنَّه اقتراحُ آيةِ عذابٍ ورُعبٍ، فهو مِن قَبيل آيات موسىٰ عليه السلام التِّسعِ، فكان ذِكْرُ ما آتاه اللهُ موسىٰ مِن الآيات وعدمُ إجداءِ ذلك في فِرْعونَ وقومِه تنظيرًا لِمَا سأله المشركون[2].

لمَّا حكىٰ اللهُ تعالىٰ عن قُريش ما حكىٰ مِن تعنُّتِهم في اقتراحهم وعنادِهم للرسول ﷺ، سلَّاه تعالىٰ بما جرىٰ لموسىٰ مع فِرْعونَ ومع قومِه مِن قولِهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾؛ إذ قالت قُريشٌ: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ ﴾، وسكَّن قلبَه، ونبَّه علىٰ أنَّ عاقبتَهم للدمار والهلاكِ كما جرىٰ لِفِرْعونَ؛ إذ أهلكه اللهُ ومَن معه[3].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا الكلام أيضًا الجوابُ عن قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ حتىٰ تأتيَنا بهذه المعجِزات القاهرةِ، فقال تعالىٰ: إنَّا آتينا موسىٰ معجزاتٍ مساويةً لهذه الأشياءِ التي طلبتموها، بل أقوىٰ منها وأعظم، فلو حصَل في عِلْمِنا أنَّ جَعْلَها في زمانكم مصلحةٌ، لفعلناها كما فعلنا في حقِّ موسىٰ؛ فدل هذا علىٰ أنَّا إنَّما لم نفعلها في زمانكم؛ لعِلْمِنا أنَّه لا مصلحةَ في فعلِها[4].

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٢٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٤).
(٣) البحر المحيط (٧/ ١١٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٣).

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فقيل: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[1].

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

أُكمِلتْ قِصَّةُ المَثَلِ بما فيه تعريضٌ بتمثيل الحالينِ؛ إنذارًا للمشركين بأنَّ عاقبةَ مكرِهم وكيدِهم ومحاولاتِهم صائرةٌ إلىٰ ما صار إليه مكرُ فِرْعونَ وكيدُه، ففرَّع علىٰ تمثيل حالَي الرسالتين وحالَي المرسَلِ إليهما ذِكْرَ عاقبةِ الحالةِ الممثَّلِ بها؛ نِذارةً للمُمثَّلين بذلك المصيرِ؛ فقد أضمَر المشركون إخراجَ النَّبيِّ ﷺ والمسلمين مِن مكَّة، فمُثِّلت إرادتُهم بإرادة فِرْعونَ إخراجَ موسىٰ وبني إسرائيلَ مِن مِصْرَ[2].

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

ولمَّا أغرَق اللهُ تعالىٰ فِرْعونَ وجُندَه، أورَث بني إسرائيلَ أرضَهم وديارَهم، ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت أمرُ الحشر بإثبات القدرة علىٰ كل ممكنٍ تارةً، وبإخبار بني إسرائيلَ الذين ألزَموا أنفسَهم قبولَ كلامهم، وقَطْعَ المفاوِزِ إليهم لسؤالهم عن بعض الأمورِ

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٨).

أخرىٰ؛ ثبَت أنَّ هذا القرآنَ المُخبِرَ بذلك حقٌّ، وكانوا قد سألوه عن المسائل المذكورةِ، فأجابهم عن أوَّلِها- وهي الرُّوحُ- بأمر مُجمَلٍ، وعقَّبه بأنَّهم سألوه في أشياءَ اقترَحوها، وقالوا: لن نؤمنَ لك حتىٰ تفعلَها، وأشار تعالىٰ بالإخبار عن آيات موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أنَّه لم يترُكْ إجابتهم بُخْلًا ولا عَجْزًا؛ فإنها مِن جنسِ ما سألوا مِن التصرُّفِ في المياه تارةً بإنزالِهما، وتارةً بتبديلِها دمًا، الموجِبِ للقدرةِ علىٰ إنبات الأشجارِ بها، ومِن إسقاطِ السماءِ كِسَفًا بإسقاط البَرَدِ المُهلِكِ، فثبَت بذلك صحَّةُ الإخبارِ بتصريف الأمثالِ في هذا الكتابِ، فعطَف علىٰ قولِه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ قولَه تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[1].

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ عَوْدٌ إلىٰ التنويهِ بشأن القرآنِ؛ فهو متصلٌ بقولِه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾، فلمَّا عطَف عليه ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ الآياتِ إلىٰ هنا، وسمَحت مناسبةُ ذِكْرِ تكذيبِ فِرْعونَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عاد الكلامُ إلىٰ التنويهِ بالقرآن لتلك المناسبةِ[2].

لمَّا بيَّن أنَّ القرآن معجِزٌ قاهر دالٌّ علىٰ الصِّدقِ في قولِه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾، ثم حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم لم يكتفوا بهذا المعجِزِ، بل طلبوا سائرَ المعجزات، ثم أجاب اللهُ بأنَّه لا حاجةَ إلىٰ إظهار سائر المعجزاتِ، وبيَّن ذلك بوجوهٍ كثيرةٍ؛ منها أنَّ قومَ موسىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آتاهم الله تسعَ آيات بيِّناتٍ، فلمَّا جحَدوا بها أهلكهم اللهُ؛ فكذا هاهنا، ثم إنَّه تعالىٰ لو آتىٰ قومَ محمَّدٍ ﷺ تلك المعجزاتِ التي اقترحوها ثم كفَروا بها، وجَب إنزالُ عذابِ الاستئصالِ بهم؛ وذلك غيرُ جائزٍ في الحكمةِ؛ لعلمِه تعالىٰ أنَّ منهم مَن يؤمنُ، والذي لا يؤمن فسيَظهرُ مِن نسلِه مَن يَصِيرُ

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٣٠-٥٣١).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٩).

مؤمنًا، ولمَّا تم هذا الجوابُ، عاد إلىٰ تعظيم حالِ القرآن وجلالةِ درجتِه، فقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[(١)].

ثم نزَّه سبحانه ساحةَ القرآنِ أن يكونَ مفترًىٰ، وبيَّن اشتمالَه علىٰ ما يلائمُ الفِطَرَ، ويطابِقُ الواقعَ بقولِه سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[(٢)].

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

ثم أخبرَ عن الحكمةِ في إنزال القرآنِ مُنجَّمًا، فقال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[(٣)].

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾

فلمَّا طالتِ الدلائلُ، وزالت الشُّبَهُ، وعُلِم أنَّ الحظَّ لِمَن أقبَل، والخيبةَ لِمَن أدبرَ؛ أمَره أن يقول- منبِّهًا لهم علىٰ ذلك، مبكِّتًا لهم بتقاعسِهم عنه وعنادِهم فيه- بقولِه تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[(٤)].

استئنافُ خطابٍ للنبيِّ ﷺ؛ ليلقِّنَه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمِنوا بأنَّ القرآنَ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فإنَّه بعد أن أوضَح لهم الدلائلَ علىٰ أنَّ مِثْلَ ذلك القرآنِ لا يكون إلا منزَّلًا مِن عندِ الله مِن قولِه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، فعجَزوا عن الإتيانِ بمِثْله، ثم ببيانِ فضائلِ ما اشتمَل عليه بقولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، ثم بالتعرُّضِ إلىٰ ما اقترحوه

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٦).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٥٢٠).

(٣) نظم الدرر (١١/ ٥٣١).

(٤) نظم الدرر (١١/ ٥٣٢-٥٣٣).

مِن الإتيان بمعجزاتٍ أُخَرَ، ثم بكشفِ شُبْهتِهم التي يُموِّهون بها امتناعَهم مِن الإيمانِ برسالةِ بشَرٍ، وبيَّن لهم غلَطَهم أو مغالطتَهم، ثم بالأمرِ بإقامةِ الله شهيدًا بَيْنَه وبَيْنَهم، ثم بتهديدِهم بعذابِ الآخرةِ، ثم بتمثيلِ حالهم مع رسولهم بحال فِرْعونَ وقومِه مع موسىٰ، وما عُجِّل لهم مِن عذابِ الدُّنيا بالاستئصال، ثم بكشفِ شُبْهتِهم في تنجيم القرآن؛ أعقَب ذلك بتفويضِ النظرِ في ترجيحِ الإيمانِ بصدقِ القرآن وعدَمِ الإيمان بقولِه: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾؛ للتسويةِ بَيْنَ إيمانِهم وعدَمِه عند اللهِ تعالىٰ[(١)].

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾

عُطِفت ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ علىٰ ﴿يَخِرُّونَ﴾ للإشارةِ إلىٰ أنَّهم يجمعون بَيْنَ الفعلِ الدالِّ علىٰ الخضوعِ والقولِ الدالِّ علىٰ التنزيهِ والتعظيم[(٢)].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

قولُه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ تكريرٌ للجملة باختلاف الحال المقترنةِ بها، أُعيدت الجملةُ تمهيدًا لذِكْرِ الحال، وقد يقعُ التكريرُ مع العطف لأجلِ اختلافِ القيود، فتكون تلك المغايَرةُ مصحِّحةَ العطفِ؛ فالخُرُورُ المحكيُّ بالجملة الثانيةِ هو الخُرُورُ الأوَّلُ، وإنَّما خَرُّوا خُرُورًا واحدًا ساجدينَ باكينَ، فذُكِر مرتين اهتمامًا بما صَحِبه مِن علامات الخشوعِ[(٣)].

ثم ذكَر أنَّهم خرُّوا لأذقانِهم باكينَ، فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾[(٤)].

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٥).
(٤) فتح القدير (٣/ ٣١٤).

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان إيمانُ أهل العلمِ الأوَّل به وإذعانُهم له وتَرْكُهم لأديانهم- التي أخذوها عن الأنبياءِ الآتين إليهم بالكتب لأجلِه بعد إقامةِ الدليلِ القاطعِ علىٰ أنَّه مِن عندِ اللهِ- موجِبًا لكلِّ مَن له أدنىٰ إنسانيةٍ أن يؤمِنَ به، ويُقبِلَ عليه، ويدعوَ مَن أنزَله دُونَ غيرِه دائمًا، لا في أوقات الشدَّةِ فقط، وكانت أوقاتُ الإجابةِ أَولىٰ بالدعاء مِن غيرها، وكانت حالةُ السجودِ- لا سيَّما مع البكاء والخشوعِ- أَولاها؛ كان المعانِدون مِن العرَبِ كأنَّهم قالوا- لأنَّ ذلك مِن شأنِهم ومِن حقِّهم بعد ما قام مِن الأدلةِ-: آمنَّا، فعَلِّمْنا كيف ندعو؟ وبأيِّ اسم نَهتِفُ؟ ولمَّا كان لفظُ الجلالة هو الاسمَ الجامعَ لجميعِ معاني الأسماء الحُسنىٰ، وقَع الجوابُ بقولِه تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1].

ثم أراد سبحانه أن يعلِّمَ عبادَه كيفيةَ الدعاء، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[2].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم إحاطةُ هذين الاسمين- أمَّا اللهُ فبجميعِ معاني الأسماءِ الحسنىٰ، وأمَّا الرَّحمنُ فبالرَّحمانيةِ- المأمورِ بالدعاءِ بهما كلُّ مخاطَبٍ؛ خَصَّه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم بالأمرِ بالتحميدِ الذي معناه الإحاطةُ- واسمُه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم مشتقٌّ منه؛ لاتصافِه به حامدًا ومحمودًا- وبالتكبيرِ عن كلِّ ما يَفهَمه العِبادُ

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣١٥).

مِن أسمائه الحسنىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١).

لمَّا كان النهيُ عن الجهرِ بالدعاءِ أو قراءةِ الصَّلاة سدًّا للذريعةِ زيادةِ تصميمهم علىٰ الكفرِ، أعقَب ذلك بأمرِه بإعلانِ التوحيدِ؛ لقَطْعِ دابرِ توهُّمِ مَن توهَّموا أنَّ الرَّحمنَ اسمٌ لمسمًّىٰ غيرِ مسمَّىٰ اسمِ الله، فبعضُهم توهَّمه إلهًا شريكًا، وبعضُهم توهَّمه مُعِينًا وناصرًا؛ أمَر النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ ما يَقلَعُ ذلك كلَّه، وأن يعظِّمَه بأنواعِ مِن التعظيمِ (٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه واحدٌ وإن تعدَّدت أسماؤه، أمَر تعالىٰ أن يَحمَدَه علىٰ ما أنعَم به عليه ممَّا آتاه مِن شرفِ الرسالةِ والاصطفاء، ووصَف نفسَه بأنَّه لم يَتخذْ ولدًا فيُعتقدَ فيه تكثُّرٌ بالنوعِ، وكان ذلك ردًّا علىٰ اليهودِ والنصارىٰ والعرَبِ الذين عبَدوا الأصنامَ وجعلوها شركاءَ لله، والعرَبِ الذين عبَدوا الملائكةَ واعتقدوا أنَّهم بناتُ الله، ونفىٰ أولًا الولدَ خصوصًا، ثم نفىٰ الشريكَ في مُلْكِه، وهو أعَمُّ مِن أن يُنسَبَ إليه ولدٌ فيَشرَكَه أو غيرُه، ولمَّا نفىٰ الولدَ ونفىٰ الشريكَ، نفىٰ الوليَّ؛ وهو الناصرُ، وهو أعَمُّ مِن أن يكونَ ولدًا، أو شريكًا، أو غيرَ شريك (٣).

ثم بيَّن سبحانه استحقاقَه للحمدِ؛ لاختصاصِه بنعوتِ الكمال وصفات الجلالِ بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٤).

ولمَّا أمَر ألا يُذكَرَ ولا يُنادىٰ إلا بأسمائه الحسنىٰ، نبَّه علىٰ كيفيةِ الحمدِ له، فقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٥٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٢٨).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٥٢٣).

(٥) فتح القدير (٣/ ٣١٥).

سُورَةُ الكَهْفِ

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾

ولمَّا وصَف الكتابَ بما له مِن العظمةِ في جميع ما مضىٰ مِن أوصافِه؛ مِن الحكمةِ والإحكام، والتفصيل والبيان، والحَقِّيَّة، والإخراجِ مِن الظلمات إلىٰ النور، والجمعِ لكل معنًىٰ، والتِّبيانِ لكل شيء؛ أتبَعه ذِكْرَ فائدتِه مقدِّمًا ما هو الأهمُّ مِن درءِ المفسدةِ بالإنذار، فقال: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾(1).

ولمَّا أشار إلىٰ كونِه كاملًا في ذاتِه بقولِه: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾، أشار إلىٰ كونه مكمِّلًا لغيرِه بقولِه: ﴿قَيِّمًا﴾؛ لأنَّ القيِّمَ عبارةٌ عن القائمِ بمصالحِ الغير(2).

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾

لمَّا كنَىٰ عن الجَنَّةِ بقولِه: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، قال: ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾؛ أي: مقيمين فيه، فجعَله ظرفًا لإقامتِهم(3).

---

(1) نظم الدرر (١٢/ ٦).
(2) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٢٢).
(3) البحر المحيط (٧/ ١٣٧).

ثم بيَّن حالَهم فيه: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الغالبُ علىٰ الإنسانِ المخالفةَ للأوامر -لِما جُبِل عليه مِن النقائصِ-، كان الإنذارُ أهَمَّ، فأعاده لذلك، ولأنَّ المَقامَ له كما مضىٰ، ذاكرًا فيه بعضَ المتعلَّق المحذوفِ مِن الآيةِ التي قبلها؛ تبكيتًا لليهود المضلِّين لهؤلاء العرَبِ، ولِمَن قال بمقالتِهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾[(١)].

تعليلٌ آخَرُ لإنزالِ الكتابِ علىٰ عبدِه، جُعِل تاليًا لقولِه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ ﴾؛ باعتبار أنَّ المرادَ هنا إنذارٌ مخصوصٌ مقابِلٌ لِما بشَّر به المؤمنين[(٢)].

ثم صرَّح بالمنذَرِ في قولِه حين كرَّر الإنذارَ، فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾، فحذَف المنذَرَ أولًا لدلالةِ الثاني عليه، وحذَف المنذَرَ به لدلالةِ الأوَّلِ عليه، وهذا مِن بديعِ الحذفِ، وجليلِ الفصاحةِ[(٣)].

ثم كرَّر الإنذارَ وذكَر المنذَرَ لخُصوصِه، وحذَف المنذَرَ به- وهو البأسُ الشديدُ- لتقدُّم ذِكْرِه، فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٣٦).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٢٠).

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾

ثم استأنف مُعلِّلًا في جوابِ مَن كأنَّه قال: ما لهم خُصُّوا بهذا الوعيدِ الشديدِ؟ فقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾[1].

ثم عطَف عليها قضيةً خاصةً هي بعضُ جزئياتِ تلك الكلِّية؛ تنبيهًا علىٰ كونِها أعظمَ جزئياتِ تلك الكلية، فأفاد ذلك أنَّ نسبةَ الولد إلىٰ الله سبحانه أقبحُ أنواعِ الكفر؛ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾[2].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾

ولمَّا كان صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم شديدَ الحرصِ علىٰ إيمانهم -شفقةً عليهم، وغَيْرةً علىٰ المقام الإلهيِّ الذي ملأ قلبَه تعظيمًا له-، خفَّض عليه سبحانه بقولِه تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3].

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ باعتبارِهم مكذِّبينَ كافرين[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٨).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٢٠).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥٣).

ولمَّا كان النَّبيُّ ﷺ حريصًا على هدايةِ الخَلْقِ، ساعيًا في ذلك أعظمَ السعيِ، فكان ﷺ يَفرَحُ ويُسَرُّ بهدايةِ المهتدين، ويَحزَنُ ويأسَفُ على المكذِّبين الضالِّين -شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم-؛ أرشَده اللهُ ألا يَشغَلَ نفسَه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآنِ، فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1].

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ ﴾

ثم بيَّن علَّةَ إرشادِه إلى الإعراضِ عنهم بغيرِ ما يَقدِرُ عليه مِن التبليغِ للبشارةِ والنِّذارةِ؛ بأنَّهم لم يخرُجوا عن مرادِه سبحانه، وأنَّ الإيمانَ لا يَقدِرُ على إدخالِه قلوبَهم غيرُه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾[2].

مناسبةُ موقعِ هذه الآيةِ هنا خفيَّةٌ جدًّا، أعوَزَ المفسِّرين بيانُها؛ فمنهم ساكتٌ عنها، ومنهم محاوِلٌ بيانَها بما لا يَزيدُ على السكوت، والذي يبدو: أنَّها تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم على إعراضِ المشركين؛ بأنَّ اللهَ أمهَلهم وأعطاهم زينةَ الدُّنيا لعلَّهم يشكرونه، وأنَّهم بَطِروا النِّعْمةَ، فإنَّ اللهَ يسلُبُ عنهم النِّعْمةَ، فتَصِيرُ بلادُهم قاحلةً، وهذا تعريضٌ بأنَّه سيُحِلُّ بهم قَحْطَ السِّنينَ السَّبْعِ التي سأل رسولُ الله ربَّه أن يجعلَها على المشركين كسِنِينِ يوسفَ عليه السلام[3]؛ ولهذا اتصالٌ بقولِه: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٧٠).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٣).
(٣) أخرجه البخاري (٨٠٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥٦).

قال القاضي: وجهُ النَّظمِ كأنَّه تعالىٰ يقولُ: يا محمَّدُ، إني خلقتُ الأرضَ وزيَّنتُها، وأخرَجتُ منها أنواعَ المنافعِ والمصالحِ، والمقصودُ مِن خَلْقِها بما فيها مِن المنافعِ ابتلاءُ الخَلْقِ بهذه التكاليفِ، ثم إنَّهم يكفُرون ويَتمرَّدون، مع ذلك فلا أقطَعُ عنهم موادَّ هذه النِّعَمِ، فأنت أيضًا- يا محمَّدُ- ينبغي ألا تنتهيَ في الحزنِ بسببِ كفرِهم إلىٰ أن تترُكَ الاشتغالَ بدعوتِهم إلىٰ الدِّينِ الحقِّ(١).

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ [٨]

ولمَّا كان دعاؤها إلىٰ الزُّهدِ فيها والإعراضِ عنها جملةً، والاستدلالُ بها علىٰ تمامِ عِلْمِ خالقِها وشمول قُدْرتِه علىٰ إعادةِ الخلائقِ كما ابتدأهم وغير ذلك: خفيًّا؛ لكونه مستورًا عن العقول بِهَوىٰ النفوس؛ نبَّه عليه بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾(٢).

قوله: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ تكميلٌ للعِبْرةِ، وتحقيقٌ لفَناء العالَمِ(٣).

ثم بيَّن أنَّه إنَّما زيَّن الأرضَ لأجلِ الامتحان والابتلاء، لا لأجلِ أن يَبقَىٰ الإنسانُ فيها متنعِّمًا أبدًا؛ لأنَّه يزهد فيها، بقولِه: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾(٤).

ثم أعلَمَ سبحانه أنَّه مُبيدٌ لذلك كلِّه ومُفْنيه، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٢٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٢٧).

(٥) فتح القدير (٣/ ٣٢١).

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾

ولمَّا كان هذا مِن العجائبِ التي تَضاءلُ عندها العجائبُ، والغرائبِ التي تَخضَعُ لديها الغرائبُ، وإن صارت مألوفةً بكثرةِ التَّكرارِ والتجلِّي على الأبصارِ، هذا إلى ما له مِن الآياتِ التي تَزيدُ على العَدِّ، ولا تُحصَرُ بحَدٍّ -مِن خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، واختلافِ الليلِ والنهارِ، وتسخيرِ الشمسِ والقَمرِ والكواكبِ، وغيرِ ذلك-: حقَّر آيةَ أصحابِ الكهفِ -وإن كانت مِن أعجَبِ العجَبِ- لاضمحلالِها في جَنْبِ ذلك؛ لأنَّ الشيءَ إذا كان كذلك، كثُرَ إِلْفُه فلم يُعَدَّ عَجَبًا، فنبَّه على ذلك بقولِه تعالى- عطفًا على ما تقديرُه: أعَلِمتَ أنَّ هذا وغيرَه مِن عجائبِ قُدْرتِنا؟-: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[(١)].

﴿ أَمۡ ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرضٍ إلى غرضٍ، ولمَّا كان هذا مِن المقاصد التي أُنزلت السورةُ لبيانها، لم يكُنْ هذا الانتقال اقتضابًا، بل هو كالانتقال مِن الدِّيباجة والمقدِّمة إلى المقصود؛ على أنَّ مناسبةَ الانتقال إليه تتصلُ بقولِه تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾؛ إذ كان ممَّا صرَف المشركين عن الإيمانِ إحالتُهم الإحياءَ بعد الموتِ، فكان ذِكْرُ أهلِ الكهف وبَعْثِهم بعد خمودِهم سنين طويلةٍ مثالًا لإمكانِ البعثِ[(٢)].

اعلَمْ أنَّ القومَ تعجَّبوا مِن قِصَّةِ أصحاب الكهفِ، وسألوا عنها الرسولَ ﷺ على سبيلِ الامتحانِ، فقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ ﴾ أنَّهم كانوا عجَبًا مِن آياتِنا فقط؟ فلا تَحسَبنَّ ذلك؛ فإنَّ آياتِنا كلَّها عجَبٌ؛ فإنَّ مَن كان قادرًا على تخليقِ السماوات

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٥٨).

والأرض، ثم يزيِّنُ الأرضَ بأنواع المعادنِ والنبات والحيوان، ثم يَجعَلُها بعد ذلك صعيدًا جُرُزًا خاليةً عن الكل، كيف يَستبعدون مِن قُدْرتِه وحِفْظِه ورحمتِه حِفْظَ طائفةٍ مدَّةَ ثلاثمائة سنةٍ وأكثرَ في النوم؟! هذا هو الوجهُ في تقرير النَّظْمِ[(١)].

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا صغَّر أمرَهم بالنسبة إلىٰ جليلِ آياته، وعظيمِ بيِّناته، وغريبِ مصنوعاته؛ لخَّص قصتَهم التي عَدُّوها عجبًا، وتركوا الاستبصارَ علىٰ وَحْدانيةِ الواحد القهَّار بما هو العجَبُ العجيبُ، والنبأُ الغريبُ، فقال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[(٢)].

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ مضافٌ إلىٰ الجملة بعده، وهو متعلِّقٌ بـ﴿كَانُوا۟﴾، فتكونُ هذه الجملةُ متصلةً بالتي قبلها. ويجوز كونُ الظرف متعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُر، فتكون مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا للجملة التي قبلها. وأيًّا ما كان، فالمقصودُ إجمالُ قصتِهم ابتداءً؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ قِصَّتَهم ليست أعجَبَ آيات الله، مع التنبيه علىٰ أنَّ ما أكرَمهم اللهُ به مِن العنايةِ إنَّما كان تأييدًا لهم لأجلِ إيمانهم[(٣)].

ثم لمَّا ذكَر قصَّتَهم مجمَلةً، فصَّلها بعد ذلك، فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٦٥).

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا أجابهم سبحانه، عبَّر عن ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[(١)].

تفريعُ هذه الجملةِ بالفاء إمَّا علىٰ جملةِ دعائهم، فيُؤذِنُ بأنَّ مضمونَها استجابةُ دعوتهم، فجعَل اللهُ إنامتَهم كرامةً لهم؛ بأنْ سلَّمهم مِن التعذيبِ بأيدي أعدائهم، وأيَّد بذلك أنَّهم على الحقِّ، وأرى الناسَ ذلك بعد زمنٍ طويلٍ، وإما على جملةِ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ إلخ، فيُؤذِنُ بأنَّ اللهَ عجَّل لهم حصولَ ما قصَدوه ممَّا لم يكُنْ في حِسْبانِهم[(٢)].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن هذه القِصَّةِ إثباتَ البعث بعد الموتِ، فكان في ذِكر لفظِ البعث تنبيهٌ على أنَّ في هذه الإفاقةِ دليلًا على إمكانِ البعثِ وكيفيته[(٣)].

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الكلامُ على اختلافٍ وقَع في مدَّتِهم، وكان الحِزْبانِ معًا هم ومَن خالَفهم متقارِبين في الجهلِ بإحصائه على سبيلِ القطعِ، وكان اليهودُ -الذين أمَروا قُرَيشًا بالسؤالِ عن أمرِهم تشكيكًا في الدِّين- لا يَعلَمون أمرَهم على الحقيقة؛

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٦٩).

نبَّه علىٰ ذلك بقولِه -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: أيُّهما أحصاه؟-: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾(١).

لمَّا اقتضىٰ قولُه: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾ أنَّ في نبأِ أهلِ الكهف تَخرُّصاتٍ ورَجْمًا بالغيبِ، أثار ذلك في النفس تطلُّعًا إلىٰ معرفة الصِّدقِ في أمرِهم مِن أصلِ وجودِ القِصَّة إلىٰ تفاصيلها مِن مُخبِرٍ لا يُشَكُّ في صِدْقِ خبَرِه؛ كانت جملةُ ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ استئنافًا بيانيًّا لجملةِ ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، وهذا شروعٌ في مجمَلِ القِصَّةِ، والاهتمامِ بمواضعِ العِبْرةِ منها(٢).

لمَّا اقتضىٰ قولُه تعالىٰ: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾ اختلافًا وقَع في أمَدِ الفِتية، عقَّب بالخبرِ عن أنَّه ﷻ يَعلَمُ مِن أمرِهم بالحقِّ الذي وقَع(٣).

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالىٰ في صفاتِهم: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾(٤).

ثم بيَّن تعالىٰ صَبْرَهم علىٰ مخالفةِ قومِهم ومدينتِهم ومفارقةِ ما كانوا فيه مِن العيشِ الرَّغيدِ بقولِه سبحانه: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٦٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٤١-٤٤٢).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٩).

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥ ﴾

ثم شرَعوا يستدلُّون علىٰ كونِه شَطَطًا بأنَّه لا دليلَ عليه. ويجوز أن يكونوا لمَّا قالوا ذلك، عرَض لهم الشيطانُ بشُبْهة التقليدِ، فقالوا مجيبين عنها: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضَتْهُ جملةُ ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾؛ إذ يثُورُ في نفس السامعِ أن يَتساءل عمَّن يقولُ هذا الشَّطَطَ، إن كان في السامعين مَن لا يَعلَمُ ذلك، أو بتنزيلِ غيرِ السائلِ منزلةَ السائلِ، وهذه الجملةُ مِن بقية كلام الفِتية؛ كما اقتضاه ضميرُ قولِه: ﴿دُونِهِۦٓ﴾ العائدُ إلىٰ ﴿رَبُّنَا﴾(٢).

لمَّا وحَّدوا اللهَ تعالىٰ، ورفضوا ما دُونَه مِن الآلهةِ؛ أخذوا في ذَمِّ قومِهم وسُوءِ فعلِهم، وأنَّهم لا حُجَّةَ لهم في عبادةِ غيرِ اللهِ، ثم عظَّموا جُرْمَ مَن افترىٰ علىٰ الله كذبًا، وهذه المقالةُ يحتملُ أن قالوها في مقامِهم بَيْنَ يَدَي المَلِكِ؛ تقبيحًا لِما هو وقومُهم عليه؛ وذلك أبلَغُ في التبرِّي مِن عبادةِ الأصنام، وأفَتُّ في عَضُدِ المَلِكِ؛ إذ اجترَؤوا عليه بذَمِّ ما هو عليه، ويحتملُ أن قالوا ذلك عند قيامِهم للأمرِ الذي عزَموا عليه(٣).

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ﴾

ولمَّا استدلُّوا علىٰ معتقَدِهم، وعَلِموا سَفَهَ مَن خالَفهم، وهم قومٌ لا يَدانِ لهم بمقاومتِهم؛ لكثرتِهم وقلَّتِهم؛ تسبَّب عن ذلك هجرتُهم؛ ليَسلَمَ لهم دِينُهم، فقال

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٤).
(٣) البحر المحيط (٧/ ١٤٩).

تعالىٰ شارحًا لِما بَقِي مِن أمرِهم، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: وقالوا -أو مَن شاء اللهُ منهم حين خلَصوا مِن قومِهم نجيًّا-: لا تَرجِعوا إلىٰ قومِكم أبدًا ما داموا علىٰ ما هم عليه، هذا إن كان المرادُ قيامَهم بَيْنَ يدَيْ دقيانوسَ، وإن كان المرادُ مِن القيام الانبعاثَ بالعزمِ الصادقِ، لم يُحتَجْ إلىٰ هذا التقديرِ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[(١)].

يَتعيَّنُ أن يكونَ هذا مِن كلامِ بعضِهم لبعضٍ علىٰ سبيل النُّصح والمَشورةِ الصائبة، وليس يَلزَمُ في حكايةِ أقوالِ القائلين أن تكونَ المحكيَّاتُ كلُّها صادرةً في وقتٍ واحد، فيجوز أن يكونوا قال بعضُهم لبعضٍ ذلك بعد اليأسِ مِن ارعواءِ قومِهم عن فتنتهم في مَقامٍ آخرَ. ويجوزُ أن يكونَ ذلك في نفس المَقام الذي خاطبوا فيه قومَهم؛ بأنْ غيَّروا الخطابَ مِن مواجهةِ قومِهم إلىٰ مواجهةِ بعضِهم بعضًا؛ وهو ضربٌ مِن الالتفات[(٢)].

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾

عطَف بعضَ أحوالِهم علىٰ بعضٍ. انتقَل إلىٰ ذِكْرِه بمناسبةِ الإشارةِ إلىٰ تحقيقِ رجائهم في ربِّهم، حين قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾[(٣)].

هنا جُمَلٌ محذوفةٌ، دلَّ عليها ما تقدم؛ والتقديرُ: فأَوَوْا إلىٰ الكهفِ، فألقىٰ اللهُ عليهم النومَ، واستجاب دعاءهم، وأرفقَهم في الكهفِ بأشياءَ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ١٥١).

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ بيانٌ لحالهم بعدما أَوَوْا إلىٰ الكهفِ، ولم يُصرِّحْ سبحانه به تعويلًا علىٰ ما سبَق مِن قولِه تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، وما لَحِق مِن إضافةِ الكهفِ إليهم، وكونِهم في فَجْوةٍ منه، وجُوِّز أن يكونَ إيذانًا بعدمِ الحاجةِ إلىٰ التصريحِ؛ لظهورِ جريانِهم علىٰ موجَبِ الأمرِ؛ لكونه صادرًا عن رأيٍ صائبٍ، وقد حذَف ﷻ أيضًا جُمَلًا أخرىٰ لا تَخفَىٰ[(١)].

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

ولمَّا نبَّه سبحانه هذا التَّنبيهَ تسليةً للنبيِّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وتثبيتًا أن يَبخَعَ نفسَه؛ عطَف علىٰ ما مضىٰ بقيَّةَ أمرِهم، فقال: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ بقيَّةِ القِصَّةِ، وما بينهما اعتراضٌ، والخطابُ فيه كالخطابِ في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾، وهذا انتقالٌ إلىٰ ما في حالِهم مِن العِبْرةِ لِمَن لو رآهم مِن الناسِ، مُدمَجٌ فيه بيانُ كرامتِهم وعظيمِ قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيبٌ مِن حالهم لِمَن لو رآه مِن الناسِ[(٣)].

ثم حكىٰ سبحانه طَرَفًا آخرَ مِن غرائبِ أحوالهم، فقال: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[(٤)].

---

(١) روح المعاني (٨/ ٢١١).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨٠).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٢٦).

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ ﴾

عطفٌ لجزءٍ مِن القِصَّةِ فيه عِبْرةٌ لأهلِ الكهفِ بأنفسِهم؛ ليَعلَموا مَن أكرَمَهم اللهُ به؛ مِن حِفْظِهم عن أن تنالَهم أيدي أعدائهم بإهانةٍ، ومِن إعلامِهم عِلْمَ اليقينِ ببعضِ كيفية البعثِ؛ فإنَّ عِلْمَه عظيمٌ(١).

اعلَمْ أنَّ التَّقدير: وكما زِدناهم هُدًى، وربَطْنا على قلوبِهم، فضرَبْنا على آذانِهم وأنَمْناهم، وأبقيناهم أحياءً لا يأكلون ولا يشربون، ونُقلِّبُهم؛ فكذلك بعثناهم؛ أي: أحيَيْناهم مِن تلك النَّومةِ التي تُشبِهُ الموتَ؛ ليَتساءلوا بينهم تساؤلَ تنازعٍ واختلافٍ في مُدَّة لُبْثِهم(٢).

﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠ ﴾

ولمَّا نهَوْا رسولَهم عن الإشعارِ بهم، علَّلوا ذلك، فقالوا: ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾(٣).

جملةُ ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ ﴾ علةٌ للأمرِ بالتلطُّفِ، والنهي عن إشعارِ أحدٍ بهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٤٥).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

انتقَل إلىٰ جزءِ القِصَّةِ الذي هو موضعُ عِبْرةِ أهلِ زمانهم بحالهم، وانتفاعِهم باطمئنانِ قلوبِهم؛ لوقوع البعث يومَ القيامةِ بطريقةِ التَّقريبِ بالمشاهَدةِ، وتأييدِ الدِّين بما ظهَر مِن كرامةِ أنصاره، وقد كان القومُ الذين عثَروا عليهم مؤمنين مثلَهم، فكانت آيتُهم آيةَ تثبيتٍ وتقويةِ إيمانٍ(١).

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ تنازُعَ أولئك الذين هَداهم اللهُ بهم، ذكَر ما يأتي مِن إفاضةِ مَن علَّم قُرَيشًا أن تَسألَ النبيَّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم منهم -في الفضولِ الذي ليس لهم إليه سبيلٌ، ولا يَظفَرون فيه بدليلٍ- عَلَمًا مِن أعلام النُّبوَّة، فقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾(٢).

لمَّا شاعت قِصَّةُ أهل الكهفِ حين نزَل بها القرآنُ، صارت حديثَ النوادي، فكانت مثارَ تخرُّصاتٍ في معرفة عددهم، وحصرِ مُدَّة مُكْثِهم في كهفهم، وربما أملىٰ عليهم المتنصِّرةُ مِن العرَبِ في ذلك قصصًا، وقد نبَّههم القرآنُ إلىٰ ذلك، وأبهَم علىٰ عموم

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤١-٤٢).

الناسِ الإعلامَ بذلك لحِكْمةٍ؛ وهي أن تعوّدَ الأمةُ بتركِ الاشتغال فيما ليست منه فائدةٌ للدِّينِ أو للناسِ، ودلَّ عِلْمُ الاستقبالِ على أنَّ الناسَ لا يَزالون يخوضون في ذلك(١).

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان نهيُه عن استفتائهم موجِبًا لقَصْرِ همَّتِه على ربِّه سبحانه، فكان مِن المعلومِ أنَّه إذا سئل عن شيءٍ، التفتت نفسُه إلى تعرُّفه مِن قِبَلِه، فربما قال -لِما يَعلَمُ مِن إحاطةِ عِلْمِ الله سبحانه وكَرمِه لديه-: سأُخبِرُكم به غدًا؛ كما وقَع مِن هذه القصصِ؛ علَّمه اللهُ ما يقول في كلِّ أمرٍ مستقبلٍ يَعزِمُ عليه بقولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾(٢).

عطفٌ على الاعتراضِ، ومناسبةُ موقعه هنا: ما رواه ابنُ إسحاقَ والطَّبَريُّ في أوَّل هذه السورة والواحديُّ في سورة «مريمَ»: أنَّ المشركين لمَّا سألوا النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم عن أهلِ الكهفِ وذي القَرْنينِ، وعَدهم بالجواب عن سؤالهم مِن الغدِ، ولم يقُلْ: «إن شاء الله»، فلم يأتِه جبريلُ عليه السلام بالجوابِ إلا بعد خمسةَ عشرَ يومًا(٣)، فكان تأخيرُ الوحيِ إليه بالجوابِ عتابًا رمزيًّا مِن اللهِ لرسولِه عليه الصلاة والسلام(٤).

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم كان هذا عتابًا صريحًا؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا سُئل عن أهلِ الكهفِ، وعَد بالإجابة، ونَسِي أن يقولَ: «إن شاء الله» كما نَسِي سليمانُ، فأعلَمَ اللهُ

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩٠-٢٩١).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٣-٤٤).
(٣) أورده ابن حجر في "فتح الباري" (١١/ ٦٠٣)، وعزاه لابن إسحاق.
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩٥).

رسولَه ﷺ بقِصَّةِ أهلِ الكهفِ، ثم نهاه عن أن يَعِدَ بفعل شيء دُونَ التقييد بمشيئة الله، وقولُه: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناءٌ حقيقيٌّ مِن الكلام الذي قبله (١).

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن هذه التربيةِ في أثناءِ القِصَّة، وختَمها بالترجيةِ في الهداية للأرشد، وكان عِلْمُ مُدَّةِ لُبْثِهم أدقَّ وأخفىٰ مِن عِلْمِ عددِهم؛ شرَع في إكمالها مبيِّنًا لهذا الأخفىٰ، عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾، أو علىٰ «فأوَوْا إليه» الذي أرشَد إلىٰ تقديرِه قولُهم: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ كما مضىٰ، المختومُ بنشرِ الرحمةِ وتهيئةِ المِرْفَقِ بعد قولِه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ﴾ المختومِ بقولِهم: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، فقال بيانًا لإجمالِ ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ محقِّقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ (٢).

رجوعٌ إلىٰ بقية القِصَّة بعد أن تخلَّلَ الاعتراضُ بيْنَها بقولِه: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾، فيجوز أن تكونَ جملةُ ﴿ وَلَبِثُواْ ﴾ عطفًا علىٰ مَقُولِهم في قولِه: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾؛ أي: ويقولون: لَبِثوا في كهفِهم؛ ليكونَ موقعُ قولِه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ كموقع قوله السابقِ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾، وعليه فلا يكونُ هذا إخبارًا عن مُدَّةِ لُبْثِهم. ويجوزُ أن يكونَ العطفُ علىٰ القِصَّة كلِّها؛ والتقديرُ: وكذلك أعثَرْنا عليهم... إلىٰ آخره، وهم لَبِثوا في كهفهم ثلاثَمائة سنةٍ وتِسْعَ سنين (٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩٥).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٣-٤٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٠).

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

وكأنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم كانت عند اليهود أقلَّ مِن ذلك أو أكثرَ، فقال -علىٰ طريق الجوابِ لسؤالِ مَن يقولُ: فإن قال أحدٌ غيرَ هذا فما يقالُ له؟-: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾[1].

إن كان قولُه تعالىٰ: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ﴾ إخبارًا مِن الله عن مُدَّة لُبْثِهم، يكونُ قولُه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾ قطعًا للمُماراةِ في مُدَّةِ لُبْثهم المختلَفِ فيها بَيْنَ أهلِ الكتابِ؛ أي: اللهُ أعلَمُ منكم بمدَّةِ لُبْثِهم. وإن كان قولُه: ﴿ وَلَبِثُواْ ﴾ حكايةً عن قولِ أهلِ الكتابِ في مُدَّة لُبْثِهم، كان قولُه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ تفويضًا إلىٰ الله في عِلْمِ ذلك[2].

ثم أمَر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يرُدَّ العِلْمَ إليه بما لَبِثوا؛ ردًّا عليهم، وتفنيدًا لمقالتهم[3].

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه لا شكَّ في قولِه، ولا يَقدِرُ أحدٌ أن يأتيَ بما يماثلُه، فكيف بما ينافيه! مع كونِه مختصًّا بتمام العلم وشمولِ القدرة؛ حسُنَ تعقيبُه بقولِه: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠١).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٤٧-٤٨).

عطفٌ على جملةِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ بما فيها مِن قولِه: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾، والمقصودُ مِن هذا الردُّ على المشركين؛ إذ كانوا أيامَئذٍ لا يُبيَّنُ لهم شيءٌ إلا وانتقلوا إلى طلبِ شيءٍ آخرَ[١].

لمَّا أنزَل عليه ما أنزَل مِن قِصَّةِ أهلِ الكهفِ، أمَره بأن يقُصَّ ويتلوَ على معاصريه ما أوحى إليه تعالى مِن كتابِه؛ في قِصَّةِ أهلِ الكهفِ وفي غيرِهم، وأنَّ ما أوحاه إليه لا مُبدِّلَ له[٢].

لمَّا ذكَر سبحانه قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ، وكانت مِن المغيَّباتِ بالإضافةِ إليه ﷺ، ودلَّ اشتمالُ القرآنِ عليها على أنَّه وحيٌ مُعجِزٌ مِن حيثيةِ الاشتمالِ، وإن كانت جهةُ إعجازِه غيرَ منحصرةٍ في ذلك؛ أمَره جلَّ شأنُه بالمواظبةِ على درسِه بقولِه سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾[٣].

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾

ولمَّا كان النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم شديدَ الحرصِ على إيمانِهم، كثيرَ الأسَفِ على تولِّيهم عنه، يكاد يَبخَعُ نفسَه حسرةً عليهم، وكانوا يقولون له إذا رأوا مِثْلَ هذا الحقِّ الذي لا يجِدون له مَدفعًا: لو طرَدتَ هؤلاء الفقراءَ وأبعَدتَهم عنك -مِثْلَ عمَّارٍ وصُهَيبٍ وبلالٍ-؛ فإنَّه يؤذينا ريحُ جِبابِهم، ونأنَفُ مِن مجالستِهم: جلَسْنا إليك، وسَمِعْنا منك، ورجَوْنا أن نتبعَك؛ قال يرغِّبُه في أتباعِه، مزهِّدًا فيمَن عداهم،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٢).

(٢) البحر المحيط (٧/ ١٦٥).

(٣) روح المعاني (٨/ ٢٤٣).

كائنًا مَن كان، مُعلِمًا أنَّه ليس فيهم ملجأٌ لِمَن خالَف أمرَ الله، وأنَّهم لا يريدون إلا تبديلَ كلماتِ اللهِ، فسيُذِلُّهم عن قريبٍ، ولا يجدون لهم مُلتحَدًا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

هذا مِن ذيولِ الجوابِ عن مسألتِهم عن أهلِ الكهفِ، فهو مشارِكٌ لقولِه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الآية[2].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا رغَّبه في أوليائه، وزهَّده في أعدائه -ترضيةً بقَدَرِه بعد أن قصَّ الحقَّ مِن قِصَّةِ أهلِ الكهفِ للمتعنِّتين-، علَّمه ما يقولُ لهم علىٰ وجهٍ يعُمُّهم، ويعُمُّ غيرَهم، ويعُمُّ القِصَّةَ وغيرها، فقال تعالىٰ مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3].

بعد أن أمَرَ اللهُ نبيَّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم بما فيه نقضُ ما يَفتِلونه مِن مقترَحاتِهم، وتعريضٌ بتأييسِهم مِن ذلك؛ أمَره أن يصارِحَهم بأنَّه لا يَعدِلُ عن الحقِّ الذي جاءه مِن اللهِ، وأنَّه مُبلِّغُه بدونِ هَوادةٍ، وأنَّه لا يَرغَبُ في إيمانِهم ببعضِه دُونَ بعضٍ، ولا يَتنازلُ إلىٰ مشاطرتِهم في رغباتِهم بشَطْرِ الحقِّ الذي جاء به، وأنَّ إيمانَهم وكفرَهم

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٨-٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٥١-٥٢).

موكولٌ إلىٰ أنفسِهم، لا يَحسَبون أنَّهم بوعدِ الإيمانِ يستنزِلون النَّبيَّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم عن بعضِ ما أُوحي إليه[(١)].

ثم بيَّن سبحانه لنبيِّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم ما يقولُه لأولئك الغافلين، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾

فكأنَّه قيل: فما لِمَن آمن؟ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[(٣)].

جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا مُراعًىٰ فيه حالُ السامعين مِن المؤمنين؛ فإنَّهم حين يَسمَعون ما أُعِدَّ للمشركين تتشوَّفُ نفوسُهم إلىٰ معرفةِ ما أُعِدَّ للذين آمنوا، ونبَذوا الشِّركَ، فأُعلِموا أنَّ عمَلَهم مَرْعيٌّ عند ربِّهم، وجريًا علىٰ عادةِ القرآنِ في تعقيبِ الوعيدِ بالوعدِ، والترهيبِ بالترغيبِ[(٤)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالَ أهلِ الكفرِ وما أُعِدَّ لهم في النارِ، ذكَر حالَ أهلِ الإيمانِ وما أُعِدَّ لهم في الجَنَّةِ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٩-٣١٠).

(٥) البحر المحيط (٧/ ١٧٠).

لمَّا ذكَر وعيدَ المُبطِلين، أردَفَه بوعدِ المُحقِّين[(١)].

📖 ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١ ﴾ 📖

فكأنَّه قيل: فما لهم؟ فقال مُفصِّلًا لِما أجمَل مِن وعدِهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[(٢)].

الجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما أُجمِل مِن عدمِ إضاعةِ أجرِهم يستشرِفُ بالسامع إلىٰ ترقُّبِ ما يُبيِّنُ هذا الأجرَ[(٣)].

لمَّا ذكَر هناك ما يُغاثون به- وهو الماءُ كالمهل-، ذكَر هنا ما خَصَّ به أهلَ الجَنَّةِ مِن كونِ الأنهارِ تجري مِن تحتِهم، ثم ذكَر ما أنعَم عليهم مِن التحليةِ واللِّباسِ اللذَينِ هما زينةٌ ظاهرةٌ[(٤)].

📖 ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ ﴾ 📖

ولمَّا كان إنَّما مَحَطُّ حالِ المشركين العاجلَ، عطَف علىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ قولَه تعالىٰ- كاشفًا بضربِ المَثَلِ أنَّ ما فيه الكفارُ مِن الارتفاقِ العاجلِ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٥١-٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣١١).

(٤) البحر المحيط (٧/ ١٧٠).

ليس أهلًا لأن يُفتخَرُ به؛ لأنَّه إلىٰ زوالٍ-: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ الآياتِ؛ فإنَّه بعد أن بيَّن لهم ما أعَدَّ لأهلِ الشِّركِ، وذكَر ما يقابلُه ممَّا أعَدَّه للذين آمنوا؛ ضرَب مَثَلًا لحالِ الفريقين بمثَلِ قِصَّةٍ أظهر اللهُ فيها تأييدَه للمؤمن وإهانتَه للكافر، فكان لذلك المَثَلِ شَبَهٌ بمَثَلِ قِصَّةِ أصحاب الكهفِ مِن عصرٍ أقرَبَ لعلمِ المخاطَبين مِن عصرِ أهل الكهف، فضرَب مَثَلًا للفريقينِ للمشركين وللمؤمنين بمثَلِ رجُلَينِ كان حالُ أحدهما مُعجِبًا مؤنَّقًا، وحالُ الآخرِ بخلاف ذلك، فكانت عاقبةُ صاحبِ الحالِ المؤنَّقةِ تبابًا وخَسارةً، وكانت عاقبةُ الآخَرِ نجاحًا؛ ليَظهَرَ للفريقين ما يجُرُّه الغُرورُ والإعجابُ والجبروتُ إلىٰ صاحبه مِن الأَرْزاءِ، وما يَلْقاه المؤمنُ المتواضعُ العارف بسُنَنِ الله في العالَمِ مِن التذكير والتدبُّرِ في العواقبِ، فيكون مُعرَّضًا للصلاح والنجاح[2].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا أنَّ الكفارَ افتخَروا بأموالِهم وأنصارِهم علىٰ فقراء المسلمين، فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ ذلك ممَّا لا يوجِبُ الافتخارَ؛ لاحتمالِ أن يَصِيرَ الفقيرُ غنيًّا والغنيُّ فقيرًا، أمَّا الذي يجب حصولُ المفاخَرةِ به، فطاعةُ اللهِ وعبادتُه، وهي حاصلةٌ لفقراءِ المؤمنين، وبيَّن ذلك بضربِ هذا المَثَلِ المذكورِ في الآيةِ، فقال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾؛ أي: مَثِّلْ حالَ الكافرين والمؤمنين بحالِ رجُلَينِ كانا أخوَينِ في بني إسرائيلَ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٢).

﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الشجرُ قد يكون فاسدًا مِن جهةِ أرضه، نفى ذلك بقولِه تعالى -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما حالُ أرضِهما المنتِجُ لزكاءِ ثمرِهما؟-: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾[1].

جملةُ ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ معترِضةٌ بَيْنَ الجُمَلِ المتعاطفةِ[2].

ثم أخبَر سبحانه عن الجنَّتينِ بأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما كانت تؤدي حَمْلَها وما فيها، فقال: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾[3].

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

ثم زاد في ضخامةِ هذا الرجُلِ، فبيَّن أنَّ له غيرَ هاتين الجنَّتَينِ والزَّرعِ بقولِه تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾؛ أي: مالٌ مُثمِر غيرُ ما تقدَّم كثيرٌ[4].

جملةُ ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ في موضعِ الحالِ مِن ﴿ لِأَحَدِهِمَا ﴾[5].

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ في موضعِ الحال مِن ضميرِ ﴿ قَالَ ﴾؛ أي: قال ذلك وقد دخل جَنَّتَه مرافِقًا لصاحبِه؛ أي: دخل جَنَّتَه بصاحبِه؛ كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾؛ لأنَّ القول لا يكونُ إلا خطابًا لآخرَ[6].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٥٧-٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ٣٣٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٥٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٣١٨).

(٦) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٠).

ثم إنَّه أراد أن يُظهِرَ لذلك المسلمِ كثرةَ مالِه، فأخبَر اللهُ تعالىٰ عن هذه الحالةِ، فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾، وأراه إياها علىٰ الحالةِ الموجِبةِ للبهجة والسرور، وأخبره بصُنوفِ ما يَملِكُه مِن المالِ(١).

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾

ثم زاد في الطُّغيانِ والبَطَرِ بقَصْرِ النظرِ علىٰ الحاضرِ، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾(٢).

ثم أنكَر البعثَ بعد إنكارِه لفَناءِ جَنَّتِه، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ٣٧﴾

فكأنَّه قيل: إنَّ هذا لَفِي عِدادِ البهائمِ؛ حيث قصَر النظرَ علىٰ الجزئياتِ، ولم يُجوِّزْ أن يكونَ التَّمويلُ استدراجًا، فما قال له الآخَرُ؟ فقيل: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾(٣).

حكىٰ كلامَ صاحِبِه بفِعْلِ القولِ بدُونِ عطفٍ؛ للدلالة علىٰ أنَّه واقعٌ موقعَ المحاوَرةِ والمجاوَبةِ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٣).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٥٩).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٦٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢١).

ثم بيَّن تعالىٰ ما أجابه صاحبُه المؤمنُ واعظًا له، وزاجرًا عمَّا هو فيه مِن الكفرِ باللهِ والاغترارِ، بقولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[1].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا أنكَر علىٰ صاحِبِه، أخبَر عن اعتقادِه بما يُضادُّ اعتقادَ صاحِبِه، فقال مؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ صاحبِه، مُستدرِكًا لأجلِ كفرانِه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا كان المؤمنون علىٰ طريقِ الأنبياءِ في إرادة الخير والإرشاد إلىٰ سبيل النَّجاةِ، وعدمِ الحقدِ علىٰ أحدٍ بِشَرٍّ أسلَفه وجَهْلٍ قدَّمه؛ قال له- مصرِّحًا بالتعليم بعد أن لوَّح له به فيما ذكَره عن نفسه ممَّا يجبُ عليه-: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[3].

عطفُ جملةِ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ علىٰ جملةِ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ عطفُ إنكارٍ علىٰ إنكارٍ[4].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٤).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٦١).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٦٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٣).

لمَّا وبَّخ المؤمنُ الكافرَ، أورَد له ما يَنصَحُه[١].

ثـم أقبَل عليـه يلومُـه، فقـال: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[٢].

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّـا أقَـرَّ هـذا المـؤمنُ بـالعَجْزِ والافتقـار، في نظيـرِ مـا أبـدىٰ الكـافرُ مِـن التَّقـوِّي والافتخار؛ سبَّب عن ذلك ما جرت به العـادةُ في كـل جزاءٍ، داعيًا بصورةِ التَّوقُّع، فقــال تعــالىٰ: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾[٣].

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا كانت المُصابَحةُ[٤] بالمصيبةِ أنكىٰ ما يكونُ، قـال تعـالىٰ: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾[٥].

ولمَّـا دعـا أن يُصِيبَها آفـةٌ عُلْويـةٌ، ناسَـب أن يـدعوَ أن يُصِيبَها آفـةٌ سُـفْليةٌ مِـن جهـةِ الأرضِ، فقال: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾.

---

(١) البحر المحيط (٧/ ١٧٩).
(٢) فتح القدير (٣/ ٣٤٠).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٦٣).
(٤) أي: المجيء صباحًا.
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٦٤).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ هذا المؤمنَ المخلِصَ بعينِ الرضا، كان مِن المعلومِ أنَّ التَّقديرَ: فاستُجيب لهذا الرجُلِ المؤمنِ، أو: فحُقِّق له ما توقَّعه، فخُيِّب ظنُّ المشرِكِ، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[1].

ثم أخبَر سبحانه عن وقوعِ ما رجَاه ذلك المؤمنُ وتوقَّعه مِن إهلاكِ جَنَّةِ الكافر، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[2].

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾

قولُه: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ موعظةٌ وتنبيهٌ على جزاءِ قولِه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾[3].

لمَّا افتخَر بكثرةِ مالِه وعزَّةِ نَفَرِه، أخبَر تعالىٰ أنَّه لم ﴿تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بنفسه[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٦٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٤١).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ١٨٢).

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا أنتَج هذا المَثَلُ قَطْعًا أنَّه لا أمرَ لغيرِ الله المرجُوِّ لنصرِ أوليائه بعد ذُلِّهم، ولإغنائهم بعد فقرِهم، ولإذلالِ أعدائه بعد عِزِّهم وكِبْرِهم، وإفقارِهم بعد إغنائهم وجَبْرِهم، وأنَّ غيرَه إنَّما هو كالخيال لا حقيقةَ له؛ صرَّح بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا ﴾[1].

تذييلٌ للجُمَلِ قبلها؛ لِما في هذه الجملةِ مِن العموم الحاصل مِن قَصْرِ الوَلايةِ علىٰ الله تعالىٰ، المقتضي تحقيقَ جملةِ ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾، وجملةِ ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وجملةِ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾؛ لأنَّ الوَلايةَ مِن شأنِها أن تبعَثَ علىٰ نصرِ المولىٰ، وأن تُطمِعَ المولىٰ في أنَّ وليَّه ينصُرُه[2].

لمَّا ذكَر مِن قِصَّةِ الرجُلَينِ ما ذكَر، عَلَّمَنا أنَّ النُّصرةَ والعاقبةَ المحمودةَ كانت للمؤمن علىٰ الكافر، وعرَّفَنا أنَّ الأمرَ هكذا يكونُ في حقِّ كل مؤمنٍ وكافر، فقال: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا ﴾[3].

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ المَثَلَ لدنياهم الخاصةِ بهم التي أبطَرتهم، فكانت سببَ إشقائهم، وهم يَحسَبون أنَّها عينُ إسعادهم؛ ضرَب لدار الدُّنيا العامةِ لجميعِ الناسِ في قلةِ بقائها وسرعةِ فَنائها، وأنَّ مَن تكبَّر بها كان أخَسَّ منها، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ

(١) نظم الدرر (١٢/ ٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٦).

ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾(١).

كان أعظَمُ حائلٍ بَيْنَ المشركين وبَيْنَ النظرِ في أدلةِ الإسلامِ انهماكَهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمِها، والغُرورَ الذي غَرَّ طُغاةَ أهل الشرك، وصرَفهم عن إعمال عقولهم في فَهْمِ أدلة التوحيدِ والبعثِ، وكانوا يَحسَبون هذا العالَمَ غيرَ آيلٍ إلى الفَناء، وما كان أحدُ الرجُلَينِ اللذينِ تقدمت قصَّتُهما إلا واحدًا مِن المشركين؛ إذ قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾، فأمَر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يَضرِبَ لهم مَثَلَ الحياة الدُّنيا التي غرَّتهم بَهْجتُها(٢).

لمَّا بيَّن تعالى في المَثَلِ الأولِ حالَ الكافر والمؤمنِ، وما آلَ إليه ما افتخَر به الكافرُ مِن الهلاكِ؛ بيَّن في هذا المَثَل حالَ الحياةِ الدُّنيا، واضمحلالَها، ومصيرَ ما فيها مِن النعيمِ والترفُّهِ إلى الهلاك(٣).

ثم ضرَب سبحانه مثَلًا آخرَ لجبابرةِ قُرَيشٍ، فقال: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾(٤).

﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ ﴾

ولمَّا تبيَّن بهذين المَثَلينِ وغيرِهما أنَّ الدُّنيا -التي أورَدتْ أهلَها الموارِدَ، وأحلَّتْهم أوديةَ المعاطب- سريعةُ الزوال، وشيكةُ الارتحال، مع كثرةِ الأنكاد، ودوامِ الأكدار

(١) نظم الدرر (١٢/ ٦٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٠).
(٣) البحر المحيط (٧/ ١٨٥).
(٤) فتح القدير (٣/ ٣٤٣).

-مِن الكَدِّ والتعب، والخوف والنَّصَبِ- كالزَّرع سواءً، تُقبِلُ أولًا في غاية النَّضرة والبهجةِ، تتزايدُ نَضرتُها وبهجتها شيئًا فشيئًا، ثم تأخذُ في الانتقاص والانحطاطِ إلىٰ أن تنتهيَ إلىٰ الفَناءِ؛ فهي جديرةٌ لذلك بالزهدِ فيها، والرغبةِ عنها، وألا يفتخِرَ بها عاقلٌ؛ فضلًا عن أن يُكاثِرَ بها غيره، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

اعتراضٌ أُريدَ به الموعظةُ والعِبْرةُ للمؤمنين بأنَّ ما فيه المشركون مِن النِّعْمة مِن مالٍ وبنينَ: ما هو إلا زينةُ الحياة الدُّنيا التي عَلِمْتم أنَّها إلىٰ زوالٍ، وأنَّ ما أعَدَّ اللهُ للمؤمنين خيرٌ عند الله، وخيرٌ أملًا[2].

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ الدُّنيا سريعةُ الانقراضِ والانقضاءِ، مُشرِفةٌ علىٰ الزوال والبَوارِ والفَناء؛ بيَّن تعالىٰ أنَّ المالَ والبنينَ زينةُ الحياة الدُّنيا، والمقصودُ إدخالُ هذا الجزءِ تحت ذلك الكُلِّ[3].

ثم بيَّن تعالىٰ شأنَ ما كانوا يفتخرون مِن مُحسِّناتِ الدُّنيا بقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[4].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر المَبدأَ ونبَّه علىٰ زوالِه، وختَم بأنَّ المقصودَ منه الاختبارُ للرِّفعة بالثوابِ أو الضَّعَةِ بالعقاب، وكان الخزيُ والصَّغارُ أعظمَ شيءٍ تَرهَبُه النفوسُ الكبار، لا سيَّما إذا عظُمَ الجمعُ واشتدَّ الأمرُ، فكيف إذا انضمَّ إليه الفقرُ؟! فكيف إذا صاحَبهما الحَبْسُ؟! وكان يومُ الحشرِ يومًا يُجمَع فيه الخلائقُ، فهو بالحقيقةِ المشهودُ، وتَظهَر

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٦٨-٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٧).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٣٩).

فيه العظَمةُ فهو وحده المرهوبُ؛ عقَّب ذِكْرَ الجزاءِ ذِكْرَه؛ لأنَّه أعظمُ يومٍ يَظهَرُ فيه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[1].

فبعد أن بيَّن لهم تعرُّضَ ما هم فيه مِن نعيمٍ إلىٰ الزوالِ علىٰ وجه الموعظة، أعقَبه بالتذكيرِ بما بعد ذلك الزوالِ بتصوير حال البعثِ، وما يترقَّبُهم فيه مِن العقابِ علىٰ كفرهم به، وذلك مقابلةٌ لضدِّه المذكورِ في قولِه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما يؤُولُ إليه حالُ الدُّنيا مِن النَّفادِ، أعقَب ذلك بأوائلِ أحوال يوم القيامةِ، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾[3].

لمَّا بيَّن خَساسةَ الدُّنيا وشرَفَ القيامة، أردَفه بأحوالِ القيامةِ، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾، والمقصودُ منه الردُّ علىٰ المشركين الذين افتخَروا علىٰ فقراءِ المسلمين بكثرةِ الأموال والأعوان[4].

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه حَشْرَهم، وكان مِن المعلومِ أنَّه للعَرْضِ؛ ذكَر كيفيَّةَ ذلك العرضِ، فقال -بانيًا الفعلَ للمفعولِ علىٰ طريقة كلامِ القادرين، ولأنَّ المُخوَّفَ العرضُ، لا كونُه مِن معيَّنٍ-: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٤).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٨٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٩).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٧١).

جملةُ ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾؛ فهي في موضع الحالِ مِن الضمير المنصوب في (حَشَرْنَاهُمْ)؛ أي: حشرناهم وقد عُرِضوا؛ تنبيهًا علىٰ سرعةِ عَرْضِهم في حينِ حشرِهم[(١)].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ حَشْرَ الخَلْقِ، ذكَر كيفيةَ عرْضِهم، فقال: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[(٢)].

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

جملةُ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾؛ فهي في موضعِ الحالِ؛ أي: وقد وُضِع الكتابُ[(٣)].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾

ولمَّا ذكَر البعثَ، وختَمه بإحسانه بالعدلِ المثمِرِ لإعطاء كلِّ أحدٍ ما يستحِقُّه؛ أتبعه -بما له مِن الفضلِ- بابتداء الخَلْقِ الذي هو دليلُه، في سياقٍ مذكِّرٍ بوَلايته الموجِبة للإقبالِ عليه، وعداوةِ الشيطانِ الموجِبةِ للإدبارِ عنه، مبيِّنٍ لِما قابلوا به عَدْلَه فيهم وفي عدوِّهم مِن الظُّلم بفِعْلِهم؛ كما فعَل مِن التكبُّرِ علىٰ آدمَ عليه السلام بأصله، فتكبَّروا

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٧).

علىٰ فقراءِ المؤمنين بأصلِهم وأموالِهم وعشائرهم، فكان فِعْلُهم فِعْلَه سواءً، فكان قدوتَهم وهو عدوُّهم، ولم يَقتدوا بخيرِ خَلْقِه وهو وليُّهم، وهو أعرَفُ الناسِ به، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾؛ بتقديرِ: واذكُرْ إذ قلنا للملائكةِ؛ تفنُّنًا لغرَضِ الموعظة الذي سيقت له هذه الجُمَلُ؛ وهو التذكيرُ بعواقبِ اتباعِ الهوىٰ والإعراضِ عن الصالحات، وبمَداحِضِ الكبرياءِ والعُجْبِ، واحتقارِ الفضيلةِ، والابتهاجِ بالأعراض التي لا تكسبُ أصحابَها كمالًا نفسيًّا[2].

لمَّا أمَر نبيَّه ﷺ بمجالسة الفقراءِ، وكان أولئك المتكبِّرون قد تأنَّفوا عن مجالستِهم، وذكَروا للرسولِ ﷺ طَرْدَهم عنه؛ وذلك لِما جُبِلوا عليه مِن التكبُّرِ، والتكثُّرِ بالأموال والأولادِ وشرَفِ الأصل والنَّسب، وكان أولئك الفقراءُ بخلافهم في ذلك؛ ناسَب ذِكْرُ قِصَّةِ إبليسَ؛ بجامعِ ما اشترَكا فيه مِن التكبُّرِ والافتخار بالأصل الذي خُلِق منه، وهذا الذي ذكَروه في الارتباط هو ظاهرٌ بالنسبةِ للآيات السابقةِ قبْلَ ضَرْبِ المثلَينِ، وأمَّا أنَّه واضحٌ بالنِّسبةِ لِما بعد المثلَينِ فلا، والذي يَظهَرُ في ارتباط هذه الآيةِ بالآيةِ التي قبلها: هو أنَّه لمَّا ذكَر يومَ القيامةِ والحشرِ، وذكَر خوفَ المشركين ممَّا سُطِر في ذلك الكتابِ، وكان إبليسُ هو الذي حمَل المجرمين علىٰ معاصيهم واتخاذِ شركاءَ مع اللهِ؛ ناسَب ذِكْرُ إبليسَ والنهيِ عن اتخاذِ ذُرِّيَّته أولياءَ مِن دُونِ اللهِ؛ تبعيدًا عن المعاصي، وعن امتثال ما يوسوِسُ به[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٧٤-٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٨٩).

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ ﴾

ولمَّا كان الشَّريكُ لا يستأثرُ بفِعْلِ أمرٍ عظيم في المشترَكِ فيه مِن غير علمٍ لشريكِه به، قال -مُعلِّلًا للذَّمِّ على هذا الظُّلمِ بما يدلُّ على حقارتهم عن هذه الرُّتبةِ، عادلًا في أسلوبِ التكلُّمِ إلى التجريد عن مظهرِ العظَمةِ؛ لئلَّا يَتعنَّتَ مِن أهل الإشراك متعنِّتٌ لذلك-: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾(1).

تَتنزَّلُ هذه الجملةُ منزلةَ التعليل للجملتينِ اللتين قبلها؛ فإنَّهم لمَّا لم يَشهَدوا خَلْقَ السماوات والأرضِ، لم يكونوا شركاءَ لله في الخَلْقِ بطريق الأَوْلى، فلم يكونوا أحِقَّاءَ بأن يُعبَدوا؛ وهذا احتجاجٌ على المشركين بما يَعترفون به؛ فإنَّهم يعترفون بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بخَلْقِ السماوات والأرض، وخَلْقِ الموجودات(2).

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ عدم استحقاق إبليسَ وذريَّتِه للاتخاذِ المذكور في أنفسهم، بعد بيانِ الصَّوارفِ عن ذلك؛ مِن خَباثةِ الأصل، والفِسقِ، والعداوةِ(3).

﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢ ﴾

ولمَّا أقام البرهانَ القاطعَ على بُعْدِ رُتبتِهم عن المنزلة التي أحَلُّوهم بها مِن الشركِ، أتبَعه التَّعريفَ بأنَّهم مع عدَمِ نفعِهم لهم في الدُّنيا يَتخلَّون عنهم في الآخرةِ أحوَجَ ما

(1) نظم الدرر (١٢/ ٧٧).
(2) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٢).
(3) روح المعاني (٨/ ٢٧٩).

يكونون إليهم؛ تخييبًا لظنِّهم أنَّهم يُقرِّبونهم إلىٰ الله زُلْفَىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (١).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾، فيُقدَّر: واذكُرْ يومَ ﴿يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ﴾، أو علىٰ جملةِ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فالتَّقديرُ: ولا أشهَدتُ شركاءَهم جميعًا، ولا تنفعُهم شركاؤهم يومَ الحشر؛ فهو انتقالٌ مِن إبطالِ معبودية الشيطانِ والجنِّ إلىٰ إبطال إلهيَّةِ جميعِ الآلهة التي عبَدها دَهْماءُ المشركين، مع بيانِ ما يعتريهم مِن الخيبةِ واليأسِ يومئذٍ (٢).

ولمَّا ذكَر حالَ مَن أشرَك به في الدُّنيا، وأبطَل هذا الشِّركَ غايةَ الإبطال، وحكَم بجهلِ صاحبه وسَفَهِه؛ أخبَر عن حالهم مع شركائهم يومَ القيامة، وأنَّ اللهَ يقولُ لهم: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (٣).

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣ ﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه ما لهم مع شركائهم، ذكَر حالَهم في استمرار جهلِهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٤).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾؛ أي: جعلنا المَوبِقَ ورآه المجرمون؛ فذِكْرُ المجرمين إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ للدلالةِ علىٰ ما يفيده المجرمون مِن تلبُّسهم بما استحَقُّوا به عذابَ النارِ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٨٠).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٨٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٥-٣٤٦).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا كان الكلامُ في قوَّةِ أن يقالَ: صرَّفنا هذه الأخبارَ بما أشارت إليه مِن الأسرارِ الكِبارِ، فقامت دلائلُ الشريعة الجلائلُ، وأضاءت بها جواهرُ المعاني الزواهرُ؛ عطَف علىٰ ذلك: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(١).

عطفٌ علىٰ الجُمَل السابقةِ التي ضُربت فيها أمثالٌ مِن قولِه: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾، وقولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ولمَّا كان في ذلك لهم مَقنَعٌ، وما لهم منه مَدفَعٌ؛ عاد إلىٰ التنويهِ بهَدْيِ القرآن عودًا ناظرًا إلىٰ قولِه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، وقولِه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، فأشار لهم أنَّ هذه الأمثالَ التي قرَعت أسماعَهم هَدْيٌ مِن جملةِ هَدْيِ القرآن الذي تبرَّموا منه(٢).

لمَّا افتخَروا علىٰ فقراءِ المسلمين بكثرةِ أموالهم وأتباعهم، وبيَّن تعالىٰ بالوجوهِ الكثيرةِ أنَّ قولَهم فاسدٌ وشُبْهتَهم باطلةٌ، وذكَر فيه المثلَينِ المتقدِّمَينِ؛ قال بعده: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، وهو إشارةٌ إلىٰ ما سبَق، والتصريفُ يقتضي التكريرَ، والأمرُ كذلك؛ لأنَّه تعالىٰ أجاب عن شُبْهتِهم التي ذكَروها مِن وجوهٍ كثيرةٍ، ومع تلك الجواباتِ الشافيةِ والأمثلة المطابقةِ، فهؤلاء الكفارُ لا يتركون المجادلةَ الباطلةَ، فقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٨٦-٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٧٥).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن إعراضهم، بيَّن موجِبَه عندهم، فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ إلخ، ومعناها متصلٌ تمامَ الاتصالِ بمعنىٰ الجملة التي قبلها؛ بحيث لو عُطِفت عليها بفاءِ التفريعِ، لكان ذلك مقتضىٰ الظاهرِ، وتُعتبرُ جملةُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ معترضةً بَيْنَهما، لولا أنَّ في جَعْلِ هذه الجملةِ مستقلةً بالعطفِ اهتمامًا بمضمونِها في ذاته؛ بحيث يُعَدُّ تفريعُه علىٰ مضمونِ التي قبلها يَحيدُ به عن الموقعِ الجديرِ هو به في نفوسِ السامعين؛ إذ أُريدَ أن يكونَ حقيقةً مقرَّرةً في النفوس[(٢)].

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك ليس إلىٰ الرسولِ، إنَّما هو إلىٰ الإلهِ؛ بيَّنه بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾[(٣)].

بعد أن أشار إلىٰ جدالِهم في هُدَىٰ القرآنِ بما مهَّد له مِن قولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾، وأشار إلىٰ أنَّ الجدالَ فيه مجردُ مكابَرةٍ وعنادٍ، وأنَّه لا يحُفُّ

(١) نظم الدرر (١٢/ ٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٤٩).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٨٩).

بالقرآنِ ما يَمنَع مِن الإيمانِ به، كما لم يحُفَّ بالهُدىٰ الذي أرسَلَ إلىٰ الأُمَمِ ما يَمنَعُهم الإيمانَ به؛ أعقَب ذلك بأنَّ وظيفةَ الرُّسل التبليغُ بالبشارة والنِّذارةِ، لا التصدي للمجادلة؛ لأنَّها مجادَلةٌ لم يُقصَدْ منها الاسترشادُ؛ بل الغايةُ منها إبطالُ الحق(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

ولمَّا حكىٰ عنهم هذا الجدالَ والاستهزاءَ والضَّلالَ، وصَفهم بما يوجِبُ الخزيَ، فقال- عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فكانوا بذلك أظلَمَ الظالمين-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾(٢).

لمَّا بيَّن حالَهم مِن مجادلةِ الرُّسلِ لسُوء نيةٍ، ومِن استهزائهم بالإنذارِ، وعرَّض بحماقتِهم؛ أتبَع ذلك بأنَّه أشدُّ الظُّلمِ؛ وذلك لأنَّه ظُلْمُ المرءِ نفسَه، وهو أعجَبُ الظلمِ؛ فالذين ذُكِّروا ما هم في غفلةٍ عنه تذكيرًا بواسطةِ آيات اللهِ، أعرَضوا عن التأملِ فيها، مع أنَّها تُنذِرُهم بسُوءِ العاقبة، وشأنُ العاقلِ إذا سَمِع مثلَ ذلك أن يتأهَّبَ للتَّأمُّل وأخذِ الحذرِ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤).

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مقتضيًا لأخذِهم، عطَف علىٰ ما اقتضاه السِّياقُ ممَّا ذكَرتُه مِن العلَّةِ قولَه تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[1].

جرىٰ القرآنُ علىٰ عادتِه في تعقيبِ الترهيب بالترغيبِ والعكسِ، فلمَّا رماهم بقوارعِ التهديدِ والوعيدِ، عطَف علىٰ ذلك التعريضَ بالتذكيرِ بالمغفرةِ لعلَّهم يتفكرون في مَرْضاتِه، ثم التذكيرِ بأنَّه يَشمَلُ الخَلْقَ برحمته في حين الوعيدِ، فيؤخِّرُ ما توعَّدهم به إلىٰ حدٍّ معلومٍ؛ إمهالًا للناس لعلهم يَرجِعون عن ضَلالهم، ويَتدبَّرون فيما هم فيه مِن نِعم الله تعالىٰ، فلعلَّهم يشكرون، موجِّهًا الخطابَ إلىٰ النَّبيِّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، مفتتِحًا باستحضارِ الجلالةِ بعنوانِ الرُّبوبيةِ للنبيِّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ إيماءً إلىٰ أنَّ مضمونَ الخبَرِ تكريمٌ له[2].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه سُنَّتَه في القرونِ الماضية والأُمَمِ الخاليةِ، قال تعالىٰ- عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿ لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾، مُروِّعًا لهم بالإشارةِ إلىٰ ديارهم المصوِّرةِ لدمارِهم-: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٩٤).

بعد أن أُزيلَ غُرورُهم بتأخُّرِ العذاب، وأُبطِلَ ظنُّهم الإفلاتَ منه ببيانِ أنَّ ذلك إمهالٌ مِن أثرِ رحمة الله بخَلْقِه؛ ضرَب لهم المثَلَ في ذلك بحالِ أهل القُرىٰ السالفين، الذين أخَّر عنهم العذابَ مُدَّةً، ثم لم يَنجُوا منه بأخَرةٍ. فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾[1].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾

ولمَّا قدَّم الكلامَ علىٰ البعثِ، واستدَلَّ عليه بابتداء الخَلْقِ، ثم ذكَر بعضَ أحواله، ثم عقَّبه بما ضرَب لذلك وغيرِه مِن الأمثال، وصرَّف مِن وجوهِ الاستدلال، وختَم ذلك بأنَّه يُمهِلُ عند المَساءةِ؛ عقَّب ذلك بأنَّه كذلك يفعلُ عند المَسرَّةِ، فلكلِّ شيءٍ عنده كتابٌ، وكلُّ قضاءٍ بقَدَرٍ وحِسابٍ، فذكَر قِصَّةَ موسىٰ مع الخَضِرِ عليه السلام، وما اتفق له في طلَبِه، وجَعْلَه سبحانه له الحوتَ آيةً وموعدًا لِلقائه، ولو أراد سبحانه لقرَّب المدىٰ ولم يُحوِجْ إلىٰ عناءٍ، مع ما فيها مِن الخارقِ الدالِّ علىٰ البعثِ، ومِن الدليل علىٰ أنَّ مَن ثبَت فضلُه وعِلْمُه لا يجوز أن يَعترضَ عليه إلا مَن كان علىٰ ثقةٍ ممَّا يقولُه مِن ربِّه، ولا أن يُمتحَنَ، ومِن الإرشادِ إلىٰ ذمِّ الجدل بغير علمٍ، ووجوبِ الانقيادِ للحقِّ عند بيانه، وظهورِ برهانه، ومِن إرشادِ مَن استنكَف أن يجالسَ فقراءَ المؤمنين؛ بما اتفَق لموسىٰ عليه السلام مِن أنَّه- وهو كليمُ الله- اتبَع الخَضِرَ عليه السلام ليقتبِسَ مِن عِلْمِه، ومِن تبكيتِ اليهود بقولِهم لقُريشٍ لمَّا أمَروهم بسؤالِ النَّبيِّ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: إنْ لم يُخبِرْكم، فليس بنبيٍّ، المُوهِمِ للعرَبِ الذين لا يَعلَمون شيئًا أنَّ مِن شرطِ النَّبيِّ ألا يخفىٰ عليه شيءٌ، مع ما يَعلَمون مِن أنَّ موسىٰ عليه السلام خَفِيَ عليه جميعُ ما فعَله الخَضِرُ عليه السلام، وإلىٰ نحوِ هذا أشار الخَضِرُ عليه السلام بقولِه؛ إذ وقَع العصفورُ علىٰ

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٨).

حرف السفينة، ونقَر مِن البحر نَقْرةً أو نقرتَين: «ما نقَص عِلْمي وعِلْمُك يا موسىٰ مِن عِلْمِ اللهِ إلا كما نقَص هذا العصفورُ مِن البحر»[(١)]، وبإعلامِهم بما يَعلَمونه مِن أنَّ موسىٰ عليه السلام جعَل نفسَه تابعًا للخَضِر عليه السلام؛ تكذيبًا لهم في ادعائهم أنَّه ليس أحدٌ أعلىٰ مِن موسىٰ عليه السلام في وَصْفٍ مِن الأوصاف، وأنَّه لا ينبغي لأحدٍ اتباعُ غيره، ومِن جوابهم عمَّا لعلَّهم يقولون للعرب بَهتًا وحسَدًا: لو كان نبيًّا، ما قال: أُخبِركم غدًا، وتأخَّر عن ذلك، بما اتفق لموسىٰ في وعدِه الخَضِرَ عليه السلام بالصبر، وبما خَفِي عليه ممَّا اطَّلَع عليه الخَضِرُ عليه السلام، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾[(٢)].

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ قِصَّةِ خَلْقِ آدمَ وأمرِ اللهِ الملائكةَ بالسجود له، وما عرَض للشيطان مِن الكِبْرِ والاعتزاز بعنصرِه؛ جهلًا بأسبابِ الفضائل، ومكابَرةً في الاعترافِ بها، وحسَدًا في الشَّرف والفضل، فضرَب بذلك مثَلًا لأهلِ الضَّلالِ عبيدِ الهوىٰ والكِبْرِ والحسدِ؛ أعقَب تلك القِصَّةَ بقِصَّةٍ هي مثَلٌ في ضدِّها؛ لأنَّ تطلُّبَ ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيَه للظَّفرِ بمَن يُبلِّغُه الزيادةَ مِن الكمال: اعترافٌ للفاضل بفضيلتِه، وفي ذلك إبداءُ المقابلةِ بَيْنَ الخَلْقَين، وإقامةُ الحُجَّةِ علىٰ المماثلةِ والمخالفةِ بَيْنَ الفريقين: المؤمنين والكافرين، وفي خلالِ ذلك تعليمٌ وتنويهٌ بشأنِ العلمِ والهدىٰ، وتربيةٌ للمتقين[(٣)].

اعلَمْ أنَّ هذا ابتداءُ قِصَّةٍ ثالثةٍ ذكَرها اللهُ تعالىٰ في هذه السورةِ؛ وهي أنَّ موسىٰ عليه السلام ذهَب إلىٰ الخَضِرِ عليه السلام ليتعلمَ منه العلمَ، وهذا وإن كان كلامًا مستقلًّا في نفسه إلا أنَّه يُعِينَ علىٰ ما هو المقصودُ في القصتين السابقتين، أمَّا نفعُ هذه القِصَّةِ في الردِّ علىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٩٤-٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٩).

الكفار الذين افتخروا على فقراءِ المسلمين بكثرةِ الأموال والأنصارِ، فهو أنَّ موسىٰ عليه السلام - مع كثرةِ عِلْمِه وعمَلِه، وعلوِّ منصبِه، واستجماع موجِباتِ الشَّرف التامِّ في حقه- ذهَب إلىٰ الخَضِر لطلب العلمِ، وتواضَع له؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ التواضعَ خيرٌ مِن التكبُّرِ[(١)].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

وما أنسَبَ التوقيتَ بمَجمَعِ بَحْرَيِ الماءِ بمَجمَعِ بحرَيِ العِلْمِ، وتزوُّدَهما بالنونِ الذي قرَنه اللهُ بالقلمِ وما يسطُرون، وعينِ الحياةِ؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوبِ، فسارَا وتزوَّدا حوتًا مشويًّا في مِكتَلٍ كما أُمِر به، فكانا يأكلان منه إلىٰ أن بلَغَا المَجمَعَ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾[(٢)].

الفاءُ للتفريعِ والفصيحةُ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ؛ أي: فسارا حتىٰ بلَغا مَجمَعَ البحرينِ، وضميرُ ﴿بَيْنِهِمَا﴾ عائدٌ إلىٰ البحرين؛ أي: محَلًّا يَجمَعُ بَيْنَ البحرين[(٣)].

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾

وكأنَّ المَجمَعَ كان ممتدًّا، فظنَّ موسىٰ عليه السلام أنَّ المطلوبَ أمامَه، أو ظنَّ أنَّ المرادَ مَجمَعٌ آخَرُ، فسار ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٧٧).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٩٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٥).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٠١).

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما كان عن أمرِه؟ فقيل: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾[1].

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال موسىٰ حينئذ؟ فقيل: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[2].

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ جوابٌ عن كلامِه؛ ولذلك فُصِلتْ؛ كما بيَّنَّاه غيرَ مرَّةٍ[3].

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

فاستمرَّا يقُصَّانِ حتىٰ انتهيا إلىٰ موضعِ فَقْدِ الحوتِ، ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٩٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٠٥).

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ ﴾

ثم أورَد ﷻ القِصَّةَ علىٰ طريقِ الاستئنافِ؛ علىٰ تقديرِ سؤالِ سائلٍ عن كلِّ كلامٍ يُرشِدُ إليه ما قبله؛ وذلك أنَّه مِن المعلومِ أنَّ الطالبَ للشَّخص إذا لَقِيَه كلَّمه، لكن لا يُعرَف عينُ ذلك الكلامِ، فقال لِمَن كأنَّه سأل عن ذلك: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾[١].

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ في الكلامِ محذوفٌ؛ تقديرُه: فلمَّا التقَيا وتراجَعا الكلامَ، وهو الذي ورَد في الحديثِ الصحيحِ[٢]: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾، وفي هذا دليلٌ علىٰ التواضعِ للعالِمِ، وفي هذه القِصَّةِ دليلٌ علىٰ الحثِّ علىٰ الرحلةِ في طلبِ العلمِ، وعلىٰ حُسْنِ التلطف والاستنزالِ والأدب في طلب العلمِ[٣].

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن السياق؛ كأنَّه قيل: فما جرىٰ بَيْنَهما مِن الكلام؟ فقيل: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ عليه السلام: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾[٤].

ثم قَصَّ اللهُ سبحانه علينا ما دار بَيْنَ موسىٰ والخَضِر بعد اجتماعِهما، فقال: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٠٥).

(٤) روح المعاني (٨/ ٣١١).

(٥) فتح القدير (٣/ ٣٥٤).

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ ﴾

ولمَّا أتمَّ العبارةَ عن السُّؤالِ، استأنف جوابَه له بقولِه تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[1].

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ ﴾

ولمَّا كان المَقامُ صعبًا جدًّا؛ لأنَّه بالنسبة إلىٰ أوامرِ اللهِ تعالىٰ؛ بيَّنه علىٰ وجهٍ أبلَغَ مِن نفيِ الأخصِّ، وهو الصبرُ البليغُ؛ بالتعجيبِ مِن مُطلَقِ الصبرِ، معتذِرًا عن موسىٰ في الإنكارِ، وعن نفسِه في الفعلِ؛ بأنَّ ذلك بالنسبةِ إلىٰ الظاهر والباطن، فقال- عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فكيف تتَّبعني الاتباعَ البليغَ؟-: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[2].

جملةُ ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ في موضعِ الحالِ مِن اسم «إنَّ»، أو مِن ضميرِ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾؛ فالواوُ واوُ الحال، وليست واوَ العطفِ؛ لأنَّ شأنَ هذه الجملةِ ألا تُعطَفَ علىٰ التي قبلها؛ لأنَّ بينهما كمالَ الاتصالِ؛ إذ الثانيةُ كالعلَّة للأولىٰ، وإنَّما أوثِرَ مجيئُها في صورةِ الجملةِ الحالية دُونَ أن تُفصَلَ عن الجملة الأُولىٰ فتقعَ علةً -مع أنَّ التعليلَ هو المرادُ- للتنبيهِ علىٰ أنَّ مضمونَها علةٌ ملازِمةٌ لمضمون التي قبلها؛ إذ هي حالٌ مِن المسنَدِ إليه في الجملة قبلها[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٠٨).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٧٢).

ثم أكَّد ذلك مشيرًا إلى علَّة عدمِ الاستطاعة، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[١].

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال موسىٰ حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

فأذِن له الخَضِرُ في الاتباعِ، و﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فحينئذٍ قال له الخَضِرُ: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[٢].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا تشارَطَا وتراضَيَا علىٰ الشَّرطِ، سبَّب قولَه تعالىٰ: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[٣].

فعقَّب تلك المحاورةَ أنَّهما انطلَقا[٤].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٥٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٨١).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١١٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٧٤).

اعلَمْ أنَّ موسىٰ وذلك العالِمَ لمَّا تشارَطا علىٰ الشرطِ المذكورِ وسارَا، فانتهَيا إلىٰ موضعٍ احتاجَا فيه إلىٰ ركوبِ السفينة فركِباها، وأقدَمَ ذلك العالِمُ علىٰ خَرْقِ السفينة[١].

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾

استفهامُ تقريرٍ وتعريضٌ باللَّوم علىٰ عدمِ الوفاءِ بما التزَم[٢].

فكأنَّه قيل: فما قال موسىٰ حينئذ؟ فقيل: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾.

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

فلمَّا ذكَّره بما قال له عند الشرطِ، ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾[٣].

اعتذَر موسىٰ بالنسيانِ، وكان قد نَسِي التزامَه بما غَشِي ذهنَه مِن مشاهدةِ ما يُنكِره، والنهيُ مستعمَلٌ في التعطُّفِ والتماسِ عدم المؤاخَذة؛ لأنَّه قد يؤاخِذه علىٰ النسيانِ مؤاخَذةَ مَن لا يصلُحُ للمصاحَبةِ؛ لِما ينشأُ عن النِّسيان مِن خطَرٍ؛ فالحزامةُ الاحتراز مِن صُحْبةِ مَن يطرأ عليه النسيانُ؛ ولذلك بُنِي كلامُ موسىٰ علىٰ طلبِ عدمِ المؤاخَذةِ بالنِّسيان، ولم يُبْنَ علىٰ الاعتذار بالنسيان؛ كأنَّه رأىٰ نفسَه محقوقًا بالمؤاخذةِ، فكان كلامًا بديعَ النَّسيج في الاعتذار[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٧٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٧٦).

لمَّا ذكَّره الخَضِرُ بما سبَق له مِن نفيِ استطاعتِه الصبرَ لِما يَرىٰ، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[1].

فعند هذا اعتذَر موسىٰ عليه السلام بقولِه: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[2].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

لمَّا ذكَّره كَفَّ عنه لمَّا تذكَّر - بثناء الله عليه - أنَّه لا يفعل باطلًا، ولم يحصِّلِ الصبرَ البليغَ الذي في نفسِ الخَضِر بالسُّكوتِ في أوَّلِ الأمرِ وآخرِه، ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾[3].

﴿فَانطَلَقَا﴾ وقَع في الكلامِ حذفٌ؛ تقديرُه: فخرَجا مِن السفينةِ ولم يقَعْ غرَقٌ بأهلها، ﴿فَانطَلَقَا﴾، فبينما هما يمشيانِ علىٰ الساحلِ إذ أبصَرَ الخَضِرُ غلامًا يلعبُ مع الصِّبيان[4].

﴿فَانطَلَقَا﴾ الفاءُ فصيحةٌ؛ أي: فقَبِل عُذْرَه، فخرَجا مِن السفينة، فانطلَقا يمشيانِ علىٰ الساحلِ[5].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٠٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١١٢).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٠٧).

(٥) روح المعاني (٨/ ٣١٨).

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه ثانيةً، ﴿ قَالَ ﴾ الخَضِرُ عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(١).

كان جوابُ الخَضِرِ هذا علىٰ نسَقِ جوابه السابقِ؛ إلا أنَّه زاد ما حُكِي في الآيةِ بكلمةِ ﴿لَّكَ﴾، وهو تصريحٌ بمتعلِّقِ فعلِ القول، وإذا كان المَقُولُ له معلومًا مِن مقامِ الخطابِ، كان في التَّصريح بمتعلِّق فعلِ القولِ تحقيقٌ لوقوع القولِ، وتثبيتٌ له وتقويةٌ، والدَّاعي لذلك أنَّه أهمَل العملَ(٢).

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا أفاقَ موسىٰ عليه السلام بتذكُّرِ ما حصَل مِن فَرْطِ الوَجْدِ لأمر الله، فذكَر أنَّه ما تَبِعه إلا بأمر اللهِ؛ قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾(٣).

ثم لم يعتذِرْ موسىٰ عليه السلام بالنِّسيانِ: إمَّا لأنَّه لم يكُنْ نَسِي، ولكنَّه رجَّح تغييرَ المنكَرِ العظيمِ -وهو قتلُ النفس بدون موجِبٍ- علىٰ واجبِ الوفاء بالالتزام، وإما لأنَّه نَسِي وأعرَض عن الاعتذارِ بالنسيانِ؛ لسماجةِ تكرُّرِ الاعتذار به، وعلىٰ الاحتمالينِ فقد عدَل إلىٰ المبادرةِ باشتراطِ ما تطمئنُّ إليه نفسُ صاحبه؛ بأنَّه إن عاد للسؤالِ الذي لا يبتغيه صاحبُه، فقد جعَل له ألا يصاحِبَه بعده، وأنصَف موسىٰ عليه السلام إذ جعَل لصاحبِه العُذْرَ في تَرْكِ مصاحَبتِه في الثالثة؛ تجنُّبًا لإحراجِه(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١١٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٦).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾

فعقَّب تلك المحاورةَ أنَّهما انطلَقا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾

فلم يعترِضْ عليه موسىٰ في هذه المرَّةِ؛ لعدمِ ما يُنكَرُ فيها، وإنَّما ساق ما يَترتَّب عليها مِن ثمرتِها مَساقَ العَرْضِ والمشورة؛ غيرَ أنَّه يتضمَّنُ السؤالَ؛ فتسبَّب عن ذلك أنْ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾(١).

المشارُ إليه بلفظ ﴿هَٰذَا﴾ مقدَّرٌ في الذهنِ، حاصلٌ مِن اشتراطِ موسىٰ علىٰ نفسِه أنَّه إن سأله عن شيءٍ بعد سؤالِه الثاني، فقد انقطعتِ الصُّحْبةُ بينهما؛ أي: هذا الذي حصَل الآن هو فِراقُ بَيْنِنا(٢).

قد شرَط أنَّه إن سأله بعد ذلك سؤالًا آخرَ يحصُلُ الفِراقُ؛ حيث قال: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، فلمَّا ذكَر هذا السؤالَ فارَقه ذلك العالِمُ، وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٨٩).

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ شدَّةُ استشرافِ موسىٰ عليه السلام إلىٰ الوقوفِ في باطنِ هذه الأمور، قال مجيبًا له عن هذا السؤالِ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ ذلك العالِمَ أجاب عن المسألةِ الأُولىٰ بقولِه: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾(٢).

ثم أخَذ الخَضِرُ في تفسيرِ ما أشكَلَ أمرُه علىٰ موسىٰ، وما كان أُنكِر ظاهرُه، وقد أظهَرَ اللهُ الخَضِرَ عليه السلام علىٰ باطنِه، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾(٣).

﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ ﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن الغَصْبِ والمسكَنةِ سببًا لفعلِه، قدَّمها علىٰ الغصبِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ أقوىٰ السَّببَينِ الحاملَينِ علىٰ فعلِه الرأفةُ بالمساكينِ، ﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴾(٤).

ثم أجابه عن المسألةِ الثانيةِ بقولِه: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١١٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٩٠).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥١-٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٢٠).

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾

ولمَّا ذكَر ما يَلزمُ علىٰ تقديرِ بقائه مِن الفسادِ، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[1].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾

أمَّا قضيَّةُ الجدارِ فالخَضِرُ تصرَّف في شأنها عن إرادةِ اللهِ اللُّطْفَ باليتيمَينِ؛ جزاءً لأبيهما علىٰ صلاحِه؛ إذ عَلِم اللهُ أنَّ أباهما كان يُهِمُّه أمرُ عيشِهما بعده، وكان قد أودَع تحتَ الجدارِ مالًا، ولعلَّه سأل اللهَ أن يُلهِمَ ولدَيْهِ عند بلوغِ أشُدِّهما أن يَبحَثا عن مَدفَنِ الكَنْزِ تحت الجدار، بقصدٍ أو بمصادفةٍ، فلو سقَط الجدارُ قبل بلوغهما، لتناولت الأيدي مكانَه بالحفرِ ونحوِه، فعثَر عليه عاثرٌ، فذلك أيضًا لُطْفٌ خارقٌ للعادة، وقد أسنَد الإرادةَ في قِصَّةِ الجدار إلىٰ الله تعالىٰ دُونَ القصتينِ السابقتين؛ لأنَّ العملَ فيهما كان مِن شأنه أن يسعىٰ إليه كلُّ مَن يقفُ علىٰ سرِّه؛ لأنَّ فيهما دَفْعَ فسادٍ عن الناس؛ بخلاف قِصَّة الجدارِ، فتلك كرامةٌ مِن الله لأبي الغلامينِ[2].

ثم أجابه عن المسألةِ الثالثة بقولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾

ولمَّا فرَغ مِن هذه القِصَّة التي حاصلُها أنَّها طوافٌ في الأرض لطلب العلمِ، عقَّبها بقِصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطلبِ الجهاد، وقدَّم الأُولىٰ إشارةً إلىٰ علوِّ درجةِ العلم؛ لأنَّه أساسُ كلِّ سعادةٍ، وقِوَامُ كلِّ أمرٍ، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾[1].

افتتاحُ هذه القِصَّةِ بـ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّها ممَّا نزَلت السورةُ للجواب عنه؛ كما كان الابتداءُ بقِصَّةِ أصحاب الكهف اقتضابًا؛ تنبيهًا علىٰ مِثْلِ ذلك[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو القِصَّةُ الرابعةُ مِن القِصص المذكورة في هذه السورةِ[3].

لمَّا أجاب سبحانه عن سؤالينِ مِن سؤالاتِ اليهود، وانتهىٰ الكلامُ إلىٰ حيث انتهىٰ؛ شرَع سبحانه في السؤالِ الثالث والجوابِ عنه[4].

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾

ولمَّا كانت قصَّتُه مِن أدلِّ دليلٍ علىٰ عظمةِ الله، جلَّاها في ذلك المظهرِ، فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾[5].

ثم شرَع سبحانه في بيانِ ما أمَر به رسولَه أن يقولَه لهم؛ مِن أنَّه سيتلو عليهم منه ذِكْرًا، فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٩٣).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٦٢).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ١٢٩).

(٦) فتح القدير (٣/ ٣٦٣).

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾

والفاءُ فصيحةٌ؛ والتَّقديرُ: فأراد بلوغَ المغرِبِ، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(١).

لمَّا أعطاه تعالىٰ مِن كلِّ شيءٍ سببَه، فإذا أراد شيئًا أتبع سببًا يوصلُه إليه، ويقرِّبُه منه؛ قال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ٨٦﴾

واستمرَّ مُتْبِعًا له، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾(٣).

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧﴾

ثم بيَّن تعالىٰ عَدْلَه وإنصافه ليُحتذىٰ حَذْوُه بقولِه سبحانه: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾(٤).

فلمَّا خيَّره اللهُ بَيْنَ أن يعذِّبهم وبَيْنَ أن يتركَهم، أجاب ذو القَرْنينِ ربَّه بما أخبَر تعالىٰ به: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨﴾

ثم ذكَر قسيمَه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

---

(١) روح المعاني (٨/ ٣٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٣٠).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٦٥).

📖 ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ 📖

لمَّا وصَل إلىٰ مغرِبِ الشمسِ، كَرَّ راجعًا قاصدًا مَطلِعَها، مُتبِعًا للأسبابِ التي أعطاه اللهُ(١).

📖 ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ 📖

لمَّا بيَّن أولًا أنَّه قصَد أقرَبَ الأماكن المسكونةِ مِن مغرِبِ الشمسِ، أتبَعه ببيانِ أنَّه قصَد أقربَ الأماكنِ المسكونة مِن مَطلِعِ الشمسِ، فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه وجَد الشمسَ تطلُعُ علىٰ قومٍ لم نَجعَلْ لهم مِن دُونِها سِتْرًا(٢).

واستمَرَّ في هذا السببِ لا يَمَلُّ، ولا تَغلِبُه أُمَّةٌ مرَّ عليها، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴾(٣).

📖 ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ﴿٩١﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان أمرُه مُستغرَبًا في نفسِه، وفي الاطلاعِ عليه- لا سيَّما عند القُرْبِ-؛ قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ﴾(٤).

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكافُ للتشبيه، والمشبَّهُ به شيءٌ تضمَّنه الكلامُ السابقُ بلفظِه أو معناه(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٨٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٣٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩).

ثم كان أمرُه فيهم كأمرِه في أهل المغرب: مِن التخييرِ، والاختيارِ؛ فلذلك قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾.

﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾

لمَّا وصَل إلىٰ مَشرِقِ الشمس، كَرَّ قاصدًا للشَّمالِ، ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ ﴾

فلمَّا أراد ناحيةَ السدِّ مَخرَجَ يأجوجَ ومأجوجَ مِن جهة الشَّمالِ، واستمرَّ أخذًا في الأسبابِ، فبلَغ السدَّ، قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾[1].

لمَّا بلَغ المشرقَ والمغربَ، أتبعَ سببًا آخرَ وسلَك الطريقَ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾[2].

﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ ﴾

جملةُ ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ للمحاوَرةِ، وقد بيَّنَّا في غيرِ موضعٍ أنَّ جُمَلَ حكايةِ القول في المحاوَرات لا تقترنُ بحرف العطف[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٣٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢).

فاشتكَوا إليه ضررَ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾(1).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾

فأجابهم ذو القَرْنَينِ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

فكأنَّه قيل: فما قال ذو القَرْنَينِ حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾

ثم فسَّر الإعانةَ بالقوَّةِ، فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾(2).

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾

ففعَلوا ذلك، فاختلَط والتصَق بعضُه ببعضٍ، وصار جبلًا صَلْدًا، ثم قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾(3).

فاستحكَم السدُّ استحكامًا هائلًا، وامتنَع مَن وراءَه مِن الناس مِن ضررِ يأجوجَ ومأجوجَ، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾(4).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٨٦).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٢٧).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٣٨).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٤٨٦).

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

فكأنَّه قيل: فما قال حينَ أفرَغه؟ قيل: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[(١)].

جملةُ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه لمَّا آذَن الكلامُ بانتهاءِ حكايةِ وَصْفِ الرَّدْمِ، كان ذلك مثيرًا سؤالَ مَن يسألُ: ماذا صدَر مِن ذي القَرْنَينِ حين أتمَّ هذا العملَ العظيمَ؟ فيُجاب بجملةِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[(٢)].

فلمَّا أكمَلَ بناءَ السدِّ، واستوىٰ واستحكَم؛ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[(٣)].

فلمَّا فعَل هذا الفعلَ الجميلَ، والأثرَ الجليلَ؛ أضاف النِّعْمةَ إلىٰ مُولِيها ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[(٤)].

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ ما سألوا عنه علىٰ أحسَن وجهٍ، في أبلَغِ سياقٍ، وأبدَعِ تناسبٍ، وأدرَج في خلاله ما أدرَج مِن التذكيرِ والوعظ، والأمر والنهيِ، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتبكيتِ للكاتمين لِما عندهم مِن العِلْمِ، الناكبين عمَّا استبان لهم مِن الطريقِ اللاحِبِ[(٥)] والمنهجِ الواضحِ؛ صُنْعَ القادرِ الحكيمِ الذي لا يستخِفُّه ضَجَرٌ فيَستعجِلَ، ولا يَعِيبُه أمرٌ فيَستمهِلَ، وختَمه بما هو عِلْمٌ عظيمٌ للساعة: ذكَر ما يكونُ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٢٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٤٨٦).

(٥) أي: الواسع الذي لا ينقطع.

إذ ذاك وما يكونُ بعده، إلىٰ حصولِ كلٍّ مِن الفريقين في دارِه ومحَلِّ استقراره، ولمَّا كان ذلك أمرًا عظيمًا، دلَّ عليه بالنونِ، فقال- عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فقد بانَ أمرُ ذي القَرْنَين أيَّ بيانٍ، وصدَق في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ فإنَّه إذا جاء وَعْدُنا جعَلناه بقُدْرتِنا التي نؤتيها ليأجوجَ ومأجوجَ دَكَّاءَ، فأخرَجْناهم علىٰ الناسِ بعد خروجِ الدجَّالِ-: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[(١)].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

ثم أخبَر عمَّا يفعلُه بالكفارِ يومَ القيامةِ، فقال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

ثم وصَفهم بما أوجَب سَجْنَهم فيها، وتجهُّمَها لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[(٢)].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

ثم عطَف علىٰ ما أفهَمَه ذلك قولَه- مُوبِّخًا لهم ومُبكِّتًا-: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٤٣-١٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٤٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٤٥-١٤٦).

أعقَب وَصْفَ حرمانِهم الانتفاعَ بدلائلِ المشاهَداتِ علىٰ وَحْدانيةِ اللهِ، وإعراضِهم عن سماعِ الآياتِ بتفريعِ الإنكارِ لاتخاذِهم أولياءَ مِن دُونِ اللهِ- يزعُمونها نافعةً لهم تنصُرُهم- تفريعَ الإنكارِ علىٰ صِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾؛ لأنَّ حِسْبانَهم ذلك نشأ عن كونِ أعينِهم في غطاءٍ، وكونِهم لا يستطيعون سَمْعًا(١).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾

ولمَّا تبيَّن بذلك الذي لا مِرْيةَ فيه أنَّهم خَسِروا خَسارةً لا رِبحَ معها، وخاب ما كانوا يؤمِّلون؛ أمَره أن يُنبِّهَهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾(٢).

اعتراضٌ باستئنافٍ ابتدائيٍّ أثاره مضمونُ جملةِ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلخ؛ فإنَّهم لمَّا اتخَذوا أولياءَ مَن ليسوا ينفعونهم، فاختاروا الأصنامَ، وعبَدوها، وتقرَّبوا إليها بما أمكَنهم مِن القُرَبِ؛ اغترارًا بأنَّها تَدفَعُ عنهم -وهي لا تُغنِي عنهم شيئًا-، فكان عمَلُهم خاسرًا، وسعيُهم باطلًا(٣).

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

ثم وصَفهم بضدِّ ما يدَّعُونه لأنفسِهم مِن نجاحِ السَّعي، وإحسانِ الصُّنْعِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٣).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٤٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٥).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٤٧).

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ بدلٌ مِن ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾، وفي هذا الإطنابِ زيادةُ التشويقِ إلىٰ معرفة هؤلاء الأخسَرِينَ؛ حيث أجرىٰ عليهم مِن الأوصافِ ما يَزيدُ السامعَ حرصًا علىٰ معرفةِ الموصوفين بتلك الأوصافِ والأحوالِ[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾

ولمَّا كانوا يُنكِرون أنَّهم علىٰ ذلك؛ لملازمتِهم لكثيرٍ مِن محاسنِ الأعمالِ البعيدة عن الضَّلال؛ بيَّن لهم السَّببَ في بطلانِ سعيِهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[٢].

جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ بعد قولِه: ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُم﴾، وجيء باسمِ الإشارةِ لتمييزِهم أكمَلَ تمييزٍ؛ لئلا يَلتبسوا بغيرهم[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن صُنعَهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مِن جَنابِه تعالىٰ، مسُوقٌ لتكميلِ تعريف الأخسَرِين، وتبيينِ خُسْرانِهم، وضَلالِ سعيِهم، وتعيينِهم[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٦).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٤٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٠١).
(٥) روح المعاني (٨/ ٣٦٨).

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾

ولمَّا كان هذا السِّياقُ في الدلالة على أنَّ لهم جهنَّمَ أوضحَ مِن الشَّمسِ، قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[(١)].

ثم بيَّن مَآلَ كفرِهم وسائرِ معاصيهم إثرَ بيانِ أعمالِهم المُحبَطةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾

ولمَّا بيَّن ما لأحدِ قِسْمَيْ أهل الجمع تنفيرًا عنهم، بيَّن ما للآخرِ؛ على تقديرِ الجوابِ لسؤالٍ تقتضيه الحالُ؛ ترغيبًا في اتباعِهم والاقتداءِ بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾[(٢)].

هذا مقابلُ قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا ١٠٢﴾؛ على عادةِ القرآنِ في ذِكْرِ البشارةِ بعد الإنذار، وتأكيدُ الجملة للاهتمام بها؛ لأنَّها جاءت في مقابلةِ جملةِ ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، وهي مؤكَّدةٌ كي لا يظُنَّ ظانٌّ أنَّ جزاءَ المؤمنين غيرُ مهتمٍّ بتأكيدِه، مع ما في التأكيدينِ مِن تقويةِ الإنذارِ، وتقويةِ البشارةِ[(٣)].

لمَّا ذكَر تعالى ما أعَدَّ للكافرين، ذكَر ما أعَدَّ للمؤمنين[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٤٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٩).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٣٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

ثم ذكر مدة بقائهم فيها، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

ولمَّا تمَّ الجوابُ عن أسئلتهم علىٰ أحسَنِ الوجوه، مُخلَّلًا بما تَراه مِن الحُجَجِ البيِّنةِ والنفائسِ الملزِمةِ لهم بفصلِ النِّزاعِ، وأتبَع ذلك بقصِّ الأمرِ الذي بإغفاله تجرَّؤوا علىٰ الكفرِ - وهو أمرُ البعث - إلىٰ أن ختَمه بما يقتضي أنَّ معلوماتِه لا تُحَدُّ؛ لأنَّ مقدوراتِه في تنعيمِ أهل الجَنَّةِ لا آخِرَ لها فلا تُعَدُّ، وكان ربما قال قائلٌ: ما له لا يَزيد ذلك شرحًا؟! قال تعالىٰ آمِرًا بالجوابِ عن ذلك كلِّه، مُعلِمًا لهم بأنَّهم لا يمكنُهم الوقوفُ علىٰ تمامِ شرحِ شيءٍ مِن معلوماته، وآخرِ استفصالِ شيءٍ مِن مقدوراتِه؛ قطعًا لهم عن السؤالِ، وتقريبًا إلىٰ أفهامِهم بضربٍ مِن المثال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[1].

لمَّا ابتُدئت هذه السورةُ بالتنويهِ بشأن القرآن، ثم أُفيضَ فيها مِن أفانينِ الإرشادِ والإنذار والوعدِ والوعيد، وذُكِر فيها مِن أحسَنِ القَصصِ ما فيه عِبْرةٌ وموعظةٌ، وما هو خفيٌّ مِن أحوال الأُمَم؛ حُوِّل الكلامُ إلىٰ الإيذانِ بأنَّ كلَّ ذلك قليلٌ مِن عظيم عِلْمِ الله تعالىٰ؛ فهذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو انتقالٌ إلىٰ التنويه بعلم الله تعالىٰ، مُفيضِ العِلْمِ علىٰ رسوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ لأنَّ المشركين لمَّا سألوه عن

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٥٠-١٥١).

أشياءَ يظنُّونها مفحِمةً للرسول، وأنْ لا قِبَلَ له بعِلْمِها؛ علَّمه اللهُ إياها، وأخبَر عنها أصدَقَ خبرٍ، وبيَّنها بأقصىٰ ما تَقبَلُه أفهامُهم، وبما يقصُرُ عنه عِلْمُ الذين أَغْرَوُا المشركين بالسؤالِ عنها، وكان آخِرَها خبرُ ذي القَرْنَين؛ أتبَع ذلك بما يُعلَمُ منه سَعةُ علمِ الله تعالىٰ، وسَعةُ ما يجري علىٰ وَفْقِ علمه(١).

لمَّا ذكَر في هذه السورةِ أنواعَ الدلائل والبيِّنات، وشرَح أقاصيصَ الأوَّلين؛ نبَّه علىٰ كمالِ حالِ القرآن، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

ولمَّا كانوا ربما قالوا: ما لك لا تحدِّثُنا مِن هذه الكلماتِ بكلِّ ما نسألك عنه حيثُما سألناك؟ وكانوا قد استنكَروا كونَ النَّبيِّ بَشَرًا، وجوَّزوا كونَ الإلهِ حَجَرًا، وغيَّوْا(٣) إيمانَهم به بأمورٍ سألوه في الإتيانِ بها، وكان قد ثبَت بإجابتِهم عن المسائل علىٰ هذا الوجهِ أنَّه رسولٌ؛ أمَره سبحانه أن يُجيبَهم عن ذلك كلِّه بما يرُدُّ عليهم غَلَطَهم، وَيفضَحُ شُبَهَهم؛ إرشادًا لهم إلىٰ أهمِّ ما يَعنِيهم مِن الحرفِ الذي النزاعُ كلُّه دائرٌ عليه؛ وهو التوحيدُ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٠٣).

(٣) أي: جعلوها غاية.

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٥٣).

استئنافٌ ثانٍ، انتُقل به مِن التنويهِ بسَعة علم الله تعالىٰ، وأنَّه لا يُعجِزُه أن يوحيَ إلىٰ رسوله بعِلْمِ كلِّ ما يُسألُ عن الإخبار به، إلىٰ إعلامِهم بأنَّ الرسولَ لم يُبعَثْ للإخبار عن الحوادثِ الماضية والقرونِ الخالية، ولا أنَّ مِن مقتضىٰ الرسالةِ أن يُحيطَ عِلْمُ الرسول بالأشياءِ، فيَتصدىٰ للإجابة عن أسئلةٍ تُلقَىٰ إليه، ولكنَّه بَشَرٌ، عِلْمُه كعلم البشرِ، أوحىٰ اللهُ إليه بما شاء إبلاغَه عبادَه: مِن التوحيد، والشريعة[1].

ثم أمَر سبحانه نبيَّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن يسلُكَ مَسلَكَ التَّواضع، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[2].

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٥٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٧٥).

سورة مريم

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾

ولمَّا قدَّم تشريفَه بالذِّكر والرحمة والاختصاصِ بالإضافةِ إليه، فدلَّ ذلك على كمالِ القُرْبِ؛ قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[(١)].

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ظرفٌ لـ﴿رَحْمَتِ﴾؛ أي: رحمةِ اللهِ إيَّاه في ذلك الوقتِ، أو بدلٌ مِن ﴿ذِكْرُ﴾؛ أي: اذكُرْ ذلك الوقتَ[(٢)].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾

فكأنَّه قيل: ما ذلك النِّداء؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[(٣)].

جملةُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ مبيِّنةٌ لجملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، وهي وما بعدها تمهيدٌ للمقصود مِن الدعاءِ؛ وهو قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، وإنَّما كان ذلك تمهيدًا لِما يتضمَّنُه مِن اضطراره لسؤال الولدِ، واللهُ يجيب المضطرَّ إذا دعاه، فليس سؤالُه الولدَ سؤالَ توسُّعٍ لمجرد تمتُّعٍ أو فخرٍ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٦٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٦٢).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٦٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٦٣).

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾

ثم عطف على ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ قولَه: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾[1].

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ برفعِ الفعلينِ صفةٌ للوليِّ، فإن كان طلَبَ الولدَ، فوَصْفُه بأن تكونَ الإجابةُ في حياتِه حتى يرثَه؛ لئلا تكونَ الإجابةُ في الولد، لكن يُحرَمُه، فلا يحصُلُ ما قصَده[2].

قولُه: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ صفةٌ لـ ﴿وَلِيًّا﴾؛ كما هو المتبادِرُ مِن الجملة الواقعةِ بعد النَّكِرات[3].

ثم ذكَر السببَ الذي لأجلِه سأل الولدَ: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

لمَّا ختَم دعاءه بقولِه: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، قيل في جوابِ مَن كأنَّه قال: ماذا قال له ربُّه الذي أحسَن الظنَّ به؟ قال: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[4].

ثم بيَّن تعالى استجابةَ دعاءِ زكريا بقولِه سبحانه: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٤١).

(٣) روح المعاني (٨/ ٣٨٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٧٤).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٨٦).

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ ﴾

فكأنَّه قيل: ما قال في جوابِ هذه البشارةِ العُظْمىٰ؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾(١).

جملةُ ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ جوابٌ للبشارةِ(٢).

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ ﴾

فُصِلتْ جملةُ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾؛ لأنَّها جرَتْ علىٰ طريقة المحاوَرةِ، وهي جوابٌ عن تعجُّبِه، والمقصودُ منه إبطالُ التَّعجُّب الذي في قولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾(٣).

فأجابه اللهُ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ ﴾

ثم قيل جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما قال بعد عِلْمِه بذلك؟: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٧٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٧١).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٧٧).

أراد نصبَ علامةٍ علىٰ وقوع الحَمْلِ بالغلام؛ لأنَّ البشارةَ لم تعيِّنْ زمنًا، وقد يتأخرُ الموعودُ به لحِكْمةٍ، فأراد زكريا أن يَعلَمَ وقتَ الموعود به، وفي هذا الاستعجالِ تعريضٌ بطلبِ المبادرة به؛ ولذلك حُذِف متعلِّقُ ﴿ءَايَةً﴾[(١)].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

الظاهر أنَّ المعنىٰ أنَّه خرَج علىٰ قومه ليصلِّيَ علىٰ عادتِه، فكان في محرابه في صلاةٍ خاصةٍ ودعاء خفيٍّ، ثم خرَج لصلاة الجماعة؛ إذ هو الحَبْرُ الأعظمُ لهم[(٢)].

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

فحمَلتِ امرأتُه كما قلنا، فولَدتْ ولدًا، فسمَّاه يحيىٰ كما بشَّرناه به، فكَبِر حتىٰ ميَّز، فقلنا: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[(٣)].

مقُولُ قولٍ محذوفٍ؛ بقرينةِ أنَّ هذا الكلامَ خطابٌ ليحيىٰ عليه السلام، فلا محالةَ أنَّه صادرٌ مِن قائلٍ، ولا يناسِبُ إلا أن يكونَ قولًا مِن الله تعالىٰ، وهو انتقالٌ مِن البشارةِ به إلىٰ نبوَّتِه، والأظهرُ أنَّ هذا مِن إخبارِ القرآن للأمَّةِ، لا مِن حكايةِ ما قيل لزكريا عليه السلام، فهذا ابتداءُ ذِكْرِ فضائلِ يحيىٰ عليه السلام[(٤)].

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ استئنافٌ طُوِيَ قبله جُمَلٌ كثيرةٌ؛ مسارعةً إلىٰ الإنباءِ بإنجازِ الوعد الكريمِ؛ وهو وجودُ هذا الغلام المبشَّرِ به[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٥).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٨٨).

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾

ثم ذكر له صفاتٍ أخرىٰ؛ فوصفه بالرحمة والشفقةِ، فقال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾

وعطَف بُرورَه بوالديه علىٰ كونِه تقيًّا؛ للدَّلالة علىٰ تمكُّنِه مِن هذا الوصف[1].

الصفةُ السادسةُ: قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ وذلك لأنَّه لا عبادةَ بعد تعظيم اللهِ تعالىٰ مِثْلُ تعظيمِ الوالدَينِ[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ طاعتَه لربِّه، وأنَّه خلَقه ذا رحمةٍ وزكاةٍ وتُقًىٰ؛ عطَف بذِكْرِ طاعتِه لوالديه وبِرِّه بهما، ومجانَبتِه عقوقَهما؛ قولًا وفعلًا، وأمرًا ونهيًا[3].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾

الأظهر أنَّه عطفٌ علىٰ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مخاطَبًا به المسلمون؛ ليَعلَموا كرامةَ يحيىٰ عليه السلام عند اللهِ[4].

ثم خَصَّ اللهُ سبحانه يحيىٰ عليه السلام بالكرامة والسلامةِ في المَواطن الثلاثةِ، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥١٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٢١٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٧).

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾

ولمَّا كانت قِصَّةُ عيسىٰ عليه السلام أغربَ، أشار إلىٰ ذلك بتغيير السِّياقِ، فقال -عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: اذكُرْ هذا لهم-: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١).

جملةُ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ عَطْفَ القِصَّةِ علىٰ القِصَّةِ (٢).

لمَّا ذكَر قِصَّةَ زكريا وطلَبَه الولدَ وإجابةَ اللهِ إياه، فوُلِد له مِن شيخٍ فانٍ وعجوزٍ له عاقرٍ، وكان ذلك ممَّا يُتعجَّبُ منه؛ أردفَه بما هو أعظمُ في الغرابة والعَجَبِ؛ وهو وجودُ ولَدٍ مِن غيرِ ذكَرٍ، فدلَّ ذلك علىٰ عِظَمِ قدرة الله وحِكْمته (٣).

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّها مع ذلك اتخَذتْ مِن دُونِ أهلِها حجابًا مستورًا، وظاهرُ ذلك أنَّها لم تقتصِرْ علىٰ أنِ انفردتْ إلىٰ موضعٍ؛ بل جعلَتْ بَيْنَها وبينهم حائلًا مِن حائطٍ أو غيره (٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٧٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٢٠).

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾

ثم أخرَج القِصَّةَ مُخرَجَ الاستئنافِ، فقال- دالًّا علىٰ حَزْمِها، وخُلوصِ تعبُّدها لله، والتجائها إليه، وشهودِها له؛ بحيث لا تَركَنُ إلىٰ سِواه-: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾(١).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾

لمَّا عَلِم جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَوْفَها، قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ ليزولَ عنها ذلك الخوفُ(٢).

فكأنَّه قيل: فماذا قال لها؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾.

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾

ثم تعجَّبتْ بما بشَّرها جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّها عرَفتْ بالعادة أنَّ الولادةَ لا تكون إلا مِن رجُلٍ، والعاداتُ عند أهل المعرفة معتبَرةٌ في الأمور، وإن جوَّزوا خلافَ ذلك في القدرةِ، فليس في قولِها هذا دلالةٌ علىٰ أنَّها لم تَعلَمْ أنَّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ خَلْقِ الولد ابتداءً، وكيف وقد عرَفتْ أنَّه تعالىٰ خلَق أبا البشَرِ علىٰ هذا الحد! ولأنَّها كانت منفرِدةً بالعبادة، ومَن يكون كذلك، لا بدَّ مِن أن يَعرِفَ قدرةَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك(٣).

فتعجَّبتْ مِن وجود الولدِ مِن غيرِ أبٍ، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٢٣).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٤٩١).

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان لسانُ الحالِ قائلًا: كيف يكونُ بغير سببٍ؟ أجاب بقولِه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(١).

فأجابها جبريلُ عليه السلام، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾

ونبَّه علىٰ سرعةِ تسبيبِ الحَمْلِ عن هذا القول، وإن كان التَّقديرُ- بما أرشَد إليه في غيرِ هذه السُّورةِ-: فنفَخ في دِرْعِها، فوصَل النَّفْخُ إلىٰ جوفِها، ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾(٢).

الفاءُ للتَّفريع والتَّعقيب؛ أي: فحملَتْ بالغلامِ في فَوْرِ تلك المراجَعةِ(٣).

﴿فَحَمَلَتْهُ ﴾ ها هنا كلامٌ مطويٌّ؛ والتَّقديرُ: فاطمأنَّت إلىٰ قولِه، فدَنا منها، فنفَخ في جَيْبِ دِرْعِها، فوصَلتِ النفخةُ إلىٰ بطنها، ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾(٤).

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

وأشار إلىٰ قُرْبِ الولادةِ مِن الحَمْلِ بفاءِ التَّعقيب في قولِه: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٨٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٤).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٨٧).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ١٨٧).

الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ للتَّعقيبِ العُرْفيِّ؛ أي: جاءها المَخاضُ بعد تمامِ مُدَّةِ الحَمْلِ(١).

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤﴾

ضميرُ الرفعِ المستتِرُ في ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ عائدٌ إلىٰ ما عاد عليه الضميرُ الغائبُ في ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ أي: ناداها المولودُ(٢).

لمَّا عرَفتْ أنَّها ستُبتلىٰ وتُمتحَنُ بهذا المولودِ، حَزِنتْ وقالت ما قالت، فجاءها التثبيتُ مِن تحتِها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ٢٥﴾

فلمَّا ظهَرتْ عينُ ماءٍ عَذْبٍ، جرىٰ النهرُ اليابسُ، فاخضَرَّتِ النخلةُ، وأثمرت، وأينعتْ ثمرتُها، فقيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٣).

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّها هزَّتْ، فتَساقَط الرُّطَبُ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾(٤).

جملةُ ﴿فَكُلِي﴾ وما بعدها فَذْلكةٌ للجُمَل التي قبلها؛ مِن قولِه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ أي: فأنتِ في بُحْبوحةِ عيشٍ(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٦).

(٣) تفسير النسفي (٢/ ٣٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٩٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٩).

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

دلَّت الفاءُ على أنَّ مريمَ جاءت أهلَها عَقِب انتهاء الكلام الذي كلَّمها ابنُها(١).

بعد أن تماثَلتْ للشفاء، حمَلتْ ولدَها، ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾(٢).

لمَّا اطمأنَّت بما رأت مِن الآيات، وعَلِمتْ أنَّ اللهَ تعالى سيُبيِّن عُذْرَها؛ أتت به تَحمِلُه مِن المكان القَصِيِّ الذي كانت انتبَذتْ فيه(٣).

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ على حقيقته، فيكونَ لمريمَ أخٌ اسمُه هارونُ كان صالحًا في قومه، خاطَبوها بالإضافةِ إليه؛ زيادةً في التَّوبيخِ(٤).

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئنافٌ لتجديدِ التَّعيير، وتأكيدِ التَّوبيخ(٥).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إشارةً دلَّت على أنَّها تُحِيلُهم عليه؛ ليَسألوه عن قصَّتِه، أو أشارت إلى أن يَسمَعوا منه الجوابَ عن توبيخِهم إيَّاها، وقد فَهِموا ذلك مِن إشارتها، ولمَّا كانت إشارتُها بمنزلةِ مراجَعةِ كلامٍ، حكى حوارَهم الواقعَ عَقِب الإشارة بجملةِ القول مفصولةً غيرَ معطوفةٍ(٦).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ لِما تقدَّم لها مِن وَعْدِه أنَّه يُجيبُهم عنها، ويُغنِيها عن الكلام(٧).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٩٤).

(٢) أيسر التفاسير (٣/ ٣٠٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٩٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٩٥).

(٥) روح المعاني (٨/ ٤٠٦).

(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٩٧).

(٧) البحر المحيط (٧/ ٢٥٨).

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ ﴾

فلمَّا كانت هذه العبارةُ مُؤْذِنةً بذلك، استأنف قولَه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾[(١)].

كلامُ عيسىٰ هذا ممَّا أهمَلتْهُ أناجيلُ النصارىٰ؛ لأنَّهم طَوَوْا خبَرَ وصولها إلىٰ أهلها بعد وَضْعِها، وهو طيٌّ يُتعجَّبُ منه، ويدلُّ علىٰ أنَّها كُتِبت في أحوالٍ غيرِ مضبوطة، فأطلَعَ اللهُ تعالىٰ عليه نبيَّه ﷺ، والابتداءُ بوصفِ العبودية لله ألقاه اللهُ علىٰ لسان عيسىٰ؛ لأنَّ اللهَ عَلِم بأنَّ قومًا سيقولون: إنَّه ابنُ الله[(٢)].

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن سياق النَّظْمِ الكريم؛ كأنَّه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾[(٣)].

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ ﴾

وبعد أن ذكَر الصفةَ الثالثةَ: النُّبوَّةَ، ذكَر الصفةَ الرابعةَ في قولِه: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ ﴾

وقد خَصَّه اللهُ تعالىٰ بذلك بَيْنَ قومِه؛ لأنَّ بِرَّ الوالدَينِ كان ضعيفًا في بني إسرائيلَ يومئذٍ، وبخاصةٍ الوالدةُ؛ لأنَّها تُستضعَفُ؛ لأنَّ فَرْطَ حنانِها ومشقَّتِها قد يُجرِّئانِ الولدَ علىٰ التساهل في البِرِّ بها[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٩٨).

(٣) روح المعاني (٨/ ٤٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠٠).

وبعد أن أوصاني بالصَّلاةِ والزكاةِ، أوصاني أيضًا أن أَبَرَّ والدتي، فأُحسِنَ إليها غايةَ الإحسانِ، وأقُومَ بما ينبغي لها؛ لشَرَفِها وفضلها، ولكونها والدةً لها حقُّ الولادةِ وتوابِعها[(١)].

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾

ثم أخبَر بما له مِن الله مِن الكرامة الدائمةِ، مُشيرًا إلىٰ أنَّه لا يضُرُّه عدوٌّ، وإلىٰ أنَّه عبدٌ لا يصلُحُ أن يكونَ إلهًا، وإلىٰ البعثِ، فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[(٢)].

فلمَّا تمَّ له الكمالُ، ومَحامِدُ الخصالِ؛ قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾

ولمَّا كان في ذلك -مِن أقوالِ عيسىٰ وأحوالِه، المُناديةِ بالحاجةِ للتنقُّلِ في أطوارِ غيرِه مِن البشرِ والكرامةِ مِن اللهِ- أعظمُ البيان عن بُعْدِه عمَّا ادَّعىٰ فيه النَّصارىٰ مِن الإلهيَّة، واليهودُ مِن أنَّه لغير رِشْدةٍ؛ نبَّه علىٰ ذلك مشيرًا إليه بأداة البُعْدِ، فقال مبتدئًا: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾[(٤)].

اعتراضٌ بَيْنَ الجُمَلِ المقولة في قولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾؛ أي: ذلك المذكورُ هو عيسىٰ ابنُ مريمَ؛ لا كما تزعُمُ النصارىٰ واليهودُ[(٥)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٩٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ١٩٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠١).

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم دلَّ علىٰ كونه حقًّا في كونِه ابنَ مريمَ، لا غيرِها، بقولِه ردًّا علىٰ مَن ضلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

جملةُ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ﴾ تقريرٌ لمعنىٰ العبودية، أو تفصيلٌ لمضمون جملةِ ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، فتكونُ بمنزلة بدلِ البعض أو الاشتمالِ منها؛ اكتفاءً بإبطالِ قول النصارىٰ بأنَّ عيسىٰ ابنُ اللهِ؛ لأنَّه أهَمُّ بالإبطال؛ إذ هو تقريرٌ لعبوديةِ عيسىٰ، وتنزيهٌ لله تعالىٰ عمَّا لا يَليقُ بجلال الألوهية؛ مِن اتخاذِ الولد، ومِن شائبةِ الشِّركِ، ولأنَّه القولُ الناشئ عن الغلوِّ في التقديس، فكان فيما ذُكِر مِن صفات المدح لعيسىٰ ما قد يُقوِّي شُبْهتَهم فيه؛ بخلاف قولِ اليهود؛ فقد ظهَر بطلانُه بما عُدِّد لعيسىٰ مِن صفاتِ الخير[2].

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان لسانُ الحال ناطقًا عن عيسىٰ عليه السلام بأن يقولَ: وقد قضاني اللهُ، فكنتُ كما أراد، فأنا عبدُ الله ورسولُه، فاعتقِدوا ذلك، ولا تَعتقدوا سِواه مِن الأباطيلِ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[3].

يجوزُ أن يكونَ هذا بقيَّةً لكلامٍ جرىٰ علىٰ لسان عيسىٰ تأييدًا لبراءةِ أمِّه، وما بينهما اعتراضٌ كما تقدَّم آنفًا؛ والمعنىٰ: تعميمُ ربوبيَّةِ الله تعالىٰ لكلِّ الخَلق[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠٣).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ١٩٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠٤).

ثم أشار إلىٰ تتمَّةِ كلام عيسىٰ مِن الأمرِ بعبادته تعالىٰ وحده بقولِه سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١).

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان المنهجُ القويمُ بحيث يكون سببًا للاجتماعِ عند كل صحيحِ المِزاجِ، عجَّب منهم في استثمارِ غيرِ ذلك منه، فقال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

الفاءُ لتفريعِ الإخبارِ بحصولِ الاختلاف علىٰ الإخبارِ بأنَّ هذا صراطٌ مستقيمٌ؛ أي: حادَ عن الصراطِ المستقيم الأحزابُ، فاختلَفوا بَيْنَهم في الطرائق التي سلكوها؛ أي: هذا صراطٌ مستقيم لا يختلِفُ سالكوه اختلافًا أصليًّا، فسلَك الأحزابُ طرقًا أخرىٰ هي حائدةٌ عن الصراطِ المستقيم، فلم يتَّفِقوا علىٰ شيءٍ(٣).

قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيبِ ما بعدها علىٰ ما قبلها؛ تنبيهًا علىٰ سُوءِ صنيعِهم بجَعْلِهم ما يوجِبُ الاتفاقَ منشأً للاختلاف؛ فإنَّ ما حُكِي مِن مقالات عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ -مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبدَ اللهِ تعالىٰ ورسولَه- قد اختلَف اليهودُ والنصارىٰ فيها بالتفريط والإفراطِ(٤).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان ذلك المشهدُ عظيمَ الجمع، شديدَ الزحام، مستويَ الأرض، بعيدَ الأرجاء؛ كان حالُه مقتضيًا لئلَّا يطَّلِعوا علىٰ غيرِ ما يَلِيهم مِن أهوالِه، فقال في جوابِ مَن يقول:

(١) محاسن التأويل (٧/ ٩٤).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ١٩٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠٥).
(٤) روح المعاني (٨/ ٤١٠).

وما عسىٰ أن يَسمَعوا أو يُبصِروا فيه؟ مُعلِمًا بأنَّ حالَهم في شدَّة السمع والبصر جديرةٌ بأن يُعجَبَ منها: ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾(١).

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾

ولمَّا كان هذا الذي تقدَّم إنذارًا بذلك المشهدِ، كان التَّقديرُ: أنذِرْ قومَك ذلك المشهدَ، وما يَسمَعونه فيه ويُبصِرونه، ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ ﴾(٢).

عقَّب تحذيرَهم مِن عذاب الآخرةِ والنداءَ علىٰ سُوءِ ضَلالهم في الدُّنيا بالأمر بإنذارِهم؛ استقصاءً في الإعذارِ لهم، والضميرُ عائدٌ إلىٰ الظالمين، وهم المشركون مِن أهل مكَّةَ، وغيرُهم مِن عَبَدةِ الأصنام(٣).

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

ولمَّا كان الإرثُ هو حَوْزَ الشيءِ بعد موت أهلِه، وكان سبحانه قد قضىٰ بموتِ الخلائق أجمعين، وأنَّه يبقىٰ وحده؛ عبَّر عن ذلك بالإرثِ مقرِّرًا به مضمونَ الكلام السَّابقِ، فقال مؤكدًا -تكذيبًا لقولهم: إنَّ الدهرَ لا يزال هكذا؛ حياةٌ لقومٍ، وموتٌ لآخرين-: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾(٤).

تذييلٌ لخَتْمِ القِصَّةِ علىٰ عادةِ القرآنِ في تذييلِ الأغراض عند الانتقالِ منها إلىٰ غيرها، والكلامُ موجَّهٌ إلىٰ المشركين لإبلاغِه إليهم، وضميرُ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿مَنۡ عَلَيۡهَا﴾، وإلىٰ ما عاد إليه ضميرُ الغَيْبةِ في ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٩٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١١٠).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾

ولمَّا ذمَّ الضالِّين في أمر المسيحِ، وعلَّق تهديدَهم بوَصْفٍ دخَل فيه مشركو العرَبِ، فأنذَرهم بصريحِ تكذيبِهم بالبعثِ، لأنَّهم لسُوءِ أعمالهم كالمكذِّبين به، وختَم ذلك بأنَّه الوارثُ، وأنَّ الرجوعَ إليه، ودخَل في ذلك الإرثُ بغلَبةِ أنبيائه وأتباعِهم على أكثرِ أهلِ الأرض؛ برجوع أهلِ الأديان الباطلةِ إليهم، حتى يعُمَّ ذلك جميعَ أهلِ الأرض في زمنِ عيسى عليه السلام، وكان إبراهيمُ عليه السلام لكثرةِ أولاده مِن العرَبِ والرُّومِ وأهل الكتابينِ وارثًا لأكثرِ الأرض، وكان مِثْلَ زكريا في هبةِ الولد على كِبَرِ سِنِّه وعُقْمِ زوجِه؛ أتبَع ذلك قولَه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[(١)].

لمَّا كان إبراهيمُ عليه السلام أبا الأنبياءِ، وأوَّلَ مَن أعلَن التوحيدَ إعلانًا باقيًا؛ لبنائه له هيكلَ التوحيدِ؛ وهو الكعبةُ: كان ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السلام مِن أغراض السورةِ، وذُكِر عَقِبَ قِصَّة عيسى؛ لمناسبةِ وقوع الردِّ على المشركين في آخرِ القِصَّةِ، ولمَّا كان إبراهيمُ عليه السلام قد جاء بالحنيفيةِ، وخالَفها العرَبُ بالإشراك؛ وهم ورثةُ إبراهيمَ: كان لتقديم ذِكْرِه على البقيَّة الموقعُ الجليلُ مِن البلاغة، وفي ذلك تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم على ما لَقِي مِن مشركي قومِه؛ لمشابهةِ حالهم بحال قومِ إبراهيمَ، وقد جرى سردُ خبَرِ إبراهيمَ عليه السلام على أسلوب سردِ قِصَّةِ مريمَ عليها السلام؛ لِما في كلٍّ مِن الأهميةِ؛ كما تقدَّم[(٢)].

لمَّا ذكَر قِصَّةَ مريمَ وابنِها عيسى، واختلافَ الأحزاب فيهما، وعبادتَهما مِن دُونِ الله، وكانا مِن قَبيل مَن قامت بهما الحياةُ؛ ذكَر الفريقَ الضالَّ الذي عبَد جمادًا

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١١١).

-والفريقانِ وإنِ اشتركا في الضَّلالِ، فالفريقُ العابدُ الجمادَ أضلُّ-، ثم ذكر قِصَّةَ إبراهيم عليه السلام مع أبيه؛ تذكيرًا للعرب بما كان إبراهيمُ عليه مِن توحيدِ الله، وتبيينِ أنَّهم سالكو غيرِ طريقه، وفيه صِدْقُ رسول اللهِ ﷺ فيما أخبَر به، وأنَّ ذلك متلقًّى بالوحي[(١)].

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا تكفَّل ما تقدَّم مِن هذه السورةِ بنفيِ الشريكِ بقيدِ كونه ولدًا، أتبَع ذلك مِن قصَّتِه ما يَنفِي الشريكَ؛ ليقتديَ به أولادُه في ذلك؛ إذ كانوا يُقلِّدون الآباءَ، وليس في آبائهم مِثْلُه، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[(٢)].

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا نبَّهه على أنَّ ما يعبُدُه لا يستحِقُّ العبادةَ، بل لا تجوز عبادتُه؛ لنَقْصِه مطلقًا، ثم نقصِه عن عابدِه، ولن يكون المعبودُ دُونَ العابد أصلًا، وكان أقلُّ ما يصلُ إليه بذلك مقامَ الحيرةِ: نبَّهه على أنَّه أهلٌ للهدايةِ، فقال مكرِّرًا لوصفه المذكور بالعطف والوُدِّ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[(٣)].

إعادةُ ندائه بوصفِ الأبوةِ تأكيدٌ لإحضارِ الذهن، ولإمحاضِ النَّصيحةِ، المستفادِ مِن النداء الأول[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٦٧).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١١٥).

لمَّا سأله عن العلَّةِ في عبادةِ الصَّنمِ، ولا يمكن أن يجدَ جوابًا؛ انتقل معه إلىٰ إخبارِه بأنَّه قد جاءه مِن العلم ما لم يأتِه، ولم يَصِفْ أباه بالجهل؛ إذ يُغنِي عنه السؤالُ السابق[(١)].

ثم كرَّر دعوتَه إلىٰ الحقِّ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه لا نَفْعَ فيما يعبُدُه، ونبَّهه علىٰ الوصفِ المقتضي لوجوبِ الاقتداء به؛ بيَّن له ما في عبادة معبوده مِن الضُّرِّ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾[(٣)].

إعادةُ النداء لزيادة تأكيدِ ما أفاده النداءُ الأولُ والثاني، والمرادُ بعبادة الشيطان عبادةُ الأصنام، عبَّر عنها بعبادة الشيطانِ إفصاحًا عن فسادها وضَلالِها؛ فإنَّ نسبةَ الضَّلال والفسادِ إلىٰ الشيطان مقرَّرةٌ في نفوسِ البشر[(٤)].

انتقَل مِن أمرِه باتباعه إلىٰ نهيه عن عبادة الشيطان، وعبادتُه كونُه يُطِيعه في عبادة الأصنام، ثم نفَّره عن عبادةِ الشيطان بأنَّه كان عَصِيًّا للرحمن؛ حيث استعصىٰ حينَ أمَره بالسجودِ لآدمَ فأبىٰ؛ فهو عدوٌّ لك ولأبيك آدمَ مِن قبلُ، وكان لفظُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٦٩).
(٢) فتح القدير (٣/ ٣٩٦).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٥).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١١٦).

هنا تنبيهًا علىٰ سَعةِ رحمته، وأنَّ مَن هذا وَصْفُه هو الذي ينبغي أن يُعبَدَ ولا يُعصىٰ، وإعلامًا بشقاوةِ الشيطان؛ حيث عصىٰ مَن هذه صِفتُه، وارتكَب مِن ذلك ما طرَده مِن هذه الرحمةِ، وأنَّ مَن كان مختارًا لنفسه عصيانَ ربِّه لا يختارُ لذُريَّتِه مَن عصىٰ لأجلِه إلا ما اختار لنفسِه مِن عصيانهم(١).

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾

فلمَّا بيَّن له أنَّه بذلك عاصٍ للمنعِمِ، خوَّفه مِن إزالتِه لنِعْمته، فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾(٢).

لمَّا قرَّر له أنَّ عبادتَه الأصنامَ اتباعٌ لأمر الشيطان عَصِيِّ الرَّحمن، انتقَل إلىٰ توقُّعِ حرمانه مِن رحمة الله بأن يحُلَّ به عذابٌ مِن الله، فحذَّره مِن عاقبةِ أن يَصِيرَ مِن أولياءِ الشيطان الذين لا يختلف البشرُ في مَذمَّتِهم وسُوء عاقبتِهم، ولكنَّهم يَندمجون فيهم عن ضلالٍ بمآلِ حالهم(٣).

وخوَّفه إبراهيمُ سُوءَ العاقبة، وتأدَّب معه؛ إذ لم يصرِّحْ بلُحوقِ العذاب به، بل أخرَج ذلك مُخرَجَ الخائف، وأتىٰ بلفظ المَسِّ الذي هو ألطَفُ مِن المعاقَبة، ونكَّر العذابَ، ورتَّب علىٰ مسِّ العذاب ما هو أكبَرُ منه؛ وهو وَلايةُ الشيطان، وصدَّر كلَّ نصيحةٍ بقولِه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾؛ توسُّلًا إليه واستعطافًا(٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٦٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١١٧).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٦٩).

ثم بيَّن له الباعثَ على هذه النَّصائحِ، فقال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾(١).

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ ﴾

فلمَّا وصَل إلىٰ هذا الحدِّ مِن البيان، كان كأنَّه قيل: ماذا كان جوابُه؟ فقيل: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾(٢).

فُصِلت جملةُ ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾؛ لوقوعها في المحاوَرةِ؛ كما تقدَّم(٣).

لمَّا دعا أباه إلىٰ التوحيد، وذكَر الدلالةَ علىٰ فساد عبادةِ الأوثان، وأردَف تلك الدلالةَ بالوعظ البليغ، وأورَد كلَّ ذلك مقرونًا باللُّطف والرفقِ؛ قابَله أبوه بجوابٍ يُضادُّ ذلك، فقابَل حُجَّتَه بالتقليد؛ فإنَّه لم يذكُرْ في مقابلة حُجَّتِه إلا قولَه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾، فأصَرَّ علىٰ ادعاء إلهيَّتِها جهلًا وتقليدًا، وقابَل وَعْظَه بالسفاهة؛ حيث هدَّده بالضرب والشَّتم، وقابَل رِفْقَه في قولِه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ بالعنفِ؛ حيث لم يقُلْ له: يا بنيَّ، بل قال: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾، وإنَّما حكىٰ اللهُ تعالىٰ ذلك لمحمَّدٍ ﷺ؛ ليخفِّفَ علىٰ قلبه ما كان يصلُ إليه مِن أذىٰ المشركين، فيَعلَمَ أنَّ الجُهَّالَ منذ كانوا علىٰ هذه السيرة المذمومة(٤).

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١١٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٥).

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن صدرِ الكلام؛ كأنَّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سَمِع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبةَ القَبولِ؟ فقيل: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[1].

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ سلامُ توديعٍ ومُتارَكةٍ، وبادَره به قبل الكلامِ الذي أعقَبه به؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يسُوءُه ذلك الهَجْرُ في ذاتِ الله تعالىٰ ومَرْضاته، ومِن حِلْمِ إبراهيمَ أن كانت متارَكتُه أباه مشُوبةً بالإحسانِ في معاملته في آخرِ لحظةٍ[2].

لمَّا سَمِع مِن أبيه ذلك، أجاب عن أمرين؛ أحدهما: أنَّه وعَده التباعدَ منه؛ وذلك لأنَّ أباه لمَّا أمَره بالتباعد أظهَرَ الانقيادَ لذلك الأمرِ، ثم إنَّه لمَّا ودَّع أباه ضمَّ إلىٰ ذلك ما دلَّ به علىٰ أنَّه وإن بعُدَ عنه فإشفاقُه باقٍ عليه[3].

فأجابه الخليلُ عليه السلام جوابَ عبادِ الرَّحمن عند خطابِ الجاهلين، ولم يَشتِمْهُ، بل صبَر، ولم يقابِلْ أباه بما يكرَهُ، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[4].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

ثم عطَف علىٰ وَعْدِه بالإحسان وَعْدَه بما سأل فيه الهجرةَ، فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[5].

---

(١) روح المعاني (٨/ ٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٤٩٤).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٨).

جملةُ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾؛ أي: يقع الاستغفارُ في المستقبل، ويقع اعتزالي إيَّاكم الآن؛ لأنَّ المضارعَ غالِبٌ في الحال، أظهَرَ إبراهيمُ العزمَ على اعتزالهم، وأنَّه لا يتوانى في ذلك، ولا يأسَفُ له إذا كان في ذات الله تعالى[1].

ثم صرَّح الخليلُ عليه السلام بما تضمَّنه سلامُه مِن التَّوديع والمُتارَكةِ، فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[2].

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾

ثم بيَّن سبحانه وتعالى تحقيقَ رجائه، وإجابةَ دعائه، فقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[3].

طُوِيَ ذِكْرُ اعتزاله إيَّاهم بعد أن ذُكِر عزمُه عليه؛ إيجازًا في الكلام؛ للعلمِ بأنَّ مِثْلَه لا يَعزِمُ أمرًا إلا نفَّذ عزمَه، واكتفاءً بذِكْرِ ما ترتَّب عليه مِن جَعْلِ عزمِه حَدَثًا واقعًا قد حصَل جزاؤه عليه مِن ربه؛ فإنَّه لمَّا اعتزَل أباه وقومَه، واستوحَش بذلك الفِراقِ؛ وهَبه اللهُ ذريَّةً يأنَسُ بهم؛ إذ وهَبه إسحاقَ ابنَه، ويعقوبَ ابنَ ابنِه، وجعَلهما نبيَّيْنِ، وحَسْبُك بهذه مَكرُمةً له عند ربِّه[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٢).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٣).

اعلَمْ أنَّه ما خَسِر علىٰ الله أحدٌ؛ فإنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا اعتزَلهم في دِينهم وفي بلدهم، واختار الهجرةَ إلىٰ ربِّه إلىٰ حيث أمَره؛ لم يضُرَّه ذلك دِينًا ودُنْيا، بل نفَعه؛ فعوَّضه أولادًا أنبياءَ، ولا حالةَ في الدِّين والدُّنيا للبشر أرفعُ مِن أن يَجعَلَ اللهُ له رسولًا إلىٰ خَلْقِه، ويُلزِمَ الخَلْقَ طاعتَه والانقيادَ له، مع ما يحصُلُ فيه مِن عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جَعْلُه تعالىٰ إياهم أنبياءَ مِن أعظَمِ النِّعم في الدُّنيا والآخرة[1].

ولمَّا كان مفارقةُ الإنسانِ لوطنه ومألَفِه وأهله وقومِه مِن أشَقِّ شيء علىٰ النفس؛ لأمورٍ كثيرة معروفة؛ ومنها انفرادُه عمَّن يتعزَّزُ بهم ويتكثَّرُ، وكان مَن ترَك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، واعتزَل إبراهيمُ قومَه؛ قال اللهُ في حقِّه: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾[2].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه مع ذلك وهَب لهم مِن رحمتِه؛ أي: وهَب لهم مِن النُّبوَّة ما وهَب، ويدخُلُ فيه: المالُ، والجاه، والأتباعُ، والنَّسْلُ الطاهر، والذُّرية الطَّيبةُ، ثم قال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾، ولسانُ الصدقِ: الثناءُ الحَسَنُ[3].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾

ولمَّا كان موسىٰ أوَّلَ مَن نوَّه اللهُ بأسمائهم علىٰ لسانه في التَّوراة، وأظهَرَ محامدَهم، وشهَر مناقبهم، وتوارَث ذلك أبناؤهم منه حتىٰ شاع أمرُهم وذاع، وملأ الأسماعَ،

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٧).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٩٤).
(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٨).

وطار في الأقطار، حتىٰ عمَّ البراري والبحارَ؛ عقَّب ذِكْرَهم بذِكْرِه، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1].

أفضَتْ مناسبةُ ذِكْرِ إبراهيمَ ويعقوبَ إلىٰ أن يُذكَرَ موسىٰ في هذا الموضع؛ لأنَّه أشرَفُ نبيٍّ مِن ذريةِ إسحاقَ ويعقوبَ، والقولُ في جملة ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ كالقولِ في نظيرَيْهما في ذِكْرِ إبراهيمَ؛ عدا أنَّ الجملةَ هنا غيرُ معترِضةٍ، بل مجردُ استئناف[2].

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾

جملةُ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾؛ فهي مثلُها مستأنَفةٌ[3].

عطَف علىٰ ما سبق دليلَه الدالَّ علىٰ ما صُدِّرت به السُّورةُ مِن الرحمة، فرَحِمه بتأنيس وَحْشتِه، وتأهيلِ غُرْبتِه؛ بتلذيذِه بالخطاب، وإعطائه الكتابَ، فقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[4].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾

ثم بيَّن أنَّه أجاب سؤالَه وشفاعتَه في أخيه، فجعَلناه نبيًّا معه، فقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢١٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤٩).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾

ولمَّا كان إسماعيلُ عليه السلام هو الذي ساعَد أباه إبراهيمَ عليه السلام في بناء البيتِ، الذي كان مِن الأفعال التي أبقىٰ اللهُ بها ذِكْرَه، وشهَر أمرَه، وكان موافِقًا لموسىٰ عليه السلام في ظهورِ آية الماء الذي به حياةُ كل شيءٍ، وإن كانت آيةُ موسىٰ عليه السلام انقَضَتْ بانقضائه، وآيتُه هو باقيةٌ إلىٰ أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، وهي التي كانت سببَ حياته، وماؤها ببركتِه أفضَلُ مياه الأرضِ، وجعَل سبحانه آيةَ الماء التي أظهَرَها له سببَ حِفْظِه مِن الجنِّ والإنس والوحشِ وسائر المفسدين؛ إشارةً إلىٰ أنَّه سبحانه يُحيِي بولدِه محمَّدٍ ﷺ -الذي غذَاه بذلك الماءِ، وربَّاه عند ذلك البيتِ، إلىٰ أنِ اصطفاه برسالته، فحسَدته اليهودُ، وأمَرتْ بالتعنُّتِ عليه- ما لم يُحْيِ بغيرِه، ويَجعَلُه قُطْبَ الوجود؛ كما خَصَّه مِن بَيْنِ آلِ إبراهيمَ عليه السلام بالبيت الذي هو كذلك قُطْبُ الوجود، ويَشفِي به مِن داء الجهل، ويُغنِي به مِن مَريرِ الفقر؛ كما جعَل ماءَ زمزمَ طعامَ طُعْمٍ وشفاءَ سُقْمٍ[(١)]، وكان ﷺ آخِرَ مَن شيَّد قَدْرَهم، وأعظَمَ مَن أعلىٰ ذِكْرَهم: عقَّب ذِكْرَه بذلك، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[(٢)].

ثم خَصَّ إسماعيلَ عليه السلام بالذِّكر هنا تنبيهًا علىٰ جدارتِه بالاستقلال بالذِّكرِ عَقِبَ ذِكْرِ إبراهيمَ وابنِه إسحاقَ؛ لأنَّ إسماعيلَ صار جَدَّ أمَّةٍ مستقلةٍ قبل أن يَصِيرَ يعقوبُ جَدَّ أمَّةٍ، ولأنَّ إسماعيلَ هو الابنُ البِكْرُ لإبراهيمَ، وشريكُه في بناء الكعبة[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢١٢-٢١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٩).

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

وجعَله اللهُ نبيًّا ورسولًا إلىٰ قومه، وهم يومئذ لا يَعْدون أهلَه: أُمَّه، وبَنِيه، وأصهارَه مِن جُرْهُمٍ؛ فلذلك قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾(١).

وبعد أن كمَّله اللهُ في نفسه بالرسالة والنبوَّة، كمَّل مَن هو أقربُ الناس إليه بالصَّلاة والزكاةِ.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان إسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد رفَع بالسُّكنىٰ حيًّا إلىٰ أعلىٰ مكانٍ في الأرض رتبةً، وكان أوَّلَ نبيٍّ رمىٰ بالسِّهامِ، وكان إدريسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -مع رِفْعتِه إلىٰ المكان العليِّ- أوَّلَ مَن اتخَذ السلاحَ وقاتَل الكفارَ، وأوَّلَ مَن نظَر في علمِ النجوم والحسابِ، وخَطَّ بالقلم، وخاطَ الثيابَ، ولَبِس الجُبَّةَ، وكان أغرَبَهم قِصَّةً، وأعجَبَهم أمرًا، وأقدَمَهم زمنًا؛ ختَم به هذه القِصصَ؛ تأييدًا لهذا النَّبيِّ الكريم، بما بيَّن له مِن القِصص التي هي أغربُ ممَّا أمر اليهود بالتعنُّتِ فيه، وإشارةً إلىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يؤتي أتباعَه مِن علوم إدريسَ الأرضيةِ والسماويةِ ممَّا يستحِقُّ أن يُحفَظَ بالخط، ويودَعَ بطونَ الكتب؛ لضِيقِ الصدور عن حِفْظِه ما لم يؤتِه أُمَّةً مِن الأُمَم، وأنَّه يجمع شَمْلَهم، وترهيبًا للمتعنِّتين بأنَّهم إن لم يَنتهوا وضَع فيهم السلاحَ كما فعَل إدريسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بكفار زمانِه، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢١٥).

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

وكما رفَع اللهُ ذِكْرَه بالصِّدِّيقيةِ والنبوَّة، رفَع مكانَه إلى السماء الرابعةِ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ٥٨﴾

ولمَّا انقضى كشفُ هذه الأخبار، العَليَّةِ المقدار، الجليلةِ الأسرار؛ شرَع سبحانه ينسُبُ أهلَها بأشرف نَسَبِهم، ويذكُرُ أمتَنَ سببِهم؛ هزًّا لِمَن وافقهم في النَّسب إلى الموافقة في السَّببِ، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾(١).

الجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، واسمُ الإشارة عائدٌ إلى المذكورين مِن قولِه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ إلى هنا(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى أثنى على كلِّ واحدٍ ممَّن تقدَّم ذِكْرُه مِن الأنبياء بما يخصُّه مِن الثناء، ثم جمَعهم آخِرًا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: بالنبوَّة وغيرِها ممَّا تقدَّم وَصْفُه، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السُّورة مِن لدُنْ زكريا إلى إدريسَ، ثم جمَعهم في كونهم مِن ذرية آدمَ، ثم خَصَّ بعضَهم بأنَّه مِن ذُرِّيَّةِ مَن حُمِل مع نوحٍ، والذي يختصُّ بأنَّه مِن ذرية آدمَ دُونَ مَن حُمِل مع نوحٍ هو إدريسُ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٢).

عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد كان سابقًا علىٰ نوحٍ علىٰ ما ثبَت في الأخبار، والذين هم مِن ذريةِ مَن حُمِل مع نوحٍ هو إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه مِن ولدِ سامِ بن نوحٍ، وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوب مِن ذريةِ إبراهيمَ، ثم خَصَّ بعضَهم بأنَّهم مِن ولد إسرائيلَ - أي: يعقوب -؛ وهم: موسىٰ وهارونُ، وزكريا ويحيىٰ، وعيسىٰ مِن قِبَلِ الأمِّ؛ فرتَّب اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أحوالَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين ذكَرهم علىٰ هذا الترتيبِ، منبِّهًا بذلك علىٰ أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالهم فلهم مَزيدٌ في الفضل بولادتهم مِن هؤلاء الأنبياءِ[(١)].

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾

ولمَّا كان مِن المقاصد العظيمة تبكيتُ اليهود؛ لأنَّهم أهلُ الكتاب، وعندهم مِن علوم الأنبياء ما ليس عند العرَبِ، وقد استرشَدوهم واستنصَحوهم؛ فقد كان أوجَبُ الواجبات عليهم مَحْضَ النُّصح لهم، فأبدىٰ سبحانه مِن تبكيتِهم ما تقدَّم، إلىٰ أن ختَمه بأنَّ جميعَ الأنبياء كانوا لله سُجَّدًا، ولأمره خُضَّعًا؛ عقَّب ذلك بتوبيخٍ هو أعظَمُ داخلٍ فيه، وهو أشدُّ ممَّا تقدَّم لِمَن خاف اللهَ ورسلَه، فقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[(٢)].

ولمَّا مدَح هؤلاء الأنبياءَ بهذه الأوصاف ترغيبًا لغيرهم في الاقتداء بهم، وسلوكِ طريقتهم؛ ذكَر أضدادَهم تنفيرًا للناس عن طريقتهم، فقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٥٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٣) فتح القدير (٣/ ٤٠٠).

لمَّا ذكَر تعالىٰ هؤلاء الأنبياءَ -المُخلِصون، المتَّبِعون لمَراضي ربهم، المُنِيبون إليه-، ذكَر مَن أتىٰ بعدَهم، وبدَّلوا ما أُمِروا به، فقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عنهم بالخَيْبةِ، فتَح لهم باب التَّوبةِ، وحَداهم[2] إلىٰ غَسْلِ هذه الحَوْبةِ[3] بقولِه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾[4].

ثم استثنىٰ تعالىٰ، فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾[5].

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ ﴾

ثم بيَّنها بقولِه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾[6].

لمَّا ذكَر في التائب أنَّه يدخُلُ الجنَّةَ، وصَف الجنةَ بأمورٍ، فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾[7].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٩٦).
(٢) أي: دعاهم.
(٣) أي: المعصية.
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٥).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٤٩٦).
(٦) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٦).
(٧) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٥٢).

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت الجَنَّةُ دارَ الحقِّ، وكان أنكأُ شيء لذوي الأقدارِ الباطلَ، وكان أقلُّ ما يُنكأ منه سماعَه؛ نفىٰ ذلك عنها علىٰ أبلَغِ وجهٍ، فقال: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾[1].

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا بايَنَتْ بهذه الأوصافِ دارَ الباطل، أشار إلىٰ علوِّ رُتْبتِها وما هو سببُها بقولِه: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[2].

جملةُ ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ﴾ مستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ، واسمُ الإشارة لزيادة التمييزِ؛ تنويهًا بشأنها[3].

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كرَّر سبحانه الوصفَ بالتُّقىٰ في هذه السورةِ ثلاثَ مراتٍ، وختَمه بأنَّه سببٌ للمقصود بالذاتِ، وهو الراحةُ الدائمةُ بالوراثةِ لدار الخُلْدِ علىٰ وجهِ الإقامة المستمرةِ؛ وصفة المُلْكِ الذي لا كَدَرَ فيه بوجهٍ، ولا تخلُّفَ عن مرادٍ؛ أتبَعه ما بعده؛ إشارةً إلىٰ ما تُنالُ به التقوىٰ؛ وهو الوقوفُ مع الأمر مراقبةً للآمرِ، عطفًا علىٰ ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان العلمُ واقعًا بأنَّ جميعَ سورةِ «الكهف» شارحةٌ لمسألتينِ مِن مسائلِ قُرَيشٍ، وبعضَ سورةِ «سبحانَ» شارحٌ للثالثة، ولطُولِ الفَصْلِ صُدِّرت قِصَّةُ ذي القَرْنَينِ بقولِه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾؛ إعلامًا بعطفِها علىٰ مسألة الرُّوح

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٨).

المصدَّرةِ بمِثْلِ ذلك، وجاءت سورةُ «مريمَ» كاشفةً -تبكيتًا لأهلِ الكتاب الكاتِمينَ للحقِّ- عن أغرَبَ مِن تلك القِصصِ، وأقدَمَ زمانًا، وأعظَمَ شأنًا مِن أخبارِ الأنبياء المذكورين، ومَن أسرَع التبديلَ بعدهم بإضاعةِ الصَّلاة واتباعِ الشَّهَوات؛ فثبَت بذلك أنَّ هذا كلَّه مرتَّبٌ لإجابةِ سؤالهم، وأنَّه كلامُ الله قطعًا؛ إذ لو كان مِن عندِ النَّبيِّ ﷺ ما وعَدهم الإجابةَ في الغدِ إلا وهو قادرٌ عليها؛ لِما هو معلوم قطعًا مِن رَزانة عقله، وغزارةِ فِطْنتهِ، ومتانة رأيه، ولو قدَر علىٰ ذلك، ما ترَكهم يتكلمون في عِرْضِه بما الموتُ أسهلُ منه؛ لِما عُلِم منه مِن الشهامة والأَنَفة والبُعْدِ عمَّا يقارِبُ الشَّيْنَ، وبانَ بذلك أنَّ اللهَ سبحانه وعزَّ شأنُه ما أجمَلَ أمرَ الرُّوح ولا أخَّر الإجابةَ خمسَ عشْرةَ ليلةً أو أقلَّ أو أكثرَ مِن عَجْزٍ ولا جهلٍ، وثبَت بذلك كلِّه وبما بيَّن مِن صُنْعِه لأهل الكهفِ ولذي القَرْنَينِ، وفي ولادةِ يحيىٰ وعيسىٰ وإسحاقَ عليهم الصَّلاة والسلام: تمامُ قُدْرتِه المستلزِمُ لكمال عِلْمِه، وكان الإخبارُ عن ذلك مطابقًا للواقع الذي ثبَت بعضُه بالنقل الصحيح، وبعضُه بأدلة العقلِ القاطعة، ثبَت مضمونُ قوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، وأنَّ هذا الكتابَ قيِّمٌ لا عِوَجَ فيه، فعطَف عليه الجوابَ عن قول النَّبيِّ ﷺ لجبرئيلَ عليه السلام: «لقد أبطاتَ عليَّ يا جبرئيلُ حتىٰ سُؤْتُ ظنًّا»[(١)]، ونحوِه ممَّا ذُكِر في أسباب النزول، فقال علىٰ لسانِ جبرئيلَ عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[(٢)].

موقِعُ هذه الآية هنا غريبٌ، فقال جمهور المفسرين: إنَّ سبب نزولها أنَّ جبريلَ عليه السلام أبطأ أيامًا عن النزول إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ النَّبيَّ وَدَّ أن تكونَ زيارةُ جبريلَ له أكثَرَ ممَّا هو يزُورُه، فقال لجبريل: «ألَا تزُورُنا أكثرَ ممَّا تزورُنا؟!»، فنزلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا

---

(١) أخرجه قوام السنة في "دلائل النبوة" (٣٠٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٢٨-٢٢٩).

بِأَمۡرِ رَبِّكَ ﴾[١]، وهو أصحُّ ما رُوِيَ في سبب نزولها، وأليَقُه بموقعها هنا، ولا يُلتفتُ إلىٰ غيره مِن الأقوال في سببِ نزولها. والمعنىٰ: أنَّ اللهَ أمَر جبريل عليه السلام أن يقولَ هذا الكلام جوابًا عنه؛ فالنَّظْمُ نظمُ القرآن؛ بتقدير: وقُلْ: ما نَتنزَّلُ إلا بأمرِ ربِّك؛ أي: قُلْ يا جبريلُ، فكان هذا خطابًا لجبريل ليبلِّغَه إلىٰ النبيِّ ﷺ قرآنًا، فالواوُ عاطفةُ فِعْلِ القول المحذوف علىٰ الكلام الذي قبله عطفَ قِصَّةٍ علىٰ قِصَّةٍ، مع اختلاف المخاطَبِ، وأمَر اللهُ رسولَه أن يقرأَها هنا، ولأنَّها نزلت لتكونَ مِن القرآن، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال ذلك لجبريلَ عليه السلام عند انتهاءِ قصصِ الأنبياء في هذه السورةِ، فأُثبِتت الآيةُ في الموضع الذي بلَغ إليه نزولُ القرآن، والضميرُ لجبريلَ والملائكةِ[٢].

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر قِصَّةَ زكريَّا ومريمَ، وذكَر إبراهيمَ وموسىٰ وإسماعيلَ وإدريسَ، ثم ذكَر أنَّهم أنعَمَ تعالىٰ عليهم، وقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وكان رسولُ اللهِ ﷺ مِن ذرية إبراهيمَ، وذكَر تعالىٰ أنَّه خلَف بعد هؤلاء خَلْفٌ، وهم اليهودُ والنصارىٰ أصحابُ الكتب؛ لأنَّ غيرَهم لا يقالُ فيهم: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ إنَّما يقالُ ذلك فيمَن كانت له شريعةٌ فُرِضَ عليهم فيها الصَّلاةُ بوحيٍ مِن الله تعالىٰ، وكان اليهودُ هم سببَ سؤال قُريشٍ للنبيِّ ﷺ تلك المسائلَ الثلاثَ، وأبطأ الوحيُ عنه، ففَرِحت بذلك قُريشٌ واليهودُ، وكان ذلك مِن اتِّباع شهَواتهم، هذا وهم عالِمون بنبوَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فأنزَل اللهُ تعالىٰ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ تنبيهًا علىٰ قِصَّة قُريشٍ واليهودِ، وأنَّ أصلَ تلك القِصَّةِ إنَّما حدَثَتْ مِن أولئك الخَلْفِ الذين أضاعوا الصَّلاةَ واتبَعوا الشهواتِ، وختمًا لقصصِ أولئك المُنعَمِ عليهم لمخاطبة أشرَفِهم محمَّدٍ ﷺ، واستعذارًا مِن جبريلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٩).

عليه السلام للرسول ﷺ بأنَّ ذلك الإبطاءَ لم يكُنْ منه؛ إذ لا يَتنزَّلُ إلا بأمر الله تعالىٰ، ولمَّا كان إبطاءُ الوحي سببُه قِصَّةُ السؤال وكونُه ﷺ لم يقرنْ أن يُجيبَهم بالمشيئة، وكان السؤالُ متسبِّبًا عن اتباع اليهودِ شهواتِهم وخَفيَّاتِ خُبْثِهم؛ اكتفىٰ بذِكْرِ النتيجةِ المتأخرة عن ذِكْرِ ما آثَرَتْهُ شهَواتُهم الدنيويةُ وخُبْثُهم(١).

ولمَّا قَصَّ سبحانه مِن أنباءِ الأنبياء عليهم السلام ما قصَّ مثبِّتًا له، وعقَّبه بما أحدَثه الخَلْفُ، وذكَر جزاءهم؛ عقَّبَه بحكايةِ نزول جبريل عليه السلام ردًّا لِما زعَمه المشركون مِن أنَّه كان يَقْلوه فلا يزُورُه؛ تسليةً له ﷺ، وإعلامًا بأنَّ الحالَ ليس علىٰ ما زعَمه هؤلاء الخَلْفُ، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٢).

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥ ﴾

ولمَّا وُصِف سبحانه وتعالى بنفوذِ الأمر واتساعِ العلم علىٰ وجهٍ ثبَت به ما أخبَر به عن الجَنَّةِ، فثبَت أمرُ البعثِ؛ أتبَع ذلك ما يُقرِّره علىٰ وجهٍ أصرَحَ منه وأعَمَّ، فقال: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾(٣).

جملةٌ مستأنفةٌ مِن كلام الله تعالىٰ؛ كما يقتضيه قولُه: ﴿ فَٱعْبُدْهُ ﴾ إلىٰ آخره، ذُيِّل به الكلامُ الذي لُقِّنَه جبريلُ، المتضمنُ أنَّ الملائكةَ لا يَتصرفون إلا عن إذنِ ربِّهم، وأنَّ أحوالَهم كلَّها في قبضتِه(٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٨١).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤١).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ لاستحالةِ النسيان عليه تعالىٰ؛ فإنَّ مَن بيدِه ملكوتُ السماوات والأرض وما بَيْنَهما، كيف يُتصوَّر أن يحُومَ حول ساحةِ عظمتِه وجلاله الغفلةُ والنسيانُ؟![1].

ثم علَّل إحاطةَ علمِه وعدمَ نسيانِه بأنَّه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[2].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

ولمَّا تبيَّن بذلك- وبما ذُكِر في هاتين السُّورتينِ ممَّا سألوا عنه ومِن غيره- شمولُ عِلْمِه وتمامُ قُدْرته، لا سيَّما في إيجاد البشرِ: تارةً مِن التراب، وتارةً مِن ذَكَرٍ وأنثىٰ في حُكْمِ العدم، وتارةً مِن أنثىٰ بلا ذَكَرٍ، وثبَت ذلك كلُّه، فانكشفت الشُّبَهُ، وتضاءلت موجِباتُ المِراء، وانقمَعتْ مُخِيلاتُ الفتنِ؛ عجَّب منها في إنكارِهم البعثَ وهم يشاهِدون ما ذكَر مِن قُدْرتِه وعلمِه، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[3].

لمَّا تضمَّن قولُه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ إبطالَ عقيدة الإشراكِ به، ناسَب الانتقالُ إلىٰ إبطال أثرٍ مِن آثار الشرك -وهو نفيُ المشركين وقوعَ البعثِ بعد الموت- حتىٰ يتمَّ انتقاضُ أصلَيِ الكفر، فالواوُ عاطفةُ قِصَّةٍ علىٰ قِصَّة، والإتيانُ بفعل (يَقُولُ) مضارعًا لاستحضار حالةِ هذا القولِ؛ للتَّعجيب مِن قائله تعجيبَ إنكارٍ[4].

---

(١) روح المعاني (٨/ ٤٣٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٩٨).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٤).

لمَّا أمَر بالعبادة والمصابَرةِ عليها، فكأنَّ سائلًا سأل وقال: هذه العباداتُ لا منفعةَ فيها في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فقد أنكَرها قومٌ، فلا بدَّ مِن ذِكْرِ الدلالة على القول بالحشرِ؛ حتى يَظهَرَ أنَّ الاشتغالَ بالعبادة مفيدٌ؟ فلهذا حكى اللهُ تعالى قولَ منكِري الحشر، فقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾[(١)].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

ثم قابَل إنكارَه الباطلَ بإنكارٍ هو الحقُّ، فقال -عطفًا على (يَقُولُ)، أو على ما تقديرُه: ألَا يذكُرُ ما لنا مِن تمام القدرة بخَلْقِ ما هو أكبَرُ مِن ذلك مِن جميع الأكوان؟-: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾؛ أي: يقولُ ذلك، ومِن النكيرِ عليه أنَّه لا يتذكَّرُ أنَّا خلَقْناه مِن قبلِ وجوده[(٣)].

ثم إنَّ اللهَ تعالى أقام الدلالةَ على صحَّة البعثِ بقولِه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٤)].

ثم ذكَر تعالى برهانًا قاطعًا ودليلًا واضحًا يَعرِفُه كلُّ أحد على إمكان البعث، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٥٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٥٦).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٤٩٨).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

ولمَّا كان كلامُ الكافرِ صورتُه صورةُ استفهام، وهو جَحْدٌ في الحقيقة وإنكارٌ، وكان إنكارُ المهدَّدِ لشيءٍ يقتدِرُ عليه المهدِّدُ سببًا لأن يحققّه له مُقسِمًا عليه؛ قال تعالىٰ مجيبًا عن إنكاره، مؤذِنًا بالغضب عليهم بالإعراضِ عنهم، مخاطبًا لنبيِّه ﷺ -تفخيمًا لشأنِه، وتعظيمًا لأمرِه-: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[1].

الفاءُ تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾؛ باعتبارِ ما تضمَّنته مِن التَّهديد، وواوُ القَسَمِ لتحقيق الوعيد، والقَسَمُ بالربِّ مضافًا إلىٰ ضميرِ المخاطَب -وهو النَّبيُّ ﷺ- إدماجٌ لتشريف قَدْرِه[2].

لمَّا أقام تعالىٰ الحُجَّةَ الدامغةَ علىٰ حَقِّيَّةِ البعثِ، أقسَمَ علىٰ ذلك باسمه مضافًا إلىٰ رسوله؛ تشريفًا له وتفخيمًا[3].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

القولُ في عطفِ جملةِ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ كالقول في جملةِ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾، وهذه حالةٌ أخرىٰ مِن الرُّعب أشدُّ مِن اللتين قبلها؛ وهي حالةُ تمييزِهم للإلقاء في دركاتِ الجحيم علىٰ حسَبِ مراتب غُلُوِّهم في الكفر[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٦).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٧-١٤٨).

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم ما هو في صورةِ الاستفهام، أتبَعه ما يُزيل ما قد يقع بسببه مِن بعض الأوهام، فقال: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾[(١)].

لمَّا كان هذا النَّزْعُ والتمييز مُجمَلًا، فقد يزعُمُ كلُّ فريق أنَّ غيرَه أشدُّ عصيانًا؛ أعلَمَ اللهُ تعالىٰ أنَّه يَعلَمُ مَن هو أَوْلىٰ منهم بمقدار صِلِيِّ النارِ؛ فإنَّها دَرَكاتٌ متفاوِتة[(٢)].

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾

ولمَّا كانوا بهذا الإعلام، المؤكَّدِ بالإقسام، مِن ذي الجلال والإكرام، جديرينَ بإصغاءِ الأفهام، إلىٰ ما يُوجَّهُ إليها مِن الكلام؛ التفَتَ إلىٰ مَقامِ الخطاب؛ إفهامًا للعموم، فقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[(٣)].

لمَّا ذكَر انتزاعَ الذين هم أَوْلىٰ بالنار مِن بقيةِ طوائفِ الكفر، عطَف عليه أنَّ جميعَ طوائفِ الشرك يدخلون النارَ؛ دفعًا لتوهُّمِ أنَّ انتزاعَ مَن هو أشدُّ علىٰ الرَّحمن عِتيًّا هو قُصارىٰ ما يَنالُ تلك الطوائفَ مِن العذاب؛ بأن يَحسَبوا أنَّ كُبَراءهم يكونون فِداءً لهم مِن النار، أو نحوَ ذلك؛ أي: وذلك الانتزاعُ لا يَصرِفُ بقيةَ الشِّيَعِ عن النار؛ فإنَّ الله أوجَبَ علىٰ جميعِهم النارَ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٨).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٩).

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الخَلاصُ منها بعد ذلك مُستبعَدًا، قال مشيرًا إليه بأداة البُعد: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1].

جملةُ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ زيادةٌ في الارتقاء بالوعيد بأنَّهم خالدون في العذابِ؛ فليس وُرودُهم النارَ بموقَّتٍ بأجَلٍ[2].

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا جديرًا بالقَبولِ؛ لقيام الأدلَّةِ علىٰ كمال قدرةِ قائلِه، وتنزُّهِه عن إخلاف القول؛ لبراءته مِن صفات النَّقصِ؛ قال مُعجِّبًا مِن مُنكِرِه، عاطفًا علىٰ قوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴾[3].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾، وهذا صِنفٌ آخَرُ مِن غُرورِ المشركين بالدُّنيا، وإناطتُهم الدلالةَ علىٰ السعادة بأحوالِ طِيبِ العيش في الدُّنيا، فكان المشركون يَتشفَّفون[4] علىٰ المؤمنين، ويَرَون أنفسَهم أسعَدَ منهم[5].

ولمَّا أقام الحُجَّةَ علىٰ منكِري البعثِ، وأتبَعه بما يكون يومَ القيامةِ؛ أخبَر عنهم أنَّهم عارَضوا تلك الحُجَّةَ الدامغةَ بحُسْنِ شارتِهم في الدُّنيا؛ وذلك عندهم يدلُّ علىٰ كرامتِهم علىٰ الله[6].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٦-٢٣٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٠).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٧).
(٤) أي: يجعلون أنفسهم أعلىٰ منهم.
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٣).
(٦) البحر المحيط (٧/ ٢٩٠).

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾

جملةُ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ خطابٌ مِن الله لرسولِه، وقد أهلَكَ اللهُ أهلَ قرونٍ كثيرة كانوا أرفَهَ مِن مشركي العرَبِ متاعًا، وأجمَلَ منهم منظرًا. فهذه الجملةُ معترِضةٌ بَيْنَ حكايةِ قولهم وبَيْنَ تلقينِ النَّبيِّ ﷺ ما يُجيبهم به عن قولهم، وموقعُها التهديدُ، وما بعدها هو الجوابُ[1].

ثم ذكَر تعالىٰ كثرةَ ما أهلَك مِن القرون ممَّن كان أحسَنَ حالًا منهم في الدُّنيا؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه تعالىٰ يُهلِكُهم، ويستأصلُ شأفتَهم؛ كما فعَل بغيرهم، واتعاظًا لهم إن كانوا ممَّن يتَّعِظُ، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه مِن حُسْنِ الأثاث والرِّيِّ[2].

ثم أجاب اللهُ تعالىٰ عن هذه الشُّبْهةِ بقولِه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾[3].

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾

فكأنَّه قيل: فما يقالُ لهم؟ فقال: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾[4].

هذا جوابُ قولِهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣﴾، لقَّن اللهُ رسولَه ﷺ كَشْفَ مغالطتِهم أو شُبْهتِهم، فأعلَمَهم بأنَّ ما هم فيه مِن نعمةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِن الله إياهم؛ لأنَّ ملاذَ الكافر استدراجٌ؛ فمعيارُ التفرقة بَيْن النِّعْمةِ الناشئة عن

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٤).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٩٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٠).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٣٨).

رضا الله تعالىٰ علىٰ عبدِه وبَيْنَ النِّعْمة التي هي استدراجٌ لِمَن كفَر به: هو النظرُ إلىٰ حالِ مَن هو في نعمة بَيْنَ حالِ هدًىٰ وحالِ ضَلالٍ(١).

اعلَمْ أنَّ هذا الجوابُ الثاني عن تلك الشُّبهةِ؛ وتقريرُه: لنَفرِضْ أنَّ هذا الضالَّ المتنعِّمَ في الدُّنيا قد مدَّ الله في أجَلِه، وأمهَله مُدَّةً مديدةً حتىٰ ينضمَّ إلىٰ النِّعْمة العظيمةِ المدَّةُ الطويلة؛ فلا بدَّ وأن ينتهيَ إلىٰ عذابٍ في الدُّنيا، أو عذابٍ في الآخرة، بعد ذلك سيَعلَمون أنَّ نِعَمَ الدُّنيا ما تُنقِذُهم مِن ذلك العذاب(٢).

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ أمرٌ منه تعالىٰ لرسوله ﷺ بأن يُجيبَ هؤلاء المفتخِرين بما لهم مِن الحظوظ الدُّنيويَّة علىٰ المؤمنين ببيانِ مآل أمرِ الفريقينِ: إمَّا علىٰ وجه كليٍّ متناولٍ لهم ولغيرهم مِن المنهمِكين في اللذة الفانية المبتهجين بها، علىٰ أنَّ ﴿مَن﴾ علىٰ عمومها. وإمَّا علىٰ وجهٍ خاصٍّ بهم؛ علىٰ أنَّها عبارةٌ عنهم، ووصَفهم بالتَّمكُّن في الضَّلالة لذَمِّهم، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكم(٣).

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا لكونِه استدراجًا زيادةً في الضَّلال، قابَله بقولِه -عطفًا علىٰ ما تقدَّم تقديرُه تسبيبًا عن قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ وهو: فيَزيده ضلالًا-: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦١).

(٣) روح المعاني (٨/ ٤٤٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٠).

جملةُ ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا ﴾؛ لِما تضمَّنه ذلك مِن الإمهال المُفضي إلى الاستمرار في الضَّلالِ[(١)].

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، سِيق لبيانِ حال المهتدين إثرَ بيانِ حالِ الضَّالين[(٢)].

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ٧٧﴾

ولمَّا تضمَّن هذا مِن التَّهديد بذلك اليومِ ما يقطِّعُ القلوبَ، فيوجِبُ الإقبالَ على ما يُنجِّي منه؛ عجَّب مِن حالِ مَن كفر به، موبِّخًا له، منكِرًا عليه، عاطفًا على ما أرشَد إليه السياقُ، فقال- معبِّرًا عن طلبِ الخير بالرؤيةِ التي هي الطريقُ إلى الإحاطة بالأشياءِ عِلْمًا وخبرةً، وإلى صحَّةِ الخبرِ عنها-: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[(٣)].

تفريعٌ على قولِه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ ﴾، وما اتَّصل به مِن الاعتراضِ والتفريعات؛ والمناسبةُ: أنَّ قائلَ هذا الكلامِ كان في غُرورٍ مِثْلِ الغُرور الذي كان فيه أصحابُه؛ وهو غرورُ إحالةِ البعث[(٤)].

الفاءُ للعطف، أفادت التعقيبَ؛ كأنَّه قيل: أخبِرْ أيضًا بقِصَّةِ هذا الكافرِ عَقِيبَ قِصَّة أولئك[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٧).

(٢) روح المعاني (٨/ ٤٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٤١).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٨).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٢٩٣).

لمَّا ذكَر الدلائلَ أولًا علىٰ صحَّة البعثِ، ثم أورَد شُبْهةَ المنكِرين وأجاب عنها؛ أورَد عنهم الآن ما ذكَروه علىٰ سبيل الاستهزاءِ طعنًا في القولِ بالحشر، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(١)].

ثم أردَف سبحانه مقالةَ أولئك المفتخِرين بأخرىٰ مِثْلِها علىٰ سبيل التَّعجُّب، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٢)].

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

ولمَّا كان ما ادَّعاه لا عِلْمَ له به إلا بأحدِ أمرينِ لا عِلْمَ له بواحدٍ منهما، أنكَر عليه قولَه ذلك بقولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾[(٣)].

جملةُ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ جوابٌ لكلامِه؛ علىٰ طريقة الأسلوب الحكيم؛ بحَمْلِ كلامه علىٰ ظاهر عبارته مِن الوعدِ بقضاءِ الدَّين مِن المال الذي سيجدُه حين يُبعَثُ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إنكاريٌّ وتعجيبيٌّ[(٤)].

ثم أجاب اللهُ تعالىٰ عن كلامِه بقولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾[(٥)].

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن الأمرينِ: اطلاعِ الغيب واتخاذِ العهدِ، وكذا ما ادَّعاه لنفسه، وما يَلزمُ عن اتخاذ العهد مِن القُرْبِ: منتفيًا؛ قال: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾[(٦)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٢).
(٢) فتح القدير (٣/ ٤١١).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٩).
(٥) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٢-٥٦٣).
(٦) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٣).

ثم إنَّه سبحانه بيَّن مِن حالِه ضدَّ ما ادعاه، فقال: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾[(١)].

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾

ثم بعد موتِه ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾.

وبعد أن نُطوِّلَ له مِن العذاب ما يستحِقُّه، نُميتُه، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ بالبعثِ، وذكَر أنَّ هذا الكافرَ يأتيه علىٰ صفة الذلِّ؛ أتبعه حالَ المشركين مع معبوداتهم، فقال مُعجِّبًا منهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾؛ فضميرُ (اتَّخَذُوا) عائدٌ إلىٰ الذين أشركوا؛ لأنَّ الكلامَ جرىٰ علىٰ بعضٍ منهم[(٣)].

لمَّا تكلَّم في مسألةِ الحشر والنَّشرِ، تكلَّم الآن في الردِّ علىٰ عباد الأصنامِ؛ فحكىٰ عنهم أنَّهم إنَّما اتخذوا آلهةً لأنفسِهم ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾[(٤)].

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه لا يُعِزُّه مالٌ ولا وَلَدٌ، وكان نفعُ الأوثان دُونَ ذلك بلا شكٍّ؛ نفاه بقولِه: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٣).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٦٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٤).

ثم أجاب اللهُ تعالىٰ بقولِه: ﴿ كَلَّا ﴾، وهو رَدْعٌ لهم، وإنكارٌ لتعزُّزِهم بالآلهة(١).

ثم أخبَر أنَّه ليس الأمرُ كما زعَموا، ولا يكونُ ما طَمِعوا، فقال: ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾(٢).

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣ ﴾

ولمَّا كان مِن المستبعَدِ عندهم جوازُ رجوعهم عنهم، فضلًا عن كفرِهم بهم؛ دلَّ علىٰ وقوعه بما يشاهَدُ منهم مِن الأفعالِ المنافية لرَزانةِ الحِلْمِ، الناشئةِ عن وَقارِ العلم، فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ يَجِيشُ في نفس الرسول ﷺ؛ مِن إيغالِ الكافرين في الضَّلال: جماعتِهم وآحادِهم، وما جرَّه إليهم مِن سُوءِ المصيرِ؛ ابتداءً مِن قولِه تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ ﴾، وما تخلَّل ذلك مِن ذِكْرِ إمهالِ الله إياهم في الدُّنيا، وما أعَدَّ لهم مِن العذاب في الآخرةِ، وهي معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ ﴾، وجملةِ ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، وأيضًا هي كالتذييل لتلك الآيات، والتقريرِ لمضمونِها؛ لأنَّها تستخلِصُ أحوالَهم، وتَتضمَّن تسليةَ الرسول ﷺ عن إمهالهم، وعدمِ تعجيل عقابِهم(٤).

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤ ﴾

فلمَّا ثبَت بذلك المدَّعىٰ، تسبَّب عنه النهيُ عمَّا اتصَفوا به مِن خفَّة السَّفَهِ، وطَيْشِ الجهل، فقال: ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٦١).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٦٥).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٦).

فُرِّع على هذا الاستئناف وهذه التسليةِ قولُه: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾[(١)].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾

ولمَّا بيَّن مآلَ حالِ الكافرين في آلهتِهم ودليلَه، أتبعه بوقتِه، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[(٢)].

ثم بيَّن سبحانه ما سيَظهرُ في ذلك اليومِ مِن الفصل بَيْنَ المتَّقين وبَيْنَ المجرمين في كيفية الحشرِ، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[(٣)].

ثم لمَّا قرَّر سبحانه أمرَ الحشر، وأجاب عن شُبْهةِ منكِريه؛ أراد أن يشرحَ حالَ المكلَّفين حينئذٍ، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[(٤)].

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما يدلُّ على كرامةِ أوليائه، أتبَعه ما يدلُّ على إهانةِ أعدائه، فقال: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[(٥)].

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

جملةُ ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ مستأنفةٌ؛ لبيانِ بعضِ ما يكون في ذلك اليوم مِن الأمورِ، والضَّميرُ في ﴿يَمْلِكُونَ﴾ راجعٌ إلى الفريقين[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ٤١٤).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٧).

(٦) فتح القدير (٣/ ٤١٤).

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾

ولمَّا أبطَل مطلَقَ الشُّفعاء، وكان الولدُ أقرَبَ شفيعٍ، وكانوا قد ادَّعَوْا له ولدًا؛ أبطَل دعواهم فيه؛ لينتفيَ كلُّ شفيع خاصٍّ وعامٍّ، فينتفيَ كلُّ عِزٍّ رامُوه بشفاعةِ آلهتهم وغيرِها، فقال: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (١).

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ ﴾، أو على جملةِ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾؛ إتمامًا لحكاية أقوالِهم؛ وهو القولُ بأنَّ لله ولدًا، وهو قول المشركين: الملائكةُ بناتُ الله، وقد تقدَّم في سورة «النحل» وغيرها. فصريحُ الكلام ردٌّ على المشركين، وكنايتُه تعريضٌ بالنصارى الذين شابَهوا المشركين في نسبةِ الولد إلى الله؛ فهو تكملةٌ للإبطال الذي في قولِه تعالى آنفًا: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ (٢).

لمَّا رَدَّ على عبَدةِ الأوثانِ، عاد إلى الردِّ على مَن أثبَت له ولدًا (٣).

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾

ثم استأنَف الالتفاتَ إلى خطابهم بأشدِّ الإنكار؛ إيماءً إلى تَناهي الغضب، فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (٤).

جملةُ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ مستأنفةٌ؛ لبيانِ ما اقتضته جملةُ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ مِن التشنيعِ والتفظيع (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٠).

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ردٌّ لمقالتِهم الباطلةِ، وتهويلٌ لأمرِها؛ بطريق الالتفاتِ مِن الغَيْبة إلىٰ الخطاب المنبئِ عن كمال السُّخْطِ وشدَّة الغضب، المفصِحِ عن غاية التَّشنيع والتَّقبيحِ، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحةِ والجهل والجُرأة(١).

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾

ثم بيَّن ثِقلَه بقولِه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(٢).

ثم وصف شدَّةَ شأنِ مَقُولِهم بقولِه سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(٣).

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

كما ينفسخُ السَّقفُ تحت ما لا يحتمِلُه مِن الجسم الثَّقيل؛ لأجلِ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾(٤).

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ متعلِّقٌ بكلٍّ مِن ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، ﴿وَتَنشَقُّ﴾، ﴿وَتَخِرُّ﴾، وهو علىٰ حذفِ لام الجرِّ قبل ﴿أَن﴾ المصدريةِ، وهو حذفٌ مطَّرِدٌ(٥).

---

(١) روح المعاني (٨/ ٤٥٤).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٨).
(٣) محاسن التأويل (٧/ ١١٤).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧١).

﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ حالٌ مِن فاعل ﴿قَالُواْ﴾، أو ﴿دَعَوۡاْ﴾، مقرِّرةٌ لبطلان مقالتِهم، واستحالةِ تحقُّق مضمونها[2].

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

ثم أقام الدَّليلَ على غِناه عن ذلك، واستحالتِه عليه؛ تحقيقًا لوَحْدانيَّتِه، وبيانًا لرحمانيَّته، فهدَم بذلك الكفرَ بمطلَق الشَّريك، بعد أن هدَم الكفرَ بخصوص الولد، فقال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾[3].

﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المستبعَدِ معرفةُ الخلائق كلِّهم، أتبَعه بقولِه: ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾[4].

جملةُ ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾، مستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لتهديد القائلين هذه المقالةَ؛ فضمائرُ الجمع عائدةٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴾ وما بعده[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٧٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٨٣).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٩).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٤٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٤).

ثم ذكَر تعالىٰ أنَّه أحصاهم وأحاط بهم، وحَصَرهم بالعَدَد، فلم يَفُتْهُ أحدٌ منهم، وليس معه أحدٌ ممَّن جعَلوه شريكًا[١].

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ إبطالُ ما لأجلِه قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ لأنَّهم زعَموا ذلك موجِبَ عبادتِهم للملائكة والجنِّ؛ ليكونوا شفعاءَهم عند الله، فأيأَسَهم اللهُ مِن ذلك بأنَّ كلَّ واحد يأتي يومَ القيامة مفرَدًا لا نصيرَ له، وفي ذلك تعريضٌ بأنَّهم آتُونَ لِما يَكرَهون مِن العذابِ والإهانة إتيانَ الأعزَلِ إلىٰ مَن يتمكَّنُ مِن الانتقام منه[٢].

وبعد أن حصَرَهم فلا يخفىٰ عليه أحدٌ منهم، بيَّن أنَّهم كلَّهم ﴿ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

ولمَّا عمَّ بهذا الحُكْمِ الطائعَ والعاصيَ، وكان ذلك مُحزِنًا لأهل الطاعة باستشعارِ الذُّلِّ في الدارينِ؛ تحركت النفسُ إلىٰ معرفةِ ما أفادتهم الطاعةُ، واستأنف الجوابَ لذلك، مُبشِّرًا لهم بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[٣].

يقتضي اتصالُ الآيات بعضِها ببعض في المعاني أنَّ هذه الآيةَ وصفٌ لحال المؤمنين يومَ القيامة بضدِّ حالِ المشركين، فيكون حالُ إتيانهم غيرَ حالِ انفرادٍ؛ بل حالَ تأنُّسٍ

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٥٠).

بعضِهم ببعض، ولمَّا خُتمت الآيةُ قبلها بأنَّ المشركين آتون يومَ القيامة مفرَدين، وكان ذلك مُشعِرًا بأنَّهم آتُونَ إلىٰ ما مِن شأنِه أن يَتمنَّىٰ المورَّطُ فيه مَن يَدفَع عنه وينصُرُه، وإشعار ذلك بأنَّهم مغضوبٌ عليهم؛ أعقَب ذلك بذِكْرِ حالِ المؤمنين الصالحين، وأنَّهم علىٰ العكس مِن حال المشركين، وأنَّهم يكونون يومئذٍ بمقام المودَّةِ والتبجيل(١).

لمَّا ردَّ علىٰ أصنافِ الكفَرة، وبالَغ في شرح أحوالهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ختَم السورةَ بذِكْرِ أحوال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾(٢).

ولمَّا فصَّل مساوئَ الكفَرةِ، تأثَّره بمحاسنِ البَرَرةِ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾(٣).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾

ولمَّا كان إنزالُ هذا القولِ الثقيل ثم تيسيرُه حِفظًا وعملًا: سببًا لِما جُعِل لأهل الطاعةِ في الدُّنيا مِن الوُدِّ؛ بما لهم مِن التَّحلي والتَّزيُّن بالصالحات، والتَّخلي والتَّصوُّنِ مِن السيئات، الدالِّ علىٰ ما لهم عند مولاهم مِن عظيمِ العِزِّ والقُرْبِ، وكان التَّقديرُ: والذين كفَروا لَيَكسِبَنَّهم الجبارُ بُغْضًا وذلًّا، فأخبَر كلًّا مِن الفريقين بما له بشارةً ونِذارةً؛ قال مسبِّبًا عن إفصاحِ ذلك وإفهامِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٧).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ١١٥).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٥١-٢٥٢).

لمَّا احتوت السورةُ علىٰ عِبَرٍ وقِصص، وبِشاراتٍ ونُذُرٍ؛ جاء هنا في التنويهِ بالقرآن وبيانِ بعضِ ما في تنزيله مِن الحِكَم(١).

ثم ذكَر سبحانه تعظيمَ القرآن، خصوصًا هذه السورةَ؛ لاشتمالِها علىٰ التوحيدِ والنبوَّة، وبيانِ حالِ المعاندين، فقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾(٢).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ -بعد ما أرشَد إليه السياقُ مِن مفعولِ ﴿وَتُنذِرَ﴾-: فإنَّا قادرون علىٰ إهلاكِهم وجميعِ ما نريد منهم؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾(٣).

لمَّا ذُكِروا بالعناد والمكابَرةِ، أُتبع بالتَّعريضِ بتهديدهم علىٰ ذلك؛ بتذكيرِهم بالأُمَمِ التي استأصلها اللهُ لجبروتها وتعنُّتِها؛ لتكونَ لهم قياسًا ومَثَلًا؛ فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾؛ باعتبارِ ما تضمَّنتْه مِن بشارةِ المؤمنين، ونِذارةِ المعاندين؛ لأنَّ في التَّعريض بالوعيدِ لهم نذارةً لهم، وبشارةً للمؤمنين باقترابِ إراحتهم مِن ضُرِّهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٥).
(٢) فتح القدير (٣/ ٤١٧).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٥٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٧).

ثم إنَّه تعالىٰ ختَم السورةَ بموعظة بليغةٍ، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾؛ لأنَّهم إذا تأمَّلوا وعَلِموا أنَّه لا بُدَّ مِن زوال الدُّنيا والانتهاءِ إلىٰ الموت، خافوا ذلك، وخافوا أيضًا سُوءَ العاقبة في الآخرةِ، فكانوا فيها إلىٰ الحَذَرِ مِن المعاصي أقرَبَ(١).

ثم توعَّدهم بإهلاك المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٦٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٠١).

سورة طه

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾

لمَّا ختَم سورةَ «مريمَ» بإهلاك القرون وإبادة الأُمَم بعد إنذارِ القومِ اللُّدِّ، ولم يَختِمْ سورةً مِن السُّوَر الماضية بمِثْلِ ذلك؛ كان ربما أفهَمَ أنَّه قد انقضَتْ مُدَّتُهم، وحلَّ بَوارُهم، وأتىٰ دمارُهم، وأنَّه لا يؤمِنُ منهم -لِما هم فيه مِن اللَّدَدِ- إلا مَن قد آمن، فحصَل بذلك مِن الغمِّ والحزن ما لا يَعلَم قَدْرَه إلا اللهُ؛ لأنَّ الأمرَ كان في ابتدائه، ولم يُسلِمْ منهم إلا نفرٌ يسيرٌ جدًّا، فسكَّن سبحانه الرَّوْعَ بقولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1].

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتسليته ﷺ عمَّا كان يَعتريه مِن جهة المشركين مِن التَّعب؛ فإنَّ الشَّقاء شائعٌ في ذلك المعنىٰ[2].

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾

قولُه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ مِن أحوالٍ للقرآن محذوفةٍ؛ أي: ما أنزَلْنا عليك القرآنَ في حالٍ مِن أحوالٍ إلا حالَ تذكرةٍ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٦٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٨٥).

ثم بيَّن السببَ الذي لأجلِه أنزَل القرآنَ، فقال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾

ثم أشار إلىٰ تضخيمِ شأنِ هذا المُنزَل الكريم -لنسبته إلىٰ المتفرِّد بصفاته وأفعاله- بقولِه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾[1].

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا كان القادرُ قد لا يكون مَلِكًا، قال- دالًّا علىٰ مُلْكِه، مادحًا له؛ بالقطعِ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ-: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[2].

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا كان المَلِكُ قد لا يكون مالكًا، قال مُقدِّمًا الأشرفَ -علىٰ العادة-: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[3].

وأتبَع ما دلَّ علىٰ عظمةِ سلطانه تعالىٰ بما يَزيدُه تقريرًا؛ وهو جملةُ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾؛ فهي بيانٌ لجملةِ ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه اخترَع السماواتِ والأرضَ، وأنَّه استوىٰ علىٰ العرشِ؛ ذكَر أنَّه تعالىٰ له مُلْكُ جميعِ ما حوَت السماواتُ، وما في الأرض، وما بَيْنَهما، وما تحت الثَّرىٰ[5].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١١٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٦٨).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٦٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٨).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٣١٢).

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

ولمَّا كان المُلْكُ لا ينتظم غايةَ الانتظام إلا بإحاطة العِلم، وكان المَلِكُ مِن الآدميِّين قد لا يَعلَم أحوالَ أقصى مُلْكِه كما يَعلَم أحوالَ أدناه، لا سيَّما إذا كان واسعًا؛ ولذلك يختلُّ بعضُ أمرِه: أعلَمَ أنَّه سبحانه بخلافِ ذلك، فقال حثًّا على مراقبتِه والإخلاص له: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لدلالة هذه الجملةِ على سَعةِ علمه تعالى؛ كما دلَّت الجملةُ المعطوفُ عليها على عظيم سلطانه وقُدْرتِه[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالى أولًا إنشاءَ السماوات والأرض، وذكَر أنَّ جميعَ ذلك وما فيهما مُلْكُه؛ ذكَر تعالى صفةَ العِلْمِ، وأنَّ عِلْمَه لا يغيب عنه شيءٌ[(٣)].

لمَّا شرَح مُلْكَه بقولِه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، والمُلْكُ لا ينتظِمُ إلا بالقدرة والعِلم؛ لا جرَمَ عقَّبَه بالقدرة ثم بالعِلم[(٤)].

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ بيانٌ لإحاطةِ علمِه تعالى بجميع الأشياءِ إثْرَ بيانِ شمول قُدْرتِه تعالى لجميع الكائنات[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣١٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠).

(٥) روح المعاني (٨/ ٤٧٧).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان مَن هو بهذه الأوصافِ مِن تمام العلم والقدرةِ ربما ظُنَّ أنَّ له منازعًا، نفىٰ ذلك بقولِه مُعلِمًا أنَّ هذا الظنَّ باطلٌ قطعًا لا شبهةَ له، وأنَّ ما مضىٰ يُنتِج قطعًا: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾(١).

تذييلٌ لِما قبله؛ لأنَّ ما قبله تضمَّن صفاتٍ مِن فعلِ الله تعالىٰ، ومِن خَلْقِه، ومِن عظمتِه؛ فجاء هذا التذييلُ بما يجمع صفاتِه(٢).

كأنَّه قيل: مَن ذا الذي يَعلَمُ السِّرَّ وأخفىٰ؟ فقيل: هو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾(٣).

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مِن صفات الكمال موصوفُها ذلك المعبودُ الحقُّ(٤).

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ﴾

قال تعالىٰ مقرِّرًا -تنبيهًا علىٰ أنَّه يذكُرُ له منه ما يكفي في تسليته وتقويةِ قلبه، وتبكيتِ اليهود الذين توقَّفوا في أمره ﷺ، وغَشُّوا قُريشًا حين تكلَّفوا طيَّ شُقَّةِ البَيْنِ إليهم، ورَضُوا بقولِهم لهم وعليهم؛ ليكونَ فائدةُ الاستفهام أن يُفرِّغَ أُذُنَه الشريفةَ للسَّماعِ، وقلبَه للوعي العظيم-: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩١).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣١٣).

(٤) روح المعاني (٨/ ٤٧٩).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٢).

أعقَب تثبيتَ الرسول على التبليغِ، والتنويهَ بشأن القرآن بالنسبة إلى مَن أنزَله ومَن أُنزِل عليه: بذِكْرِ قِصَّةِ موسى عليه السلام؛ ليَتأسَّى به في الصَّبرِ على تحمُّلِ أعباء الرسالةِ، ومقاساةِ المصاعب، وتسليةً له بأنَّ الذين كذَّبوه سيكون جزاؤهم جزاءَ مَن سَلَفَهم مِن المكذِّبين (١).

لمَّا ذكَر تعالى تعظيمَ كتابه، وتضمَّن تعظيمَ رسوله؛ أتبَعه بِقِصَّةِ موسى ليتأسَّى به في تحمُّل أعباء النبوَّة، وتكاليفِ الرسالةِ، والصبرِ على مقاساة الشدائد (٢).

لمَّا عظَّم حالَ القرآنِ وحالَ الرسول فيما كُلِّفَه، أتبَع ذلك بما يقوِّي قلبَ رسولِ اللهِ ﷺ مِن ذِكْرِ أحوالِ الأنبياء عليهم السلام؛ تقويةً لقلبه في الإبلاغ، وبدأ بموسى عليه السلام لأنَّ المحنةَ والفتنة الحاصلةَ له كانت أعظَمَ؛ ليُسلِّي قلبَ الرسول ﷺ بذلك، ويصبِّره على تحمُّل المَكاره، فقال: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ (٣).

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ مسُوقٌ لتقريرِ أمرِ التوحيد الذي انتهى إليه مساقُ الحديث، وبيانِ أنَّه أمرٌ مستمرٌّ فيما بَيْنَ الأنبياء عليهم السلام، كابرًا عن كابرٍ (٤).

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ إِذْ ﴾ ظرفٌ للحديث، وقد تقدَّم نظائرُه، وخُصَّ هذا الظرفُ بالذِّكر؛ لأنَّه يَزيد تشويقًا إلى استعلامِ كُنْهِ الخبر؛ لأنَّ رؤيةَ النار تحتمِلُ أحوالًا كثيرة، ورؤية

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٣).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٣١٤).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٥).
(٤) روح المعاني (٨/ ٤٧٩-٤٨٠).

النار تدلُّ على أنَّ ذلك كان بِلَيْلٍ، وأنَّه كان بحاجةٍ إلى النار؛ ولذلك فُرِّع عليه: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾(١).

فكأنَّه قيل: وما حديثُ موسى عليه السلام؟ فقيل: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾

فسار موسى عليه السلام إلى تلك النارِ، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾

ولمَّا كان المَقامُ للتعريف بالأيادي تلطُّفًا، قال مؤكِّدًا -تنبيهًا له على تعرُّفِ أنَّه كلامُه سبحانه، وحاكيًا بقولٍ مُقدَّرٍ-: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾(٢).

جملةُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿نُودِيَ﴾(٣).

ثم أخبره أنَّه ربُّه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾

ولمَّا كان المعنى: فإنِّي اخترتُه تشريفًا له مِن بَيْنِ البِقاع لمناجاتك، عطَف عليه قولَه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٦).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٦).

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾

ثم فسَّر الموحَىٰ بأوَّلِ الواجباتِ؛ وهو معرفةُ الله تعالىٰ، فقال مُؤكِّدًا لعِظَم الخبر وخروجِه عن العادات: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[(١)].

هذا «ما يُوحَىٰ» المأمورُ باستماعه، ووقَع الإخبارُ عن ضمير المتكلم باسمه العَلَمِ؛ وذلك أوَّلُ ما يجب عِلْمُه مِن شؤون الإلهيَّةِ؛ وهو أن يُعلَمَ الاسمُ الذي جعله اللهُ عَلَمًا عليه؛ لأنَّ ذلك هو الأصلُ لجميع ما سيخاطَبُ به مِن الأحكام المبلَّغةِ عن ربِّهم[(٢)].

قولُه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ إلىٰ آخره، جاء ذلك تبيينًا وتفسيرًا للإبهام في قولِه: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[(٣)].

ثم بيَّنه بقولِه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ ﴾

ثم علَّل الأمرَ بالعبادة بأنَّه لم يخلُقِ الخَلْقَ سُدًىٰ، بل لا بد مِن إماتتِهم ثم بَعْثِهم؛ لإظهار العظمة، ونصبِ موازين العدل، فقال- مؤكدًا لإنكارهم، مُعبِّرًا بما يدلُّ علىٰ سهولة ذلك عليه جدًّا-: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾[(٥)].

جملةُ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ مستأنفةٌ لابتداء إعلامٍ بأصلٍ ثانٍ مِن أصول الدِّين بعد أصلِ التوحيد؛ وهو إثباتُ الجزاء[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣١٧).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٢١).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٧).

(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الأمرَ بالعبادة وإقامة الصَّلاةِ، ذكَر الحاملَ علىٰ ذلك؛ وهو البعثُ والمَعادُ للجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وهي التي يَظهر عندها ما عَمِله الإنسانُ، وجزاءُ ذلك: إمَّا ثوابًا، وإما عقابًا(١).

ثم أشار إلىٰ وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصَّلاةِ لذِكْرِه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(٢).

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا كانت- لِما تقدَّم- في حكم المنسيِّ عند أغلب الناسِ، قال: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾(٣).

صِيغَ نهيُ موسىٰ عن الصدِّ عنها في صيغة نهيِ مَن لا يؤمنُ بالساعةِ عن أن يصُدَّ موسىٰ عن الإيمان بها؛ مبالغةً في نهيِ موسىٰ عن أدنىٰ شيءٍ يحُولُ بَيْنَه وبين الإيمان بالساعةِ؛ لأنَّه لمَّا وُجِّهَ الكلامُ إليه، وكان النهيُ نهيَ غيرِ المؤمن عن أن يصُدَّ موسىٰ؛ عُلِم أنَّ المرادَ نهيُ موسىٰ عن ملابسةِ صدِّ الكافر عن الإيمان بالساعة؛ أي: لا تكُنْ ليِّنَ الشَّكيمة لِمَن يصدُّك، ولا تُصْغِ إليه فيكونَ لِينُك له مجرِّئًا إياه علىٰ أن يصُدَّك؛ فوقَع النهيُ عن المسبَّب(٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣١٨).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٢١).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٣).

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ ﴾

ولمَّا كان المقام مُرشِدًا إلىٰ أن يقالَ: ما جوابُك يا موسىٰ عمَّا سَمِعتَ؟ وكان تعالىٰ عالِمًا بأنَّه يبادر إلىٰ الجواب بالطاعة في كل ما تقدَّم؛ طوىٰ هذا المقالَ مومئًا إليه بأن عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾(١).

بقيَّةُ ما نودي به موسىٰ، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجُمَل قبلها؛ انتقالًا إلىٰ محاورةٍ أراد اللهُ منها أن يُرِيَ موسىٰ كيفيةَ الاستدلال علىٰ المرسَل إليهم بالمعجزة العظيمة؛ وهي انقلابُ العصا حيةً تأكل الحيَّاتِ التي يُظهِرونها(٢).

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ شروعٌ في حكايةِ ما كُلِّفه عليه السلام مِن الأمورِ المتعلِّقة بالخَلق، إثرَ حكايةِ ما أُمِر به مِن الشؤون الخاصةِ بنفسه(٣).

لمَّا بيَّن اللهُ لموسىٰ أصلَ الإيمان، أراد أن يبيِّنَ له ويُرِيَه مِن آياته ما يطمئنُّ به قلبُه، وتَقَرُّ به عينُه، ويقوىٰ إيمانُه؛ بتأييدِ الله له علىٰ عدوِّه، فقال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾(٤).

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨ ﴾

فابتدأ موسىٰ ببيان الماهيةِ بأسلوبٍ يُؤذِن بانكشافِ حقيقةِ المسؤول عنه، وتوقَّع أنَّ السؤالَ عنه توسُّلٌ لتطلُّبِ بيانٍ وراءَه، فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ بذِكْرِ المسنَدِ إليه، مع

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٧٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٤).
(٣) روح المعاني (٨/ ٤٨٩).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٠٣).

أنَّ غالبَ الاستعمال حذفُه في مقام السؤالِ؛ للاستغناء عن ذِكره في الجواب بوقوعِه مسؤولًا عنه، فكان الإيجازُ يقتضي أن يقول: عصاي، فلمَّا قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، كان الأسلوبُ أسلوبَ كلامِ مَن يتعجَّبُ مِن الاحتياجِ إلىٰ الإخبار[(١)].

فكأنَّه قيل: فماذا قال موسىٰ حينئذ؟ فقيل: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩)﴾

فكأنَّه قيل: فماذا قيل له؟ فقيل: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[(٢)].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ هذه جملةٌ مستأنفةٌ، جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، أمَره سبحانه بإلقائها؛ ليُرِيَه ما جعَل له فيها مِن المعجزةِ الظاهرة[(٣)].

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾

لمَّا قال: عصاي، قال اللهُ ﷻ: أَلْقِها، فلمَّا ألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾؛ ليَعرِف أنَّ كلَّ ما سوىٰ الله، فالالتفاتُ إليه شاغلٌ، وهو كالحيَّة المُهلِكة لك[(٤)].

فتسبَّب عن هذا الأمرِ المطاعِ أنَّه ألقاها، ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨١).

(٣) فتح القدير (٣/ ٤٢٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٢٥).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٨١).

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾

ولمَّا كان ذلك أمرًا مخيفًا، استشرَف السَّامعُ إلىٰ ما يكونُ مِن حاله عند مِثل هذا بعد ذلك، فاستأنف إخبارَه بقولِه: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(١).

ثم ذكَر ربَّه سبحانه فوقَف استحياءً منه ﷻ، ثم نُودي يا موسىٰ: «إليَّ»، ارجع حيث كنتَ، فرجَع وهو شديدُ الخوف، فأمَره ﷻ بأخذِها؛ وهو ما قصَّ الله تعالىٰ بقولِه عزَّ قائلًا: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(٢).

فلمَّا رآها كذلك، خاف وفَزِع، وولَّىٰ مدبرًا ولم يُعقِّبْ، فعند ذلك قال سبحانه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(٣).

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾

ولمَّا أراه آيةً في بعض الآفاقِ، أراد أن يُرِيَه آيةً في نفسِه، فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾(٤).

هذه معجزةٌ أخرىٰ علَّمه اللهُ إياها، حتىٰ إذا تحدَّىٰ فِرْعونَ وقومَه، عَمِل مِثْلَ ذلك أمام السَّحَرة، فهذا تمرينٌ علىٰ معجزةٍ ثانيةٍ، مُتَّحدُ الغرض مع إلقاء العصا(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨١).

(٢) روح المعاني (٨/ ٤٩٢).

(٣) فتح القدير (٣/ ٤٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٨).

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

افعَلْ ما أمَرتُك به مِن إلقاء العصا وضمِّ اليد، أو فعَلنا ذلك مِن إحالةِ العصا ولون اليدِ مِن مناداتك لمناجاتك؛ ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾[(١)].

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ متعلِّقٌ بمضمَرٍ ينساقُ إليه النَّظمُ الكريم؛ كأنَّه قيل: فعَلنا ما فعَلنا مِن الأمر والإظهار؛ لنُرِيَك بذلك بعضَ آياتِنا الكبرىٰ[(٢)].

ثم علَّل سبحانه ذلك بقولِه: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾[(٣)].

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: لماذا يُفعَل بي هذا؟ فقيل: لنرسِلَك إلىٰ بعض المهمَّات، ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[(٤)].

لمَّا أظهَرَ اللهُ له الآيتين، فعَلِم بذلك أنَّه مؤيَّدٌ مِن الله تعالىٰ؛ أمَره اللهُ بالأمر العظيم الذي مِن شأنه أن يُدخِلَ الرَّوْعَ في نفس المأمور به؛ وهو مواجهةُ أعظمِ ملوك الأرض يومئذٍ بالموعظة، ومكاشفتُه بفسادِ حاله[(٥)].

لمَّا أظهَرَ له هذه الآيةَ، عقَّبها بأنْ أمَره بالذَّهابِ إلىٰ فِرْعونَ، وبيَّن العلةَ في ذلك؛ وهي أنَّه طغىٰ، وإنَّما خُصَّ فِرْعونُ بالذِّكر مع أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مبعوثًا إلىٰ الكلِّ؛ لأنَّه ادَّعىٰ الإلهيَّةَ وتكبَّر، وكان متبوعًا، فكان ذِكْرُه أولىٰ[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٣).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١١).
(٣) فتح القدير (٣/ ٤٢٨).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٣).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٩).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٢٩).

ثم صرَّح سبحانه بالغرض المقصودِ مِن هـذه المعجزات، فقـال: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[1].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ ﴾

وأشار إلىٰ ما حصَل له مِن الضِّيقِ مِن ذلك بما عرَف مِن أنَّه أمرٌ عظيمٌ، وخطبٌ جسيمٌ، يحتاج معه إلىٰ احتمالِ ما لا يحتمِلُه إلا ذو جأشٍ رابطٍ، وصدرٍ فسيحٍ، وقلبٍ ضابطٍ؛ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾[2].

لمَّا عَلِم موسىٰ ذلك، لم يبادِرْ بالمراجعة في الخوف مِن ظُلْمِ فِرْعونَ، بل تلقَّىٰ الأمرَ، وسأل اللهَ الإعانةَ عليه، بما يؤُولُ إلىٰ رباطة جأشِه، وخَلْقِ الأسباب التي تُعِينُه علىٰ تبليغه، وإعطائه فصاحةَ القول للإسراع بالإقناع بالحُجَّة، وحُكِي جوابُ موسىٰ عن كلام الربِّ بفِعل القول غيرَ معطوفٍ؛ جريًا علىٰ طريقة المحاوَراتِ[3].

لمَّا أمَره تعالىٰ بالذَّهاب إلىٰ فِرْعونَ، عرَف أنَّه كُلِّف أمرًا عظيمًا يحتاج معه إلىٰ احتمالِ ما لا يحتملُه إلا ذو جأشٍ رابطٍ وصدرٍ فسيحٍ، فسأل ربَّه ورَغِب في أن يَشرَحَ صدرَه؛ ليَحتمِل ما يَرِدُ عليه مِن الشدائد التي يَضِيق لها الصدرُ، وأن يسهِّلَ عليه أمرَه الذي هو خلافةُ اللهِ في أرضِه، وما يَصحَبُها مِن مزاولة جلائلِ الخطوبِ، وقد عَلِم ما عليه فِرْعونُ مِن الجبروت والتمرُّدِ والتسلُّطِ[4].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٠).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٢٧).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ ينساق إليه الذهنُ؛ كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام حين أُمِر بهذا الأمرِ الخطير، والخَطْبِ العسير؟ فقيل: قال مُستعينًا بربِّه عز وجل: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[(١)].

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾

ثم أشار إلىٰ استصعابِه بقولِه: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾[(٢)].

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾

ثم سأل سلامةَ آلةِ التبليغ -وهو اللسانُ- بأن يرزُقَه فصاحةَ التعبير، والمقدرةَ علىٰ أداء مرادِه بأوضحِ عبارةٍ، فشبَّه حُبْسةَ اللسان بالعُقْدةِ في الحَبْلِ أو الخيط ونحوِهما؛ لأنَّها تمنعُ سرعةَ استعماله[(٣)].

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان سؤالُه هذا إنَّما هو لله؛ ولذلك اقتصَر علىٰ قَدْرِ الحاجةِ فلم يطلُبْ زوالَ الحُبْسة كلِّها؛ أجابه بقولِه: ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾[(٤)].

فعلُ ﴿يَفْقَهُوا۟﴾ مجزومٌ في جواب الأمرِ؛ علىٰ الطريقة المتَّبَعة في القرآنِ؛ مِن جَعْلِ الشيءِ المطلوب بمنزلة الحاصلِ عَقِبَ الشرطِ[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١١).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٢).

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾

ولاعتقاد صعوبةِ المقامِ مع ذلك كلِّه طلب التأييد بنصيرٍ يُهِمُّه أمرُه بقولِه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾(١).

﴿هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾

ثم أبدَل منه قولَه: ﴿هَٰرُونَ﴾، وبيَّنه بقولِه: ﴿أَخِي﴾(٢).

ثم بيَّن مَن هو الوزيرُ الذي مِن أهلِه بقولِه: ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾.

ثم عيَّنه بسؤالِه، فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾(٣).

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾

لمَّا طلَب مِن اللهِ تعالىٰ أن يجعلَ هارونَ وزيرًا له، طلَب منه أن يشُدَّ به أَزْرَه، ويجعلَه ناصرًا له؛ لأنَّه لا اعتمادَ علىٰ القَرابةِ(٤).

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٠٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٤٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٢).

قولُه: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، والأمرُ ها هنا النبوَّةُ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّه عليه السلام عَلِم أنَّه يشُدُّ به عَضُدَه، وهو أكبرُ منه سِنًّا، وأفصَحُ منه لسانًا(١).

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣)﴾

ولمَّا أفهَمَ سؤالُه هذا أنَّ له فيه أغراضًا، أشار إلىٰ أنَّها ليست مقصودةً له لأمرٍ يعودُ علىٰ نفسه بذِكْرِ العلَّةِ الحقيقية، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾(٢).

وعلَّل موسىٰ عليه السلام سؤالَه تحصيلَ ما سأله لنفسه ولأخيه بأن يُسبِّحَا الله كثيرًا، ويذكُرَا اللهَ كثيرًا؛ ووجهُ ذلك: أنَّ فيما سأله لنفسِه تسهيلًا لأداء الدعوةِ بتوفُّرِ آلاتها، ووجودِ العونِ عليها؛ وذلك مظنَّةُ تكثيرِها(٣).

ثم إنَّه سبحانه وتعالى حكىٰ عنه ما لأجلِه دعا بهذا الدعاءِ، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾(٤).

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾

ولمَّا كان التَّسبيحُ ذِكْرًا خاصًّا؛ لكونه بالتَّنزيهِ الذي أعلاه التَّوحيدُ؛ أتبَعه العامَّ، فقال: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾(٥).

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾

ثم علَّل طلَبَه لأخيه لأجلِ هذا الغرضِ بقولِه: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٤٥).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٥).

(٦) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٥).

جملةُ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعليلٌ لسؤالِه شَرْحَ صدرِه وما بعده؛ أي: لأنك تعلَمُ حالي وحالَ أخي، وأنِّي ما دعوتُك بما دعوتُ إلا لأننا محتاجانِ لذلك، وفيه تفويضٌ إلى اللهِ تعالى بأنَّه أعلَمُ بما فيه صلاحُهم، وأنَّه ما سأل سؤالَه إلا بحسَبِ ما بلغ إليه عِلْمُه[(١)].

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، كان موضعَ توقُّعِ الجواب، فأتبَعه قولَه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[(٢)].

قولُه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وعدٌ له بالإجابةِ، وتصديقٌ له فيما توسَّمه مِن المصالحِ فيما سأله لنفسِه ولأخيه[(٣)].

لمَّا سأل ربَّه تلك الأمورَ الثمانيةَ، وكان مِن المعلومِ أنَّ قيامَه بما كُلِّفَ به تكليفٌ لا يَتكاملُ إلا بإجابتِه إليها؛ لا جَرَمَ أجابه اللهُ تعالى إليها؛ ليكونَ أقدَرَ على الإبلاغ على الحدِّ الذي كُلِّف به، فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[(٤)].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان إنجاؤه مِن فِرْعونَ حيث وُلِد في السَّنَةِ التي يُذبَحُ فيها الأبناءُ بيدِ فِرْعونَ وفي بيته أمرًا عظيمًا، التفَتَ إلى مقامِ العظمة مذكِّرًا له بذلك؛ تنويرًا لبصيرتِه،

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٤).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٤٦).

وتقويةً لقلبه؛ إعلامًا بأنَّه يُنجيه منه الآن كما أنجاه في ذلك الزمانِ، ويَزيدُه بزيادة السِّنِّ والنبوَّة خيرًا، فيجعلُ عِزَّه في هلاكه كما جعَل إذ ذاك عِزَّه في وجوده، فقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾؛ لأنَّ جملةَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ تَتضمَّن منَّةً عليه، فعطَف عليها تذكيرًا بمنَّةٍ عليه أخرى في وقتِ ازديادِه؛ ليَعلَمَ أنَّه لمَّا كان بمحَلِّ العناية مِن ربِّه مِن أوَّل أوقاتِ وجوده، فابتدأه بعنايته قبل سؤالِه؛ فعنايتُه به بعد سؤاله أحرى، ولأنَّ تلك العنايةَ الأُولى تمهيدٌ لِما أراد اللهُ به مِن الاصطفاء والرسالة؛ فالكرمُ يقتضي أنَّ الابتداءَ بالإحسان يستدعي الاستمرارَ عليه؛ فهذا طمأنةٌ لفؤادِه، وشرحٌ لصدره؛ ليَعلَمَ أنَّه سيكون مؤيَّدًا في سائرِ أحواله المستقبَلة[(٢)].

ثم ذكَّره تعالى تقديمَ مِنَّتِه عليه على سبيل التوقيف؛ ليعظُمَ اجتهادُه، وتَقوَىٰ بصيرتُه، و﴿ مَرَّةً ﴾ معناه: منَّةً، و﴿ أُخْرَىٰٓ ﴾: تأنيثُ آخَرَ؛ بمعنى: «غَيْر»؛ أي: منَّةً غيرَ هذه المنَّة، وليست ﴿ أُخْرَىٰٓ ﴾ هنا بمعنى: «آخِرةً» فتكونَ مقابِلةً للأولى[(٣)].

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾، فنبَّه بذلك على أمورٍ؛ أحدها: كأنَّه تعالى قال: إنِّي راعيتُ مصلحتَك قبل سؤالِك، فكيف لا أعطيك مرادَك بعد السؤال؟! وثانيها: أنِّي كنتُ قد ربَّيْتُك، فلو منعتُك الآن مطلوبَك، لكان ذلك ردًّا بعد القَبول، وإساءةً بعد الإحسانِ، فكيف يَليق بكَرَمي؟! وثالثها: أنَّا لمَّا أعطيناك في الأزمنة السالفةِ كلَّ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٥).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٢٩).

ما احتجْتَ إليه، ورقَّيْناك مِن حالةٍ نازلةٍ إلى درجة عالية؛ دلَّ هذا على أنَّا نصَبْناك لمنصِبٍ عالٍ ومُهِمٍّ عظيمٍ، فكيف يَلِيق بمثل هذه الرُّتبة المنعُ مِن المطلوب؟!»(١).

استئنافٌ مسُوقٌ لتقرير ما قبله، وزيادةِ توطينٍ لنفسِ موسى عليه السلام بالقَبول؛ ببيانِ أنَّه تعالى حيث أنعَم عليه بتلك النِّعَمِ التامة مِن غير سابقةِ دعاءٍ وطلبٍ منه، فلأَنْ يُنعِمَ عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحرى، وتصديرُه بالقَسَم لكمال الاعتناءِ بذلك(٢).

﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾

ثم ذكَر وقتَ المنَّةِ، فقال: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾(٣).

في قوله: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ إجمالٌ يفسِّرُه قولُه: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾(٤).

﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾

ثم فسَّره بقوله: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٤٦).
(٢) روح المعاني (٨/ ٥٠٠).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٦).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٢٩).
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٦).

﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ
عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم ذكر ظرفَ الصُّنع، فقال: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾(١).

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾

ومِن هنا خَتْمُ الامتنان بما هو الفَذْلكةُ؛ وذلك جملةُ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، الذي هو بمنزلة ردِّ العَجُزِ على الصدرِ على قولِه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ الآيةَ، وهو تخلُّصٌ بديعٌ إلى الغرض المقصودِ؛ وهو الخطابُ بأعمال الرسالةِ، المبتدأُ مِن قولِه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾، ومِن قولِه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

المنَّةُ الثامنةُ قولُه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(٣).

قولُه سبحانه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكيرٌ لقولِه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فِرْعونَ مُؤَيَّدًا بأخيه؛ حسَبَ ما استدعاه بعد تذكيرِ المِنَنِ السابقة؛ تأكيدًا لوثوقِه عليه السلام بحصولِ نظائرها اللاحقةِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥٠).
(٤) روح المعاني (٨/ ٥٠٦).

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ﴾

فلمَّا تمهَّد ذلك كلُّه بعد عِلْمِ نتيجته، أعادها في قولِه: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾(١).

رجوعٌ إلىٰ المقصدِ بعد المحاورةِ؛ فالجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ يُؤذِنُ بأنَّه اختاره وأعدَّه لأمرٍ عظيم؛ لأنَّ الحكيمَ لا يتخذُ شيئًا لنفسِه إلا مُريدًا جَعْلَه مُظهِرًا لحِكْمتِه، فيترقَّبُ المخاطَبُ تعيينَها، وقد أمَره هنا بالذَّهاب إلىٰ فِرْعونَ، وأن يَذهَبَ أخوه معه(٢).

واعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا قال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾، عقَّبه بذِكْرِ ما له اصطنَعه؛ وهو الإبلاغُ والأداء(٣).

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما هو المقصودُ بالاصطناع(٤).

﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

ثم بيَّن المذهوبَ إليه بقولِه، مؤكِّدًا لنفسِ الذَّهاب؛ لأنَّه لشدَّة الخطرِ لا يكاد طبعُ البشر يتحقَّقُ جزمَ الأمر به، فقال: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾(٥).

يجوزُ أن يكونَ انتقالًا إلىٰ خطابِ موسىٰ وهارونَ، فيقتضي أنَّ هارونَ كان حاضرًا لهذا الخطاب، وهو ظاهرُ قولِه بعده: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ بدلًا مِن جملةِ ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾، فيكونَ قولُه: ﴿ ٱذۡهَبَآ ﴾ أمرًا

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٨٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥١).
(٤) روح المعاني (٨/ ٥٠٧).
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٠).

لموسىٰ بأن يَذهَبَ، وأن يأمُرَ أخاه بالذَّهَاب معه، وهارونُ غائبٌ؛ وهذا أنسَبُ لسياقِ الجُمَل، وتكونَ جملةُ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا، وقد طُوِيَ ما بَيْنَ خطاب اللهِ موسىٰ وما بَيْنَ حكايةِ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ إلخ؛ والتقديرُ: فذهَب موسىٰ ولَقِيَ أخاه هارونَ، وأبلَغه أمرَ اللهِ له بما أمَره، فقالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ إلخ، وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليلٌ للأمرِ بأن يَذهَبا إليه، فعُلِمَ أنَّه لقصدِ كفِّه عن طُغيانه[1].

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

ثم أمَرهما بما ينبغي لكلِّ آمرٍ بالمعروفِ؛ مِن الأخذ بالأحسَنِ فالأحسن، والأسهَلِ فالأسهل، فقال مُسببًا عن الانتهاء إليه ومُعقِّبًا: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2].

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بعدها علىٰ طغيانه؛ فإنَّ تليينَ القول ممَّا يَكسِرُ سَوْرةَ عناد العُتاةِ، ويُلِينُ قسوةَ الطُّغاة[3].

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا كان فِرْعونُ في غايةِ الجبروتِ، وكان حالُه حالَ مَن يُهلِكُهما إلا أن يَمنَعَهما اللهُ، وأراد عِلْمَ ما يكونُ مِن ذلك؛ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٤).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٠).

(٣) روح المعاني (٨/ ٥٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٩١).

فُصِلت الجملتان لوقوعهما موقعَ المحاورةِ بَيْنَ موسىٰ مع أخيه وبَيْنَ الله تعالىٰ؛ علىٰ كِلا الوجهينِ اللذين ذكرناهما آنفًا(١).

﴿ قَالَا ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالا حين أُمِرا بما أُمِرا؟ فقيل: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾(٢).

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ فقيل: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا تمهَّد ذلك، تسبَّب عنه تعليمُهما ما يقولان، فقال مؤكِّدًا للذَّهاب أيضًا لِما مضىٰ: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾(٣).

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

وإذا كان هذا الجِنسُ عليهم، كان مِن المعلومِ أنَّ العَطَبَ علىٰ غيرِ مَن اهتدىٰ؛ فالمعنىٰ: وإن أبَيْتَ عُذِّبْتَ، فقال: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٧).

(٢) روح المعاني (٨/ ٥٠٩).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٣).

قولُـه: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ تعـريضٌ لإنـذارِه علـىٰ التكذيب قبل حصولِه منه؛ ليبلِّغَ الرسالةَ علىٰ أتمِّ وجهٍ قبل ظهور رأي فِرْعونَ في ذلك؛ حتىٰ لا يُجابِهَه بعد ظهورِ رأيه بتصريح توجيهِ الإنذارِ إليه؛ وهذا مِن أسلوب القول الليِّنِ الذي أمَرهما اللهُ به(١).

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ إلىٰ آخِرِ ما أُمِر به، وتضمَّن قولُهما أنَّ لمرسلِهما القدرةَ التامةَ والعِلْمَ الشامل، فتسبَّب عنه سؤالُه عن تعيينه؛ استأنَف الإخبارَ عن جوابه بقولِه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾(٢).

هذا حكايةُ جوابِ فِرْعونَ عن الكلام الذي أمَر اللهُ موسىٰ وهارونَ بإبلاغه فِرْعونَ؛ ففي الآية حذفُ جُمَلٍ دلَّ عليها السِّياقُ؛ قصدًا للإيجاز؛ والتَّقديرُ: فأتَياه فقالا له ما أُمِرا به، فقال: فمَن ربُّكما؟ ولذلك جاءت حكايةُ قولِ فِرْعونَ بجملة مفصولةٍ؛ علىٰ طريقةِ حكايةِ المحاوَرات التي استقرَيْناها مِن أسلوب القرآن(٣).

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾

أجاب موسىٰ بإثبات الرُّبوبية لله لجميعِ الموجوداتِ؛ جريًا علىٰ قاعدةِ الاستدلال بالكلية علىٰ الجزئية؛ بحيث ينتظمُ مِن مجموعِهما قياسٌ؛ فإنَّ فِرْعونَ مِن جملة الأشياءِ؛ فهو داخلٌ في عموم كلِّ شيء(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣١).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٢).

فأجابه موسىٰ عليه السلام ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا لم يكُنْ لأحدٍ بالطعن في هذا الجوابِ قِبَلٌ؛ لأنَّه لا زلَلَ فيه ولا خلَلَ -مع رشاقته واختصارِه، وسَبْقِه بالجمعِ إلىٰ غايةِ مضمارِه-؛ صرَف الكلامَ بسرعةٍ؛ خوفًا مِن الاتضاح، بزيادةِ موسىٰ عليه السلام في الإيضاح، فيَظهَرُ الفسادُ مِن الصَّلاح، إلىٰ شيءٍ يتَّسعُ فيه المجالُ، ولا يقوم عليه دليلٌ، فيُمكِن فيه الرَّدُّ، فأخبَر عنه سبحانه علىٰ طريقِ الاستئناف بقولِه: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[1].

أراد فِرْعونُ التشغيبَ علىٰ موسىٰ حين نهَضَتْ حُجَّتُه؛ بأن ينقُلَه إلىٰ الحديث عن حالِ القرون الأُولىٰ: هل هم في عذابٍ؟ بمناسبةِ قول موسىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، فإذا قال: إنَّهم في عذاب، ثارت ثائرةُ أبنائهم، فصاروا أعداءً لموسىٰ، وإذا قال: هم في سلامٍ، نهَضَتْ حُجَّةُ فِرْعونَ؛ لأنَّه متابعٌ لدِينِهم، ولأنَّ موسىٰ لمَّا أعلَمَه بربِّه، وكان ذلك مشعِرًا بالخَلْقِ الأوَّل؛ خطَر ببالِ فِرْعونَ أن يسألَه عن الاعتقاد في مصيرِ الناس بعد الفناءِ، فسأل: ما بالُ القرون الأولىٰ؟ ما شأنهم؟ وما الخبرُ عنهم؟ وهو سؤالُ تعجيزٍ وتشغيبٍ[2].

لمَّا أجابه موسىٰ بجوابٍ مسكِتٍ، ولم يَقدِرْ فِرْعونُ علىٰ معارضته فيه؛ انتقَل إلىٰ سؤالٍ آخرَ؛ وهو: ما حالُ مَن هلَك مِن القرون؟ وذلك علىٰ سبيلِ الرَّوَغان عن الاعتراف بما قال موسىٰ، وما أجابه به، والحَيْدةِ والمغالطةِ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٤).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٤٠).

لمَّا شاهَد اللعينُ ما نظَمَه عليه السلام في سِلْكِ الجوابِ مِن البرهان النيِّرِ على الطِّراز الرائع، خاف أن يَظهَرَ للناس حَقِّيَّةُ مقالاتِه عليه السلام، وبطلانُ خُرافاتِ نفسِه ظهورًا بيِّنًا؛ أراد أن يَصرِفَه عليه السلام عن سَنَنِه إلى ما لا يَعنِيه مِن الأمورِ التي لا تعلُّقَ لها في نفسِ الأمر بالرسالة مِن الحكاياتِ؛ موهِمًا أنَّ لها تعلقًا بذلك، ويَشغَلَه عمَّا هو بصدده؛ عسى يَظهَرُ فيه نوعُ غفلةٍ، فيتسلَّقَ بذلك إلى أن يَدَّعِيَ بَيْنَ يدي قومِه نوعَ معرفةٍ، فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾(١).

﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾

ولمَّا فَهِم عنه موسى عليه السلام ما أراد أن يترتَّبَ على الخوضِ في ذلك ممَّا لا طائلَ تحته مِن الرد والمطاوَلة، ولم تكُنِ التَّوراةُ نزَلتْ عليه إذ ذاك، وإنَّما نزلت بعد هلاكِ فِرْعونَ؛ لم يَمْشِ معه في ذلك، ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾(٢).

وقولُ موسى عليه السلام في جوابه: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ﴾ صالحٌ للاحتمالين؛ فعلى الاحتمال الأولِ يكونُ موسى عليه السلام صرَفَه عن الخوضِ فيما لا يُجدي في مقامِه ذلك، الذي هو المتمحِّضُ لدعوةِ الأحياء؛ لا البحثِ عن أحوال الأموات الذين أفضَوْا إلى عالَمِ الجزاء، وعلى الاحتمال الثاني يكونُ موسى عليه السلام قد عدَل عن ذِكْرِ حالهم؛ خَيْبةً لمراد فِرْعونَ، وعدولًا عن الاشتغالِ بغير الغرضِ الذي جاء لأجلِه(٣).

فلم يلتفِتْ موسى عليه السلام إلى ذلك الحديثِ؛ بل ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖ﴾، ولا يتعلَّقُ غرضي بأحوالِهم، فلا أشتغلُ بها(٤).

---

(١) روح المعاني (٨/ ٥١٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥٩).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾

ثم وصَل بذلك ما كان فيه قَبْلُ مِن الدليل العقليِّ علىٰ وَحْدة الخالق واختيارِه، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[(١)].

لمَّا ذكَر موسىٰ عليه السلام دلالتَه علىٰ ربوبيَّةِ الله تعالىٰ، وتمَّ كلامُه عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾؛ ذكَر تعالىٰ ما نبَّه به علىٰ قُدْرتِه تعالىٰ ووَحْدانيتِه، فأخبَر عن نفسه بأنَّه تعالىٰ هو الذي صنَع كَيْتَ وكَيْتَ[(٢)].

ثم عاد إلىٰ تتميم كلامه الأوَّلِ، وإيرادِ الدلائل الباهرةِ علىٰ الوَحْدانية، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[(٣)].

ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجوابٍ عبقريٍّ بديعٍ؛ حيث كشَف عن حقيقةِ الحقِّ حِجابَها، مع أنَّه لم يخرُجْ عمَّا كان بصدده مِن بيان شؤونه تعالىٰ، ثم تخلَّص إليه؛ حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عز وجل لِما سيأتي مِن الالتفات: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٦).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢١).

﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ ﴾

ثـم أشـار إلىٰ تفصيلِ مـا فيهـا مِـن الحكمـةِ بقولِـه -حـالًا مِـن فاعـلِ ﴿فَأَخۡرَجۡنَا ﴾-: ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾(١).

﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ ﴾ مقُـولُ قـولٍ محـذوفٍ، هـو حـالٌ مِـن ضـميرِ ﴿فَأَخۡرَجۡنَا ﴾؛ والتقديرُ: قائلين: ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ ﴾، والأمرُ للإباحة مرادٌ به المنَّةُ(٢).

﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه وتعالى عمَّا خلَق في الأرض مِن المنافع الدالَّةِ علىٰ تمام عِلْمِه وباهر قُدْرتِه، علىٰ وجه دالٍّ علىٰ خصوص القدرةِ علىٰ البعث؛ وصَل بذلك قولَه تعالىٰ يرُدُّ عليهم: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾(٣).

مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهذا إدماجٌ للتذكير بالخَلْقِ الأولِ؛ ليكونَ دليلًا علىٰ إمكان الخَلْقِ الثاني بعد الموتِ، والمناسبةُ متمكِّنةٌ؛ فإنَّ ذِكْرَ خَلْقِ الأرض ومنافعِها يستدعي إكمالَ ذِكر المهمِّ للناس مِن أحوالها، فكان خَلْقُ أصل الإنسان مِن الأرضِ شبيهًا بخروج النبات منها، وإخراجُ الناس إلىٰ الحشر شبيهٌ بإخراج النباتِ مِن الأرض(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٣٩).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٠).

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ما ذُكِرَ ممَّا عَلِق بالأرض مِن المرافق وغيره علىٰ غايةٍ مِن الوضوح، ليس وراءها مَطمَحٌ، فكان المعنىٰ: أرَيْنا فِرْعونَ هذا الذي ذكَرْنا لكم مِن آياتِنا وغيرَه، وكان المقامُ لتعظيم القدرة؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾[(١)].

رجوعٌ إلىٰ قصصِ موسىٰ عليه السلام مع فِرْعونَ، وهذه الجملة بَيْنَ الجُمَل التي حكت محاورةَ موسىٰ وفِرْعونَ؛ وقَعتْ هذه كالمقدِّمةِ لإعادة سَوْقِ ما جرىٰ بَيْنَ موسىٰ وفِرْعونَ مِن المحاورة، فيجوزُ أن تكونَ الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ باعتبارِ ما يُقدَّرُ قبل المعطوفِ عليها مِن كلامٍ حُذِف اختصارًا؛ تقديرُه: فأتَيَاه فقالا ما أمَرْناهما أن يقولاه، قال: فمَن ربُّكما... إلخ. المعنىٰ: فأتَيَاه وقالا ما أمَرْناهما، وأرَيْناه آياتِنا كلَّها علىٰ يدِ موسىٰ عليه السلام، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ معترضةً بَيْنَ ما قبلها، والواو اعتراضيةٌ[(٢)].

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ حكايةٌ إجماليةٌ لِما جرىٰ بَيْنَ موسىٰ عليه السلام وبَيْنَ فِرْعونَ، إثْرَ حكايةِ ما ذكَره عليه السلام بجلائلِ نَعْمائه الداعيةِ له إلىٰ قَبول الحقِّ والانقياد له، وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العنايةِ بمضمونها[(٣)].

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: كيف صنَع في تكذيبِه وإبائه؟ فقيل: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤١-٢٤٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٠١).

هـذه الجملةُ متصلةٌ بجملةِ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ ﴾، وجوابُ موسىٰ عنها، وافتتاحُها بفعل ﴿ قَالَ ﴾، وعدمُ عطفِه: لا يتركُ شكًّا في أنَّ هـذا مِن تمام المحاورةِ، وقولُـه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ﴾ يقتضي أنَّـه أراه آيةَ انقلابِ العصا حيَّةً، وانقلابِ يدِه بيضاءَ؛ وذلك ما سمَّاه فِرْعونُ سِحْرًا[1].

ثـم حكـىٰ اللهُ تعـالىٰ شُـبْهةَ فِرْعـونَ؛ وهـي قولـه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾، وتركيبُ هذه الشُّبهة عجيبٌ؛ وذلك لأنَّه ألقىٰ في مسامعِهم ما يَصِيرون به مُبغِضِين له جدًّا؛ وهو قولُه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾؛ وذلك لأنَّ هـذا ممَّا يشُقُّ علىٰ الإنسانِ في النهايةِ؛ ولذلك جعَله اللهُ تعالىٰ مساويًا للقتلِ في قولِه: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم ﴾[2].

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ ﴾

ثم وصَل بالفاءِ السَّببيَّةِ قولَه مؤكِّدًا -إيذانًا بعِلْمِه أنَّ ما أتىٰ به موسىٰ ينكِرُ كلُّ مَن يراه أن يَقدِرَ غيرُه علىٰ معارضته-: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾[3].

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ ﴾ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، أوهَم النـاسَ أنَّ مـا جاء بـه موسىٰ إنَّما هو مِـن بـاب السِّحرِ، وأنَّ عنـده مَـن يقاومُـه في ذلـك، فطلَـب ضَـرْبَ موعـدٍ للمناظرة بالسحر[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٦٣).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٠١).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٤٥).

ثم لمَّا صاروا في نهايةِ البُغض له، أورَد الشُّبهةَ الطاعنة في نبوَّته عليه السلام؛ وهي أنَّ ما جئتَنا به سحرٌ، لا مُعجِزٌ، ولمَّا عُلِم أنَّ المعجِزَ إنَّما يتميزُ عن السِّحْرِ لكونِ المعجز ممَّا يتعذَّرُ معارضتُه، والسِّحرُ ممَّا يمكنُ معارضتُه؛ قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[1].

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها، واللامُ هي الموطِّئةُ للقسَمِ؛ أي: واللهِ لنُعارِضَنَّك بمثلِ ما جئتَ به مِن السِّحرِ؛ حتى يَتبيَّن للناس أنَّ الذي جئتَ به سِحْرٌ يَقدِرُ على مثلِه الساحرُ، ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾[2].

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا كان مجتمَعُ سرورِهم الذي اعتادوه حاويًا لهذه الأغراض، زمانًا ومكانًا وغيرَهما؛ اختاره عليه السلام لذلك، فاستؤنف الخبرُ عنه في قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[3].

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾

تفريعُ التولِّي وجَمْعِ الكيد على تعيينِ موسى للموعدِ إشارةٌ إلى أنَّ فِرْعونَ بادَر بالاستعداد لهذا الموعدِ، ولم يُضِعِ الوقتَ للتهيئة له[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٦٣).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٧).

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف السامعُ إلىٰ ما كان مِن موسىٰ عليه السلام عند ذلك، استأنف سبحانه الخبرَ عنه بقولِه: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾(١).

جملةُ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ يثير سؤالًا في نفس السامعِ أن يقولَ: فماذا حصَل حين أتىٰ فِرْعونُ ميقاتَ الموعدِ، وأراد موسىٰ مفاتحةَ السَّحرة بالموعظةِ؟(٢).

فحينَ اجتمَعوا مِن جميع البلدانِ، وعَظهم موسىٰ عليه السلام، وأقام عليهم الحُجَّةَ، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾(٣).

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾

تفرَّع علىٰ موعظةِ موسىٰ تنازُعُهم الأمرَ بَيْنَهم، وهذا يُؤذِن بأنَّ منهم مَن تركتْ فيه الموعظةُ بعضَ الأثر، ومنهم مَن خَشِي الانخذالَ؛ فلذلك دعا بعضُهم بعضًا للتَّشاور في ماذا يصنعون(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٨).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٠٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٥٠).

لمَّا سَمِع السَّحَرةُ منه هذه المقالةَ، هالَهم ذلك، ووقَعتْ في نفوسهم مهابتُه، ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾(١).

ثم بيَّن ﷻ أنَّه لمَّا قال موسى عليه السلام ذلك، أعرَضوا عن قولِه: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾(٢).

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ ﴾

فكأنَّه قيل: ما قالوا حين انتهى تنازُعهم؟ فقيل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾؛ لأنَّ إسرارَ النَّجوى يشتمل على أقوالٍ كثيرةٍ، ذُكِر منها هذا القولُ؛ لأنَّه القولُ الفصلُ بيْنَهم، والرأيُ الذي أَرْسَوْا عليه، فهو زُبدةُ مَخِيضِ النَّجْوى؛ وذلك شأنُ التَّشاور وتنازعِ الآراء؛ أن يُسفِرَ عن رأيٍ يصدُرُ الجميعُ عنه(٤).

والنجوى التي أسَرُّوها فسَّرها بقولِه: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٤٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٥١).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥٠٨).

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

أرادوا مِن هذا إثارةَ حَميَّةِ بعضِهم غَيْرةً علىٰ عوائدهم؛ فإنَّ لكل أُمَّةٍ غَيْرةً علىٰ عوائدها وشرائعها وأخلاقها؛ ولذا فرَّعوا علىٰ ذلك أمرَهم بأن يَجمَعوا حِيَلَهم، وكلَّ ما في وُسْعِهم أن يَغلِبوا به موسىٰ[1].

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريحٌ بالمطلوبِ إثرَ تمهيد المقدِّمات[2].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥)﴾

فلمَّا أتَوْا، وكانوا خبيرينَ بأن يقولوا ما ينفعُهم في مُناصبةِ موسىٰ عليه السلام؛ استؤنف الإخبارُ عنه بقولِه تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[3].

في الكلام حذفٌ؛ تقديره: فجاؤوا مصطفِّينَ إلىٰ مكانِ الموعد، وبِيَدِ كلٍّ واحد منهم عصًا وحَبْلٌ، وجاء موسىٰ وأخوه ومعه عصاه، فوقفوا وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[4].

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ ناشئٍ مِن حكايةِ ما جرىٰ بَيْنَ السَّحَرةِ مِن المقاولة؛ كأنَّه قيل: فماذا فعَلوا بعدما قالوا فيما بَيْنَهم ما قالوا؟ فقيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٥٥).
(٢) روح المعاني (٨/ ٥٣٦).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٦).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٥٣).
(٥) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٦).

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

ثم إنَّ موسىٰ عليه السلام قابَل أدبهم بأدبٍ، فقال: ﴿بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾(١).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ -كما سلَف- ناشئٌ مِن حكاية تخيير السَّحَرة إياه عليه السلام؛ كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾(٢).

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾

لمَّا ألقىٰ السَّحَرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم، وتحرَّكتْ واضطربت، وامتلأت بها الساحةُ؛ أوجَس ﴿فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك، وكان المعلومُ أنَّ اللهَ معه، وأنَّه جديرٌ بإبطال سِحْرِهم؛ استأنف الخبرَ عنه بقولِه: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣).

فأذهَبَ اللهُ سبحانه ما حصَل معه مِن الخوفِ بما بشَّره به بقولِه: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٢).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٧).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٧).
(٤) فتح القدير (٣/ ٤٤٣).

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾

ثم أمَره سبحانه ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾

فبادَر السَّحَرةُ منهم إلى الخضوع لأمرِ الله ساجدين؛ مبادرةَ مَن كأنَّه ألقاه مُلْقٍ على وجهه؛ ولذلك قال تعالى بعد أن ذكَر مَكْرَهم واجتهادهم في معارضةِ موسى عليه الصلاة والسلام -وحُذِف ذِكْرُ الإلقاء، وما سبَّبه مِن التلقُّفِ؛ لأنَّ مقصودَ السورة القدرةُ على تليينِ القلوب القاسيةِ-: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

الفاءُ عاطفةٌ على محذوفٍ يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ والتَّقديرُ: فألقى، فتلقَّفَتْ ما صنَعوا[2].

اعلَمْ أنَّ في قولِه: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ دلالةً على أنَّه ألقى ما في يمينه، وصار حيَّةً تَلَقَّفُ ما صنَعوا، وظهر الأمرُ، فخَرُّوا عند ذلك سُجَّدًا؛ وذلك لأنَّهم كانوا في الطبقة العليا مِن عِلْمِ السِّحرِ، فلمَّا رأَوْا ما فعله موسى عليه السلام خارجًا عن صناعتِهم، عرَفوا أنَّه ليس مِن السِّحر البتةَ[3].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ٧١﴾

ولمَّا كان موسى عليه السلام هو المقصودَ بالإرسال إلى فِرْعونَ، استأنف تعالى الإخبارَ عن فِرْعونَ عندما فَجِئه ذلك، فقال: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٥).

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾(١).

ولمَّا رأىٰ فِرْعونُ إيمانَ السَّحَرة، تغيَّظ ورامَ عقابَهم، ولكنَّه عَلِم أنَّ العقابَ علىٰ الإيمان بموسىٰ بعد أن فتح بابَ المناظرة معه نكْثٌ لأصول المناظرةِ، فاختلَق -للتشفِّي مِن الذين آمنوا- علَّةَ إعلانِهم الإيمانَ قبل استئذان فِرْعونَ، فعَدَّ ذلك جرأةً عليه، وأوهَم أنَّهم لو استأذنوه لأَذِنَ لهم، واستخلَص مِن تسرُّعِهم بذلك أنَّهم تواطؤوا مع موسىٰ مِن قبلُ، فأظهَروا العَجْزَ عند مناظرته، ومقصدُ فِرْعونَ مِن هذا إقناعُ الحاضرين بأنَّ موسىٰ لم يأتِ بما يُعجِزُ السَّحَرةَ؛ إدخالًا للشك علىٰ نفوس الذين شاهَدوا الآياتِ، وهذه شِنْشِنةٌ مِن قديم الزمانِ؛ اختلاقُ المغلوب باردَ العُذْرِ(٢).

ثم إنَّ فِرْعونَ لمَّا شاهَد منهم السجود والإقرارَ، خاف أن يَصِيرَ ذلك سببًا لاقتداء سائر الناس بهم في الإيمان بالله تعالىٰ وبرسولِه، ففي الحال ألقىٰ شُبْهةً أخرىٰ في النبيِّ، فقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾(٣).

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا عَلِموا ما خيَّل به علىٰ عقولِ الضعفاء، نبَّهوهم، فأخبَر تعالىٰ عن ذلك بقوله مستأنفًا: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٦).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣١٢).

أظهَروا استخفافَهم بوعيده وبتعذيبه؛ إذ أصبَحوا أهلَ إيمانٍ ويقين، وكذلك شأنُ المؤمنين بالرُّسل؛ إذا أشرَقتْ عليهم أنوارُ الرسالة، فسَرْعانَ ما يكون انقلابُهم عن جهالة الكفر وقساوتِه إلىٰ حكمةِ الإيمان وثباته[(١)].

لمَّا حكىٰ تهديدَ فِرْعونَ لأولئك، حكىٰ جوابَهم عن ذلك بما يدلُّ علىٰ حصولِ اليقين التام والبصيرةِ الكاملة لهم في أصول الدِّين، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[(٢)].

ولهذا لمَّا عرَف السَّحَرةُ الحقَّ، ورزَقهم اللهُ مِن العقل ما يدركون به الحقائقَ؛ أجابوه بقولِهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[(٣)].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

ثم علَّلوا تعظيمَهم لله واستهانتَهم بفِرْعونَ بقولِهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ في محَلِّ العلةِ لِما تضمَّنه كلامُهم[(٥)].

ثم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾، ولمَّا كان أقربُ خطاياهم عهدًا ما أظهَروه مِن السِّحرِ، قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٥٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣١٣).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٧).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٨).

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ٧٤﴾

ثم عللوا هذا الختمَ بقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾(١).

هذه الجُمَلُ معترضةٌ بَيْنَ حكاية قِصَّة السَّحرة وبين ذِكْرِ قِصَّة خروجِ بني إسرائيلَ، ساقها اللهُ موعظةً وتأييدًا لمقالة المؤمنين مِن قوم فِرْعونَ(٢).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ٧٥﴾

ثم ذكر حالَ المؤمنين، فقال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾(٣).

ثم ذكَر القِسْمَ الثانيَ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾

ثم فسَّرها، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾(٤).

ثم بيَّنُوها بقولِهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾(٥).

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ٧٧﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه استكبارَ فِرْعونَ المدَّعِي في قولِه: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، وختَمه سبحانه بأنَّه يُهلِكُ العاصيَ كائنًا مَن كان، ويُنجي الطائعَ؛ أتبَع ذلك شاهدًا محسوسًا عليه،

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣١٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٩).
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٣١٥).

كفيلًا ببيان أنَّه لم يُغْنِ عن فِرْعونَ شيءٌ مِن قوَّتِه ولا استكبارُه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[1].

افتتاحُ الجملة بحرف التحقيق للاهتمامِ بالقِصَّةِ؛ ليُلْقِيَ السامعون إليها أذهانَهم، وتغييرُ الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مؤذِنٌ بأنَّ قِصَصًا طُويت بَيْنَ ذِكْرِ القصتين، فلو اقتُصِر علىٰ حرف العطفِ، لَتُوُهِّمَ أنَّ حكايةَ القِصَّة الأُولىٰ لم تَزَلْ متصلةً، فتُوُهِّم أنَّ الأمرَ بالخروج وقَع مواليًا لانتهاء مَحضَرِ السَّحَرةِ، مع أنَّ بَيْنَ ذلك قِصَصًا كثيرةً ذُكِرت في سورة «الأعراف» وغيرها؛ فإنَّ الخروجَ وقَع بعد ظهور آيات كثيرةٍ؛ لإرهابِ فِرْعونَ كلَّما همَّ بإطلاقِ بني إسرائيلَ للخروج، ثم نكَل إلىٰ أن أَذِنَ لهم بأَخَرةٍ فخرَجوا، ثم نَدِم علىٰ ذلك فأتبَعهم[2].

هذا استئنافُ إخبارٍ عن شيءٍ مِن أمر موسىٰ عليه السلام، وبَيْنَه وبين مقال السَّحَرة المتقدم مُدَّةٌ مِن الزمان، حدَث فيها لموسىٰ وفِرْعونَ حوادثُ؛ وذلك أنَّ فِرْعونَ لمَّا انقضىٰ أمرُ السَّحَرة وغلَب موسىٰ وقَوِيَ أمرُه، وعَده فِرْعونُ أن يرسلَ معه بني إسرائيلَ، فأقام موسىٰ علىٰ وَعْدِه حتىٰ غَدَرَه فِرْعونُ ونكَث، وأعلَمَه أنَّه لا يرسلُهم معه، فبعَث اللهُ حينئذٍ الآياتِ المذكورةَ في غيرِ هذه الآياتِ: الجرادَ والقُمَّل.. إلىٰ آخرها، كلَّما جاءت آيةٌ، وعَد فِرْعونُ أن يرسلَ بني إسرائيلَ عند انكشاف العذاب، فإذا انكشف نكث، حتىٰ تأتيَ أخرىٰ، فلمَّا كمَلتِ الآياتُ، أوحىٰ اللهُ إلىٰ موسىٰ عليه السلام أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ في الليل ساريًا[3].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٦١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ عنايتِه بموسىٰ وقومه؛ مِن إنجائهم وإهلاكِ عدوِّهم، وقد طوىٰ هنا ما فصَّل في آياتٍ أُخرَ بقولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[1].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾

ثم أتبَع ذلك قولَه- عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فبادَر امتثالَ الأمر في الإسراء وغيره-: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[2].

الفاءُ فصيحةٌ عاطفةٌ علىٰ مُقدَّرٍ يدلُّ عليه الكلامُ السابق؛ أي: فَسَرىٰ بهم، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾[3].

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

جملةُ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ في موضعِ الحال مِن الضمير في «غَشِيَهم»[4].

وهذا عاقبةُ الكفرِ والضَّلالِ، وعدمِ الاهتداء بهُدَىٰ الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[5].

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٣٨).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧١).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧٢).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥١٠).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠﴾

ولمَّا كان هذا موجِبًا للتَّشوُّف إلىٰ ما وقَع لبني إسرائيلَ بعده، قال تعالىٰ شافيًا لهذا الغليل: أقبَلْنا علىٰ بني إسرائيلَ ممتنِّين بما مضىٰ وما يأتي قائلين: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾[(١)].

هذه الجُمَلُ معترضةٌ في أثناء القِصَّة مِثلَ ما تقدَّم آنفًا، وهذا خطابٌ لليهود الذين في زمنِ النَّبيِّ ﷺ؛ تذكيرًا لهم بنِعَمٍ أخرىٰ[(٢)].

لمَّا أنعَم علىٰ قومِ موسىٰ عليه السلام بأنواع النِّعم، ذكَّرهم إياها، ولا شك أنَّ إزالةَ المَضرَّةِ يجب أن تكونَ متقدمةً علىٰ إيصال المنفعةِ، ولا شك أنَّ إيصالَ المنفعة الدِّينيةِ أعظَمُ في كونه نعمةً مِن إيصال المنفعة الدنيوية؛ فلهذا بدأ اللهُ تعالىٰ بقولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾[(٣)].

ثم ذكَر تعالىٰ نِعَمَه علىٰ بني إسرائيلَ ومِنَنَه الكبرىٰ، وما وصَّاهم مِن المحافظة علىٰ شُكرِها، وحذَّرهم مِن التعرض لغضبِه بكفرها بقولِه سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٨٢).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٣٨).

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾

ودلَّ على نعمة الإذنِ فيه بقولِه: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾[(١)].

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ إباحة ما ذُكِر لهم، وإتمامًا للنِّعمة عليهم[(٢)].

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ محلَّ الزَّللِ وإنِ اجتهد، رجَّاه واستعطفه بقولِه: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ إلى آخرها، استطرادٌ بعد التحذير مِن الطغيان في النِّعْمةِ؛ بالإرشاد إلى ما يُتدارَكُ به الطغيانُ -إن وقَع- بالتوبةِ والعمل الصالح[(٤)].

لمَّا حذَّر تعالى مِن الطُّغيانِ فيما رزق، وحذَّر مِن حلول غضبِه؛ فتَح بابَ الرجاء للتائبين، وأتى بصيغة المبالغةِ؛ وهي قولُه: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾[(٥)].

ومع هذا، فالتوبةُ معروضةٌ ولو عَمِل العبدُ ما عَمِل مِن المعاصي؛ فلهذا قال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣١٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٣).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧٦).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٦٥).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٥١٠).

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ ﴾

ولمَّا كان ذلك، والله أعلم بما كان، وكان أعظَمُ ما مضىٰ في آيةِ الامتنانِ عليهم والتعرفِ بالنِّعم إليهم المواعدةَ لهدايتهم بالآياتِ المرئية والمسموعة، وختَم ذلك بالإشارة إلىٰ الاجتهادِ في الإقبال علىٰ الهدىٰ؛ أتبَع ذلك ذِكْرَ ضَلالهم بعد رؤية ما يبعُدُ معه كلَّ البُعْدِ إلمامُ مَن رآه بشيء مِن الضَّلال، كلُّ ذلك لإظهارِ القدرة التامَّةِ علىٰ التصرف في القلوب بضدِّ ما يُظَنُّ بها، وكان تنجُّزُ المواعيدِ ألذَّ شيء للقلوب وأشهاه إلىٰ النفوس، وكان السياقُ مرشدًا حتمًا إلىٰ أنَّ التقديرَ: فَأَتَوْا إلىٰ الطُّورِ لميعادنا، وتيمَّموا جانبَه الأيمنَ بأمرِنا ومرادنا، وتعجَّل موسىٰ صفيُّنا الصعودَ فيه مبادرًا لِما عنده مِن الشوق إلىٰ ذلك المقام الشريف، وتأخَّر مجيءُ قومه عن الإتيان معه، فقلنا: ما أخَّر قومَك عن الإتيان معك؟ فعطَف عليه قولَه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ الواقعةِ تفسيرًا لفعلِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ فقولُه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ هو ممَّا أوحىٰ اللهُ به إلىٰ موسىٰ؛ والتَّقدير: «وأنْ مَا أعجَلَك» إلخ، وهو إشارةٌ إلىٰ ما وقع لهم أيامَ مناجاةِ موسىٰ في الطُّورِ في الشهر الثالث لخروجِهم مِن مِصْرَ[2].

لمَّا نهَض موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ببني إسرائيلَ إلىٰ جانب الطُّور الأيمنِ -حيث كان الموعدُ أن يكلِّمَ اللهُ موسىٰ بما فيه شرَفُ العاجلِ والآجل-، رأىٰ علىٰ وجهِ الاجتهادِ أن يَقدَمَ وحده مبادِرًا إلىٰ أمر اللهِ، وحرصًا علىٰ القُرْبِ منه، وشوقًا إلىٰ مناجاته، واستخلَف هارونَ علىٰ بني إسرائيلَ، وقال لهم موسىٰ: تَسِيرون إلىٰ جانب الطُّورِ، فلمَّا انتهىٰ

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧٧).

موسىٰ عليه السلام وناجىٰ ربَّه، زاده في الأجَلِ عَشْرًا، وحينئذ وقَفه علىٰ استعجاله دُونَ القومِ(١).

﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾

أجاب بقولِه: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ تضمَّن تأخُّرَ قومِه عنه، فأجاب مشيرًا إليهم لقربِهم منه أنَّهم علىٰ أثَرِه جائين للموعدِ؛ وذلك علىٰ ما كان عَهِد إليهم أن يَجيئوا للموعدِ، ثم ذكَر السببَ الذي حمَله علىٰ العَجَلة؛ وهو ما تضمَّنه قولُه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ مِن طلبِه رضا الله تعالىٰ في السَّبقِ إلىٰ ما وعَده ربُّه(٢).

فأجاب موسىٰ عليه السلام عن ذلك: ﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾(٣).

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

قولُه تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾ فيه ضربٌ مِن المَلامِ علىٰ التَّعجل بأنَّه تسبَّب عليه حدوثُ فتنةٍ في قومه؛ ليُعلِّمَه ألا يتجاوزَ ما وُقِّت له؛ ولو كان لرغبةٍ في ازديادٍ مِن الخير(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال لموسىٰ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾، وقال موسىٰ في جوابِه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ عرَّفه اللهُ تعالىٰ ما حدَث مِن القوم بعد أن

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٦٥).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٦٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ٤٤٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٨).

فارَقهم؛ ممَّا كان يبعُدُ أن يحدُثَ لو كان معهم، فقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(١).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية اعتذاره عليه السلام؛ كأنَّه قيل مِن جهة السامعين، فماذا قال له ربُّه حينئذ؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(٢).

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦)﴾

ثم سبَّب عن إخباره سبحانه له بذلك قولَه: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾(٣).

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧)﴾

ولمَّا تشوَّف السامعُ إلى جوابهم، استأنف ذِكْرَه، فقال: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾(٤).

وقَعتْ جملةُ ﴿قَالُوا۟﴾ غيرَ معطوفةٍ؛ لأنَّها جرَتْ في المحاورةِ جوابًا عن كلام موسى عليه السلام، وضميرُ ﴿قَالُوا۟﴾ عائدٌ إلى القوم(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٨٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٤).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٢٦).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٢٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٣).

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا كان خروجُ التِّمثالِ عَقِبَ إلقائه، جُعِل كأنَّه المتسبِّبُ في ذلك، فقيل مع العدول عن أسلوب التكلمِ -استهجانًا لنسبة أمرِ العِجْلِ إلى المتكلمِ-: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[١].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا سببًا للإنكارِ على مَن قال هذا، قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[٢].

يجوزُ أن يكونَ اعتراضًا وليس مِن حكايةِ كلام القوم؛ فهو معترِضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾، وجملةِ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ إلخ، فتكونَ الفاءُ لتفريع كلامِ متكلمٍ على كلامِ غيرِه؛ أي: لتفريع الإخبار، لا لتفريع المخبَرِ به، والمُخبِرُ متعدِّد، ويجوزُ أن يكونَ مِن حكاية كلامِ الذين تصدَّوا لخطاب موسى عليه السلام مِن بَيْنِ قومِه؛ وهم كُبَراؤهم وصُلَحاؤهم؛ ليُعلَمَ أنَّهم على بصيرةٍ مِن التَّوحيد[٣].

ثم بيَّن تعالى فسادَ اعتقادهم بأنَّ الألوهية لا تصلُحُ لِمَن سُلِبت عنه هذه الصفاتُ، فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٠).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٣١).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٨).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٧٠).

ثم أنكَر تعالىٰ علىٰ مَن ضلَّ بهذا العِجْلِ وأضَلَّ، مُسفِّهًا لهم فيما أقدَموا عليه، ممَّا لا يشتبِهُ بطلانُه علىٰ أحد بقولِه سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾

ولمَّا كان الذَّنبُ مع العلم أبشَعَ، والضَّلالُ بعد البيان أشنَعَ؛ قال عاطفًا علىٰ قوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾، أو علىٰ قولِه: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا ﴾: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾[2].

الجملةُ في موضعِ الحال مِن ضميرِ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ علىٰ كِلا الاحتمالين؛ أي: كيف لا يستدلُّون علىٰ عدم استحقاقِ العِجْلِ الإلهيَّةَ بأنَّه لا يَرجِعُ إليهم قولًا، ولا يَملِكُ لهم ضرًّا ولا نفعًا، فيُقلِعون عن عبادة العِجْلِ؟! وتلك دلالةٌ عقلية، في حالِ أنَّ هارونَ عليه السلام قد وعَظهم ونبَّههم إلىٰ ذلك؛ إذ ذكَّرهم بأنَّه فتنةٌ فتَنهم بها السامريُّ، وأنَّ ربَّهم هو الرَّحمنُ؛ لا ما لا يَملِكُ لهم نفعًا، فضلًا عن الرحمةِ، وأمَرهم بأن يتَّبِعوا أمره؛ وتلك دلالةٌ سمعية[3].

أشفَق هارونُ عليه السلام علىٰ نفسِه وعليهم، وبذَل لهم النصيحةَ، وبيَّن أنَّ ما ذهبوا إليه مِن أمرِ العِجْلِ إنَّما هو فتنةٌ؛ إذ كان مأمورًا مِن عندِ الله بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، ومِن أخيه موسىٰ عليه السلام، لا يمكِنُه أن يخالفَ أمرَ الله وأمرَ أخيه[4].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٣١).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٧٤).

اعلَمْ أنَّ هارونَ عليه السلام إنَّما قال ذلك شفقةً منه علىٰ نفسِه وعلىٰ الخَلق: أمَّا شفقتُه علىٰ نفسِه، فلِأنَّه كان مأمورًا مِن عندِ الله بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، وكان مأمورًا مِن عندِ أخيه موسىٰ عليه السلام بقولِه: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾، فلو لم يشتغِلْ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، لكان مخالِفًا لأمرِ اللهِ تعالىٰ، ولأمر موسىٰ عليه السلام؛ وذلك لا يجوزُ[1].

جملةٌ قَسَميةٌ مؤكِّدةٌ لِما قبلها مِن الإنكار والتشنيعِ؛ ببيانِ عُتُوِّهم واستعصائهم علىٰ الرسول، إثرَ بيانِ مُكابَرتِهم لقضية العقولِ[2].

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ أن يسأل عن جوابهم لهذا الأمرِ الواضحِ الذي لا غُبارَ عليه، قيل: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾[3].

رتَّب هارونُ خطابَه علىٰ حسب الترتيب الطبيعيِّ؛ لأنَّه ابتدأه بزَجْرِهم عن الباطل، وعن عبادةِ ما ليس بربٍّ، ثم دعاهم إلىٰ معرفة الربِّ الحقِّ، ثم دعاهم إلىٰ اتباع الرسولِ؛ إذ كان رسولًا بَيْنَهم، ثم دعاهم إلىٰ العمل بالشرائعِ، فما كان منهم إلا التصميمُ علىٰ استمرار عبادتِهم العِجْلَ، فأجابوا هارون جوابًا جازمًا[4].

لمَّا وعَظهم هارونُ عليه السلام ونبَّههم علىٰ ما فيه رُشْدُهم، اتبَعوا سبيلَ الغَيِّ، وقالوا: لن نَبرَحَ علىٰ عبادته مقيمين ملازمين له، وغيَّوْا ذلك برجوعِ موسىٰ، وفي قولِهم ذلك دليلٌ علىٰ عدم رجوعِهم إلىٰ الاستدلال، وأخذِهم بتقليدِ السامريِّ[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٩١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٠).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٧٤).

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ ﴾

انتقَل موسىٰ عليه السلام مِن محاورةِ قومِه إلىٰ محاورة أخيه؛ فجملةُ ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ ﴾ تابعةٌ لجملةِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾، ولجملةِ ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾، وقد وجدت مناسبة لحكايةِ خطابه هارونَ بعد أن وقَع الفصلُ بَيْنَ أجزاءِ الحكاية بالجُمَل المعترضةِ التي منها جملةُ ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ إلخ؛ فهو استطرادٌ في خلالِ الحكاية؛ للإشعار بعُذْرِ هارونَ عليه السلام[1].

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ جوابهم لهارونَ عليه السلام؛ كأنّه قيل: فماذا قال موسىٰ لهارونَ عليه السلام حين سَمِع جوابَهم له؟ وهل رَضِيَ بسكوته بعدما شاهَد منهم ما شاهَد؟ فقيل: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴾[2].

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾

التقدير: ما منَعك أن تتَّبِعَني واضطَرَّك إلىٰ ألا تتَّبِعَني؟ فيكون في الكلام شِبْهُ احتباكٍ؛ والمقصودُ تأكيدُ وتشديدُ التَّوبيخِ بإنكارِ أن يكونَ لهارون مانعٌ حينئذٍ مِن اللَّحاق بموسىٰ، ومقتضٍ لعدم اللحاق بموسىٰ؛ كما يقال: وُجِد السَّببُ وانتفىٰ المانعُ، والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ مُفرَّعٌ علىٰ الإنكار؛ فهو إنكارٌ ثانٍ علىٰ مخالَفة أمره، مشُوبٌ بتقريرٍ للتَّهديد[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٢).

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: ما قال له؟ فقيل: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(١).

نداءٌ لقصدِ الترقيق والاستشفاعِ، وهو مؤذِنٌ بأنَّ موسىٰ حين وبَّخه أخذ بشَعَرِ لحيةِ هارونَ، ويُشعِرُ بأنَّه يَجذِبه إليه لِيَلطِمَه(٢).

أجاب هارونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، و﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(٣).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن نصيحةِ أقربِ الناس إليه، وأحَقِّهم بنصيحته وحِفْظِه علىٰ الهدىٰ؛ إذ كان رأسَ الهُدَاة؛ تشوَّف السامعُ إلىٰ ما كان مِن غيره، فاستأنَف تعالىٰ ذِكْرَه بقولِه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴾(٤).

التفَتَ موسىٰ بتوجيهِ الخطاب إلىٰ السامريِّ الذي كان سببًا في إضلال القومِ؛ فالجملةُ ناشئةٌ عن قول القومِ: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ إلخ، فهي ابتداءُ خطابٍ، ولعلَّ موسىٰ لم يُغلِظْ له القولَ كما أغلَظَ لهارونَ؛ لأنَّه كان جاهلًا بالدِّينِ، فلم يكُنْ في ضَلالِه عَجَبٌ(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٩٤).
(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٥).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٤).

لمَّا اعتذَر له أخوه، رجَع إلىٰ مخاطبةِ الذي أوقَعهم في الضَّلالِ؛ وهو السامريُّ[١].

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عمَّا نشأ مِن حكايةِ ما سلَف؛ مِن اعتذار القوم بإسنادِ الفساد إلىٰ السامريِّ، واعتذارِ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كأنَّه قيل: فماذا صنَع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد سماع ما حُكِي مِن الاعتذارينِ، واستقرارِ أصل الفتنةِ علىٰ السامريِّ؟ فقيل: قال موبِّخًا له: هذا شأنُهم، ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾[٢].

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾

فأجابه السامريُّ: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾.

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾

ولمَّا كان فِعْلُه هذا مُفرِّقًا لبني إسرائيلَ عن طريق الحقِّ التي كانوا عليها، وجامعًا لهم علىٰ تمثالِ حيوانٍ هو مِن أخسِّ الحيوانات، وعلىٰ نفسِه بكونه صار متبوعًا في ذلك الضَّلال؛ لكونه كان سببَه: عُوقِب بالنُّفرة مِن الإنسان الذي هو أشرَفُ الحيوانِ؛ ليكونَ ذلك سببًا لضدِّ ما تسبَّب عن فعله، فيُعاقَبُ بالدُّنيا بعقوبةٍ لا شيءَ أشدُّ منها؛ وذلك أنَّه مُنِع مِن مخالطة الناس منعًا كليًّا، فلا يتصلُ بأحدٍ، ولا يتصل به

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٨).

أحدٌ، بل يكون وحيدًا طريدًا ما دام حيًّا؛ فلذلك استؤنف الإخبارُ عن هذا بقولِه تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾(١).

دخَلتِ الفاءُ للتعقيب إثْرَ المحاورةِ، وطَرْدِه بلا مهلةٍ زمانية. وعبَّر بالمماسَّةِ عن المخالطة؛ لأنَّها أدنىٰ أسبابِ المخالطةِ، فنبَّه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ(٢).

ثم إنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا سَمِع ذلك مِن السامريِّ، أجابه بأن بيَّن حالَه في الدُّنيا والآخرةِ، وبيَّن حالَ إلهِه؛ أمَّا حالُه في الدُّنيا فقوله: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾، وأمَّا شرحُ حالِ إلهه فهو قولُه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾(٣).

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

ولمَّا أراهم بطلانَ ما هم عليه بالعِيانِ، أخبَرهم بالحقِّ علىٰ وجه الحصرِ، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(٤).

هذه الجملةُ مِن حكاية كلامِ موسىٰ عليه السلام؛ فموقعُها موقعُ التذييل لوَعْظِه، وقد التفَتَ مِن خطاب السامريِّ إلىٰ خطاب الأمَّةِ؛ إعراضًا عن خطابه؛ تحقيرًا له، وقصدًا لتنبيههم علىٰ خطئهم، وتعليمِهم صفاتِ الإلهِ الحقِّ، واقتصَر منها علىٰ الوَحْدانيَّة وعموم العِلْمِ؛ لأنَّ الوَحْدانيةَ تَجمَعُ جميع الصفات(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٧٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٩٦).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٠).

لمَّا فرَغ مِن إبطال ما عَمِله السامريُّ، عاد إلىٰ بيان الدِّين الحقِّ، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(١).

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتحقيق الحق إثرَ إبطال الباطلِ؛ بتلوينِ الخطاب وتوجيهِه إلىٰ الكل(٢).

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾

ولـمَّا تمت هذه القِصَّةُ علىٰ هذا الأسلوبِ الأعظم، والسبيلِ الأقوم، متكفِّلةً بالدلالة علىٰ القدرةِ علىٰ ما وقعت إليه الإشارةُ مِن البشارة أوَّلَ السورة؛ بتكثير هذه الأمَّةِ، وردِّ العرَبِ عن غيِّهم بعد طُولِ التمادي في العناد، والتنكُّبِ عن سبيلِ الرشاد، إلىٰ ما تخلَّلها مِن التسلية بأحوال السَّلف الصالح والتأسيةِ، مفصِّلةً من أدلة التوحيد والبعث وغيرِ ذلك مِن الحِكَم بما يَبعَثُ الهِمَم، علىٰ معالي الشِّيَم؛ كان كأنَّه قيل: هل يعادُ شيءٌ مِن القصصِ علىٰ هذا الأسلوبِ البديع والمثالِ الرفيع؟ فقيل: نعم؛ ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾(٣).

جملةٌ مستأنفةٌ تذييليةٌ، أفادت التنويهَ بقِصَّةِ رسالة موسىٰ وما عَقَبَها مِن الأعمال التي جرَتْ مع بني إسرائيلَ؛ ابتداءً مِن قولِه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾؛ أي: مِثْلَ هذا القَصص نقُصُّ عليك مِن أنباء القرون الماضية، والإشارةُ راجعةٌ إلىٰ القِصَّة المذكورة(٤).

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٣٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤٠).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠١).

لمَّا شرَح قِصَّةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فِرْعونَ أولًا، ثم مع السامريِّ ثانيًا؛ أتبَعه بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ﴾ سائرَ أخبار الأمم وأحوالِهم؛ تكثيرًا لشأنِك، وزيادةً في معجزاتك، وليكثُرَ الاعتبارُ والاستبصارُ للمكلَّفين بها في الدِّين(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ فضلِه فيما قصَّه علىٰ خاتمِ رُسلِه صلوات الله عليه مِن أنباءِ الأنبياء؛ تنويهًا بشأنه، وزيادةً في معجزاته، وتكثيرًا للاعتبار والاستبصار في آياته، بقولِه سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾(٢).

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾

ولمَّا اشتمَل هذا الذِّكرُ علىٰ جميع أبواب الخير، فكان كلُّ ما ليس له فيه أصلٌ شقاوةً محضةً وضَلالًا بعيدًا؛ قال يقُصُّ عليه مِن أنباءِ ما يأتي كما قصَّ مِن أنباءِ ما قد سبق: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾(٣).

ثم كما بيَّن تعالىٰ نِعْمتَه بذلك، بيَّن شدةَ الوعيد لِمَن أعرَض عنه ولم يؤمِنْ به بقولِه: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾(٤).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾

الظاهرُ أنَّه عبَّر عن العقوبة بالوِزْرِ؛ لأنَّه سببُها؛ ولذلك قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾(٥).

ثم بيَّن مُدَّةَ جزائهم، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٩٧).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٤٥).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٠-٣٤١).
(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٤٦).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٨١).

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ ﴾

ثم شرَح لهم بعضَ أحوال ذلك اليومِ مِن ابتدائه، فقال مبدِلًا مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴾[1].

﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾، وهو اعتراضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ وما تَبِعَها وبَيْنَ جملةِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾، تخلَّص لذِكْرِ البعث، والتذكير به، والنِّذارةِ بما يحصُلُ للمجرمين يومئذٍ[2].

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ ﴾

حالَ كونِهم ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾[3].

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما يأتون وما يَذَرون حينئذٍ، أو حالٌ أخرىٰ مِن المجرمين[4].

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤ ﴾

ولمَّا كان عِلْمُ ما يأتي أخفىٰ مِن علمِ ما سبق، أتىٰ فيه بمظهرِ العظمةِ، فقال: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٤١).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤١).

(٥) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٣).

جملةُ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ معترضةٌ بَيْنَ فِعل ﴿ يَتَخَفَتُونَ ﴾ وظرفيةِ ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ ﴾؛ أي: إنَّهم يقولون ذلك سرًّا، ونحن أعلَمُ به، وإنَّنا نخبِرُ عن قولهم يومئذ خبرَ العليمِ الصادق[١].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن بعضٍ ما سبق، ثم عن بعض ما يأتي مِن أحوال المعرِضين عن هذا الذِّكر فيما يُنتجُه لهم إعراضُهم عنه، وختَم ذلك باستقصارهم مُدَّةَ لُبثِهم في هذه الدارِ؛ أخبَر عن بعض أحوالهم في الإعراضِ، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾[٢].

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ البعثِ، ووُصِفَ ما سينكشِف للذين أنكَروه: مِن خطئهم في شُبهتهم بتعذُّرِ إعادة الأجسامِ بعد تفرُّق أجزائها؛ ذُكِرت أيضًا شبهةٌ مِن شُبُهاتِهم كانوا يسألون بها النَّبيَّ ﷺ سؤالَ تعنُّتٍ، لا سؤالَ استهداء، فكانوا يُحِيلون انقضاءَ هذا العالَمِ، ويقولون: فأين تكون هذه الجبالُ التي نراها؟[٣].

لمَّا وصَف أمرَ يوم القيامةِ، حكىٰ سؤالَ مَن لم يؤمن بالحشرِ، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾[٤].

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

الظاهرُ عودُ الضمير في ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ علىٰ الجبالِ؛ أي: بعد النَّسْفِ تبقىٰ قاعًا؛ أي: مستويًا مِن الأرضِ معتدلًا[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٠).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٨٣).

📖 ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧﴾ 📖

جملةُ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ حالٌ مؤكِّدةٌ لمعنىٰ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾؛ لزيادةِ تصوير حاله، فيَزيدُ تهويلَها، والخطابُ في ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ لغيرِ معيَّنٍ، يخاطِبُ به الرسولُ ﷺ سائليه[(١)].

استئنافٌ مبيِّنٌ كيفيةَ ما سبق مِن القاع الصَّفصفِ، أو حالٌ أخرىٰ، أو صفةٌ لـ«قاع»، والرؤيةُ بصَريةٌ، والخطابُ لكل مَن يتأتَّىٰ منه[(٢)].

📖 ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ 📖

- ولمَّا أخبَر سبحانه بنزولِ ما يكون منه العِوَجُ في الصوتِ، قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[(٣)].

جملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ في معنىٰ المفرَّعةِ علىٰ جملةِ ﴿يَنسِفُهَا﴾[(٤)].

الصفةُ الثانيةُ ليومِ القيامةِ قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾[(٥)].

📖 ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ 📖

ولمَّا تقرَّر ما للأصواتِ مِن الانخفاتِ، وكان قد أُشيرَ فيما مضىٰ إلىٰ وقوع الشفاعةِ مِن بعض أخصَّائه بإذنِه، وكان الحشرُ للحسابِ بمعرِضِ التقريبِ لبعض والتبعيدِ

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٧).

(٢) روح المعاني (٨/ ٥٧٢).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠١).

لبعضٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ المقرَّب يَشفعُ للمبعَّدِ؛ لِما بَيْنَ أهلِ الجَمْعِ مِن الوصل والأسباب المقتضية لذلك، وكان الكفارُ يزعُمون أنَّ آلهتَهم تَشفَعُ؛ قال نافيًا لِأن تقعَ شفاعةٌ بغير إذنه، معظِّمًا ذلك اليومَ بالإنذارِ منه مرةً بعد مرةٍ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾(١).

جملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ كجملةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ في معنى التفريعِ على ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: لا يتكلمُ الناسُ بينهم إلا همسًا، ولا يَجرُؤون على الشفاعةِ لِمَن يُهِمُّهم نفعُه، والمقصودُ مِن هذا أنَّ جلالَ الله والخشيةَ منه يصُدَّانِ عن التوسط عنده لنَفْعِ أحدٍ إلا بإذنه، وفيه تأييسٌ للمشركين مِن أن يَجِدوا شفعاءَ لهم عند الله(٢).

الصفةُ الرابعةُ قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾(٣).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

ولمَّا نفى أن تقعَ الشفاعةُ بغير إذنه، علَّل ذلك بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾(٤).

وجملةُ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مستأنفةٌ بيانيَّةٌ لجوابِ سؤالِ مَن قد يسأل بيانَ ما يُوجب رضا الله عن العبد الذي يأذنُ بالشفاعةِ فيه، فبيَّن بيانًا إجماليًّا بأنَّ الإذنَ بذلك يجري على ما يقتضيه عِلْمُ الله بسائر العبيدِ، وبأعمالهم الظاهرة، فعبَّر

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠١).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٨).

عن الأعمال الظاهرةِ بما بَيْنَ أيديهم؛ لأنَّ شأن ما بَيْنَ الأيدي أن يكونَ واضحًا، وعبَّر عن السرائرِ بما خَلْفَهم؛ لأنَّ شأنَ ما يُجعَلُ خَلْفَ المرء أن يكونَ محجوبًا[١].

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر خشوعَ الأصوات، أتبَعه خضوعَ الوجوه، فقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٢].

جملةُ ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: ظهَر الخضوعُ في الأصوات، والعَناءُ في الوجوه[٣].

الصفةُ السادسةُ قولُه: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[٤].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الظالمَ، أتبَعه الحكيمَ، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٥].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ شرطيةٌ مفيدةٌ قسيمَ مضمونِ جملةِ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١١).
(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٢).
(٥) نظم الدرر (١٢/ ٣٤٩).
(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٢).

لمَّا شرَح أحوالَ يوم القيامة، ختَم الكلامَ فيها بشرح أحوالِ المؤمنين، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

ولمَّا اشتملت هذه الآيةُ على الذِّروةِ مِن حُسْنِ المعاني، فبشَّرت ويسَّرت، وأنذَرت وحذَّرت، وبيَّنت الخفايا، وأظهَرت الخبايا، مع ما لها مِن جلالةِ السَّبك وبراعةِ النَّظم؛ كان كأنَّه قيل تنبيهًا على جلالتها: أنزَلْناها على هذا المنوالِ، العزيزِ المثالِ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[2].

عطفٌ على جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، والغرض واحدٌ؛ وهو التنويهُ بالقرآن[3].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

ولمَّا بلَغتْ هذه الجُمَلُ نهايةَ الإعجاز، فاشتملت على غاية الحكمةِ، دالَّةً على أنَّ لقائلها تمامَ العلم والقدرة والعدلِ في أحوال الدراينِ؛ تسبَّب عن سَوْقِها كذلك أنْ بان له مِن العظمة ما أفهَمه قولُه -معظِّمًا لنفسه الأقدسِ بما هو له أهلٌ بعد تعظيمِ كتابِه؛ تعليمًا لعباده ما يجب له مِن الحقِّ، دالًّا بصيغة التفاعل على مَزيد

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٣).

العلوِّ-: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[1].

جملةُ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ معترضة بَيْنَ جملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وبيْنَ جملةِ ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، وهذا إنشاءُ ثناءٍ على الله مُنزِلِ القرآن، وعلىٰ مِنَّةِ هذا القرآن، وتلقينٌ لشكرِه علىٰ ما بيَّن لعباده مِن وسائل الإصلاحِ، وحَمْلِهم عليه بالترغيب والترهيبِ، وتوجيهِه إليهم بأبلَغِ كلامٍ وأحسَنِ أسلوبٍ؛ فهو مفرَّعٌ علىٰ ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ إلىٰ آخرها[2].

لمَّا كان فيما سبَق تعظيمُ القرآن في قولِه ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ ذكَر عظمةَ مُنزلِه تعالىٰ، ثم ذكَر هاتين الصِّفتين: وهي صفةُ المُلك التي تضمَّنت القهرَ والسلطنةَ والحقَّ، وهي الصفةُ الثابتة له؛ إذ كلُّ مَن يُدْعَىٰ إلهًا دُونَه باطلٌ -لا سيَّما الإلهَ الذي صاغوه مِن الحُلِيِّ- ومضمَحِلٌّ مُلْكُه ومستعارٌ، وتقدم أيضًا صفةُ سلطانه يومَ القيامة، وعِظَمُ قُدْرتِه، وذِلَّةُ عبيدِه، وحُسْنُ تلطُّفِه بهم، فناسَب تَعاليه ووصفُه بالصفتينِ المذكورتين[3].

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه بقِصَّةِ موسىٰ عليه السلام ما أشار إليه أوَّلَ السورةِ بما هو عليه مِن الحِلْمِ والتأنِّي علىٰ عباده، والإمهالِ لهم فيما هم عليه مِن النقص بالنسيان للعهود والنقضِ للمواثيق، وأتبَعها ذِكْرَ مدحِ هذا الذِّكر الذي تأدَّتْ إلينا به، وذمِّ مَن أعرَض عنه، وختَمه بما عَهِد إليه ﷺ في أمرِه نهيًا وأمرًا؛ أتبَع ذلك سبحانه قِصَّةَ آدمَ عليه السلام؛ تحذيرًا

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٥١).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٥).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٨٦-٣٨٧).

مِن الرُّكونِ إلىٰ ما يسبِّبُ النسيانَ، وحثًّا علىٰ رجوع مَن نَسِي إلىٰ طاعة الرَّحمن، وبيانًا لأنَّ ذلك الذي قرَّره مِن حِلْمِه وإمهالِه عادتُه سبحانه مِن القِدَم، وصفتُه التي كانت ونحن في حيِّز العدم، وأنَّه جبَل الإنسانَ علىٰ النقص، فلو أخَذهم بذنوبهم ما ترَك عليها مِن دابَّةٍ، فقال عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ ﴾ -مؤكِّدًا لِما تقدَّم فيه وعَهِد به مِن أمر القرآن، ومحذِّرًا مِن الإخلال بذلك ولو علىٰ وجهِ النسيان، ومنجِزًا لِما وعَد به مِن قصِّ أنباء المتقدمين ممَّا يوافق هذا السياقَ-: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمًا ﴾[(١)].

لمَّا كانت قِصَّةُ موسىٰ عليه السلام مع فِرْعونَ ومع قومه ذاتَ عِبْرةٍ للمكذِّبين والمعانِدين الذين كذَّبوا النَّبيَّ ﷺ وعاندوه؛ وذلك المقصودُ مِن قَصَصِها، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ استحَبَّ الزيادةَ مِن هذه القِصَصِ ذاتِ العِبرة؛ رجاءَ أنَّ قومَه يُفيقون مِن ضلالتهم: أُعقِبتْ تلك القِصَّةُ بقِصَّةِ آدمَ عليه السلام، وما عرَّض له به الشيطانُ؛ تحقيقًا لفائدةِ قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾، فالجملةُ عطفُ قِصَّةٍ على قِصَّة، والمناسبةُ ما سمعتَ[(٢)].

تقدَّمتْ قِصَّةُ آدمَ في «البقرة»، و«الأعراف»، و«الحِجر»، و«الكهف»، ثم ذكَرها هنا؛ لمَّا تقدَّم ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ ﴾، كان مِن هذا الإنباءِ قِصَّةُ آدمَ؛ ليَتحفَّظَ بنوه مِن وسوسة الشيطان، ويتنبَّهوا علىٰ غوائله، ومَن أطاع الشيطانَ منهم ذُكِّر بما جرىٰ لأبيه آدمَ معه، وأنَّه أُوضِحتْ له عداوتُه، ومع ذلك نَسِي ما عَهِد إليه ربُّه، وأيضًا لمَّا أُمِر بأن يقولَ: ربِّ زِدْني علمًا، كان مِن ذلك ذِكْرُ قِصَّة آدمَ، وذِكْرُ شيءٍ مِن أحواله فيها لم يتقدَّم ذِكرها، فكان في ذلك مَزيدُ عِلْمٍ له ﷺ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٣-٣٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١٨).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٨٨).

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ كأنَّه لمَّا مدَح سبحانه القرآنَ، وحرَّض علىٰ استعمال التُّؤَدةِ والرفق في أخذِه، وعَهِد علىٰ العزيمة بأمرِه وتَرْكِ النسيان فيه؛ ضرَب حديثَ آدمَ مثَلًا للنسيان وتَرْكِ العزيمة(١).

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسُوقٌ لتقرير ما سبق مِن تصريف الوعيد في القرآنِ، وبيانِ أنَّ أساسَ بني آدمَ علىٰ العصيان، وعِرْقُه راسخٌ في النسيان(٢).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن السورة- كما سلف- الإعلامَ بالحِلْمِ والأناة والتلطُّفِ بالنائي والقدرةِ علىٰ المُعرِض، ذكَر فَعْلةَ آدمَ عليه السلام هذه في هذه السُّورةِ بلفظ المعصيةِ، مع التصريح بأنَّها علىٰ وجه النسيان، وذكَر ذلك أولًا مُجمَلًا، ثم أتبَعه تفصيلَه؛ ليكون ذلك مذكورًا مرتين؛ تأكيدًا للمعنىٰ المشارِ إليه؛ تقريرًا وتحذيرًا مِن الوقوع في منهيٍّ، وإرشادًا لِمَن غلَب عليه طبعُ النقص إلىٰ المبادرة إلىٰ الندم وتَعاطي أسبابِ التوبةِ؛ ليتوبَ اللهُ عليه كما فعَل بآدمَ عليه السلام، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾(٣).

هذا بيانٌ لجملة ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ إلىٰ آخرها، فكان مقتضىٰ الظاهرِ ألا يكونَ معطوفًا بالواو، بل أن يكونَ مفصولًا؛ فوقوعُ هذه الجملة معطوفةً اهتمامٌ بها؛ لتكونَ قِصَّةً مستقلةً، فتَلفِتَ إليها أذهانَ السامعين(٤).

---

(١) روح المعاني (٨/ ٥٧٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ شروعٌ في بيانِ المعهود، وكيفيةِ ظهور نسيانه وفِقدان عَزْمِه[1].

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

فتسبَّب عن ذلك أن قلنا: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

فابتُدئ في ذِكرِ متعلِّقِ عداوته بآدمَ؛ لأنَّ آدمَ هو منشأُ عداوة الشيطان لحسدِه، ثم أُتبِعَ بذِكرِ زوجِه؛ لأنَّ عداوتَه إياها تَبَعٌ لعداوته آدمَ زَوْجَها، وكانت عداوتُه متعلقةً بكليهما؛ لاتحاد علةِ العداوة؛ وهي حسَدُه إياهما على ما وهَبهما اللهُ مِن علمِ الأسماء، الذي هو عنوانُ الفكرِ الموصِل إلى الهدى، وعنوانُ التعبير عن الضمير الموصلِ للإرشاد، وكلُّ ذلك ممَّا يُبطِلُ عمَلَ الشيطان، ويشُقُّ عليه في استهوائهما واستهواءِ ذريَّتِهما، ولأنَّ الشيطانَ رأى نفسه أجدَرَ بالتفضيل على آدمَ، فحَنِق لمَّا أُمِر بالسجود لآدمَ[2].

فحذَّر اللهُ آدمَ وزوجَه منه، ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[3].

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾

ثم علَّل شقاوتَه على تقدير الإخراجِ بوصفِها بما لا يوجَدُ في غيرها مِن الأقطاب التي يدورُ عليها كَفَافُ الإنسان؛ وهي: الشِّبَعُ والرِّيُّ، والكسوةُ والكنُّ، ذاكرًا لها بلفظِ

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢١).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٥١٤).

النفيِ لنقائضها؛ ليطرُقَ سَمْعَه بأسماءِ أصناف الشِّقْوةِ التي حذَّره منها؛ ليَصِيرَ بحيث يَتحامىٰ السَّبب المُوقِعَ فيها كراهةً لها، فإذا مضت عليه القدرةُ الباهرةُ، عَلِم أنَّه لا يُغنِي حذَرٌ مِن قَدَرٍ، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ تعليلٌ للشقاء المترتِّب علىٰ الخروجِ مِن الجَنَّة المنهيِّ عنه؛ لأنَّه لمَّا كان ممتَّعًا في الجَنَّة برفاهية العيش: مِن مأكلٍ ومَلبَس ومَشرَب واعتدال جوٍّ مناسبٍ للمِزاج؛ كان الخروج منها مقتضيًا فِقْدانَ ذلك[2].

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾

وقُرِن بَيْنَ انتفاءِ الظَّمأ وألَمِ الجسم في قولِه: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾؛ لمناسبةٍ بَيْنَ الجوع والعُرْيِ في أنَّ الجوع خُلُوٌّ باطن الجسم عمَّا يَقِيه تألُّمَه؛ وذلك هو الطعامُ، وأنَّ العُرْيَ خلوُّ ظاهرِ الجسم عمَّا يَقِيه تألُّمَه؛ وهو لَفْحُ الحرِّ وقَرْصُ البرد، والمناسبةُ بَيْنَ الظمأ وبَيْنَ حرارة الشمس في أنَّ الأولَ ألَمُ حرارة الباطن، والثاني ألَمُ حرارةِ الظاهر؛ فهذا اقتضىٰ عدمَ اقتران ذِكرِ الظمأ والجوعِ، وعدمَ اقتران ذِكر العُرْيِ بألم الحرِّ، وإن كان مقتضىٰ الظاهرِ جَمْعَ النظيرينِ في كليهما؛ إذ جَمْعُ النظائر مِن أساليب البديع في نظم الكلام بحسَبِ الظاهرِ، لولا أنْ عرَض هنا ما أوجب تفريقَ النظائر[3].

في الآية سِرٌّ بديعٌ مِن البلاغة، يُسَمَّىٰ قَطْعَ النظيرِ عن النظير؛ وذلك أنَّه قطَع الظمأَ عن الجوع، والضُّحُوَّ عن الكسوةِ، مع ما بينهما مِن التناسب، والغرضُ مِن ذلك تحقيقُ

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٣).

تَعْداد هذه النِّعم وتصنيفُها، ولو قرَن كلًّا بشكلِه لَتُوُهِّمَ المعدوداتُ نعمةً واحدةً؛ علىٰ أنَّ في هذه الآية سرًّا لذلك زائدًا علىٰ ما ذُكِر؛ وهو قصدُ تناسُبِ الفواصل، ولو قُرِن الظمأ بالجوع فقيل: إنَّ لك ألا تجوعَ فيها ولا تظمأ، لانتثرَ سِلْكُ رؤوس الآي، وأحسِنْ به منتظمًا! ومما قيل في وجه القطع: أنَّ فيه التنبيهَ علىٰ أنَّ الأوَّلَيْنِ- أعني: الشِّبع والكسوةَ- أصلان، وأنَّ الأخيرين متمِّمان؛ فالامتنانُ علىٰ هذا أظهرُ؛ ولذا فُرِّق بَيْنَ القرينتين، فقيل: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ ﴿وَأَنَّكَ﴾، وأيضًا رُوعي مناسبةُ الشِّبع والكسوة؛ لأنَّ الأولَ يكسو العظامَ لحمًا، وأمَّا الظَّمأُ والضُّحِيُّ فمِن وادٍ واحد[١].

ولمَّا ذكَر في الآية السابقة ذُلَّ الباطن والظاهر -وهو الجوعُ والعُرْيُ-، ناسَب أن يذكُرَ هنا حَرَّ الباطن والظاهر؛ وهو الظَّمأُ والضحىٰ.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

الفاءُ لتعقيبِ مضمونِ جملتِها علىٰ مضمون التي قبلها، وهو تعقيب نسبيٌّ بما يناسب مُدَّةَ تقلُّبٍ في خلالها بخيراتِ الجَنَّةِ، حتىٰ حسَده الشيطانُ واشتدَّ حسَدُه[٢].

اعلَمْ أنَّه سبحانه بيَّن أنَّه عظَّم آدمَ عليه السلام بأنْ جعَله مسجودًا للملائكة، وبيَّن أنَّه عرَّفه شدةَ عداوة إبليسَ له ولزوجه، وأنَّه لعداوته يدعوهم إلىٰ المعصية التي إذا وقَعتْ زالت تلك النِّعمُ بأَسْرِها، ثم إنَّه مع ذلك اتَّفَق منه ومِن حوَّاءَ الإقدامُ علىٰ الزَّلَّةِ ما اتفَق[٣].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٧).

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

فتسبَّب عن قوله وتعقَّب أنْ أكَلا ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[١].

تفريعٌ علىٰ ما قبله، وثَمَّ جملةٌ محذوفة دلَّ عليها العرضُ؛ أي: فعَمِل آدمُ بوسوسةِ الشيطانِ، فأكَل مِن الشجرة، وأكلت حوَّاءُ معه[٢].

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الرِّضا عنه -مع هذا الفعل الذي أسرع فيه اتباعَ العدوِّ وعصيانَ الولي بشيء لا حاجةَ به إليه- مُستبعَدًا جدًّا، أثبَتَ ذلك تعالىٰ مشيرًا إليه بأداة التراخي، فقال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[٣].

جملةُ ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿وَعَصَىٰ ءَادَمُ﴾ وجملة ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ الاجتباءَ والتوبةَ عليه كانا بعد أن عوقبَ آدمُ وزوجُه بالخروج مِن الجَنَّة؛ كما في سورة «البقرة»، وهو المناسبُ لترتُّبِ الإخراج مِن الجَنَّة علىٰ المعصية دُونَ أن يترتَّبَ علىٰ التوبة، وفائدةُ هذا الاعتراضِ التعجيلُ ببيان مآل آدمَ إلىٰ صلاحٍ[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٦).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٧).

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت دُورُ الملوكِ لا تَحتمِلَ مِثْلَ ذلك، وكان قد قدَّم سبحانه عنايتَه بآدمَ عليه السلام اهتمامًا به، وكان الخبرُ عن زوجه وعن إبليسَ لم يُذكَرْ، فكانت نفسُ السامع لم تسكُنْ عن تشوُّفِها إلىٰ سماع بقية الخبر؛ أجاب عن ذلك بأنَّه أهبَطَ مِن دارِه المقدَّسةِ الحاملَ علىٰ المخالَفةِ والمحمولَ، وإن كان قد هيَّأه بالاجتباء لها، فقال علىٰ طريق الاستئنافِ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[1].

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن آدمَ بالعصيان والغَوايةِ يثير في نفس السامع سؤالًا عن جزاءِ ذلك[2].

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن الإخبار بأنَّه تعالىٰ قَبِل توبتَه وهَداه؛ كأنَّه قيل: فماذا أمَره تعالىٰ بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجتِه: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[3].

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

لمَّا وعَد اللهُ تعالىٰ مَن يتبعُ الهدىٰ، أتبَعه بالوعيد فيمَن أعرَض، فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٠).

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾

ثم استأنف قولَه: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، واقعةٌ في طريق المحاورة؛ فلذلك فُصِلت ولم تُعطَف[(٢)].

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: بمَ أُجيبَ؟ فقيل: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[(٣)].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ إلخ، تذييلٌ، يجوزُ أن تكونَ مِن حكاية ما يخاطِبُ اللهُ به مَن يُحشَر يوم القيامة أعمَىٰ، قُصِد منها التَّوبيخُ له والتَّنكيل؛ فالواو عاطفةٌ الجملةَ علىٰ التي قبلها، ويجوزُ أن تكونَ تذييلًا للقِصَّةِ، وليست مِن الخطابِ المخاطَبِ به مَن يُحشَر يومَ القيامة أعمَىٰ، قُصِد منها موعظةُ السامعين؛ ليَحذَروا مِن أن يَصِيروا إلىٰ مثلِ ذلك المصير؛ فالواوُ اعتراضيةٌ؛ لأنَّ التَّذييل اعتراضٌ في آخرِ الكلام، والواوُ الاعتراضية راجعةٌ إلىٰ الواو العاطفة، إلا أنَّها عاطفةٌ مجموعَ كلامٍ علىٰ مجموع كلامٍ آخَرَ، لا علىٰ بعضِ الكلام المعطوف عليه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٢).

(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٣).

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ مِن هذه السُّورة وما قبلها مِن ذِكْرِ مَصارعِ الأقدمين وأحاديثِ المكذبين بسبب العصيان علىٰ الرُّسل سببًا عظيمًا للاستبصار والبيانِ، كانوا أهلًا لأن يُنكَرَ عليهم لزومُهم لعَماهم، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾[(١)].

تفريعٌ علىٰ الوعيدِ المتقدم في قولِه تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾، جعَل الاستفهامَ الإنكاريَّ التعجيبيَّ مُفرَّعًا علىٰ الإخبار بالجزاء بالمعيشة الضَّنكِ لِمَن أعرَض عن توحيد الله؛ لأنَّه سببٌ عليه لا محالةَ؛ تعجيبًا مِن حال غفلةِ المخاطَبين المشركين عمَّا حلَّ بالأمم المماثلةِ لهم في الإشراك والإعراضِ عن كتب الله وآيات الرُّسل؛ فضمائرُ جمع الغائبين عائدةٌ إلىٰ معروفٍ مِن مقام التَّعريض بالتَّحذير والإنذار؛ بقرينةِ قولِه: ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾؛ فإنَّه لا يصلُحُ إلا أن يكونَ حالًا لقومٍ أحياءٍ يومئذٍ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ مَن أعرَض عن ذِكره كيف يُحشَر يومَ القيامة، أتبعه بما يعتبرُ به المكلَّفُ مِن الأحوال الواقعة في الدُّنيا بمَن كذَّب الرُّسلَ، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾[(٣)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تقريرِ ما تقدَّم مِن لحوق العذابِ بقولِه سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٢).

(٤) محاسن التأويل (٧/ ١٦٤).

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولمَّا هدَّدهم بإهلاك الماضين، ذكَر سببَ التَّأخير عنهم، عاطفًا على ما أرشَد إلى تقديره السِّياقُ -وهو مِثْلُ أن يقالَ: فلو أراد سبحانه لعجَّل عذابَهم-: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾؛ باعتبارِ ما فيها مِن التَّحذير والتَّهديد، والعِبرة بالقرون الماضية، وبأنَّهم جديرون بأن يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حلَّ بأولئك، فلمَّا كانوا قد غرَّتهم أنفسُهم بتكذيب الوعيدِ -لِما رأَوْا مِن تأخُّر نزولِ العذاب-، عقَّب وعيدَهم بالتَّنبيه على ما يُزيل غرورَهم بأنَّ سببَ التَّأخير كلمةٌ سبقت مِن الله بذلك لحِكَمٍ يَعلَمُها[(٢)].

ثم بيَّن تعالى الوجهَ الذي لأجلِه لا يُنزِلُ العذابَ معجَّلًا على مَن كذَّب وكفر بمحمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[(٣)].

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، سِيقَ لبيانِ حكمة عدم وقوع ما يُشعِرُ به قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الآيةَ؛ مِن أن يُصيبَهم مِثْلُ ما أصاب القرونَ المُهلَكة[(٤)].

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

فتسبَّب عن العِلْمِ بأنَّه لا بد مِن استيفاء الأجلِ -وإن زاد العاصي في العصيانِ- تسليمُ الأمور إلى اللهِ، وعدمُ القلقِ في انتظار الفَرَج، فقال: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٤٩).

مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[1].

وفُرِّع علىٰ ذلك أمرُ رسول اللهِ ﷺ بالصبر علىٰ ما يقولون مِن التَّكذيب، وبالوعيد لتأخيرِ نزوله بهم[2].

ثم لمَّا بيَّن اللهُ سبحانه أنَّه لا يُهلِكهم بعذاب الاستئصالِ، أمَره بالصبر، فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[3].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

ولمَّا كانت النَّفسُ ميَّالةً إلىٰ الدَّنايا، مرهونةً بالحاضر مِن فاني العطايا، وكان تَخليها عن ذلك هو الموصلَ إلىٰ حريَّتِها، المؤذِنَ بعلوِّ همَّتِها؛ قال مؤكِّدًا -إيذانًا بصعوبة ذلك-: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[4].

أعقَب أمرَه بالصبر علىٰ ما يقولونه بنهيِه عن الإعجاب بما يَنعَمُ به مَن تنعَّم مِن المشركين بأموالٍ وبنينَ في حينِ كُفْرِهم بالله؛ بأنَّ ذلك لحِكَمٍ يَعلَمُها اللهُ تعالىٰ[5].

لمَّا أمَره تعالىٰ بالصبرِ وبالتسبيح، جاء النهيُ عن مَدِّ البصر إلىٰ ما متَّع به الكفرةَ[6].

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٣٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٤٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٦٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٤٠).

(٦) البحر المحيط (٧/ ٣٩٩).

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

ولمَّا أمَر بتزكية النَّفْسِ، أتبعه الإعلامَ بأنَّ منها تزكيةَ الغير؛ لأنَّ ذلك أدلُّ على الإخلاص، وأجدرُ بالخلاص؛ كما دلَّ عليه مثَلُ السفينة الذي ضربه رسولُ اللهِ ﷺ لِمَن يأمر بالمعروف ومَن يتركُه[(١)]، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٢)].

لمَّا أمَره تعالىٰ بالتسبيح في تلك الأوقاتِ المذكورةِ، ونهاه عن مَدِّ بصره إلىٰ ما متَّع به الكفَّارَ؛ أمَره تعالىٰ بأن يأمرَ أهلَه بالصَّلاة التي هي بعد الشهادةِ آكدُ أركان الإسلام، وأمَره بالاصطبار علىٰ مداومتِها ومَشاقِّها، وألا يشتغلَ عنها، وأخبَره تعالىٰ ألا يسألَه أن يرزُقَ نفسَه، وألا يسعىٰ في تحصيل الرزق ويَدأَبَ في ذلك؛ بل أمَره بتفريغ باله لأمرِ الآخرة، ويدخُلُ في خطابه ﷺ أمَّتُه[(٣)].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

ولمَّا قدَّم في هذه السورة ما ذُكِر مِن قصصِ الأوَّلين وأخبار الماضين، مُبكِّتًا بذلك مَن أمَر قُرَيشًا بالتَّعنُّت مِن اليهود، فلم يَقدِروا علىٰ إنكار شيءٍ منه، ولا توجيهِ طعنٍ إليه، وخلَّله ببدائعِ الحِكَم وغرائبِ المواعظ في أرشَقِ الكَلِم، وختَم ذلك بأعظَمِ داعٍ إلىٰ التَّقوىٰ؛ عجَّب منهم في كونِهم لا يُذعِنون للحقِّ أنفةً مِن المجاهرة بالباطل، أو خوفًا مِن سوء العواقب، فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٧١).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٠٠-٤٠١).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٧٣-٣٧٤).

رجوعٌ إلىٰ التَّنويه بشأن القرآن، وبأنَّه أعظمُ المعجزات، وهو الغرضُ الذي انتقل منه إلىٰ أغراضٍ مناسبةٍ مِن قولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾، والمناسبةُ في الانتقال هو ما تضمَّنه قولُه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، فجِيءَ هنا بشُنَعٍ مِن أقوالهم التي أمَر اللهُ رسولَه بأن يَصبرَ عليها في قولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾؛ فمِن أقوالهم التي يَقصِدون منها التَّعنُّتَ والمكابرةَ أن قالوا: لولا يأتينا بآيةٍ مِن عند ربِّه فنؤمنَ برسالته[1].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ حكايةٌ لبعض أقاويلِهم الباطلة التي أُمِر ﷺ بالصَّبر عليها[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

ولمَّا تبيَّن بذلك أنَّهم يطعنون بما لا شُبهةَ لهم فيه أصلًا، أتبَعه ما كان لهم فيه نوعُ شبهةٍ لو وقع، فقال عاطفًا على ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[3].

الذي يَظهرُ أنَّ جملةَ ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، وأنَّ المعنىٰ على الارتقاء في الاستدلال عليهم بأنَّهم ضالون حين أخَّروا الإيمانَ بما جاء به محمَّدٌ ﷺ، وجعَلوه متوقِّفًا علىٰ أن يأتيَهم بآيةٍ مِن ربِّه؛ لأنَّ ما هم متلبِّسون به مِن الإشراك بالله ضَلالٌ بيِّنٌ، قد حجَبتْ

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٤٤).
(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥١).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٣٧٥).

عن إدراك فسادِه العاداتُ، واشتغالُ البال بشؤون دِينِ الشرك؛ فالإشراكُ وحده كافٍ في استحقاقِهم العذابَ، ولكنَّ اللهَ رَحِمهم فلم يؤاخِذْهم به إلا بعد أن أرسَل إليهم رسولًا يوقظُ عقولهم، فمجيءُ الرسول بذلك كافٍ في استدلال العقول علىٰ فسادِ ما هم فيه، فكيف يَسألون بعد ذلك إتيانَ الرسولِ لهم بآيةٍ علىٰ صِدْقِه فيما دعاهم إليه مِن نَبْذِ الشِّرك؟! لو سُلِّم لهم جدلًا أنَّ ما جاءهم مِن البيِّنة ليس هو بآيةٍ، فقد بطَل عذرُهم مِن أصله؛ وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[1].

ثم بيَّن أنَّه تعالىٰ أزاح لهم كلَّ عُذْرٍ وعلةٍ في التكليف، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[2].

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لتقريرِ ما قبلها؛ مِن كون القرآنِ آيةً بينةً لا يُمكِن إنكارُها؛ ببيانِ أنَّهم يعترفون بها يومَ القيامة[3].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾

ولمَّا عُلِم بهذا أنَّ إيمانَهم كالممتنِع، وجدالهم لا ينقطعُ، بل إن جاءهم الهدىٰ طعَنوا فيه، وإن عُذِّبوا قبله تظلَّموا؛ كان كأنَّه قيل: فما الذي أفعَلُ معهم؟ فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[4].

جوابٌ عن قولهم: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وما بينهما اعتراضٌ[5].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٤٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٢/ ٣٧٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٤٧).

ثم إنَّه سبحانه ختَم السورةَ بضربٍ مِن الوعيد، فقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ مِنَّتِه في إرسال الرسول صلوات الله عليه والإعذارِ ببعْثتِه بقولِه سبحانه: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١١٧).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٧١).

فهرس المحتويات